

شرح مقامات الحريري

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشيرازي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

المكتبة العصرية
مكتبة بركات

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة البناء شريف للافكار
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب الفني للطباعة والنشر

الدار البيضاء - ص. ب. ٨٣٥٥ - ت. ٢٩١٩٨٤

بكرت - ص. ب. ٨٣٥٥ - ت. ٢٩١٩٨٤

ص. ب. ٨٣٥٥ - ت. ٢٩١٩٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المفامنة الحاديّة والثلاثون وهي الرملية

حكى الحارث بن همام قال : كنتُ في عُنْفُوَانِ الشَّبَابِ ، وَرَيْنَانَ
العَيْشِ اللَّبَّابِ ، أَقْلَى الْاِكْتِنَانِ بِالْغَابِ ، وَأَهْوَى الْاِنْدِلَاقِ مِنْ
الزَّرَابِ ؛ لِمِلْمَى أَنَّ السَّفَرَ ، يَنْفُجُ السُّفْرَ ، وَيُنْدِجُ الظَّفَرَ ، وَمُعَاقِرَةَ
الْوَطَنِ تَعْقِرُ الْفِطْنَ ، وَتَحْقِرُ مِنْ قَطَنِ ، فَأَجَلْتُ قِدَاحَ الْاِسْتِشَارَةِ ،
وَأَقْتَدَحْتُ زِنَادَ الْاِسْتِخَارَةِ ، ثُمَّ اسْتَجَشْتُ جَأشًا أَثْبَتَ مِنَ الْحِجَارَةِ .
وَأَضَعْتُ إِلَى سَاحِلِ الشَّامِ لِلتَّجَارَةِ ، فَلَمَّا خَيَّمْتُ بِالرَّمْلَةِ ،
وَأَلْقَيْتُ بِهَا عَصَا الرُّحْلَةِ ، صَادَفْتُ بِهَا رِكَابًا تُعَمِّدُ لِلسَّرَى ، وَرِحَالًا
تُسَدُّ إِلَى أُمِّ الْقُرَى .

عنْفُوَان وَرَيْنَانَ ، معناهما أول . اللباب : الخالص . أقلى : أبغض .
الاكتنان : الاستتار والإقامة في السكن . والغاب : الشجر المتلف ، وهو بيت
الأسد ، وأراد به بلده ، وأنه كان يكره الإقامة بها ويحب السفر . أهوى :
أحب . الاندلاق : الخروج بسرعة وسهولة . والقرباب : وعاء يجعل فيه
السيف ، وهو غده . السُّفْر : جمع سُفْرَة ، وهي التي يجعل فيها الخبز ويضم عليها

بِحَاقٍ، وتستعمل في السفر . يَنْفُجُ : يُسَكِّرُ ، أى تكثير المأكولات في السفر
فتنفج به . يُنْتِجُ : يولد . الظَّفَرُ : الفوز بالحاجة . معاقرة الوطن : ملازمة بلد
الإنسان . تعمق الفطن : تمت القلوب وتبلد الأذهان . قطن : سكن وأقام، فيريد
أن الإقامة في بلد الإنسان تُحَقِّرَ شأنه وتبليد خاطره .

[مما قيل في الأوطان]

قال الشاعر :

أَنْفَقَ مِنَ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْشَ فَقْرًا مُنْفِقٌ مِنْ صَبْرِهِ
وَالْمَرْءَ لَيْسَ يَبَالِغُ فِي أَرْضِهِ كَالصَّقْرِ لَيْسَ بِصَائِدٍ فِي وَكْرِهِ

وَأَنشَدَ الْفَنَجْدِيهِى :

نَقَلَ رِكَابَكَ فِي الْفَلَاحِ وَدَعِ الْعَوَالِي وَالْقُصُورُ
فَمَحَاهُ أَوْطَانِهِمْ أَشْبَاهَ سَكَانِ الْقُبُورُ
لَوْلَا التَّغَرُّبُ مَا ارْتَقَى دُرُّ الْبَحُورِ إِلَى الثُّجُورِ

وقالوا : مَنْ لَمْ يَصَاحِبِ التَّوْبَةَ وَالْفَاجِرَ، وَلَمْ يُوَدِّهِ الرِّخَاءَ مَرَّةً وَالشَّدَّةَ أُخْرَى ،
وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الظِّلِّ إِلَى الشَّمْسِ ، فَلَا تَرْجُهُ . وتقدم مثل هذا في التاسعة^(١) .

وقال أبو العباس الأعمى :

مَلَيْتُ حَصَى وَمَلَيْتُ فُلُو نَطَقَتْ كَمَا نَطَقَتْ تَلَاخِينَا عَلَى قَدَرِ
وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أَنْ أَفَارِقَهَا وَالْمَاءُ فِي الْمِزْنِ أَصْنَى مِنْهُ فِي الْقَدْرِ
أَمَا اسْتَفْتِ مَنِّي الْأَيَّامُ فِي وَطَنِي حَتَّى تَضَاقِبَ بِي مَاعِزٌ مِنْ وَطَرِي
وَلَا قُضِيَ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتُهَا حَتَّى تَكْرَّرَ عَلَى مَا كَانَ فِي السَّفَرِ

وقال البحتري :

وَلَيْسَ اغْتِرَابِي مِنْ سَجَسَاتِنِ أَنْتِي عَدِمَتْ بِهَا الْإِخْوَانُ وَالْذَّارَ وَالْأَهْلًا^(١)
وَلَكِنِّي مَالِي بِهَا مِنْ مُشَاكِلٍ وَإِنَّ الْغَرِيبَ الْفَرْدَ مَنْ يَعدَمُ الشَّكْلَ

ولأبي الفتح البستي عفا الله عنه :^(٢)

مَا أَنْصَفْتَ بَغْدَادُ حِينَ تَوَحَّشْتَ لِنَزِيلِهَا وَهِيَ الْحِلَّةُ الْآنَسُ
لَمْ يَرَعْ لِي حَقَّ الْقِرَابَةِ بِحُتْرٍ^(٣) فِيهَا وَلَا حَقَّ الْمَرْوَةِ فَارِسُ^(٤)

وتعقب عليه المعري في هذا فقال في أبي القاسم علي بن الحسن التتوخي

القاضي :

ذِمَّ الْوَلِيدُ وَلَمْ أَذْمُ جَوَارِكُمْ فَقَالَ مَا أَنْصَفْتَ بَغْدَادُ حَيَّتَا^(٥)
فَإِنْ لَقِيتُ وَلِيدًا وَالنَّوَى قَذْفُ^(٦) يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ أَغْذِمِهِ تَبَكِّيَتَا
أَحْسَنْتَ مَا شِئْتَ فِي تَأْنِيسِ مَغْتَرِبٍ وَلَوْ بَلَغْتَ الْمَدَى^(٧) أَحْسَنْتَ مَا شِئْنَا

وقال أبو الفتح البستي^(٨) :

وَمَا غُرْبَةُ الْإِنْسَانِ فِي شُقَّةِ النَّوَى وَلَكِنَّهَا وَاللَّهِ فِي عَدَمِ الشَّكْلِ

(١) ديوانه ٢٦٢٩ (عن الشريشي) .

(٢) كذا في الأصول ، والصواب أن البيتين للبحتري ، من قصيدة يمدح فيها علي بن يحيى المنجم في ديوانه ١١٣٣ ، وهما أيضا في شرح البطايوسي على سقط الزند ١٦٤١ .

(٣) ط : « مجتر » ، تصحيف ، وفي الديوان : « طي » .

(٤) الديوان : « ولاحق الصداقة » .

(٥) سقط الزند ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، وفيه : « حوشيتا » .

(٦) قذف ، أي بميدة .

(٧) سقط الزند : « المني » .

(٨) يتيمة الدهر ٤ : ٣١ ، ونسبها إلى أبي سليمان الخطابي

ولم أرى غريب بين بستان أهلها وإن كان فيها أمّرتي وبها أهلي
ولأبي بكر بن بقي: (١)

أقمتُ فيكم على الإفتار والعدم لو كنت حراً أباي النفس لم أقم (١)
فلا حَدِّ يَتَكُمُ يُجَنِّي لها نمر ولا سماءكم تنهل بالديم
أنا امرؤ لم نبت في أرض أندلس جئت العراق فقامت لي على قدم
ما العيش بالعلم الإحالة (٢) ضممت وحُرْفَةٌ وُكِلَتْ بالقعد المرم

وللفقيه أبي محمد بن حزم:

ولي حول أكناف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن يُنزل الرحمن رحلي بينهم لحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك يذرى أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب

* * *

قوله: أجمت، أي صرّفت . قداح : سهام . الاستشارة : مشاورة غيره في رأيه ، وإجالة القداح تأتي في الثالثة والأربعين ، واستعمار هنا لمن يستشير في أمر السفر قداحاً، فإن وافق رأيه فكأنه خرج له على السهم: «افعل» وإن خالفه فكأنه خرج عليه «لا تفعل» . اقتدحت : ضربت . زناد : ما يكون فيه النار . الاستخارة : طلب الخيرة من الله تعالى . استجشت : حرّكت . جاشا : نفسا ، وهي في سكونها عن السفر كالبحر فلا تتحرك للسفر . أصمدت : طاعت . خيّم : أقمت .

(١) نفع الطيب ٣ : ٤٨ .

(٢) النفع : «رحيلة» ، «البرم» .

الرَّمْلَة : بلدة بالشام ، سَمَّيَهَا العرب بالرَّمْلَة لما غلب عليها الرمل ،
وهي من كُور فلسطين ، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا ، وكانت
لَدَ (١) مدينة فلسطين القديمة ، فلما وَلِيَ الخلافة سليمان بن عبد الملك ابنتى مدينة
الرَّمْلَة ، وخرَّب لَدَ ، ونقل أهل لَدَ إليها ، فصارت الرملة مدينة فلسطين .
أُقيمت : تركت . الرُّحْلَة : الارتحال ، وكفى بإلقاء العصا عن الإقامة بد
أن تهَيَّأ .

أم القرى : مكة . وكنا نؤينا ترك ذكر مكة لشهرتها ، ثم وجدنا شيخنا ابن
جُبَيْر قد ذكر فيها أشياء قلَّ مَنْ يَضبطها ، فأثبتناها إعلاماً لمن أحبَّ استطلاعها ،
وتبرَّكا بذكر البيت الشريف أعزه الله تعالى .

[ذكر مكة ومعالمها]

قال شيخنا (٢) : مكة بلد قد وضعها الله تعالى بين جبال محدِّقة بها ، وهي في
بطن وادٍ ، مدينة كبيرة مستطيلة لها ثلاثة أبواب :

باب العلَى يخرج منه إلى الجبَّانة بالموضع الذى يعرف بالحجُّون عن يسار
المارِّ إليها جبلٌ فى أعلاه ثلثية ، عليها علم يشبه البرج منها إلى العمرة ، وتعرف
الثلثية بكَدَاء ، وهي التى جعلها حسن موعِد خيل الإسلام فى قوله :

* تُثِيرُ النَّفْعَ موعِدُهَا كَدَاء (٣) *

ومنها دُخِلَتْ مكة يوم الفتح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادخلوها
من حيث قال حسان » .

(١) لد ، بالضم والنشديد ، ذكرها ياقوت وقال : « قرية قرب بيت المقدس ، من نواحي
فلسطين » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبیر السكتاني الأندلسي ، المعروف بابن جبیر ، صاحب الرحلة
المعروفة باسمه .

(٣) ديوانه ٤ ، و صدره :

* عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِن لَمْ تَرَوْهَا *

والحجون هو الذى قال فيه الحارث بن مُضاض :

كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا
أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ^(١)

وعن يسار المارّ إليها جبل ، وفي جبّانة الحُجُونِ مدفن جماعة من الصّحابة
ذُئِرَت اليَوْمَ قبورهم ، وفيها بقية علم ظاهر ، وهو موضع خشبة عبد الله بن
الزبير ، كان في موضعه بناء مرتفع ، فهدمه أهل الطائف غيرهم منهم على
ما كان يحدّد من لعنة الحجاج صاحبهم . وعن يمينك إذا استقبلت الجبّانة مسجد
في مَسِيلِ بَيْنِ جِبَالَيْنِ ، وهو الذى بايعت الجنّ فيه النبي صلى الله عليه وسلم ،
وعلى باب الحُجُونِ طريق الطائف والعراق ، والصُّعُودُ إلى عرفات ، والباب
بين الشرق والشمال مائلا إلى الشرق^(٢).

الباب الثانى: باب السفلى^(٣) إلى جهة الجنوب، عليه طريق اليمن ، ومنه دخل
خالد بن الوليد ، يوم الفتح .

الباب الثالث : باب العمرة يعرف بالباب الزاهر ، عليه طريق المدينة والشّام
وجُدّة ، وهو غربى ، ومنه يُخْرَجُ إلى التَّنْعِيمِ ، وهو على فرسخ من مكة ، وهو
أقرب ميقات للمعتزين ، وطريقه حسن ، فيه الآبار العذبة المسماة بالشَّيْبِيكَةِ .

وعلى ميل من مكة في طريق التَّنْعِيمِ يُبْلَغُ مَسْجِدُ بَازَانَةِ حَجَرٍ كالمصطبة ،
يعلوه حجر آخر مسند ، فيه نقش دائر ، يقال إن النبی صلى الله عليه وسلم قعد عليه
مستريحاً عند مجيئه من العمرة ، يسمح الناس خدودهم به تبرّكا . وبعده بقلوة على

(١) تاريخ الطبرى ٢: ٢٥٨ من قصيدة، وبعده في ابن جبير:

بلى نَحْنُ كَنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودِ الْعَوَارِ

(٢) رحلة ابن جبير : « إلى الشرق أميل » . (٣) ابن جبير : « السفلى » .

يسار الطريق قبر أبي لهب وامرأته ، قد علاهما جبلان عظيمان من الصخر لرجم الناس على قديم الدهر .

وعلى قدر ميل يُبقي الزاهر ، وعمومياً على جانبي الطريق ، يحتوي على دار وبساتين لأحد المسكينين ، وفيه مكان مستطيل ، عليه كيزان الماء ، ومراكن مملوءة ، وهي القصاري للشرب والظهور ، وفيه منفعة كبيرة للمعتمرين .

وعلى جانبي الطريق في الزاهر أربعة أجيال : جبلان ، من هنا وجبلان من هنا ، يذكر أنها التي جمل إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير عليها ، ثم دعاها عند قوله : ﴿ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ^(١) .

وعند إجازتك بالزاهر تمر بالوادي المعروف بذي طوى ، كان ابن عمر رضى الله عنهما يفتسل فيه عند دخوله مكة ، وفيه نزل النبي عليه الصلاة والسلام عند دخوله ، وفيه مسجد إبراهيم عليه السلام ، وفيه آثار تعرف بالشبيكة . ثم تخرج من الوادي إلى أعلام ، وهي أحجار موضوعة بين الحِلّ والحرم ، كالأبراج المصفوفة ، فداخلها إلى جهة مكة حَرَم ، وهي كالأبراج ، وآخذة من أعلى جبل ، يعترض عن يمين الطريق في [التوجه] ^(٢) إلى العمرة ، وينشق الطريق إلى جبل عن يساره ، وهما ميعقات المعتمرين ، [وفيها مساجد مبنية بالحجارة] ^(٣) وخارجها ^(٣) بنحو غلوتين مسجد عائشة رضى الله عنها .

ومن جبال مكة جبل أبي قبيس ، وهو على الحرم في الجهة الشرقية يقابل الحجر الأسود ، في أعلاه مسجد عليه سطح يشرف على مكة ، ويظهر حسنهما وحُسن الحرم واتساعه وجمال السكبة ، وهو مستودع الحجر الأسود من الطوفان ، حتى أداه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وهو أحد أخشبي مكة ، والأخشب الثاني المتصل بقميقمان في الجهة

(٢) من رحلة ابن جبير .

(١) سورة البقرة ٢٦٠ .

(٣) الرحلة : « خارج هذه الأعلام » .

الغربية ، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر .

ومن جبالها حراء ، على مقدار فرسخ ، ومشرف على منى ، وهو مرتفع في الهواء ، كان متعبداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى اهتز تحته ، فقال : اسكن حراء ، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ، لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وفيه نزلت أول آية من القرآن ، وهو أخذ من المغرب إلى الشمال ، وعلى طرفه الشمالى جبانة الحجّون المتقدمة .

ومن جبالها جبل ثور ، وهو فى الجهة اليمانية على فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذى أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى مقربة من الغار قبة جبريل ، وهى عمود منقطع من الجبال ، قد قام شبه الذراع المرتفعة مقدار نصف القامة ، وانبسط من أعلى شبه الكف ، كأنه قبة مبسوطة ، يستظل تحتها نحو العشرين رجلاً ، ومن مكة إلى منى نحو خمسة أميال .

ومنى مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط ، وقد خربت اليوم إلا منازل يسيرة محدثة للنزول ، كان الطريق إليها الميدان اتساعاً وانفساحاً . وأول ما يلقى المتوجه إليها بقرىها مسجد البئمة التى عقدها العباس للنبي صلى الله عليه وسلم على الأنصار ، ثم يُفَضَّى بها إلى بحرة العقبة ، وهى أول منى وعليها مسجد ، وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم المذكورة ، يجعله الراعى عن يمينه مستقبلاً مكة ، ويرمى بها سبع حصيات يوم النحر أثر طلوع الشمس ، ثم ينحر أو يذبح ، ويحلق أو يقصر ، ومنى كلها منحر ، ويحلّ له كل الأشياء إلا النساء ، وبعدها الجمرّة الوسطى ، وبها أيضاً علم ، وبين الجمرتين قدر غلوة ، وبعدها بمقدار غلوة الجمرّة الأولى التى ترمى وقت الزوال ثانى يوم النحر بسبع حصيات ، وفى الوسطى سبع ، وفى جمرّة العقبة سبع ، فتلك إحدى وعشرون حصاة ، ويُفَعَّل ذلك فى ثالث يوم النحر ، فتلك اثنتان وأربعون حصاة ، وسبع تقدّمت يوم النحر ، فتمكّل تسع وأربعون حصاة .

وفي أثر ذلك ينفض الحاج إلى مكة ، وعند الجرة الأولى يُبلى مجرى الذبيح عليه السلام ، وفي موضع المجرى حَجَرٌ ملصق بجدار فيه أثر قدم صغيرة ، يقال إنها أثر قدمه ، عند تحرّكه لأنّ له الحجر إشفاقاً ، فيقبله الناس ويلمسونه تبرّكاً به .

ومسجد الخيف آخر منى ، وهو متنّع الساحة ، كأكبر ما يكون من الجوامع ، وصومعته في رحبة المسجد ، وله في القبلة أربع بلاطات ، وهو مسجد مشهور البركة ، ومن منى إلى المزدلفة نحو خمسة أميال ، والمزدلفة تسمى المشعر الحرام وجمعاً فلها ثلاثة أسماء . ووادي محسّر حدّ بين المزدلفة ومنى . والمزدلفة بسيط من الأرض فسيخ حولها صهاريج للماء ، وفي وسط البسيط حلق في وسطها قبة ، في أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين ، يزدهم الناس عليه للصلاة فيه عند مبيتهم بها ، وبين المزدلفة وعرفات أزيد من خمسة أميال .

وعرفات بسيط من الأرض [على] مدّة البصر ، لو حُسِر الخلائق فيه لوسمهم ، تحدّق به جبال كثيرة . وفي آخر البسيط جبل الرّحمة ، وهو موقف الناس ، والعلمان قبله ، فما أمامهما إلى عرفات جبل ، وما دونهما حرم .

وجبل الرحمة منقطع عن الجبال ، قائم في البسيط ، فهو ككله حجارة . وكان صعب المرتقى ، فأخذوا فيه من أربع جهاته أدراجاً وطِيئة يصعد فيها بالدواب الموقرة . وفي أعلاه قبة تنسب لأم سلمة رضي الله عنها ، وفي وسطها مسجد يحدّق به سطح فسيح السّاحة جميل المنظر ، يزدهم الناس عليه للصلاة فيه ، فيشرف منه على بسيط عرفات ، وفي أسفله عن يسار القبلة دار عتيقة البنيان ، فيها عُرف ، لها طيقان تنسب إلى آدم عليه الصلاة والسلام . وعن يسارها مسجد صغير . وبمقربة من العلمين مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بقي منه

الجدار القبلي يخطب فيه الخطيب يوم الوقفة ، ثم يجمع بين الظهر والعصر ، ثم يقف الناس بعد جمعهم الظهر والعصر باكين داعين متضرعين ، حتى يغيب قرص الشمس ، ثم يدفع الإمام المالكي بالناس بالنفر دفما ترتج منه الجبال ، فيصلون بمزدلفة المغرب والعشاء الآخرة ، فيبيتون بها ، والدنيا كلها شموع مُسْرَجَة ، فإذا صلوا الصبح غدوة النحر وقفوا داعين .

ومزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر ، فإن فيه تقع الهرولة إلى منى ، فإذا بلغوا منى رموا بها جرة العقبة .

ثم ينفّر الناس إلى البيت المكرّم إلى طواف الإفاضة ، وهو كمال الحج .

وأما البيت المكرّم فهو قريب من التربع ، له أربعة أركان : ركن ينظر إلى الشرق وفيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطّواف . يبعد الطائف عنه قليلاً ، والبيت عن يساره ، ثم يُبَاقى بعد ذلك في طوافه الرّكن العراقيّ ، وهو ناظر إلى الشمال . ثم الركن الشاميّ ، وهو ناظر إلى المغرب ، ثم الركن اليمانيّ ، وهو ناظر إلى الجنوب ، ثم يعود إلى ركن الحجر الأسود ، وذلك شوط واحد .

وباب البيت في السّفح الذي بين ركن الحجر والركن العراقيّ ، وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار ، وما بين الحجر والباب يسمّى الملتزم ، وهو موضع استعجابه الدعاء ، ويرتفع الباب من الأرض أحد عشر شبراً ونصفاً ، والباب من فضة ، مذقّب بديع الصّنع ، يستوقف الأبصار حسناً ، وعُضاداته كذلك ، وعلى رأسه لوح ذهب خالص إبريز في سعة نحو شبرين ، وله تقارنا فضة ، كبيرتان يتعلّق عليهما قفل الباب ، والباب ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وغِلَظ الحائط الذي ينطوى عليه الباب خمسة أشبار ، وداخل البيت مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه كلّها رخام مجزّع ،

قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج ، مفرطة الطول ، بين كل عمود وعمود أربع خطأ ، ودائرة البيت كله من نصفه الأعلى مطلى بالفضة المذهبة ، يُخَيَّل إليك أنها صفيحة ذهب لغلظها بالجوانب الأربع .

ولبيت خمسة مصاييح ، وعليها زجاج عراقى بديع النقش ، أدرجت في وسط السقف ، ومع كل ركن مضوا ، ويُبنى الداخل من الباب عن يساره ركن الحجر الأسود وباب الرحمة ، هو الذى يصعد عليه إلى السطح .

والمقام حجر ممشى بالفضة ، ارتفاعه ثلاثة أشبار ، وسعته شبران ، أعلاه أوسع من أسفله ، وآثار القدمين والأصابع فيه ، صُبَّ لنا فيه ماء زمزم ، فشرباه منه .

ومن الباب إلى الركن العراقى حوض طوله اثنا عشر شبرا وعرضه خمسة أشبار ، وارتفاعه شبر ، هو علامة موضع المقام ، وهو مصب ماء البيت .

وموضع المقام الذى يصلى فيه ما بين الباب والركن العراقى ، وموضع المقام قبة حديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم ترفع في أشهر الحج ، وتزال قبة الخشب ، لأنها أجمل ، لازدحام الناس . ومن ركن الحجر إلى الركن العراقى أربعة وخمسون شبرا ، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يتطامن لتقبيله ، والقصير يتطاوَل له .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام : سود وحر وبيض ، تتسع عن البيت مقدار تسع خطأ ، وسائر الحرم مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة .

والحجر ستة أذرع وهو الذى تركته قريش من البيت ، وعليه جدار دوره تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وسبعون شبرا من داخل الدويرة ، ودور جداره كله مجزَع بديع الإلصاق من الرخام ، وهو مفروش بالرخام المجزَع البديع المتفاريح والتقاطيع ، فراه عجيب .

والحرم له ثلاثمائة سوار من الرخام ، وذراع الحَرَم في الطول أربعة ذراع ،
وفي العرض ثلاثمائة ذراع ، فتكسیره ثمانية وأربعون مرجعا ، وله تسع صوامع
وتسعة عشر بابا ، أكثرها مفتوح على الأبواب ، منها باب الصفا ، وهو مفتوح
على خمسة أبواب ، وهو أكبرها ، وعليه يُخْرَج إلى السعى بين الصفا والمروة .
وللصفا أربع عشرة درجة ، وللمروة خمسة ، وما بين الصفا والمروة ميل ،
وهو اليوم سوق جميل ، يجمع الفواكه بمكة وحوانيت الباعة يمين وشمال
فلا يكاد الساعون يخلصون للسعى لكثرة الزحام .

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، منها إليه أربع وعشرون خطوة ،
وداخلها مفروش بالرخام الأبيض وتنور البئر في وسطها من رخام دوره أربعون
شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغلفه شبر ، وعمقه إحدى عشرة قامة ،
وعمق الماء سعم ، وباب القبة ناظر إلى الشرق .

ثم ذكر في البيت وما يتصل به من البئر من ذلك غرائب من صنع الرخام
والنقوش وغير ذلك أشياء لا يسع كتابنا ذكرها ، فلنقتصر على هذا القدر ^(١) .

* * *

فمَصَّفَتْ بِي رِيحُ الْقَرَامِ ، وَاهْتَجَّ لِي شَوْقٌ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛
فَزَمَمْتُ نَاقَتِي ، وَنَبَذْتُ عَلِقِي وَعِلَاقَتِي

وَقُلْتُ لِلْأَمْنَى أَقْصِرْ فَإِنِّي سَاخِتَارُ الْمَقَامِ عَلَى الْمَقَامِ

وَأَنْفِقُ مَا جَمَعْتُ بِأَرْضِ جَمْعٍ

وَأَسْأَلُو بِالْحَطِيمِ عَنِ الْحَطَامِ

تَمَّ اتَّظَمْتُ مَعَ رُقَّةٍ كُنْجُومِ اللَّيْلِ ، لَهْمٌ فِي السَّيْرِ جَزِيَّةٌ

(١) رحلة ابن جبير صفحة ٨٢ وما بعدها ، مع تصريف .

السَّيْلِ ، وإلى الخيرِ جَرَى الخَيْلُ ؛ فلم تَزَلْ بينَ إِذْلاجٍ وتَأْوِيبٍ ،
وإِيجافٍ وتَقْرِيبٍ ، إلى أنْ حَبَّتْنَا أَيْدِي المَطَايَا بِالثُّحَفَةِ ، في إِيصالنا
إلى الجُحْفَةِ ؛ فَحَلَلْنَاها مُتَأَهِّبِينَ لِلْإِحْرَامِ ، مُتَبَاشِرِينَ بِإِدْرَاكِ المَرَامِ ،
فَلَمْ يَكُ إِلَّا أَنْ أُنْخَنَّا بِهَا الرِّكَاثُ ، وَحَطَطْنَا الحَقَائِبَ ، حَتَّى طَلَعَ
عَلَيْنَا مِنْ بَيْنِ الهَضَبِ ، شَخْصٌ ضَاحِي الإِهَابِ ؛ وَهُوَ يُنَادِي :
يَا أَهْلَ ذَا النَادِي ، هَلُمَّ إِلَى مَا يُنْجِي يَوْمَ التَّنَادِي . فَانْخَرَطَ إِلَيْهِ
الحَجِيجُ وَانْصَلَّتُوا ، وَاحْتَفُوا بِهِ وَأَنْصَتُوا . فَلَمَّا رَأَى تَأَثُّفَهُمْ حَوْلَهُ ،
وَاسْتِعْظَامَهُمْ قَوْلَهُ ، تَسَمَّ إِحْدَى الْآكَامِ ، ثُمَّ تَمَخَّجَ مُسْتَفْتِحًا
لِلْكَلَامِ ، وَقَالَ :

* * *

قوله : عصفت ، تَحَرَّكَتْ واشتَدَّتْ . الغرام : الشوق . احتاج : تَحَرَّكَ .
زمت : شددت زمامها . نبذت : رميت . عَلَقَى : ما يتعلق به ويُمسكه عن
إرادته . علاقتي : ما يتعلق بقلبي . أَقْصِرْ : كَفْ . المقام : مقام إبراهيم عليه
عليه السلام . المقام : الإقامة . وَجَّعَ : اسم المزدلفة ، سميت بذلك لاجتماع الناس
فيها . الحطيم : حَجَرٌ بِمَكَّةَ . الحطام : كسب الدنيا . انتظمت : ارتفعت .
كنجوم الليل ، أي هم أشراف وأهل أحساب . جَرِيَّة : انصباب . الإذلاج :
سَيْر الليل . تَأْوِيب : سَيْر النهار . إِيْجاف : إمراع . تَقْرِيب : جَرَى متقارب .
حَبَّتْنَا : أَوْصَلْنَا وَأَعْطَيْنَا . الثُّحَفَةُ : الهدية . إِيصالنا : توصلنا .

الجُحْفَةُ مِيقَاتُ أَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ ، وَبَيْنَ الْبَحْرِ ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ .
حَلَلْنَاها : نَزَلْنَا فِيها . الإِحْرَامُ : الدخول في الحَرَمِ . مُتَبَاشِرِينَ : يَبْشُرُ
بَعْضُنا بَعْضًا . بِإِدْرَاكِ المَرَامِ : بِلَوْغِ الحَاجَةِ . أُنْخَنَّا الرِّكَاثُ : بِرُكْنِ الْإِبِلِ

بالأرض . حططنا الحقائق : أنزلنا الأحمال عن ظهورها . الهضاب : الكدَى ،
واحدتها هَضْبَةٌ . ضاحى الإهاب : بارز الجلد ، أى ثوبه خَلَقَ لا يستره .
النادى : المنزل . هَلَمْ ، أى أقبلوا . يوم التنادى ، أى يوم البعث لاجتماع الناس
فيه ، أو لأنه ينادى للحساب . انخرط : اندفع بسرعة . الحجيج : اسم لجماعة
الحجّاج . انصلتوا : خرجوا إليه مسرعين . احتفوا : استداروا : وأنصتوا :
سكتوا . تأفّفهم : اجتمعهم وثبوتهم حتى صاروا له كالأنثى للقدّر . استطامهم
قوله : استدعاءهم كلامه . تسّم : ارتفع عليها ، وأصل « تسّم » ركب البعير ،
الآكام : الكدَى .

يَا مُعْشَرَ الْحَجَّاجِ ، النَّاسِلِينَ مِنَ الْفِجَاجِ ، أَتَعْقِلُونَ مَا تَوَاجِهُونَ ،
وإِلَى مَنْ تَتَوَجَّهُونَ ! أَمْ تَذَرُونَ عَلَى مَنْ تَقْدَمُونَ ، وَعَلَامَ تُقْدِمُونَ !
أَتَخَالُونَ أَنَّ الْحِجَّ هُوَ اخْتِيَارُ الرَّوَاحِلِ ، وَقَطْعُ الْمَرَاحِلِ ، وَاتِّخَاذُ
الْحَامِلِ ، وَإِيقَارُ الزَّوَامِلِ ! أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ النُّسْكَ هُوَ نَصُؤُ
الْأَرْدَانِ ، وَإِنْضَاءُ الْأَبْدَانِ ، وَمُفَارَقَةُ الْوُلْدَانِ ، وَالتَّثْنَاءُ عَنِ الْبُلْدَانِ !
كَلَّا وَاللَّهِ ، بَلْ هُوَ اجْتِنَابُ الْخَطِيئَةِ ، قَبْلَ اجْتِلَابِ الْمَطِئَةِ ، وَإِخْلَاصُ
النِّيَّةِ ، فِي قَصْدِ تِلْكَ الْبِدْيَةِ ، وَإِمْحَاضُ الطَّاعَةِ ، عِنْدَ وَجْدَانِ
الاسْتِطَاعَةِ ، وَإِصْلَاحُ الْمُعَامَلَاتِ ، أَمَامَ إِعْمَالِ الْيَعْمَلَاتِ !

...

الناسلين : المسرعين . الفجّاج : الطرق . وتعقلون : تفهمون . تواجهون :
تستقبلون بوجوهكم ، يريد البيت . إلى مَنْ تتوجهون : تقصدون . الرواحل :

الإبل . المراحل : المواضع يُرَحَّل إليها وينزَل فيها . الحامل : آلات من خشب يركب عليها ، واحدها محمَل ، يقال : إن الحجَّاج أوَّلُ من أحدثها ، ولذلك قال الشاعر :

أَوَّلُ عَبْدٍ صَنَعَ الْحَامِلَا أَخْزَاهُ رَأَى عَاجِلًا وَأَجَلًا

قوله : لزوامل : جمع زاملة ، وهى البعير وغيره من الدوابِّ يحْمَل عليها الطعام . وإيقارها : رفع الأوقار عليها ، وهى الأحمال ، والوقر : الحِمْل . النُّسْك : التَّعَبْد ، نَصَوُ الأردان ، تجريد المحيط من الثياب . العنَّائى : التَّبَاعِد . اجْتِنَاب بُعْد ، واجْتِنَبْتَهُ : بعدت عنه وتركته . الخَطِيئَةُ : الذَّنْب ؛ يريد أن أوَّل مايجب على الحجَّاج أن يقدِّموا التَّوْبَةَ . والبَيْتَةُ ، هى الكعبة . إِمْحَاض : إِخْلَاص . وَجْدَان : إِصَابَةٌ . الاستطاعة : القدرة على الشيء ، وهى شرط وجوب الحج . للمعاملات : الأفعال التى يتعامل بها الناس بينهم من المبيعات وغيرها ، وأراد إِصْلَاحَ فعل العبد بينه وبين ربه . إِمْعَالُ الِيعْمَلَات : استعمال الإبل للمشى ، والِيعْمَلَةُ : الناقة تعمل كثيرا فى المشى .

• • •

فَوَالَّذِى شَرَعَ النَّاسِكَ لِلنَّاسِكِ ، وَأَرْشَدَ السَّالِكََ فِي اللَّيْلِ
الْحَالِكِ ، مَا يُنْفِقُ الْإِغْتِسَالُ بِالذُّنُوبِ ، مِنْ الْإِنْفِعَامِ فِي الذُّنُوبِ ،
وَلَا تَعْدِلُ تَفْرِئَةُ الْأَجْسَامِ ، بِتَغْبِثِهِ الْأَجْرَامِ ، وَلَا تُفْنِي لِبْسَةُ
الْإِحْرَامِ ، عَنْ الْمُتَلَبَّسِ بِالْحَرَامِ ، وَلَا يَنْفَعُ الْاضْطِباعُ بِالْإِزَارِ ،
مَعَ الْاضْطِلَاعِ بِالْأَوْزَارِ ، وَلَا يُجْنِدِي التَّقَرُّبُ بِالْخَلْقِ ، مَعَ
التَّقَلُّبِ فِي ظُلَمِ الْخَلْقِ ، وَلَا يَرْخِصُ التَّنَشُّكُ فِي التَّقْصِيرِ ،
دَرَنَ التَّمَسُّكِ بِالتَّقْصِيرِ ، وَلَا يَسْعَدُ بِعَرَفَةٍ ، غَيْرُ أَهْلِ الْمِعْرِفَةِ ،
وَلَا يَرْكُو بِالْخَفِيفِ ، مَنْ يَرْغَبُ فِي الْخَفِيفِ ، وَلَا يَشْهَدُ الْمَقَامَ ،

(٢ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

إِلَّا مَنْ اسْتَقَامَ ، وَلَا يَحْطَى بِقَبُولِ الْحَجَّةِ ، مَنْ زَاغَ عَنِ الْحَجَّةِ ،
فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا صَفَا ، قَبْلَ مَسْعَاهُ إِلَى الصَّفَا ، وَوَرَدَ شَرِيعَةَ
الرِّضَا ، قَبْلَ شُرُوعِهِ عَلَى الْأَصَا ، وَنَزَعَ عَنْ تَلْيِيسِهِ ، قَبْلَ نَزْعِ
مَلْبُوسِهِ ، وَفَاضَ بِمَعْرُوفِهِ ، قَبْلَ الْإِفَاضَةِ مِنْ تَعْرِيفِهِ . ثُمَّ رَفَعَ
عَقِيرَتَهُ بِصَوْتٍ أَسْمَعَ الصَّمَمَ ، وَكَادَ يُزْغِرُ الْجِبَالَ الشَّمَمَ .

• • •

شرع : فرض . المناسك : مواضع الذبح والنحر ، والمناسك : الذي يأتي
بنسك ، وهو ما يُذبح أو ينحر في الحرم . أرشد السالك : إلى الطريق للمشى
فيها . الحالك : الشديد السواد . الذنوب : الدلو . الانفاس : الغطس ، يريد
أن التطهر لا يزيل الذنوب . وما أحسن قول الحلواني في غلام وسيم أراد
النهوض للحج :

يا طالبَ الحجِّ وهو ذو صِفَرٍ عجلتَ فاستأنِ بهِ إلى الكِبَرِ^(١)
إن كنتَ تبغى مَنُوبَةً فَعَسَى تَحْمِلُ لِي قُبْلَةً إِلَى الْحَجَرِ
وإن زَمِيتَ الجمارَ فارمِ بها كلَّ فؤادٍ عَلَيْكَ لَمْ يَطِرِ
فقال دعني وزمزمًا فَعَسَى أغسل عن وجنتي دمَ البشرِ

قوله : تعدل ، أى تقاوم وتساوى . الأجرام : الأجسام ، واحدها جِرم .
تعبئة الأجرام : تحمّل أعباء الذنوب . لبسة : هيئة اللباس . التلبس : التعلق
والاختلاط . الاضطباع : الاشتغال والالتفاف ، واضطبع الرجل بثوبه ، إذا
أدخله تحت عضده الأيمن وألقاه على منكبيه الأيسر ، والاضطلاع : القيام بها .
والأوزار : أقال الذنوب . يجدى : ينفع . يَرَحُصُ : يغسل . التقصير : الأخذ
من الشعر . دَرَنَ : وسخ . التمسك : التعلق . التقصير : التضييع ، وترك الاجتهاد ،

(١) الذخيرة لابن بسام ٢٢١/١/٤ ، وهو الشاعر الأندلسي عبد الكريم بن فضال ،
المعروف بالحلواني .

عَرَفَة: يوم من أيام الحج، سُمِّيَتْ بذلك لأن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة، نزل بالهند، وحواء بمجدة فالتقيا بعرفة، نُسِمِيَ موضع التقائهما ويوم التقائهما عَرَفَة، وقيل: هي من العرف وهو الصَّبر، ورجل عارف، أى صابر، فُسِمِيَ الموضع عرفة لصبر الناس على القيام به للدعاء. وقيل: هي من العرف، وهو الرِّيح الطَّيِّبة، لأنها طيِّبة بنسبتها إلى متى لما بمعنى من أفذار الفروث والدماء لأن بمعنى يُنحر الهدى. يركو: يكون نامياً، والزكاه: النماء والصلاح. والخيف: موضع بمكة سمي بالخيف، وهو ما ارتفع من الأرض عن موضع السيل، وانحدر عن غِلَظ الجبل. والخيف: الظلم. يحظى: يسعد ويظفر. زاغ: مال وخرج. الحجَّة: الطريق المستقيم. صفا: خلص قلبه. مَسْعاه: سعيه وجريه. الصفا: صخرة بمكة. ورد: دخل. شريعة الرضا: طريقة الخير، والشريعة في النهر والغدير: الطريق. يهبط عليه إلى الماء، وبه سُمِّيَتْ شريعة الدين لأنه طريق موصل إلى الله تعالى، فورَد الشريعة، دخل فيها، ووصل إلى الماء، وشرعت الدواب في الماء: دخلت فيه. الأضا: الغدران. نزع: زال وكف. تليسه: تخليطه، والإفاضة: آخر الطواف. تعريفه: وقوفه بعرفة. عقيرته: كفاية عن صوته يُزعزع: يحرك. الشم: المرتفعة.

* * *

وَأُنْشَد:

ما الحجَّ سَيْرُكَ تَأْوِيّاً وَإِذْ لَاجَا وَلَا اعْتِيَاؤُكَ أَجْالاً وَأُحْدَا جَا
الحجُّ أَنْ تَقْصِدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ عَلَى
تَجْرِيدِكَ الْحَجِّ لَا تَقْضِي بِهِ حَاجَا
وَتَمْتَطِي كَاهِلَ الْإِنصَافِ مُتَّخِذَا
رَدْعَ الْهَوَى هَادِيَا وَالْحَقَّ مَنَاجَا

وَأَنْ تَوَاسَى مَا أُوتِيتَ مَقْدَرَةً مَنْ مَدَّ كَفًّا إِلَى جَذْوَاكَ محتاجا
فهذه إن حَوَّتْهَا حَبَّةٌ كَمَلَتْ وَإِنْ خَلَا الْحَبُّ مِنْهَا كَانَ إِخْدَاجَا
حَسَبُ الْمَرَاتِنَ غَبْنَا أَنَّهُمْ غَرَسُوا

وَمَا جَنَوْا وَلَقُوا كَدًّا وَإِزْعَاجَا
وَأَنَّهُمْ حُرِمُوا حِرْزًا وَمَخِيْمَةً

وَأَلْهَوْا عِرْضَهُمْ مَنْ عَابَ أَوْ هَاجَى
أَخِيَّ فَايْغِبْ بِمَا يُبْدِيهِ مِنْ قُرْبِ وَجْهِ الْمُهَيِّينِ وَلَا جَأَّ وَخَرَّاجَا
فَلَيْسَ تَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ خَافِيَةٌ

إِنْ أَخْلَصَ الْعَبْدُ فِي الطَّاعَاتِ أَوْ دَاجَى
وَبَادِرِ الْمَوْتِ بِالْحُسْنَى تَقَدَّمَهَا

فَا يُنَبِّئُهُ دَاعِي الْمَوْتِ إِنْ فَاجَا
وَأَقْنِ التَّوَاضُعَ خُلُقًا لَا تَزَايِلُهُ عَنْكَ اللَّيَالِي وَلَوْ أَلْبَسْنَاكَ التَّاجَا
وَلَا تَشِمُ كُلَّ خَالٍ لِأَخٍ بَارِقُهُ

وَلَوْ تَرَأَى هَتُونَ السَّكْبِ ثَجَّاجَا
مَا كُنْ دَاعٍ بِأَهْلٍ أَنْ يُصَاحَ لَهُ

كَمْ قَدْ أَصَمَّ بِنْعِي بَعْضُ مَنْ نَاجَى
وَمَا اللَّيْبُ سِوَى مَنْ بَاتَ مُقْتَنِمًا

يُلْفِي تَدْرِجُ الْأَيَّامِ إِذْ رَاجَا
فَكُلُّ كَثْرٍ إِلَى قُلٍّ مَغْبِيَّةٌ وَكُلُّ نَازٍ إِلَى لَيْنٍ وَإِنْ هَاجَا

اعتيامك : اختيارك . أخذاجاً : جمع حُدج ، وهو ما يجعل على ظهر
 البعير ، يُركب عليه . حاجاً : جمع حاجة . تمتطى : تركب . كاهل : مقدّم
 الظهر . رذع : كفّ وردّ . هادياً : دليلاً . منهاجا : طريقاً . نواسى : تعطى .
 جدّواك : عطيتك . حَوَّسها : جمعها . إخذاجاً : نقصاناً . المرائين : المظهِرين
 الخير ، وهم على خلافه . وحَسَب ، بمعنى يكفى . كدّاً : عجلة وشدة . الإزعاج :
 ضد السكون والقرار ، وأزعجته : لم تدعه يستقرّ . حرزا : تحصيل ، وأحرزه :
 جعله تحت حرز . ألمحوه : أمكنوه من لمح . العِرض : ما يسبّ من الرجل أو
 يمدح . هاجى : شاتم وسابّ .

[ذكر المرائين وما قيل فيهم]

ومما قيل في الرياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والشرك
 الأصفر . قالوا : وما الشرك الأصفر ؟ قال : الرياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا رياء ولا سُمتة مَنْ يسمع بِسْمِ اللَّهِ به » .
 وقال صلى الله عليه وسلم : « من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ؛ إن خيراً
 نغير ، وإن شراً فشر » .

وقال : « مَنْ أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .

وقال الشاعر :

ولمّا أظهرت شيئاً حسناً فليكن أحسن منه مائسراً
 فمسيرُ الخير موسومٌ به ومسيرُ الشرّ موسومٌ بشرّاً

وقال يحيى بن أكنم :

يقول لى القاضى معاذ مشاوراً وولى أمراً فيما يرى من ذوى الفضل
 بعينيك ماذا تحسبُ المرء فاعلا فقلت وماذا يفعل الذئب فى القخل !
 يدقّ خلاياها وبأكلٍ شهدّها ويترك للزّبال ما كان من فضل

وأنشد الفرزدق :

رئيس السوق محمود السجايا يقصر عن مدائحه البليغُ
نسيه ييحي وهو ميت كما أن السليم هو اللديغُ
يعاف الورذ إن ظمئت حشاهُ وفي مال اليتيم له ولوغُ
ولالأبيض في الفقهاء المرائين :

أهل الرياء لبستمُ ناموسكمُ كالذئب يدلج في الظلام العائِمُ^(١)
فلستمُ الدنيا بمذهب مالكٍ وقستمُ الأموال بابن القاسمِ
وركبتُمُ شُهَبَ البغال بأشهبِ وبأصغر صبغت لکمُ في العالمِ^(٢)

وله في نحوه أيضاً :

قل للإمام سنا الأئمة مالكٍ نورُ العيون ونزهةُ الأسماعِ^(١)
لله درك من هُمام ماجدٍ قد كنت راعيناً فنعم الرّاعي
ففضيت محمود التقيبة طاهراً وتركنا قنصاً لشرّ سبعِ
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزلٍ طاول الحشى متكفّت الأضلاع
تشكوك دنيا لم تزل بك برّةً ماذا رفعت بها من الأوضاع !

وفي الإمبراثيات : جاءت عصفورة ، فوقفت على فنج ، فقالت له : مالى أراك منحنيًا ؟ قال : لكثرة صلاتي انحنيت ، قالت : فما لك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامي بدت عظامي ، قالت : فما هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتي لبست الصوف ، قالت : فما هذه الحبّة في يدك ؟ قال : قربان إن مرّ بى مسكين فاولته إياها ، قالت : فإني مسكينة ، قال : خذها فقبضت على الحبّة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فصاحت : قعى قعى . تفسيره : لا غرنى وراء بعدك أبدا .

(١) نفع الطيب : ٣ : ٤٤٨ .

(٢) ابن القاسم وأشهب وأصغر ، من فقهاء المالكية .

قال الشاعر :

نموذ بالله من أناسٍ تشيخُوا قَبْلَ أن يَشِيخُوا
تَقَوُّسُوا وانحِنُوا رِياءً فاحذرهُمُ إِنَّهُمُ فَخُوخُ
وكان صائدٌ يصيدُ العَصافيرَ في يومٍ باردٍ ، فكان يذبحها والدموع تسيل ،
فقال عصفور لصاحبه : لا بأس عليك من الرجل ، أما تراه يبكي ! فقال له الآخر :
لا تنظر دموعه ، وانظر ما تصنع يداه .

ورأى بعضهم ثم هتك الله ستره ، فقال :

يِنِّنا أنا في توبتي مقبلاً قد شبهوني بأبنِ دَوادٍ
وقد حَمَلْتُ العلمَ مستظهِراً وحَدَّثُوا عني بِإِسنادٍ
إِذْ خَطَرَ الشَّيْطانُ بِي خَظَرَةً نَكَّسْتُ مِنْها في أَبِي جادٍ
ابنِ دَوادٍ : عابِدٌ بِمَكَّةَ .

صَلَّى رجلٌ مرأه قَعِيلَ له : ما أحسنَ صَلاتَكَ ! قال : ومع ذلكَ فَإِنِّي صائمٌ .
وقال طاهر بن الحسين لأبي عبد الله المروزي : كم لك منذ نزلت العراق ؟
قال : منذ عشرين سنة ، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة ، قال : يا أبا عبد الله
سألتك عن مسألة فأجبنا عن مَسْأَلَتَيْنِ .

وأمر عمر لرجل بكيس ، فقال : آخذ الخيط ؟ فقال عمر : ضع الكيس .
وكتب رجل عند الحسين كتاباً فقال : أجمعني في حلٍّ من تراب الحائط ؟
فقال : يا أخى بل ورعك لا يتكسر .
وأخبارهم كثيرة .

* * *

قوله : انبغِ أى اطلب : القُرب : أفعال البرّ التي تقرب من الله تعالى ، واحدها
قُرْبَةٌ . ولأجاً وخراجاً ، أى كيف تصرف فيها . داجى : سائر العداوة وناقى .

الحسنى : اسم لفعل الحسن ، وتكون الحسنى مؤنثة الأحسن فتلزمها اللام ، كالكبرى والأكبر وبابه ، وتكون الحسنى كالبشرى والرجعى .

ينهنه يزجر ويكف . فاجى : جاء بفتة ، ولبعضهم :

وهل نحن إلا سرامى السهامِ ويحفزها نابله دائبُ
طرائدُ تطلبنا النائبات ولا بد أن يدرك الطالبُ
حبائلُ للدهر مبثوثة يُردّ إلى جذبها الهاربُ
وقال آخر فى معناه :

تخاربنا جنود لا تجارى ولا تلقى بأساد الحروبِ
تفوق أسما عن ظهر غيبِ وما أغراضها غير القلوبِ
فأتى باحتراس من جنودِ مؤيدة تمتد من الغيوبِ

وقال ابن جبلة :

وأرى الآلى ما طوت من شيرتى زادته فى عِظتى وفى إفهامى^(١)
وعلمت أن المرء من سنن الردى حيث الرمية من سهام الرامى
قوله : اقن ، أى اكتسب والتزم . خلُقًا : طبيعة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تواضع لله رفعه الله » .

وقالت الحكماء : كل ذى نعمة محسود عليها إلا المتواضع .

وقال عبد الملك : أفضل الرجال مَنْ تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، أنصف عن قوة .

وقال رجل لبكر بن عبد الله : علمنى التواضع ، فقال له : إذا رأيت مَنْ
وأكبر منك فقل : سبقتنى إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خير منى ، وإذا رأيت
هو أصغر منك ، فقل : سبقتنى إلى الذنوب فهو خير منى .

وقال أبو العتاهية :

يامن تشرفَ بالدنيا ولذتها ليس التشرفُ رفعَ الطَّينِ بالطَّينِ^(١)
إذا رأيتَ شريفَ القومِ كلَّهمِ فانظر إلى مَلِكٍ في زِيٍّ مسكين
وقال أبو الفتح البستي :

من شاء عيشًا رغيدا يستفيدُ به في دينه ثمَّ في دنياه إقبالا^(٢)
فلينظرنَّ إلى مَنْ فوقه أدبا و لينظرنَّ إلى مَنْ دونه مالا
قوله : لا تَشْمُ ، أي لا تنظر . خال : سحاب . لاح بارقه ، ظهر برقه : تراهي :
تظاهر . هُتُون : كثير الماء . السَّكْب : الصَّبَّ : ثجأجا : صبابا ، ثج الماء ينثج نجا
و ينجته أنا . يُصاخ : يسمع . أَمَمَ : كسب الصمم . والغنى : الخبر بالموت .
ناجى : حَدَّث . اللبيب : العاقل . بُلغة : قوت يوم . تدرج تطوى . كُثِرَ :
كثرة . قُلَّ : قلة . مغبته : عاقبته وآخره . ناز : مرتفع ، ونزأ الفحل ينزو نزوا :
قفز على الأنثى . لين : فتور . هاج : اضطرب ، ويروى : « وكل ناز إلى لين » وهو
الصحيح ، أخذه من المثل : فلان ينزو ويلين ، يقول : لانخدع بما يكون له ظهور
في ملبسه وميئته ، فقد يخيب ظنك وتقلَّ فائدته ، أو يكون مضرا لانفاعا كما قد
ينادى بك ، فتظن النداء لمنفعة ، فإذا سمعته فاجأك بمصيبة . وأخذ لفظ « كم قد أَمَمَ »
بمعنى « من قول أبي تمام :

أَمَمَ بك الناعى وإن كان أَمَمًا فأصبح معنى الجود بعدك بلقعا^(٣)
والسابق إلى هذا المعنى جزو بن ضرار ، أخو الشماخ بقوله :

أتانى فلم أسرُزْ به حين جاءنى حديثٌ بأعلى القُبَّتين عجيبُ
تصامته حتى أتانى بَقِينةٍ وأفرغ منه مخطيء ومصيبُ
وقال المتنبي :

طوى الجزيرة لكأ جاءني خبرٌ فزعت منه بآمالى إلى الكذب^(٤)

(٢) يتيمة لدهر ٤ : ٣٠٧

(٤) ديوانه ١ : ٨٧ ، ٨٨

(١) ديوانه ٢٧٤

(٣) ديوانه ٣٧٤

حتى إذا لم يدع لي صدقه خبراً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
أشار بعد ذلك بالبيتين إلى القناعة ، وأن كثير الدنيا مصيره إلى قليل ، وقد
تقدم أمثال هذا .
وقال أبو تمام :

يا قليل البقاء في هذه الدار ر إلى كم يفرك التسويف^(١)
عجباً لأمري يذل لدى الما ل ، ويكفيه كل يوم رغيـف
ولابن عمران :

عجباً لنا نبغى الغنى والفقـر نيل الغنى لو صحت الألباب
فما يبلغنى الحل كفاية والفضل فيه تكاثر وحساب

* * *

قال الراوي : فلما ألقح عُقْم الأفهام ، يسخر الكلام ،
استزocht ربح أبي زيد ، وما د بي الارتياح إليه أي ميسر ،
فكشت حتى استوعب نث حكيمته ، وانحدر من أكمته .
ثم دلفت إليه ، لأتصفح صفحات مخياه ، وأستشف جوهر
خلاه ؛ فإذا هو الضالة التي أنشدتها ، ونأظم القلائد التي
أنشدتها ، فما شته عناق اللام للألف ، ونزلته منزلة البرء
عند الدنف . وسألته أن يلازمني فأبى ، أو يزاملني فنبأ ، وقال :
آليت في حجتي هذه ألا أحتقب ولا أعتقب ، ولا أكتسب
ولا أنتسب ، ولا أرتفق ولا أرافق ، ولا أوافق من ينافق .

(١) لم أجدها في ديوانه .

ثم ذهب يُزَوِّل ، وغَادَرَنِي أَوَّلُول .

فلمْ أَزَلْ أَقْرِيبَهُ نَظَرِي ، وأودَّ لو يَمْشِي عَلَى نَاطِرِي ، حَتَّى
تَوَقَّلَ أَحَدَ الْأَطْوَادِ ، وَوَقَّفَ لِلْحَجِيجِ بِالْمِرْصَادِ .

فلَمَّا شَاهَدَ إِضْيَاعَ الثَّرَكْبَانِ فِي الْكَشْبَانِ ، وَقَعَ بِالْبَنَانِ عَلَى الْبَنَانِ .

• • •

قوله : فلما ألحح عُثْمُ الْأَفْهَامِ ، أى جعل العقيم منها حاملاً بالعلم والفهم .
استروخت : شمت فوجدت راحته . مادَ : مال . الارتياح : الطَّرب . مكثت :
أقمت . أستوعب : أستوفى : نث : نشر . أكمته : كُدَيْتُهُ^(١) . دلفت : أسرعت .
أنصفح : أنظر . صنعات محتياه : جهات وجهه . أستشف : أبالغ النظر فيها .
جوهر حُلاه : خلقه صفاته . أنشدها : أطلبها . القلائد : جمع قلادة ، وهى ما يُجْمَلُ
فى العنق من سلوك الجوهر وغيرها ، ومنه تقليد البدن بمكة ، وتقلدت
بالسيف : جعلته فى عنقي ، وقد كنت الأمر : جعلته فى عنقك ، وناظم القلائد : جعلها
فى خيطها ، ويعنى بالقلائد ما نثر من وعظه ، وأنشده من شعره - وصدق لعمري
إن كلامه المنظوم والمشور أبهى من القلائد فى أعناق الخرائد .

وقوله : عناق اللام للآلف ، أما بخط المغرب فلا معانقة بينهما إلا فى
الطرفين ، وربما وقعت فى بعض هذا الخط كالصليب ، وفى بعضه لا التقاء بينهما
الْبَتَّةَ ، وإنما يريد صورة لام ألف بالخط الكوفي ، وهما بذلك الخط متعاقدان
متلازمان من الأعلى إلى الأسفل . وأخذ اللفظ من قول بكر بن خازجة :

بِأَمْنٍ إِذَا قَرَأَ الْإِنْجِيلَ ظَلَّ لَهُ قلب الحنيف عن الإسلام منصرفاً
رَأَيْتُ شَخْصَكَ فِى نَوْمِ يِعَانِي كما تعانق لأم الكتاب الألفا

(١) الكدية : الأرض الفايطة .

[مما قيل في العناق من الشعر]

ونذكر هنا ما يستحسن في العناق ، قال البحتري :

تلك نِعْمٌ لو أنعمت بوصولٍ لشكرنا في الوصل لإنعام « نعم »^(١)
نسيّت موقف الجمارِ وشخصاً نا كشخصٍ ، أرمى الجمارَ وترى
وقال أيضاً :

ولم أسَ ليلتنا في العنا قِ لَفَ الصَّبَا بقضيب قضيباً^(٢)
كما مرّت الريح في سيرها فطوراً خفوقاً ، وطوراً هبوباً
وقال ابن المعتز :

كأنما عانت ريحانةً تنفّست في ليلها البارد^(٣)
فلو ترانا في قميص الدُجَى حسبتنا من جسد واحد

وقال عليّ بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمتنا بعد هجمة وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب^(٤)
فبقنا جميعاً لو تُراق زجاجةٌ من الماء فيما بيننا لم تسرب
وقال ابن عبدوس الفاسي : سرتُ يوماً إلى ابن الجهم ، فأنشدني البيتين
في العناق ، فاقطع زندي لإيراد مثله ، فقلت :

لا وللنازل من نجدٍ وليلتنا بميد إذ جسدانا بيننا جسدُ
كرام فينا الكرى مع لطف مسلكه نوما فما انفك لا خد ولا عضدُ
ما أنصفوني ، دعوني فاستجبت لهم حتى إذا قربوني منهم بُمدوا
أخذ هذا البيت من قول الآخر :

أشكو الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

(١) ديوانه ١٩٤٠ (٢) ديوانه ١٥٠ (٣) ديوانه ٧٧
(٤) للعباس بن الأحنف ، ديوانه ٨٤

وقال أبو نواس :

لبسنا رداء الليل والليل راضعٌ إلى أن تردّي رأسه بمشيبِ
وبنّنا كفصنّى بانهٍ عصفتُما مع الصّبح ريحاً شمال وجنوبِ
إلى أن بدّا ضوء الصّباح كأنه مبادئ نصول في عذار خضيبِ
فياليلُ قد فارقتَ غير مذمّمٍ وباصبح قد أصبحتَ غير حبيبِ

قال صالح بن موسى :

لى سيّد ما مثله سيّدٌ تصدّتِ الحصى له فاشتكى
عائقته عند موافقها والأفق بالليل قد أحلّوكا
فجاءت الحصى لعاداتها فلم تجد ما بيننا مسلكا

ولابن الرومي :

طالما التفت إلى الصبّ ح لنا ساقٌ بساقِ
في نقابٍ من ودادٍ ولثامٍ من عناقِ

وقال أيضاً :

أعانقها والنفس بعد مشوقةً إليها وهل بعد العاق تدان^(١)
وألمّ فهاها كي تموتَ حرارتي فيشتدّ ما ألقى من الهيمانِ
كانَ فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحانيّ ممتزجانِ
وقال ابن المعتز :

ياربّ فتیان محبتهم ——— لا يرفعون لسلوة قلبا
لو تستطيع قلوبهم نفذت أجسامهم فتعانت حبا

وقال ابن رشيقي :

ومهمفٍ يحميه عن نظر الوري
فلثمتُ خدًا منه ضرْمَ لوعي
وضمته للصدر حتى استوهبت
فكأن قلبي من وراء ضلوعي
وقال ابن لبّال :

ما كنت أحسب قبل رؤية وجهه
غازلته حتى بدا لي ثغره
كم ليلة عانته فكأنما
يطنى ويلعب عند عقد سواعدي
وقال آخر :

مشتاقةً طرقت في الليل مشتاقاً
يا زائر أزار من قُربٍ على بُعدٍ
يا ليل عرج على إلفين قد جملا
وقال ابن الزقاق :

ومرّجة الأعطاف أمّا قوامها
سريت^(٢) فبات الليل من قصرها
وبت وقد زارت بأنعم ليل
على عاتق من ساعدتها خائل^(٣)
فلدن، وأما ردفها فرداح^(١)
يطير وما غير السرور جناح
يعانقني حتى الصباح صباح
وفي خصرها من ساعدي وشاح

(١) نقله في التنف ١٣ .

(٢) ديوانه ١٢٩ والرداح : الضخمة .

(٣) ديوانه « ألت » .

ونظير هذا قول برهون الغرناطي :

لله درّ ليلٍ ما أَحَسَّ نَهَا وما أَحَسَّ نَ مِنْهَا لَيْلَةَ الْأَحَدِ
لو كُنْتُ حَاضِرًا فِيهَا وَقَدْ غَفَلْتُ عَيْنُ الرَّقِيبِ فَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ
أُبَصِّرْتُ شَمْسَ الضُّحَى فِي سَاعِدِي قَمَرٍ رِيْمٌ مُوسَدَةٌ فِي سَاعِدِي أُسَدٍ

وقال ابن قاضي ميلة :

حيث التقى أُسَدُ العرينِ وَغُطِيَّةٌ تحت اللعافِ وَصَارِمٌ وَسِيَّوَارُ
قالت أرى بيني وبينك ثَالِثًا ولقد عهدتكَ لِلدَّخِيلِ تَفَارُ
أُؤْمِنْتُ نَشَرَ حَدِيثِنَا فَأُجِبْتُهَا هذا الَّذِي تُطَوِّى لَهُ الْأَمْرَارُ
أخذ هذا من قول امرئ القيس :

تَجَافَى عَنِ الْمَأْثُورِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَتُذَنِّبِي عَلَى السَّابِرِي الْمَضْلَعَا^(١)
يعنى بالمأثور السيف .

قوله : الدِّف : المريض . يُزَامَلْنِي : يرادفني ، والزَّمِيل : الرديف . نَبَاً :
ارتفع وامتنع . أحتقب : أركب موضع الحقيبة ، وهى ما يعلق خلف الراكب ،
فيريد أنه حلف ألا يكون رديفاً ، ويريد بأحتقب ألتخذ حقيبة للزَّاد ، يريد أنه
لا يحمل زاداً انكالا على ما عند الله تعالى . أعتقب : أركب عقبة يعنى نوبة ،
وما يعتقبان ويتعاقبان ، إذا ركب أحدهما فجاء الآخر فكان مكانه ، والاعتقاب :
ركوب واحد ونزول آخر .

ولحاتم فى المعنى :

وما أنا بالساعى بفضل زمامها لتشرب ماء الحوض قبل الركائب^(٢)

وَمَا أَنَا بِالطَّائِىِ حَقِيقَةً رَحَلَهَا لِأَبْعَثَهَا خِفَا وَأَنْزَلَ صَاحِبِي
 إِذَا كُنْتَ رَبًّا لِلْقُلُوصِ فَلَا تَدَعُ رَفِيقَكَ يَمْشِي حَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ
 أَنْحِيهَا فَأَرْدِفْهُ فَإِنَّ حَمَلَتُكَمَا فَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْعَقَابُ فَمُصَاقِبِ
 أَرْتَفِقْ: أَسْتَعِينُ أَرَاغِقُ: أَطْلُبُ رَفِيقًا. يَهْرُؤُلُ: يَسْرِعُ الْمَشَى. غَادَرَنِي: تَرَكَنِي
 أَوَّلُولُ: أَصْبَحُ: يَا وَبِلَى. أَقْرِبُهُ: أَتَبِعُهُ. تَوَقَّلْ: صَعِدْ. الْأَطْوَادُ: الْجِبَالُ.
 بِالْمُرْصَادِ: بِمَضِيقِ الطَّرِيقِ بِمَحِثٍ يَرْتَصِدُ فِيهِ جَمِيعُ النَّاسِ، وَالْمُرْصَدُ وَالْمُرْصَادُ عِنْدَ
 الْعَرَبِ الطَّرِيقُ. إِبْضَاعُ: سُرْعَةٌ، وَقَدْ أَوْضَعَ فِي سِيرِهِ: أَسْرَعَ كَأَنَّهُ يَهْتَزُّ وَيَرْكُضُ.
 الْكُثْبَانُ: أُرْدَاسُ الرَّمْلِ. رَقَعَ: ضَرَبَ بِالْبَنْبَانِ عَلَى الْبَنْبَانِ، أَيْ صَفَّقَ
 بِيَدَيْهِ، وَقَدْ تَطَلَّقَ الْبَنْبَانُ مَرَادًا بِهَا الْيَدُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ
 بَنَانٍ﴾^(١)، أَيْ الْأَيْدَى وَالْأَرْجُلَ.

وَأُنْشِدُ الْفَنَجْدِيَّ:

أَقَامُوا الدَّيْدَبَانَ عَلَى يَفْسَاعٍ وَقَالُوا لَا تَنْمُ لِلدَّيْدَبَانَ
 إِذَا أَبْصَرْتَ ضَيْفًا مِنْ بَعِيدٍ فَوَقَّعَ بِالْبَنْبَانِ عَلَى الْبَنْبَانِ
 ثَرَامَ خَشْمَةِ الْأَضْيَافِ خُرْسًا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانِ

* * *

وَأَنْدَفَعُ يَنْشُدُ:

لَيْسَ مَنْ زَارَ رَاكِبًا مِثْلَ سَاعٍ عَلَى الْقَدَمِ
 لَا وَلَا خَادِمٌ أَطَاعَ عَ كَعَاصٍ مِنَ الْخَدَمِ
 كَيْفَ يَأْقُومُ يَسْتَوِي سَعَى بَانَ وَمَنْ هَدَمَ
 سَيَقِيمُ الْمَقَرَّ طَوَّو نَ غَدَاً مَاتَمَ النَّدَمِ
 وَيَقُولُ الَّذِي تَقَرَّرَ بَ: طَوَّو لِمَنْ خَدَمَ

وَيْكَ يَا نَفْسُ قَدِّمِي صَالِحاً عِنْدَ ذِي الْقَدَمِ
 وَازْدَرِي زَخْرَفَ الْحَيِّ - لَافٍ فَوُجِدَانَهُ عَدَمَ
 وَاذْكُرِي مَصْرَعَ الْحَمَا م - إِذَا خَطْبُهُ صَدَمَ
 وَانْدُبِي فِعْلَكَ الْقَبِيحَ - حَاحَ وَسِحَّى لَهُ بَدَمَ
 وَادْبُغِيهِ بِتَوْبَةٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلَمَ الْأَدَمَ
 فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَقْبَلَكَ السَّعِيرَ الَّذِي احْتَدَمَ
 يَوْمَ لَا عَثَرَةَ تُقَالُ وَلَا يَنْفَعُ السَّدَمَ

• • •

قوله : ليس من زار راكباً ... البيت . يريد أن ثواب الماشي في الحج أكثر من ثواب الراكب .

وقال ابن عباس لبغية : اخرجوا من مكة مشاة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّ للحاجَّ الراكب بكلِّ خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة ، وللماشي بكلِّ خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قالوا : يا رسول الله ، وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنات منها بمائة ألف .

وقوله : سَعَى بَانَ وَمَنْ هَدَمَ ، من قول بشار :

مَتَى يَبْلُغَ الْبَنِيَانُ يَوْمَا تَمَامِهِ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَآخِرُ يَهْدِمِ

المقرطون : المقصرون . مَاتَمَ : مناحة . وَيَكُ : تعجب . اَزْدَرِي : احتقرى . زَخْرَفَ : زينة . وَجِدَانُ ، مصدر وجدت الشيء . اَنْدُبِي : ابكى . الْحَمَامُ : الموت . مَصْرَعُهُ : طَرْحُهُ للعت بالارض . خَطْبُهُ : أمره الشديد . صَدَمَ : ضرب ، والصَّدَمُ : ضرب الشيء الصلب بمثله ، وأراد أنه أصاب ، من قولهم : صدمهم أمر ، أى ضربهم . (٣ - مقالات الحريري ج ٤)

أصابهم . سَجَى : ضُي . يحلم : يتنقب . الأدم : الجلد ، وهو مثل يُضرب للشيء يفوت ، قال الشاعر :

* كدابةٍ وقد حلم الأديم ^(١) *

السَّعِير : النار المتقدة . احتدم : التهب واشتد انتقاده . السَّدَم : همٌّ مع ندم .

* * *

ثمَّ إِنَّهُ أَغْمَدَ عَضْبَ لِسَانِهِ ، وَانْطَلَقَ لِشَانِهِ ، فَا زِلْتُ فِي كُلِّ مَوْرِدٍ نَزْدَهُ ، وَمُعَرَّسٍ تَتَوَسَّدُهُ ، أَتَفَقَّدُهُ فَأَفْقِدُهُ ، وَأَسْتَنْجِدُ بِمَنْ يَنْشُدُهُ فَلَا يَجِدُهُ ، حَتَّى خِلْتُ أَنَّ الْجِنَّ اخْتَطَفَتْهُ ، أَوِ الْأَرْضَ اقْتَطَفَتْهُ ، فَا كَابَدْتُ فِي الْغُرْبَةِ ، كَهَذِهِ الْكُرْبَةِ ، وَلَا مُنِيتُ فِي سَفَرَةٍ ، بِمِثْلِهَا مِنْ زَفَرَةٍ .

* * *

عضب : حدّ ، وأراد ياغمده سكوته . لشانه : لأمره . مورد : موضع الماء . نزده : نقصده . معرّس : موضع النزول بالسَّحَر للاستراحة . تتوسّده : تنزل فيه . أتفقّده : أطلبه ، والتفقّد طلب المفقود ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ ^(٢) ، طلبه بعد ما فقد . أستنجد : أستمع . ينشده : يطلبه . اختطفته : أخذته ، بسرعة . اقتطفته : اقتطعته . كابدت : قاسيت . الكربة : الهم . مُنِيت : بُليت . زفرة : تنفّس المهموم .

(١) صدره :

* فَإِنَّكَ وَالْكِتَابَ إِلَى عَلِيٍّ *

من أبيات الوليد بن عتبة يحض فيها معاوية على قتال علي . السان - حلم .
(٢) سورة النمل ٢٠ .

ولأبى طالب الرِّقَى في غلامٍ محرم^(١) :
 ومشتعلٍ عِظْفَى عفافٍ وفتنةٍ
 يرى قَتْلَ مَنْ يَهْوَى إلى النُّسكِ مَسْلَكًا
 جَوَّ اللحظُ من خديهِ وَرَدًّا مكفورًا^(٢)
 ومِنْ عارضيه يَاسمينًا ممسكًا
 فيا راحمًا منه بأوفر فتنةٍ تجهَّزَ لعامٍ بعد هذا لعلَّكَ
 وقال صالح بن موسى :
 عشقتُ صوفيًّا له شاهدٌ يقيمُ عذري عند عُدَّالِي
 قد عبَدَ اللهُ بأحواله فليته ينظر في حالي

(١) أبو طالب الرق من شعراء اليتيمة ، والأبيات في الجزء الأول فيها م ٢٤٥ .
 (٢) اليتيمة : « موردًا » .

المقامة الثانية والثلاثون وتعرف بالطبيبة

حكى الحارث بن همام ، قال : أَجْمَعْتُ حِينَ قَضَيْتُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ ،
وَأَقَمْتُ وُظَائِفَ الْعَجِّ وَالشَّجِّ ، أَنْ أَقْصِدَ طَيِّبَةً ، مَعَ رُقُقَةٍ مِنْ بَنِي
شَيْبَةَ ؛ لِأَزُورَ قَبْرَ الْمُصْطَفَى ، وَأَخْرُجَ مِنْ قَيْلٍ مَنْ حَجَّ وَجَفَا ،
فَأَرْجِفَ بَأْنَ الْمَسَالِكِ شَاغِرَةً ، وَعَرَبَ الْحَرَمَيْنِ مُتَشَاكِرَةً ،
فَحِرْتُ يَنْ إِشْفَاقٍ يُثَبِّطُنِي ، وَأَشْوَاقٍ تُنَشِّطُنِي ؛ إِلَى أَنْ
أُتَّى فِي رُوعِي الْإِسْتِسْلَامَ ، وَتَغْلِبُ زِيَارَةُ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فَأَعْتَمْتُ الْقُعْدَةَ ، وَأَعْدَدْتُ الْمُدَّةَ ، وَسِرْتُ وَالرُّفْقَةَ ، لَا نَلْوِي
عَلَى عُرْجَةٍ ، وَلَا نَنِي فِي تَأْوِيلٍ وَلَا دُجْلَةٍ ، حَتَّى وَافَيْنَا بَنِي
حَرْبٍ ، وَقَدْ آبَوْا مِنْ حَرْبٍ ، فَأَزْمَعْنَا أَنْ نُقْضَى ظِلُّ الْيَوْمِ ،
فِي حِلَّةِ الْقَوْمِ .

أجمعت : عزمتُ عليه كأنه جمع نفسه له . ومناسك الحج : متعبداته . وظائف :
لوازم ، والوظيفة : النصيب الذي يلزمك عزمه . العج : رفع الصوت بالتلبية ،
وكانوا في الجاهلية إذا أتموا حجهم يتفاخرون بما أثر آبائهم ، فأمرُوا بالثناء على
الله تعالى . والنج : إراقة الدماء ، وعج يعج عَجًا وعجيجًا : رفع صوته ، ونَجَجْتُ
الدمع ، أُنَجَّته : أسلته ، وهو لازم ومتعمد . وسئل رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن أفضل الأعمال فقال : « العج والشج » .

طَيِّبَة : مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . بنو شيبَة : حَجَّبة البيت ، وشيبَة هو عبد المطلب ، وُسِّمَى بذلك ، لأنه نشأ بالمدينة عند أخواله صغيراً ، فلما مات أبوه هاشم ذهب إليه المطلب ، فأتى به فرآه معه أهل مكة فقالوا : ما هو إلا عبد اشتراه ، فغلب عليه عبد المطلب . جَفَا أراد به قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَجَّ البيت ولم يَرْزُقْنِي ، فقد جفاني ، وَمَنْ زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاءني زائراً لايهته إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً يوم القيامة » . وفي رواية : « مَنْ زار قبري وجَبَتْ له شفاعتي » .

وأرجف الرَّجُل : خاض في الفتنة والأخبار المسيئة . وشغَر الطريق : خلا من حُماته والمدينة خلت من حماتها ، وبلد شَاغِر ، بعيد من القاضي والسلطان ، فلا يمتنع مِنْ غارة أحد ، والشَّغَر : التفرقة ، ومنه : خرجوا شَغَر بَغَر ، أى تفرقوا ، وشغَر عن بلده شَغَرًا وشَغَرًا ، إذا طرحوه ونفوه ، واشغَرَت الحربُ بينهم : اتسعت وعظمت ، وامرأة شاغرة ، إذا رفعت رجليها السكلَّ من نكحها ، والمعنى أن المسالك شاغرة ، أى أن الطرق مضطربة خالية من حماتها . الحرمين : مكة والمدينة . متشاجرة : مختلفة . إشفاق : خوف . يَنْبُطُنِي : يحبسني . تَنْشُطُنِي : تحرصني . زُوعَى : نفسى . الاسة سلام : الانقياد لأمر الله تعالى . أَعَمَّت : اخترت . القُمدة : الراحلة المتخذة للركوب . تلوى : تعطف . عُرْجة شئ : يشغل ليعرج عليه . نَبِي : نفرت ، وتأويب ودُلْجَة : مشى النهار والسَّحَر ، والدَّلْجَة ، بضم الدال : الاسم من الإدلاج ، وهو سير جميع الليل ، والتأويب : سير النهار أجمع ، والدَّلْجَة ؛ بفتح الدال من الإدلاج بوزن الافتعال ؛ وهو أن يسير من آخر الليل . يعقوب : خرجنا بدُلْجَة ودُلْجَة : إذا خرجوا في آخر الليل . وافيناً :

وصلنا . آبا : رجعوا . أزمعنا : عزمنا . نقضى : فتم ، أراد عزمنا على أن نزل .
ونتم بقية يومنا عندهم ، وظل الشئ إنما يبقى ببقائه . والحلة . النزول ، والقوم :
اسم للجمع ، والحلة هيئة الحلول ، والحلة مجلس القوم ومجتمعهم ، لأنهم يحلونه ،
والجمع حلال ، والحلة جماعة بيوت الناس .

وبينا نحن نتخير المناخ ، وتروذ الورد النقاخ ، إذ رأيناهم
يزكضون ، كأنهم إلى نصب يوفضون ، فرأينا انثيالهم ،
وسأنا ما بالهم ؟ فقل : قد حضر ناديم فقيه العرب : فإهرأهم .
لهذا السبب : فقلت لرفقتي : ألا نشهد مجمع الحى ، لتبين
الرشد من الغى ؟ فقالوا : لقد أسمعنا إذ دعوت ، ونصحت .
وما ألوت .

المناخ : موضع النزول . تروذ : نطلب . الورد النقاخ : الماء البارد العذب .
وأشد أبو على :

تركت النبيذ لأهل النبيذ وأصبحت أشرب عذبا نقاخا

سمى نقاخا ، لأنه ينقخ القواد ببرده ، أى يكسره . يركضون : يجررون
مسرعين . نصب : صنم ، كانوا فى الجاهلية ينصبونه ، ويذبحون عليه لأوثانهم ،
وجمعه أنصاب ، والنصب : للشر ، قال الله تعالى : ﴿ بَنَصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ . يوفضون :
يسرعون . إهرأهم : إسرأهم ، وأهرع : أسرع فزعاً مرتعداً . ويهرعون :
يستعثون . ألوت : قصرت .

نَمْ نَهَضْنَا نَتَّبِعُ الْهَادِيَ ، وَنَوْمُ النَّادِي ، حَتَّى إِذَا أَظْلَلْنَا عَلَيْهِ ،
 وَاسْتَشْرَفْنَا الْفَقِيهَ الْمَنُودَ إِلَيْهِ ، أَلْفَيْتُهُ أَبَا زَيْدٍ ذَا الشُّقْرِ وَالْبُقْرِ ،
 وَالْفَوَاقِرَ وَالْفَقَرَ ، وَقَدْ اعْتَمَّ الْقَفْدَاءُ ، وَاشْتَمَلَ الصَّمَاءُ ، وَقَمَدَ
 الْقَرْفَصَاءُ ، وَأَعْيَانُ الْحَيِّ بِهِ مُحْتَفُونَ ، وَأَخْلَاطُهُمْ عَلَيْهِ مُلْتَفُونَ ،
 وَهُوَ يَقُولُ : سَأُونِي عَنِ الْمَعْضِلَاتِ ، وَامْتَوَضَحُوا مِنِّي
 الْمُسْكَلَاتِ ، فَوَالَّذِي فَطَرَ السَّمَاءَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ ، إِنِّي لَفَقِيهٌ
 الْعَرَبِ الْعَرَبَاءُ ، وَأَعْلَمُ مَنْ تَحْتَ الْجُرْبَاءِ . فَصَمَدَ لَهُ فُتِي
 فَتِيقُ اللَّسَانِ ، جَرِيءُ الْجَنَانِ ، وَقَالَ : إِنِّي حَاضِرْتُ فَقَهَاءَ
 الدُّنْيَا ، حَتَّى اتَّخَلْتُ مِنْهُمْ مِائَةَ فُتِيَا ، فَإِنْ كُنْتَ يَمَنِّ يَرْغَبُ
 عَنْ بَنَاتٍ غَيْرَ ، وَيَرْغَبُ مِنَّا فِي مَيْرٍ ، فَاسْتَمِعْ وَأَجِبْ ، لِتُقَابَلَ
 بِمَا يَجِبُ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، سَيَبِينُ الْمَخْبِرُ ، وَيَنْكَشِفُ
 الْمُضْمَرُ ، فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ .

. . .

الهادي : الدليل . نوم : نقصد . النادي : مجتمع القوم . أظللنا : قربنا منه
 ودنونا وأشرفنا عليه . استشرفنا : نظرنا وتأملنا ، والاستشراف : أن تضع يدك
 على حاجبك من الشمس إذا أردت النظر إلى شيء يبعد منك . المنهود : المقصود ،
 ونهدت إليه ونهضت بمعنى ، ونهد ينهد نهداً ، أي شخص ونهض . وقيل :
 أكثر ما يستعمل هذا في الحرب ، يقال : نهد إلى العدو ، إذا نهض ليقاظه .
 ألفتته : وجدته . ذا الشُّقْرِ وَالْبُقْرِ : صاحب الدواهي ، يقال : جاءنا بالشُّقْرِ
 وَالْبُقْرِ ، إذا جاء بالكذب المستفطع ، وجاء بالشُّقَارَى وَالْبُقَارَى ، أي بالكذب .
 والفواقير : قواصم الظَّهَر ، يراد بها الدواهي ، والفاقرة : الكاسرة للفقار ، وهو

عظم الصُّلب . والفقر في النثر ، مثلُ القوافي في الشعر . القَفْداء ، بالقاف قبل الفاء : أن يلفّ عمامته على رأسه ولا يرسل منها شيئاً . ابن سيده : القَفْداء : والقَفْد ، إذا لوى عمامته على رأسه ، ولم يُسَدِّلها ، قال الأزهرى رحمه الله تعالى : العمة القَفْداء معروفة ، وهى الميلاء ، والسنة أن يتمم ويُسدِّل خلف ظهره .

ابن عمر رضى الله عنهما . كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تمم سدَلَّ عمامته بين كتفيه . والصَّمَاء : أن تُجَلِّلَ نفسك بالثوب غير الخيط ، ولا ترفع شيئاً من جوانبه ، فتسكون فيه فُرْجة تخرج منها اليد ، وإنما نهى عن ذلك مخافة أن تصيبه شدة في تلك الحالة ، وهو لا يقدر على إخراج يده ، فيدفعها فيك .

وقال الفجنديهى : رأيت بخط الحريرى : اشتمل الصَّمَاء ، أى التحف بثوب جَلَّل جسده ، وقيل لها صَّمَاء لأنها لا متفذ فيها كالصخرة الصماء ، التى لا صدع فيها ولا خرق ، وهى عند الفقهاء أن يشتمل بثوب واحد ليس عليه غيره ، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضه على مَنْكبيه ، فتبدو عورته ، فنهى عن ذلك .

وقال الأزهرى : هذا أصح الكلام ، والفقهاء أعلم بتأويل هذا . والقُرْفَاء : أن يقعد على إيتيه ، وينصب ساقيه ، ويصق فخذه بيطنه ويحتبى بيديه فيضعهما على ساقيه ، قاله أبو عبيد . وقيل : هى جلسة المحتبى ، ثم يرفع فخذه وركبته إلى صدره ، ويدير يديه على ساقيه ، ويشدّهما ، فإذا فلت ذلك بالرجل وشددت يدك عليه ، فقد قرصته .

الفجنديهى : رأيت بخط الحريرى : معناه أن يَحْتَبى بيديه ، قال أبو أمامة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس القُرْفَاء فيضع يده اليمنى على الشمال عند المفصل . وتقرص الرجل ، إذا جمع يديه وانضم من جَرَب أو قروح به . أعيان : أشراف . محققون : مخلقون ، والمنزل محفوف بالناس إذا اجتمعوا بحفايه ، أى بجانبه . والأخلاط : الدون من الناس . والمعضلات : الغامضات

من الكلام الصَّعْب. واستوضحوا ، أى طلبوا منى إيضاها ، أى بيانها . فَطَرُ : خلق ، وفطر الله الخلق ابتداء خلقهم ، قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطرُ السموات والأرض حتى احتكم إلى أعرا بيان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرُها ، أى ابتدأتها ، وقال الله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾^(١) أى خلقتنى . ويتفطرن : يشققن ، وانفطرت : تشققت . وعلم آدم الأسماء كلها ، أى علمه أسماء كل شيء من المخلوقات . وفقه العرب ، أى عالمهم ، وقال تعالى : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾^(٢) أى ليكونوا علماء به ، وكل عالم بشيء فهو فقيه فيه ، ويقال : فقهت عنك ، أى فهمت ، وفقهت فقها ، أى صرت فقيها ، وهو الحاذق بما يعلمه ، وفقهت الرجل : غلبته في الفقه . العرباء : الخالصة ، وهذا الادعاء الذى يدعى الآن يسمى انتحال العلم .

وقال بعض الحكماء : لا ينبغي لأحد أن ينتحل العلم .

وقال مقاتل بن سليمان يوما ، وقد دخلته أبهة العلم : سلوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى ، فقال له رجل : مانسألك عن شيء من ذلك ، إنما نسألك عما مملك في الأرض ، أخبرني عن كلب أهل الكهف ما كان لونه ؟ فأخذه .

ولما شهرت تأليف ابن قتيبة ، ولحظ بعين العالم المتفطن ، صعد المنبر ، وقد غصَّ المحفل واعتلى ، تبرزاً على علماء وقته ، مع فضل جاه اشتمل به من السلطان ، فقال : ليسألى من شاء عما شاء ، فقام إليه أحد الأغفال ، فقال له : ما النقيط والتطهير ؟ فلم يجز جواباً ، وأخذه ونزل خجلاً ، وانصرف إلى منزله كسلاً . فلما نظر اللفظتين وجد نفسه أذكّر الناس بهما ، وهذا من عقاب العُجْب .

ورأيت في بعض الأخبار أن ابن قتيبة سُئِلَ عن حرف لغة فلم يعلمه وقت

السؤال - وكان أبيض مشرباً بحمرة - فلما وجد الحرف غلبت الحمرة على وجهه ، حتى طفىء أسفاً على قوتِ الحرف وقت الحاجة ، ولعله كان ما قدمنا في الحكاية .

وقال قتادة : ما سمعت قط شيئاً إلا حفظته ، ولا حفظت قط شيئاً فنسيته .
ثم قال : يا غلام هات نمل ، فقال : هما في رجلك ، ففضحه الله .

وقال قتادة : حفظت ما لم يحفظ أحد قط ، ونسيت ما لم ينس أحد قط ، حفظت القرآن في سبعة أشهر ، وقبضت على الحيتي ، وأنا أريد أن أقطع ما تحت يدي ، فقطعت ما فوقها .

وكان بشرى رجل من أهل الدين والورع ، وحجّ في أيام أبي حامد وصحبه ، ففانت صلاة الصبح يوماً لأحد أصحابه ، فلامه على ذلك ، فاعتذر له صاحبه فلم يعذره . ثم قال له على معنى الترغيب : كمُلت لي اليوم عشرون سنة ، ما فاتني صلاة الصبح في جماعة ، فلما كان في اليوم الثاني أدرك الحاج من صلاة الصبح ركعة واحدة ، فلما لقيّه صاحبه بعد الصلاة قال له : هذا كما رأيت . وإنما ذكرت عمالك على معنى التبصرة والإرشاد ، فلو ذكرتّه على غير ذلك لفاتتك ، وإذا كان موسى كلم الله قد عاتبه الله على الانتحال ، حين سئل : أيّ الناس اليوم أعلم ؟ قال : أنا ، وابتلى بالسفر حتى لقي الخضر ، وجلس إليه راغباً في أن يعلمه ، والخضر لا ينبسط له في التعليم ، ونقرّ عصفور في البحر ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله تعالى ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

وروى عن عبد الملك بن حبيب من طريق وهب بن منبه : أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : أتدري لم كأمّتك ؟ قال : لا ياربّ ، قال : إني أطّعت على قلوب العباد فلم أر فيها قلباً أشدّ تواضعاً من قلبك ، قال المنجم :

لكل شيء في الورى آفةٌ وآفة المرء من الكبر

وقال آخر :

الكثير بأسٌ والتواضع رفعةٌ والمزح والضحك الكثير سقوط
والحرص قفر والقناعة رفعةٌ واليأس من روح الإله قنوطٌ
فينبغى لكل عاقل أن يقول : ما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم
بقوله : ﴿ ربِّ زدني علماً ﴾^(١) ، ولا يَرى لنفسه حظاً ، ويشكر الله تعالى على ما أعطاه
فهو بالأدب أليق ، وبالشرع أوفق .
ومن سخييف الشعر في الانتحال :

وما عن لي من غامض العلم غامضٌ مدَى الدهر إلا بتَّ منه على علمٍ
وقال عدى بن الرقاع :

وعلمت حتى ما أشاورُ عالماً عن علم واحدةٍ لكي أزدادها^(٢)
وسمعه كثيراً ينشده الوليد بن عبد الملك ، فقال له : كذبت وربَّ البيت
الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين في صغار الأمور دون كبارها ، حتى يتبين
جهلك ، وما كنتَ قطَّ أحقَّ منك اليوم حين تظنَّ هذا في نفسك^(٣) .
وقال أبو موسى المنجم : ما أحدٌ تمنيت أن أراه ، فلتا رأيته أمرت بصفّعه
إلا عدياً ، فقيل له : ولم ذلك ؟ قال : لقوله هذا البيت ، كنت أعرض عليه
أصناف العلوم ، فكلّما مرَّ عليه بشيء لا يحسنه أمرت بصفّعه .
قوله : وأعلم من تحت الجرباء : سُمّيت السماء جرباء ، لأن النجوم فيها
كالجرب في البدن .

وقال ابن الرومي في غلام يهواه وخرج عليه جذريٌّ ، وأشار إلى
جرب السماء :

وقالوا شأنه الجذريّ فانظر إلى وجهه به أثر السكّومِ
فقلت : ملاحه نُثرت عليه وما حُسْنُ السَّما بلا نجوم !

وقال أبو بكر بن السراج في الفتح بن مسروق البلخي ، وقيل : قالهما
بني ابن ياسر اللقي ، وكان من أحسن الناس وجهاً :

لِي قمر جُدِّرَ لَنَا استَوَى فزاده حسنا وزات الموم^(١)
كَأَنَّمَا غَنَى لشمس الضحى فنقطة طربا بالنجوم

وقال آخر :

كَأَن أثمار نجدِيرِ بوجنته عشر معورة في صحن راق

* * *

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون :

قَالَ لِي اعْتَلْ مَنْ هَوَيْتَ بِسُودُ قُلْتَ أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيَحْكَ ، لَا هُوَ^(٢)
مَا الَّذِي تَنْقِمُونَ مِنْ بَرَاتٍ ضَاعَتْ حُسْنُهُ وَزَانَتْ حِلَاهُ
وَجْهَهُ - فِي الصَّفَاءِ وَالرِّقَّةِ - لَهَا ، فَلَا غَرَوُ أَنْ حَبَابُهُ عَلَاهُ

قوله : صمد ، أى قصد . فتيق : طليق . جرى الجنان : ماضى القلب
قوية . اتخذت : اخترت . الفتياء : لغة في الفتوى ، وهما اسمان يوضعان موضع
الإفتاء ، تقول : إفتاء وفتياء وفتيوى .

بنات غير ، كناية عن الكذب . الفنجديهي . رأيت بخط الحريري :
بنات الغير : الكذب .

القراء : يقال للرجل ، أبو بنات عبر ، وهو الباطل بعين مهملة وباء منقوطة ،
واحدة .

مير : رزق وحلة ، وأصله جلب الطعام للأكل . الله أكبر : حكى
أهل اللغة أن معناه كبير ، وقال الفرزدق :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا يِعَا دَعَائِمَهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ^(٣)

(١) إنباء الرواة ٣ : ١٤٨

(٢) ديوانه ٧١٤ .

(٣) ديوانه ١٢٤ .

أى عَزِيْزَةٌ طَوِيلَةٌ .

قال معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرَى وَإِنِّى لَأَوْجِلُ عَلَى أَيِّنَا تَعَدُّوْا الْمَنِيَّةَ أَوَّلُ^(١)
أى لوجل ، وقال النحويون : الكسائي والفراء وهشام معناه : أكبر
من كل شيء ، لحذفت مِنْ لَأَنَّ أَفْعَلَ خِبر ، كقولك : أبوك أفضل وأعتل ،
أى من غيره ، ولو كان اسما لم يحذف منه شيء ، ألا ترى أن مَنْ قال : أخوك
أفضل لم يقل إن أفضل أخوك ، لحذفت « مَنْ » فى الخبر ، لأن الخبر يدل
على أشياء غير موجودة فى اللفظ ، نحو أخوك قام ، فيدل على المصدر والزمان
والمكان والاسم لا يحذف منه شيء يدل عليه . والخبر ، مصدر خبرت خَبَرَةً
ونَحْبَرًا ، إذا جَرَّبْتَهُ ، فأراد : سيتبين لك بالتجربة ما دعيته من العلوم ، وينكشف
لك ما أضمرته منها . اصدع : تكلم وأظهر ، وصدعت بالحق تكلمت به جهارا ،
وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾^(٢) أى أظهر دينك .

وإنما اعتمد الشيخ أبو محمد الحربى فى شرح الألفاظ التى ألغز بها على
الوجه المعنى ؛ ولنشرح ما سوى ذلك مما اشتملت عليه إن شاء الله تعالى :

[فقيه العرب وفتواه]

قال : مَا تَقُولُ فِيمَنْ تَوْضًا ثُمَّ لَمَسَ ظَهَرَ نَعْلِهِ ؟ قال :
اتَّقَضَ وَضُوهُهُ بِفِعْلِهِ (النعل : الزوجة) .
قال : فَإِنْ تَوْضًا ثُمَّ أَتَكَأَهُ الْبَرْدُ ؟ قال : يَجْدُّ الْوُضُوْءُ
مِنْ بَعْدُ (البرد : النوم) .
قال : أَيْمَسَحُ الْمُتَوَضِّئُ أَنْفِيَّهِ ؟ قال : قَدْ نُدِبَ إِلَيْهِ ، ولم
يُوجِبْ عَلَيْهِ . (الأنثيان : الأذنان) .

قال : أَيْجُوزُ الْوُضُوءِ بِمَا يَقْذِفُهُ الثُّعْبَانُ ؟ قال : وَهَلْ أَنْظِفَ مِنْهُ لِّلْعُرْبَانِ ! (الثُّعْبَانُ : جَمْعُ ثَعْبٍ ، وَهُوَ مَسِيلُ الْوَادِي)

قال : أَيْسْتَبَاحُ مَاءِ الضَّرِيرِ ؟ قال : نَعَمْ ، وَيُجْتَنَبُ مَاءُ النَّصِيرِ . (الضَّرِيرُ : حَرْفُ الْوَادِي . وَالْبَصِيرُ : الْكَلْبُ) .

قال : أَيْحِلَّ التَّطَوُّفُ فِي الرَّيِّعِ ؟ قال : يُكْرَهُ ذَلِكَ لِلْحَدَثِ الشَّنِيعِ . (التَّطَوُّفُ : التَّغَوُّطُ . وَالرَّيِّعُ : النَّهْرُ الصَّغِيرُ) .

* * *

قوله : لَسَ ، جَرَّ أَصَابَهُ عَلَيْهَا . أَنْكَاهُ : جَعَلَهُ مُتَمَكِّثًا . يَقْذِفُهُ : يَطْرَحُهُ مِنْ بَطْنِهِ . وَالْقَرِيرُ : الْأَعْمَى . وَالْبَصِيرُ : الْبَصَرُ .

وَالطَّوْفُ : مَصْدَرُ طَافَ حَوْلَ الشَّيْءِ إِذَا دَارَ بِهِ . وَالْحَدَثُ : الْغَائِطُ ، وَجَعَلَهُ شَنِيعًا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَعَلَهُ فِي الْمَاءِ ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ فَكَانَتْ بِهِ شَنْعَةٌ ، وَاسْتَقْدَرَ الْمَاءَ فَلَمْ يَسْتَعْمِلْ ، وَإِنْ كَانَ مَبَاحًا اسْتَعْمَلَهُ .

* * *

قال : أَيْجِبُ الْغُسْلُ عَلَى مَنْ أُمِنَى ؟ قال : لَا وَلَوْ ثَنَى . (أُمِنَى : نَزَلَ مَنَى ، وَيُقَالُ مِنْهُ : مَنَى وَأُمِنَى وَأُمْتَنَى) .

قال : فَهَلْ يَجِبُ عَلَى الْجُنُبِ غَسْلُ فَرْوَتِهِ ؟ قال : أَجَلْ وَغَسْلُ إِبْرَتِهِ (الْفَرْوَةُ : جِلْدَةُ الرَّأْسِ ، وَالْإِبْرَةُ : عَظْمُ الْمِرْفَقِ) .

قال : أَيْجِبُ عَلَيْهِ غَسْلُ صَحِيفَتِهِ ؟ قال : نَعَمْ كَغَسْلِ شَفَتَيْهِ (الصَّحِيفَةُ : أَمِيرَةُ الْوَجْهِ) .

قال : فَإِنْ أَخْلَى بِغَسْلِ فَأْسِهِ ؟ قال : هُوَ كَمَا لَوْ أَلْنَى غَسْلَ رَأْسِهِ (الْفَأْسُ : الْعَظْمُ الْمَشْرِفُ عَلَى نَقْرَةِ الْقَفَا) .

قال : أَيْجُوزُ الْغُسْلُ فِي الْجِرَابِ ؟ قال : هو كَأَغْسَلٍ فِي الْجِبَابِ .
(الجِرَاب : جَوْفُ الْبُئْرِ)

قال : فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ تَيْتَمَ ثُمَّ رَأَى رَوْضًا ؟ قَالَ : بَطَلَ
تَيْتَمُهُ فَلْيَتَوَضَّأْ . (الرَّوْضُ مَا هُنَا : جَمْعُ رَوْضَةٍ ، وَهِيَ الصُّبَابَةُ تَبْقَى فِي الْحَوْضِ) .

• • •

أَخْلَ : نَقَصَ . نُفْرَةٌ : حُفْرَةٌ . الرَّوْضُ : مَوَاضِعُ النِّيْثِ . وَالصُّبَابَةُ :
الْبَقِيَّةُ .

• • •

قال : أَيْجُوزُ أَنْ يَسْجُدَ الرَّجُلُ فِي الْعَذِرَةِ ؟ قال : نَعَمْ وَلِيْجَانِبِ الْقَذِرَةِ
(الْعَذِرَةُ : فَنَاءُ الدَّارِ) .

قال : فَهَلْ لَهُ الشُّجُودُ عَلَى الْخِلَافِ ؟ قال : لَا ، وَلَا عَلَى أَحَدِ
الْأَطْرَافِ . (الْخِلَافُ : مُكْتَمٌ) .

قَالَ : فَإِنْ سَجَدَ عَلَى شِمَالِهِ ؟ قال : لَا بِأَسْفَلِهِ . (الشِّمَالُ :
جَمْعُ شِمْلَةٍ) .

قال : فَهَلْ يَجُوزُ الشُّجُودُ عَلَى الْكُرَاعِ ؟ قال : نَعَمْ ، دُونَ الدَّرَاعِ
(الْكُرَاعُ : مَا اسْتَقَالَ مِنَ الْحِزَةِ ، وَهِيَ أَرْضٌ ذَاتُ حِجَارَةٍ سَوْدِيَّةٍ) .

قال : أَيْصَلِّي عَلَى رَأْسِ الْكَلْبِ ؟ قال : نَعَمْ ، كَسَاءِ الْهَضْبِ
(رَأْسُ الْكَلْبِ : نَيْتُهُ مُفْرَوقةٌ) .

قال : أَيْجُوزُ لِلدَّارِسِ حَمْلُ الْمَصَاحِفِ ؟ قال : لَا ، وَلَا حَمْلُهَا فِي الْمَلَا حِفِّ .
(الدَّارِسُ : الْحَاضِرُ) .

قال : ما تقول فيمن صلى وعائته بارزة ؟ قال : صلاته جائزة .
(العانة : الجماعة من حجر الوحش) .

والكرَاع : الرَّجُل ، وكِرَاع كلُّ شئٍ طرفه . والحِزَّة : أرض فيها
حجارة سود . والهَضْب : جمع هَضْبَةٍ وهى الصخرة العظيمة ، والكُذْيَةُ الصغيرة ،
وقيل : الهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض ، وقيل : الجبل الطويل المنسَّع
والجمع هَضَاب . ثَنِيَّة : عَفْة .

* * *

قال : فإن صلى وعليه صَوْمٌ ؟ قال : يُعِيدُ ولو صلى مائة يوم .
(الصَّوْم : ذَرَق النِّعَام)

قال : فإن حَمَلَ جَرَوْا وصَلَّى ؟ قال : هُوَ كَمَا لَوْ حَمَلَ بِأَقْلَى .
(الجَرَوْ : الصَّغَار من القِثَاء والرِّثْمَان) .

قَالَ : أَتَصِحُّ صَلَاةُ حَامِلِ الْقَرْوَةِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَوْ صَلَّى فَوْقَ الْمَرْوَةِ
(الْقَرْوَةُ : مِثْلَةُ الْكَلْبِ) .

قَالَ : فَإِنْ قَطَرَ عَلَى ثَوْبِ الْمُصَلَّى نَجَوُ ؟ قَالَ : يَمْضِي فِي صَلَاتِهِ
وَلَا غَرَوُ . (النَّجَوُ : السَّحَاب الَّذِي قَدْ هَرَّاقَ مَاءَهُ) .

قال : أيجوزُ أن يؤمَّ الرِّجَالُ مُقَنَّعٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَيَوْمُهُمْ مُدَّرَعُ .
(الْمُقَنَّعُ : لَابِسُ الْمُقَفَّر ، والمُدَّرَعُ : لَابِسُ الدَّرْعِ) .

قال : فإن أمهم من في يده وقف ؟ قال : يُعِيدُونَ ولو أنهم ألف

(الوَقْف : السَّوَارُ من العَلاج أو الذَّبَل ، وأراد أَنَّهُ لَا يَجُوزُ للرجال الاِتِّمَامُ بالنِّساء) .

...

الميلَفة : ما يَشْرَبُ فِيهِ السَّكَبُ الماء ، وَهِيَ من وَلَغِ الكَلْبِ ، إِذَا تَنَاوَلَ الماءَ بِلِسَانِهِ وَالْقَرَوَةُ : نَقِيرٌ من خَشَبٍ تَشْرَبُ مِنْهُ الكلاب . والقِثَاءُ : هو الفَقُّوسُ . والنَّجْوُ : هو الحَدَثُ لَا غَرَوُ : لَا عَجَب . وَلِلقَنَّعِ : لابسُ القِنَاعِ ، يريدُ المرأةَ . والوَقْفُ : ما وَقَفَ وَحَبَسَ من الأَمْوَالِ عَلَى المساكينِ والمساجِدِ . والذَّبَلُ : جِلْدُ السَّلَحْفَاءِ البرِّيَّةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهَا تَعْظُمُ ، فَرَبَّمَا يَضَعُ التَّاجِرُ لَيْلًا عَلَيْهَا حَمْلَهُ يَظُنُّهَا صَخْرَةً فَتَرْتَحِلُ بِهِ ، وَيَسْتَعْمَلُ من الطَّبَقِ الَّذِي عَلَيْهَا خَلَاخِلُ لِلْحَشَمِ والعَبِيدِ . والعَاجِ . عَظْمُ الْفِيلِ .

قال : فَإِنْ أَمَّهُمْ مَنْ فَخِذُهُ بَادِيَةٌ ؟ قال : صَلَاتُهُ وَصَلَاتُهُمْ ماضِيَةٌ . (الفَخِذُ : العَشِيرَةُ ، وَبَادِيَةٌ ، أَيْ يَسْكُنُونَ الْبَدُو ، واختارَ بعضُ أَهْلِ اللغةِ تَسْكِينُ الخاءِ مِنْ هَذِهِ الْفَخِذِ ، لِيَحْصُلَ الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَضْوِ) . قال : فَإِنْ أَمَّهُمُ الثَّورُ الْأَجَمُّ ؟ قال : صَلَّ وَخَلَكَ ذَمٌّ . (الثَّورُ : السَّيِّدُ . وَالْأَجَمُ : الَّذِي لَا رُمُحَ مَعَهُ) .

قال : أَيْدُخُلُ الْقَصْرُ فِي صَلَاةِ الشَّاهِدِ ؟ قال : لَا ، وَالْغَائِبِ الشَّاهِدُ . (صَلَاةُ الشَّاهِدِ : صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ، تُسَمَّى بِذَلِكَ لِإِقَامَتِهَا عِنْدَ طُلُوعِ النَّجْمِ ، لِأَنَّ النَّجْمَ يُسَمَّى الشَّاهِدِ)

قال : أَيْجُوزُ لِلْمَعْذُورِ أَنْ يُفْطِرَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ؟ قال : مَا رُخِّصَ فِيهِ إِلَّا لِلصَّبْيَانِ . (الْمَعْذُورُ : الْمُخْتَلُونَ ، وَهُوَ أَيْضًا الْمُعْذَرُ) . قال : فَهَلْ لِلْمَعْرُوسِ أَنْ يَأْكُلَ فِيهِ ؟ قال : نَعَمْ بِمِلٍّ فِيهِ .

(٤ - مَرَحِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ ج ٤)

(المرئس : المسافر الذى ينزل فى آخر ليله لِيَسْتَرِيحَ ثُمَّ يَرْتَحِلُ).
 قال : فَإِنْ أَفْطَرَ فِيهِ الْعُرَاةُ ؟ قال : لَا تُنْكَرُ عَلَيْهِمُ الْوُلاةُ .
 (المرأة : الَّذِينَ تَأْخُذُهُمُ الْعُرُوءُ ، وَهِيَ الْحَتْمَى بِرِغْدَةٍ) .

* * *

قال : فَإِنْ أَكَلَ الصَّائِمُ بَعْدَ مَا أَصْبَحَ ؟ قَالَ : هُوَ أَخْوَطُ لَهُ وَأَضْلَحَ .
 (أَصْبَحَ ، أَيْ اسْتَصْبَحَ بِالْمَصْبَاحِ) .
 قال : فَإِنْ عَمِدَ لِأَنْ أَكَلَ لَيْلًا ؟ قَالَ : يُشَمَّرُ لِلْقَضَاءِ ذِيلاً .
 (ذَكَرَ ابْنُ دُرَيْدٍ أَنَّ اللَّيْلَ فَرَنَخَ الْحَبَارَى ، وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ وَلَدُ الْكَرْوَانِ) .
 قال : فَإِنْ أَكَلَ قَبْلَ أَنْ تَتَوَارَى الْبَيْضَاءُ ؟ قَالَ : يَلْزِمُهُ وَاللَّهِ الْقَضَاءُ .
 (الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْمَاءِ الشَّمْسِ) .
 قال : فَإِنْ اسْتَتَارَ الصَّائِمُ الْكَيْدَ ؟ قَالَ : أَفْطَرَ وَمَنْ أَحَلَّ الْعَيْنِدَ .
 (الْكَيْدُ : الْقِي . وَاسْتَتَارَهُ ، أَيْ اسْتَدْعَاهُ) .
 قال : أَلَا إِنَّهُ يُفْطِرُ بِالْخَاحِ الطَّابِخِ ؟ قَالَ : نَعَمْ لَا بِطَاهِيِ الْمَطَابِخِ .
 (الطَّابِخُ : الْحَتْمَى الصَّالِبُ) .
 قال : فَإِنْ ضَحِكَتِ الْمَرْأَةُ فِي صَوْمِهَا ؟ قَالَ : بَطَلَّ صَوْمُ يَوْمِهَا .
 (ضَحِكَتْ هَا هُنَا ، أَيْ حَاضَتْ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا ﴾) .
 بِإِسْحَاقٍ ﴿ .
 قال : فَإِنْ ظَهَرَ الْجَدَرَى عَلَى ضَرْبِهَا ؟ قَالَ : تُفْطِرُ إِنْ آذَنَ بِمَضَرَّتِهَا .
 (الْفَضْرَةُ : أَضْلُ الْإِبْهَامِ ، وَأَضْلُ الثَّنَدِيِّ أَيْضًا) .

الطَّامِي : طابخ اللحم . والصَّالِب : الحمى لا ترعد ، وإلحاحها : ملازمتها .
الجُدْرِي : قروح صفار تخرج على الصبيان . وضَرَّتْهَا : شريكتهما في زوجها .

* * *

قال : ما يجبُ في مائةِ مُصْبَحٍ ؟ قال : حِقَّتَانِ يا صاح .
(المِصْبَاح : الناقة التي تُصْبَع في المَبْرَك) .
قال : فإن مَلَكَ عَشْرَ خَنَاجِرٍ ؟ قال : يُخْرِجُ شَاتَيْنِ وَلَا يُشَاجِرُ .
(الخَنَاجِر : الثوق الفِزار الدَّر ، واحدتها خِنْجَرٌ وَخُنْجُورٌ) .
قال : فإن بَمَحَ للسَّاعِي بِحَمِيمَتِهِ ؟ قال : يا بُشْرَى لَهُ يَوْمَ قِيَامَتِهِ .
(السَّاعِي : جَانِي الصَّدَقَةِ ، وَاحْتِمِيمَةٍ : خِيَارُ الْمَالِ) .
قال : أَيْسْتَحِقُّ حَمَلَةَ الْأَوْزَارِ مِنَ الزَّكَاةِ جُزْأً ؟ قَالَ : نَعَمْ
إِذَا كَانُوا غُزًى . (الْأَوْزَار : السَّلَاح . وَغُزًى : جَمْعُ غَازٍ) .
قال : أَيْجُوزُ لِلْحَاجِّ أَنْ يَفْتَمِرَ ؟ قال : لَا ، وَلَا أَنْ يَخْتَمِرَ .
(الْإِعْتِمَارُ : لُبْسُ الْعِمَارَةِ ، وَهِيَ الْعِمَامَةُ ، وَالْإِخْتِمَارُ : لُبْسُ الْخِمَارِ) .
قال : فَهَلْ لَهُ أَنْ يَقْتُلَ الشُّجَاعَ ؟ قال : نَعَمْ ، كَمَا يَقْتُلُ السَّبَاعُ .
(الشُّجَاع : الْحَيَّةُ) .

الحِقَّة : التي اسْتَحَقَّتْ أَنْ يَرْكَبَ عَلَيْهَا . والخَنَاجِر : نوع من السَّكَاكِينِ
السَّكْبَار . ويشَاجِر : يَخَالِف . والجَانِي : الجامع للصدقة ، ومنه الجباية .
والأَوْزَار : أَثْقَالُ الذُّنُوبِ . والغُزًى : هُؤُلَاءِ الرَّمَاةُ بِالنِّسَابِ . وَيَفْتَمِرُ :
يَحْجُجُ بِعِمْرَةٍ . وَيَخْتَمِرُ : يَسْتَعْمَلُ الْخَبْزَ الْخَثْمَرُ .

* * *

قال : فَإِنْ قَتَلَ زَمْرَةً فِي الْحَرَمِ ؟ قَالَ : عَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ النَّعَمِ .
(الزَّمْرَةُ : النِّعَامَةُ وَاثْمُ صَوْتِهَا الزَّمَارُ) .

قال : فَإِنْ رَمَى سَاقَ حُرٍّ فَجَدَّ لَهُ ؟ قَالَ : يُخْرِجُ شَاةً بَدَلَهُ .
(سَاقُ حُرٍّ : ذَكَرُ الْقَمَارَى)

قال : فَإِنْ قَتَلَ أُمَّ عَوْفٍ بَعْدَ الْإِحْرَامِ ؟ قَالَ : يَتَصَدَّقُ بِقُبْضَةٍ
مِنْ طَعَامٍ . (أُمُّ عَوْفٍ : الْجُرَادَةُ) .

قال : أَيْجِبُ عَلَى الْحَاجِّ اسْتِصْحَابُ الْقَارِبِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ،
لَيْسَوْقَهُمْ إِلَى الْمَشَارِبِ . (الْقَارِبُ : طَالِبُ الْمَاءِ بِاللَّيْلِ) .

قَالَ : مَا تَقُولُ فِي الْحُرَامِ بِنَدِ السَّبْتِ ؟ قَالَ : قَدْ حَلَّ
فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . (الْحُرَامُ : الْحَرَمُ ، وَالسَّبْتُ : حَلَقُ الرَّأْسِ . وَحَلَّ ،
مِنْ تَحْلِيلِ الْحَجِّ) .

قال : مَا تَقُولُ فِي بَيْعِ الْكُمَيْتِ ؟ قَالَ : حَرَامٌ كَبَيْعِ الْمَيْتِ .
(الْكُمَيْتُ : الْخُمُرُ) .

وَالزَّمْرَةُ : الْمَرْأَةُ تَضْرِبُ بِالزَّمَارِ . وَالْبَدَنَةُ الْفَاقَةُ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِضَخَامَتِهَا
وَبَدَنُ الرَّجُلِ ضَخْمٌ . جَدَّ لَهُ : قَتَلَهُ وَطَرَحَهُ عَلَى الْجِدَالَةِ ، وَهِيَ الْأَرْضُ .
وَمِنْ أَيْيَاتِ الْقُرْآنِ فِي الْجُرَادَةِ :

وَمَا صَوْرَاءُ تُكْنِي أُمَّ عَوْفٍ كَأَنَّ سُوَيْفَتَيْهَا مِنْجِلَانِ
وَالْقَارِبُ : السَّفِينَةُ الصَّغِيرَةُ . وَالْكُمَيْتُ : الْفَرَسُ الْأَسْوَدُ الْعُرْفُ وَالذَّنَبُ .
وَالْكُمَيْتَةُ : مُحْرَةٌ تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ .

قال : أيجوز بيعُ الخُلِّ بلحْمِ الجمل ؟ قال : ولا بلحْمِ الحُمَلِ .
(الخُلُّ ابنُ الحاض ، ولا يحلُّ بيعُ اللحْمِ بالحيوان ، سواء كان من جنسه
أو من غير جنسه) .

قال : أيجوز بيعُ الهدية ؟ قال : لا ولا يبيعُ السببية . (الهدية ،
بالتشديد : ما يُهدى إلى الكعبة ، ويقال فيها هَدْيَةٌ ، بتسكين الدال وتخفيف
الياء . والسببية : الخمر) .

قال . ما تقول في بيعِ العقيقة ؟ قال : محظورٌ على الحقيقة . (العقيقة :
ما يُذبحُ على المولود في اليوم السابع من ولادته) .

قال : أيجوز بيعُ الدّاعي ، على الرّاعى ؟ قال : لا ، ولا على السّاعى .
(الدّاعي : بنية الدّين في الصّرع ، والسّاعى : جابى الصّدقة) .
قال : أيباع الصّقّر بالتّمر ؟ قال : لا ، ومالك الخلق والأمر .
(الصّقّر : الدّبس) .

قال : أيشترى المسلم سَلَبَ المُسْلِمَاتِ ؟ قال : نعم ، ويورثُ
عنه إذا مات . (السَلَب : لحاء الشّجر ، وهو أيضاً خوصُ الثّمام)
والحمَل : الخروف . والعقيقة : خرزة حمراء . محظور : ممنوع . والصّقّر :
من جوارح الطير . الدّبس : عسل التّمر . خوص : ورق . الثّمام : شجر ضعيف
ورقه كورق الدّوم مزدوجة .

* * *

قال : فهل يجوزُ أَنْ يُبتاعَ الشّافِعُ ؟ قال : ما لجوازه من دافع
(الشافِع : الشاة التي يتبعها سخلها) .
قال : أيباعُ الإبريقُ على بنى الأصفر ؟ قال : يُكره كبيعِ المغفر .

(الإبريق : السَّيفُ الصَّقِيلُ الكثير الماء . وبنو الأصفر : الروم) .
 قال : أيجوز أن يبيعَ الرَّجُلُ صَيْفِيَّهٖ ؟ قال : لا ، وَلَيْكِنْ لِيَبْعَ صَفِيَّهٗ . (الصَّفِيّ : الولد على الكِبَر ، والصَّفِيّ : الناقة الغزيرة الدَّر) .
 قال : فَإِنْ اشْتَرَى عَبْدًا فَبَانَ بِأَمِّهِ جِرَاحٌ ؟ قال : مَا فِي رَدِّهِ مِنْ جُنَاحٍ . (الأَمُّ : مُجْتَمَعُ الدَّمَاعِ) .
 قال : أَتُثَبِّتُ الشُّفْعَةَ لِلشَّرِيكِ فِي الصَّحْرَاءِ ؟ قال : لا ، وَلَا لِلشَّرِيكِ فِي الصَّفْرَاءِ . (الصَّحْرَاءُ : الأنان التي يُمَارِجُ بِبَاضِهَا غُبْرَةً وَالصَّفْرَاءُ : الناقة) .
 قال : أَيْحَلُّ أَنْ يُحْمَى مَاءُ الْبِئْرِ وَالْخَلَا ؟ قال : إِنْ كَانَ فِي الْفَلَا فَلَا . (يُحْمَى : يَمْنَعُ . وَالْخَلَا : الْكَلَا) .

الإبريق : آنية الخمر . الصَّفِيّ : ما ولد في زمن الصيف . والصَّفِيّ : الصاحب الخالص . والدَّر : اللبن . وبان : ظهر . وجَنَاح : إناثهم . والأنان : الأنثى من الحمير .

* * *

قال : مَا تَقُولُ فِي مَيْتَةِ الْكَافِرِ ؟ قال : حِلُّ الْمَقِيمِ وَالْمَسَافِرِ . (الْكَافِرُ : الْبَحْرُ ، وَمَيْتَتُهُ : السَّمَكُ الطَّافِي فَوْقَ مَائِهِ) .
 قال : أَيْجُوزُ أَنْ يُضَحَّيَ بِالْحُلُولِ ؟ قال : هُوَ أَجْدَرُ بِالْقَبُولِ . (الْحُلُولُ : جَمْعُ حَائِلٍ) .
 قال : فَهَلْ يُضَحَّيَ بِالطَّالِقِ ؟ قال : نَعَمْ ، وَيُقَرَّى مِنْهَا الطَّارِقُ . (الطَّالِقُ : الناقة تُرْسَلُ تَرْعى حَيْثُ شَاءَتْ) .

قال : فَإِنْ ضَحَّى قَبْلَ ظَهْرِ الْغَزَالَةِ ؟ قال : شاة لحمٍ بلا مَحَالَةٍ .
 (الْغَزَالَةُ : الشمس) . قال بعضهم : يقال : طلعت الْغَزَالَةُ . ولا يقال :
 غَرُبَتْ ، وضدّها الْجَوْنَةُ ، تسمى بها عند مغيبها ، لأنها تسودُّ حين تغيب ،
 كما قال الشاعر :

* تبادر الجَوْنَةُ أن تغيباً ^(١) *

قال : أَيَحِلُّ التَّكْسِبُ بِالطَّرْقِ ؟ قال : هو كالقِمَارِ بلا فرق .
 (الطَّرْقُ : الضَّرْبُ بِالْحَصَى ، وهو من أفعال الكهنة) .
 قال : أَيَسْلَمُ الْقَائِمُ عَلَى الْقَاعِدِ ؟ قال : محظورٌ فيما بين الأَبَاعِدِ .
 (القاعد : التي قعدت عن الحَيْضِ أو عن الأزواج) .

وَالطَّافِي : المرتفع على وجه الماء . وَالْحَوْلُ : جمع أَحْوَلٍ وَحَوْلَاءٍ . أَجْدَرُ :
 أَحَقُّ . وَالطَّرْقُ : السَّيْرُ بِاللَّيْلِ . محظور : ممنوع .

* * *

قال : أَيَنَامُ الْعَاقِلُ تَحْتَ الرِّقِيعِ ؟ قال : أَحَبُّبٌ بِهِ فِي الْبَقِيعِ .
 (الرِّقِيعُ : السماء ، وَعَنَى بِالْبَقِيعِ المَدِينَةُ) .
 قال : أَبُتْمَعُ الذَّمَّى مِنْ قَتْلِ الْمَجُوزِ ؟ قال : معارضة في
 الْمَجُوزِ لَا تَجُوزُ . (الْمَجُوزُ : الْحَرُّ . وَقَتْلُهَا : مَرْجُهَا) .
 قال : أَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَقِلَ الرَّجُلُ عَنْ عِمَارَةٍ أُبْيَه ؟ قال : مَا يُجَرِّزُ
 لِحَامِلٍ وَلَا نَبِيَه . (الْعِمَارَةُ : الْقَبِيلَةُ)

قال : ما تقول في التَّهَوُّد ؟ قال : هو مفتاح التَّزَهُد . (التَّهَوُّد :
التَّوْبَةُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

قال : ما تقول في صَبْرِ الْبَلِيَّةِ ؟ قال : أعْظَمُ بِهِ مِنْ خَطِيئَةٍ .
(الصَّبْرُ : الحَبْسُ . والْبَلِيَّةُ : النَّاقَةُ تَحْبَسُ عِنْدَ قَبْرِ صَاحِبِهَا ، فَلَا تُسْقَى وَلَا تُعْلَفُ
إِلَى أَنْ تَمُوتَ ، وَكَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَزْعُمُ أَنَّ صَاحِبَهَا يُحْشَرُ عَلَيْهَا) .

قال : أَيَحِلُّ ضَرْبُ السَّفِيرِ ؟ قال : نعم ، وَالْحَمْلُ عَلَى الْمُسْتَشِيرِ .
(السَّفِيرُ : مَا تَسَاقَطَ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ . وَالْمُسْتَشِيرُ : الْجَمْلُ السَّمِينُ ، وَهُوَ أَيْضًا
الْجَمْلُ الَّذِي يَعْرِفُ الْإِلَاقِحَ مِنَ الْخَائِلِ) .

وَالزَّرِيقُ : الْأَحْمَقُ الَّذِي يَتَخَرَّقُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى أَنْ يَرْقَعَ ، ثُمَّ كَثُرَ
حَتَّى صَارَ الزَّرِيقُ الْمَاجِنُ الْقَلِيلُ الْحَيَاءِ ، فَأَرَادَ : أَيْرُقْدُ عَاقِلٌ تَحْتَ رَقِيعٍ ؟ فَقَالَ :
مَا أَحْسَنَ ذَلِكَ ، إِذَا كَانَ فِي الْبَقِيعِ ؛ هَذَا مَعْنَاهُ فِي الظَّاهِرِ ، وَمَا قَصِدَ بِهِ قَدْ فَسَّرَهُ .
وَالْبَقِيعُ فِي الْأَصْلِ : كُلُّ مَوْضِعٍ فِيهِ أَصُولُ أَشْجَارٍ مُخْتَلِفَةٍ . التَّهَوُّدُ : الدَّخُولُ فِي
دِينِ الْيَهُودِيَّةِ . عِمَارَةُ أَبِيهِ : مَا كَانَ أَبُوهُ يَعْمُرُهُ مِنْ دَارٍ يَسْكُنُهَا وَمَالٍ يَعْمُرُهُ .
السَّفِيرُ : الرِّسُولُ . الْمُسْتَشِيرُ : الْمُسْتَرْشِدُ الَّذِي يَسْتَشِيرُكَ فِي أُمُورِهِ وَالْحَمْلُ عَلَيْهِ
إِهْمَاتُهُ وَغُلْمُهُ . الْإِلَاقِحُ : الْحَامِلُ بِالْوَلَدِ ، وَالْخَائِلُ : ضِدُّهَا .

* * *

قَالَ : أَيُعَزِّرُ الرَّجُلُ أَبَاهُ ؟ قَالَ : يَفْعَلُهُ الْبَرُّ وَلَا يَأْبَاهُ . (التَّعْزِيرُ :
التَّعْظِيمُ وَالْتَّمَعُورَةُ وَالتَّوْقِيرُ) .

قال : ما تقول فيمن أفقر أخاه ؟ قال : حَبْدًا مَا تَوَخَّاهُ .
(أَفْقَرُهُ : أَعَارَهُ نَاقَةً يَرْكَبُ فَقَارَهَا) .

قال : فإن أعرى ولذه ؟ قال : يا حُسن ما اعتمدته ! (أعرَاه : أعطاه ثمرة نخلة عامًا) .

قال : فإن أصلى مملوكه النار ؟ قال : لا إثمَ عليه ولا عار . (المملوك : العَجين الذى قد أُجيدَ عَجْنُهُ حَتَّى قَوِيَ) .

قال : أيجوز للمرأة أن تصرم بَعْلَهَا ؟ قال : ما حَظَرَ أَحَدٌ فعلها . (البعل : النخل الذى يشرب بمروقه من الأرض) .

قال : فهل تؤدّب المرأة على الخجل ؟ قل : أجل . (الخجل : سوء احتمال الغنى ، ومنه قرله صلى الله وسلم للنساء : « إِنسَكُن إِذَا جَعْتِ دَقْعَتَيْنِ ، وَإِذَا شَبِعْتِ خَبْلَتَيْنِ ») .

قال : ما تقول فيمن نَحَتَ أثلةَ أخيه ؟ قال : أئِمَ ولو أُذِنَ له فيه . (نَحَتَ أثلته ، إِذَا اغْتَابَهُ وَقَدَحَ فِي عِرْضِهِ) .

يعزّر : يؤدّب ، والتعزير : ضرب دون الحد . والبرّ : المكرم لأبيه .
تورّاه : قصده ، وكذلك اعتمدته . أصله : جعله فيها . تصرّم : تقطع وتباعد ،
وأصل الصّرّم القطع . بعلها زوجها . حظر : منع . الخجل : الاستحياء . وأراد
بسوء احتمال الغنى ، أن تكون مبدّرةً لما لها سفيهة ، فكان الغنى لما أتاها
لم تحمّلها فأفسدته نحت : نجر . أثلة : شجرة .

* * *

قال : أيجز الحاكم على صاحب الثور ؟ قال : نعم ، ليأمن
غائلة الجور . (الثور : الجنون) .

قال: فهل له أن يضرب على يد اليتيم؟ قال: نعم، إلى أن يستقيم.
(يقال: ضرب على يده، إذا حَجَرَ عليه).

قال: فهل يجوز أن يتخذ له رِبْضًا؟ قال: لا، ولو كان له رِبْضًا.
(الرِّبْض: الزوجة)

قال: فتى يبيع بَدَنَ السَّفِيهِ؟ قال حينَ يَرَى له الحِظَّ فيه.
(البَدَن: الدرع القصيرة).

قال: فهل يجوز أن يبتاع له حُشًا؟ قال: نعم، إذا لم يكن مُغْشًى. (الحُش: النخل المجتمع).

قال: أيجوز أن يكونَ الحاكمَ ظالمًا؟ قال: نعم، إذا كان ظالمًا.
(الظالم: الذي يشرب اللبن قبل أن يروِّب ويخرُج زبدَه).

قال: أُمِيسْتَقْضَى مَنْ لَيْسَتْ لَهُ بَصِيرَةٌ؟ قال: نعم، إذا حُسِنَتْ
منه السَّيْرَةُ. (البصيرة: التَّرس).

قال: فإن تَعَرَّى مِنَ الْعَقْلِ؟ قال: ذاك عنوان الفضل. (العقل:
ضرب من الوشى).

غائلة: ضَرَر. الرِّبْض: بقاع من الأرض تباع وتشتري. الحُش: الكَنِيف. مَغْشًى: يغشاه الناس ويدخلونه. البصيرة: اليقين والنَّظَر السديد.
السَّيْرَةُ: العادة. عُنوان: دليل وعلامة.

* * *

قال: فإن كان له زَهُوٌّ جَبَّار؟ قال: لا إنكارَ عليه ولا إكبار.

(الزهو : البُسر المتلون . والجَبَّار : النخل الذى فات اليد وضده القاعد) .
 قال : أيجوز أن يكون الشاهد مريباً ؟ قال : نعم ، إذا كان أريباً .
 (المريب : الذى يكثر عنده اللبن الرائب) .

قال : فإن بان أنه لاط ؟ قال : هو كما لو خاط . (لاط الحوض ،
 إذا طينته) .

قال : فإن عُثِر على أنه غَرَبِل ؟ قال : تُرَدَّ شهادته ولا تُقبل .
 (غَرَبِل ، أى قتل ، ومنه قول الراجز * ترى الملوك حوله مغربة *
 قال : فإن وضح أنه مائن ؟ قال : هو وصف له زائن . (المائن
 ما هنا : الذى يعمول ويكفى المثونة ، من مان يمون ، لا من مان يمين) .

قال : ما يجب على عابد الحق ؟ قال : يحلف بإله الخلق .
 (العابد ما هنا : الجاحد . والحق : الدين) .

قال : ما تقول فيمن فقاً عَيْن بلبل عامدا ؟ قال : تُفَقَّ عَيْنُهُ
 قولاً واحداً . (البلبل : الرجل الخفيف) .

قال : فإن جرح قطاة امرأة فماتت ؟ قال : النفس بالنفس
 إذا فاتت . (القطة : ما بين الوركين) .

والزَّهو : التكبر والإعجاب . الأريب : العاقل . لاط : عمل عمل قوم
 لوط . وضح : تبين . مائن : كاذب . القطة : نوع من الحمام ، وقفاً
 العين : أخرجها . والبلبل : طائر .

قال : فإن أَلْقَتِ الحَامِلُ حَشِيشًا مِنْ ضَرْبِهِ ؟ قال : لَيْسَ كَفَرُ
بِالإِعْنَانِ عَنْ ذَنْبِهِ . (الحَشِيشُ : الجنين المُلْتَقَى ميتًا) .

قال : ما يجب على المحتنى في الشرع ؟ قال : القَطْع لإِقَامَةِ الرَّدْعِ .
(المحتنى : نَبَّاشُ القُبُورِ) .

قال : فما يصنع بمن سرق أساودَ الدار ؟ قال : يُقَطَّعُ إِنْ سَاوَيْنِ
رُبْعَ دِينَارٍ . (الأساود : الآلات المستعمله كالإِجَانَةِ وَالْقِدْرِ : الخِفْنَةُ) .

قال : فإن سَرَقَ ثَمِينًا مِنْ ذَهَبٍ ؟ قال : لَا قَطْعَ كَمَا لَوْ غَصَبَ .
(الثَمِين : الثُّمَنُ ، كما يقال في النصف : نصف ، وفي السُّدُسِ سُدَيْسٌ) .

قال : فإن بَانَ عَلَى الْمَرْأَةِ السَّرَقُ ؟ قال : لَا حَرَجَ عَلَيْهَا وَلَا فَرْقَ
(السَّرَقُ : الحَرِيرُ الْأَبْيَضُ) .

قال . أَيْنَعِدُ نِكَاحًا لَمْ يَشْهَدْهُ الْقَوَارِي ؟ قال : لَا وَالْخَالِقُ
الْبَارِي . (الْقَوَارِي : الشُّهُودُ لِأَنَّهُمْ يُقَرُّونَ الْأَشْيَاءَ ، أَيْ يَتَّبِعُونَهَا) .

قال : ما تقول في عَرِيسٍ بَانَتْ بِمَلِيلَةٍ حُرَّةٍ ، ثُمَّ رُدَّتْ فِي حَافِرَتِهَا
بُسْحَرَةً ؟ قال : يجب لها نصف الصَّدَاقِ ، وَلَا تَلْزُمُهَا عِدَّةُ الطَّلَاقِ .

(يقال : بَانَتْ الْعُرُوسُ بِمَلِيلَةٍ حُرَّةٍ ، إِذَا امْتَنَعَتْ عَلَى زَوْجِهَا ؛ فَإِنْ انْقَضَتْ
قِيلَ : بَانَتْ بِمَلِيلَةٍ شَيْبَاءَ . وَالرَّدُّ فِي الْحَافِرَةِ بِمَعْنَى الرُّجُوعِ فِي الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ ،
وَكُنِيَ بِهِ مِنْ طَلَاقِهَا قَبْلَ وِرْدِهَا إِلَى أَهْلِهَا) .

* * *

الحَشِيشُ : نبات يابس . الزَّدْعُ : الكَفُّ وَالْمَنْعُ . الْأَسَاوِدُ : الْحَيَاتُ . الثَّمِينُ :

الرَّفِيعُ الثَّمَنُ .

القواري : طيور خضر ، وقد بين هو أنه أراد بالقواري الشهود .
ويقال : المسلمون قواري الله في الأرض أى شهرده ، وقال جرير :

* المسلمون إما أقول قواري *

وبابت العروس بليلة شَيْبَاء ، إذا غشيها زوجها .
النفجديهي : رأيت : بخط الحريري رحمه الله تعالى :

طَيِّبُهَا وَلَمْ أَطِيبْ بِطِيبِ رَبِّ مَنْعِ الذَّمِّ إِعْطَاءُ
بَتْ فِي دِرْعِهَا وَبَاتَتْ ضَجِيعِي فِي بَصِيرِ وَلِيلَةِ شَيْبَاءِ

للبصير هنا : قطعة من دم :

وقد أتينا على مافي هذه المسائل من الغريب في الظاهر ، وأما ما قصده من
المعنى فهو مفسر في الأصل ، ولقد أحسن أبو محمد في هذه الفتاوى وبلغ من
الإقتدار والاتساع فوق المراد ، وإن كان لا يوصف فيها الابتداع ، فقد أحسن
في الاتباع .

[الملاحن والمعاريض]

والسابق إلى هذا المعنى أبو بكر بن دريد رحمه الله تعالى في كتاب سماء
بالملاحن ، وهي من اللحن ، وهو أن تورى بلفظ عن لفظ .

ثم تم تلك الأغراض وحسبها أحد بن عبيد الله في كتاب سماء بالمنقذ^(١) .
وقائدة حفظ هذه الأغراض أن يخوف الرجل أو يروعه أمير ظالم أو مستلط
غاشم ، فيتخلص منه بهذه المعارض . فأما أن يقطع بها حق مسلم فلا سبيل إليها ،
ومعتمد فيهما حديث عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
« إن في المعاريض مندوحة عن الكذب » .

(١) في كشف الظنون : « المنقذ من الإتيان لمحمد بن أحمد البصري ، المعروف بالمجيب
مات سنة ٣٢٠ ، وهو يشبه الملاحن لابن دريد .

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « عَجِبْتُ لِمَنْ يُحْسِنُ الْمَعَارِضَ كَيْفَ يَكْذِبُ ، وَلِمَنْ لَاحَنَ النَّاسُ كَيْفَ لَا يَعْرِفُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ! »

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لاطلائع المشركين حين لقوه فى نفر من أصحابه ، قالوا : تَمَنَّيْنَا أَنْتُمْ ؟ قالوا : من ماء ، فتركهم ، وأراد ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى مُزَاحِهِ لِإِحْدَى عَمَاتِهِ « إِنْ الْجَنَّةُ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ » ، فَلَمَّا جَزَعَتْ قَالَ لَهَا « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَخْلُقُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَبْكَارًا » .
رَقَالَ لَامْرَأَةٍ : « مَا فَعَلَ زَوْجُكَ الَّذِى فِي عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ ؟ » فَلَمَّا جَزَعَتْ قَالَ :
« لَهَا أَوْ لَيْسَ فِي كُلِّ عَيْنٍ بَيَاضٌ ؟ »

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : ائْتِنِى ، قَالَ : مَا عِنْدِي إِلَّا وَلَدُ النَّاقَةِ ، قَالَ : وَمَا أَصْنَعُ بَوْلَهُ النَّاقَةُ ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَهَلُ الْإِبِلُ إِلَّا مِنَ النَّوقِ ! » .
فَاسْتُجِيزَتْ الْمَعَارِضُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْمَزَاحِ أَوِ التَّحْوِيفِ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى الْوَائِقِ ، وَكَانَ يَقُولُ بِخُلُقِ الْقُرْآنِ وَيَمَاقِبُ مَنْ خَالَفَهُ ، مَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ، فَتَصَامَمَ عَلَيْهِ ، فَأَعَادَ السُّؤَالَ ، فَقَالَ : مَنْ تَعْنَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : إِيَّاكَ أَعْنَى ، فَقَالَ : مَخْلُوقٌ - يَعْنِى نَفْسَهُ ، وَتَخَلَّصَ مِنْهُ .

وَقَالَ لِآخَرٍ مِنَ الصَّالِحِينَ : مَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ؟ فَأَخْرَجَ يَدَهُ ، وَجَمَلَ يَمَدَّ أَصَابِعَهُ ، وَيَقُولُ : التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ مَخْلُوقَةٌ . فَعَنَى أَصَابِعَهُ ، وَتَخَلَّصَ مِنْهُ .

وتعذر على رجل لقاء المأمون في ظُلامه ، فصاح على بابه : أنا أحمد النبيّ المبعوث . فأدخل إليه ، وأعلم إنه تنبأ فقال له : ما تقول ؟ فذكر ظلامته ، فقال له : ما تقول فيما حكي عنك ؟ فقال : وما هو ؟ قال : ذكروا أنك تقول إنك نبي ، فقال : معاذ الله ، إنما قلت : أنا أحمد النبيّ المبعوث ، أفأنت يا أمير المؤمنين ممن لا يحمده ؟ فاستظرفه ، وأمر بإصافه .

وخرج شريح القاضي من عند زياد ، وتركه يجود بنفسه ، فسأله الناس عن حاله ، فقال : تركته يأمر وينهى ، فجزعوا لسلامته ، فراعهم إلا صياح النائمات عليه . فسئل شريح عن قوله ، فقال : تركته يأمر بالوصية ، وينهى عن البكاء .

وسئل ابن شُبرمة عن رجل ليس بعمل ، فقال : إن له شرفاً وقدماً وبيتاً . فنظروا فإذا هو ساقط سفلة ، فقيل له في ذلك ، فقال : شرفه أذناه ، وبيته الذي يأوى إليه وقدّمه الذي يمشى عليه .

وقال صاحب المنقذ :

إذا حلفت بالأيّمان اللازمة لك ، فأنو بالأيّمان الأيدي ، قال تعالى : ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ . فإن قلت : كل امرأة طالق فاعن الطالق من الإبل ، وهي التي يطمعها الراعي ، والطلاق التي يحمل عليها عقابها .

فإن قيل : احلف بظهار امرأتك كظهر أمك ، فاعن بالظهر ما يركب من الخيل والبغال والحمير ، ولا جناح عليه في ركوب دواب أمه

فإن قال : احلف بما لك على المسلمين صدقة ، فاعن ما لك على المساكين من دين ، وليس لك عليهم شيء .

فإن أحلفك بأن كل مملوك لك حر . فالمملوك : الدقيق الملتوث بالسوء أو الزيت أو السمن .

فإن قال: كل غلام لك حر. فالحر: الحية الذَّكَرُ، والحر من الرمل الذي ماوًى، والحر: ذكر الحمام، قال حميد.

* دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وَتَرْنَمًا *^(١)

فإن أحلفك بأن كل جارية لك حرّة، فالجارية السفينة، والريح والشمس. فإن قال: احلف وإلا كل أمة لك حرّة، فالحرّة الأذن، والحرّة السحابة الغزيرة المطر.

فإن أحلفك: وإلا فمالك حبس، فحبس بلد معروف، قال ابن جِلْزَة:

* لَمَنِ الدِّيارُ عَفَوْنٌ بِالْحَبْسِ *

فإن قال: وإلا فهو كافر. فالكافر الليل، أو البحر أو الزرع للبذر، قال الله تعالى: ﴿أَعْجَبَ السَّكَافَرُ نَبَاتَهُ﴾^(٢)، وأصله الساتر.

وتقول: كل امرأة تزوجتها فقد طلقها بقاتا. فتزوجت اتخذت زوجا من النبات أى لونا، وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾^(٣) من نبات شتى، وطلقها ألبسها الطلق، وهو قبة من جلود والنبات: الزاد.

وتقول: مانطيت ولا تمسكت. فتطيت أنبت الطيب، وهو بلد بين واسط والسوس، أو طيبة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. وتمسكت: لبست مسكا وهو الجلد، أو تنفعلت من الامسك.

وتقول: ماله قبلى درهم ولا دينار. فدرهم قبيلة من ربيعة، لهم خُطّة في البصرة، ودينار اسم رجل معروف.

(١) ديوانه ٢٤، وصدره:

* وَمَا هَاجَ هَذَا الشَّوْقُ إِلَّا حَامَةً *

(٣) سورة ن ٧

(٢) سورة الحديد ٢٠

(٤) سورة طه ٣

وماله قبلى ثوب ولا شقة ولا قيص . الثوب : الرجوع ، من ثاب يُثوب ،
والشقة : البعد . والقيص : غشاء القلب .

وماله قبلى شئ بوجه من الوجوه ، ولا بسبب من الأسباب . الشئ : مصدر
شويت اللحم . والوجوه صور مختلفة من التصاوير . والوجه : المقصد ، والجمع
وجوه ، والأسباب : العبال .

وما أوصيتُ إليه ، وما أوصى إلى . أوصى دخل فى الواى ، وهو بيت
متصل ببعضه ببعض .

ولا أعلم له داراً ولا عقاراً ؛ فداراً : بلد معروف بالجزيرة ، قال الشاعر :

ولقد قلتُ لرجلي بينَ حرّانٍ وداراً^(١)
اصبرى بارجلُ حقٍّ يرزُقُ اللهُ حِمَاراً

والعقار : النخل .

ولا أعرف للمرأة بغلاً ولا ولياً . فالبعل : النخل أو الشجر ، يشرب بماء
السحاب ، والولي : يلي الوسمى .

وتقول : ما اشتريتُ لفلاة ضرتك قيصاً ، ولا إزاراً ولا رداءً ، ولا قناعاً
ولا غلالةً ، ولا حلتيتها خاتماً ولا خلخالاً ولا طوقاً ولا سيواراً ؛ ولا قرطها
ولا شفتيها ولا كسوتها ، ولا جلست مع قينة ولا مغنية ولا ضاربة بعود ولا بطبل
ولأرباب ، ولا سمعت زمارة ولا ذقت نبيذاً فالقيص غشاء القلب ، والرداء
السيف أو الدين أو النطاء ، والإزار : قُبُلُ المرأة أو جسم الرجل ، قال الشاعر :

• فدى لك من أخى ثقة إزار^(٢) •

والإزار : العفاف ، والقناع : جمع قنec ، وهو طبق يحمل عليه الفاكمة .

(١) داراً : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماروين - ياقوت

(٢) العان - أزر ، من أبيات لجدة بن عبد الله السلمي

(- شرح مقامات الحريري ج ٤)

وفي الحديث : إن^(١) الربيع اربعة معمود أنت النبي صلى الله عليه وسلم يتناع من رطب وآخر من زغب فأكل منه ، والزغب : القشاة . والفلاة : مسمار من مسامير الدروع ؛ قال :

* فهنّ وضاء صافياتُ الغلائلِ^(٢) *

والفلاة : الجماعة من الناس ، والخاتم : شعرات بيض في قوائم الفرس . والسوار مصدر ساورت الرّجل . والخلخال : الرّمْل الجريش . والطوق : المصدر من الطاقة ، وقرطها من القرط ، وهو العلف الرطب تأكله الدّواب ، فإذا يبس فهو القت . وشفتها جعلتها مُشَفَّة أي مبغضة ، من شفت الرّجل ، إذا أبغضته . وكسوتها : ضربت كسأها ، وهو جانبها ، وجانب كرسي كسأه والجمع أكسأه ، والقينة : هزّمة بين الوركين . وعُجِب الذّئب من الفرس ، والمود الذي يُقبّخر به ، والزّمارة : الفاجرة ، ومنه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كسب الزّمارة ، والزّمارة : الفلّ ، وفي خبر الحجاج : أتى سميد بن جبير وفي عنقه الزّمارة ، أي ساجور ، والطبل : السّلة التي يجعل فيها الطعام ، والطّبل : الخراج . والمغنية : ناقة تضرب بنابها ، والرباب : سحاب متراكب قريب من الأرض . والتبذ : ما نبذته النعام أو الحمير بأرجلها من الحصى . وتقول : مالي مركوب ومابت عبداً ، وقد افتقرت حتى مافي مِلْكي نفقة يوم . مالي ، بمعنى مِلْكي ، ومركوب : ضربت ركبته ، وثنية بالحجاز . وعبد : جبل من جبال طيء . وافتقر : اشتد فقره أو كسر فقار جدى أو تحل ، والمالك : الحجة .

وتقول : ما أضعتُ عملي ولا أقصرتُ ولا أهملتُ ولا فرطتُ ولا ساحتُ أحداً ، ولا تركتُ واجباً ، ولا ارتفعتُ بحبه ، ولا أبقيتُ غايةً في مناسحتك ، أضعت : كثرت ضياعي . وفرطت : بعث قارطاً ، وهو طالب الماء ،

(١) ذكرها ابن حجر في الإصابة ٢٩٣ : (٢) لقنانية ، ديوانه ٦٤ اللسان (دلل) ، ومدره :

* عَلَيْنَ بِكَ دِيُونِ وَأَبْطُنِ كَرَّةِ *

وقَصَّرت : بنيت قصراً . وأَتَمَّلت : كَثُرَتْ هَوَامِلِي ، وهى الإبل السارحة فى
الْمَرْهَى بلا راعٍ . وصاحتُ : نظرتُ أَيْناً أَكْرَم . والواجب : السَّاقط ،
وارتقت : نِمْتُ على مِرْفَقِي ، والغاية : رايةُ الحمار .
وتقول : ما شمتت له أبى ولا عمًّا ولا عمةً ، ولا خالاً ولا خالةً ، ولا صِحبتهُ ،
ولا شاهَدتهُ ولا راسلتهُ ، ولا شاربتهُ ، ولا نادمتُهُ ، ولا رأيتُهُ منذ دَهْرٍ
أبى : داء يأخذ للمزى ، قال :

• أبى لا إخال الضَّان منه نواجيًّا^(١) •

وعَمٌ : قطعة من الناس ، وقربة بالشَّام ، والعمَّة النخلة ، قال صلى الله عليه وسلم :
« نَمَتِ العمَّةُ لكم النخلة » ، وقيل لها عمَّة لأنها خُلِقَتْ من بقية طينة
آدم عليه السلام . والخال : السحاب ، والخالُ من البرود ، والخالُ من
الخليلان ، والخالَّة : جمع خالٍ من الكِبَر . وصحبته : منعمته ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا تُمْ
مِنَّا يُضْحِكُونَ ﴾^(٢) ، أى يَمْتَمُونَ . وشاهدته : أَكَلْتُ معه الشَّهْد ، وراسلته :
شربت معه الرُّسْل ، وهو اللبن ، وشاربته من الشوارب ، ونادمته من النَّدَم ،
ورأيتُهُ : ضربت رثته ، ودَهْرٌ : قبيلة من إباد .

وتقول : ما كتبتُ له حرفاً ، ولا خططت له بقلم ، ولا شمتته ولا هجوته ،
ولا افتريتُ عليه ، ولا أعرف عليه سوءاً . الحرفُ الناقة المضْمَرَة ، والقلمُ :
القِدْح ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يُنْفِقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾^(٣) ، يعنى قِداح الميسر . والشِّقْمُ :
حُبُّ الوجه ، وهجوته : أزلت نعمته ، وهو التَّهَجَّى مقصور ، وافتريتُ : لبست
الْفَرْو ، والسَّوء : البَرَص .

وتقول : رأيتُهُ فى السَّوْق متوفىً مقبوراً ، وما أخذ دواء ولا مَجْجوتاً .

(١) اللسان - أبى ، ونسبه لابن أحر

(٢) سورة آل عمران ٤٤

(٣) سورة الأنبياء ٤٣

فالسوق : أصول الشجر وأعناقها . متوقِّ دائماً . مقبوراً : مبخراً بالعود .
الهندي الذي فيه قبر ، أى رخاوة . والدواء والدَّاوية : جلدة اللبن ، والمجعرون :
المضروب على عِجانه .

وتقول : هو مجنون مُصاب ، قد غُلَّ مراراً ، فما اعتذرتُ له ، ولا تنصَّات ،
لأنه ليس من الأجواد ، ولا الشَّجَّمان الذين يُقدَّح في أنسابهم . الجنون :
المستور . مصاب : مجذَّر من صاب يصوب ، وغَلَّ من الغلَّة ، واعتذر وتنصَّل :
اتخذ عذاراً ونَصَّلاً . الأجواد : المطاش . والشَّجَّمان : الحيات ، والأنساب :
أسنان اللُّسَط .

وتقول : رأيت الجيش بالثغر ، والفارس في الفوارس ، فما أفضَّلُ عليه
أحدًا من العرب والمعجم . الجيش : الفلَّيَّان ، والثغر : شَجَرٌ له شوك ،
والفارس : الحسن الفِرَّاسية ، والفوارس : كُشْبَان رمل ، والعرب :
فساد المعدة ، وعَرِبَتْ معدته . والمعجم : النوى .

وما أكلت دابتي شعيراً . الشعير : جمع شَعيرة ، وهو مسمار من الفِضَّة في
قائم السَّيف .

وبالباب منسج وفيه تأنس لما ذكره أبو محمد .



ومن المعارض ، أن الحجاج لما أخرج ابن القُبَيْرِي من سِجْنِه قال له :
صممت يا غضبان ، قال : القيد والرَّتْمَةُ^(١) ، والخفض والهدعة ، ومن يكن ضيف
الأمير يستمن ، قال : لأحلمنك على الأدهم ، قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم
والوزد والكُمَيْت . قال : إنه حديد ، قال : لأن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون
بليداً ، قال : اضربوا به الأرض ، قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ^(٢) ﴾
قال : جُرَّوه ، قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمَرَّسَاهَا^(٣) ﴾ ، قال : احملوه على الأيدي

(١) الرتمة : الانسلاخ في الخصب (٢) سورة طه ٥٥ (٣) سورة هود ٤١

فَلَمَّا حِيلَ قَالَ: ﴿سَبِّحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾^(١)، فَضَحَكَ الْحِجَابُ وَقَالَ: غَلَبْنَا هَذَا الْخَبِيثَ، خَلَّوْهُ إِلَى صَفْحَى عَنْهُ، قَالَ: ﴿فَاَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾^(٢).

وقال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن عمرو الغساني - وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة - من أين أقصى أترك؟ قال: من صُلب أبي، قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي، قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض، قال: فقيم أنت؟ قال: في ثيابي، قال: أنمقل لا حقلت! قال: إني والله وأقيد، قال: ابنُ كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال: فما سنُّك؟ قال: عَظُمُ، قال: ما تربدني. مسألتك إلا عِيًّا، قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك.

الربيع بن عبد الرحمن، قلت لأعرابي: أتهمز إسرائيل؟ قال: إني إذا لرجل سوء؛ أراد قوله: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءَ بَنِيهِمْ﴾^(٣)، قلت: أتجرّ فلسطين؟ قال: إني إذا لقوى!

خلف الأحمر: قلت لأعرابي: ألقى عليك بيتًا؟ قال: على نفسك فآلته.

قيل لأعرابي: أتهمز الفأرة؟ قال: الهرّ يهمزها.

ودخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن يزيد الهلالي عامل إرمينية، وقد بات على قربٍ من غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله: ما تركتُنا شيوخ محارب تنام في هذه الليلة لشدة أصواتها. فقال المحارب: أصلح الله الأمير! إنها أصَلَّتْ برقعا، فهي في بُعْثَانِهِ. أراد الهلالي قول الأخطل:

تنقُ بلا شيء شيوخ محاربٍ وما خلقتها كانت تریش ولا تَبْرِی^(٤)
ضفادعُ في ظلماء ليلٍ تجاوبتُ فدلَّ عليها صوتُها حيّة البحر

(٢) سورة الزخرف ٨٩

(٤) ديوانه ١٣٢

(١) سورة الزخرف ١٣

(٣) سورة القلم ١١

وأراد الحاربي قول الآخر :

إِسْكَلْ هِلَالِي مِنَ اللُّؤْمِ بَرَقَ ولابن هلالٍ بَرَقَ وَفَيْصُ
وهذا النحو من التعريض كثير .

وقال أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى :

يا ضَرَّةَ الشمسِ التي أَشْرَقَتْ قد أَشْرَقَتْ حَبِيبَةُ مُشْتَاكِكَ
لَحْظُكَ أَوْ خَضْرُوكَ قَدْ ضَمِنَا ما ضَمِنَتْ هِدْدَةُ مِيثَاكِكَ
كَمَأَرُ المَوَى يَطْلُبُهُ نَائِرٌ مصرعه ما بين أَحْدَاكِكَ
لا تَدْخُرِي أَنْفَسَ صَوْتٍ قَدْ يُرْغَبُ فِي أَنْفَسِ أَعْلَاكِكَ
رَقًّا بَيْنَ مُلْكَتِهِ فِي المَوَى فَإِنَّهُ آخِرُ عُشَاكِكَ

فأنفس أعلاق المرأة معلوم ، والظرف كانه في قوله : « فإنه آخر عشائك »
يعرض أنها أسنت فلا عاشق لها من بعده . والقينة : التي داعبها وما زحها تفهم
ما خوطبت به ، لأنها تليذة ولادة بنت المكتفى ، ولادة شاعرة بارعة التندير ،
فن تندرها قولها في ذى الوزارتين ابن زيدون عاشقها تعرض له بشيء
كان يُرَنّ به :

ما لابن زيدون على فضله يفتابني ظلماً ولا ذنبَ لي^(١)
يلحظني شزراً إذا جثته كأنما جئت لأخصي علي

وعلى صبيته ، وكان يمزح معه .

...

فقال له السائل : لِيهِ دَرَكٌ مِنْ بَحْرِ لَا يُفَضِّضُهُ المَاتِحُ ، وَحَبْرٌ
لَا يَبْلُغُ مَدَحَهُ المَادِحُ ؛ ثُمَّ أَطْرَقَ إِطْرَاقَ الحَيِّ ، وَأَرَمَ إِرْصَامَ

العيّ . فقال له أبو زيد : إيه يافتي ! فإلى متى وإلى متى !
فقال : إيه لم يبق في كِنَاتِي مِرْمَاة ، ولا بَندِ إِشْرَاقِ صَبْحِكَ
مِمَارَاة ؛ فبالله أئى ابنِ أَرْضِ أَنْتِ ؟ فإِحْسِنِ مَا أَبْنَتِ !
فَأَنشَدَ بِلِسَانِ ذَلِيقٍ ، وَصَوْتِ صَهْصَلِيقٍ :

أنا فى العالم مُثْلَة ولأهل العلم قِبْلَة
غَيْرَ أئى كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ تَعْرِيسٍ وَرِخْلَةٍ
والغريب الدار لو حَلَّ بطُوبَى لم تَطْبَلْ له

ثم قال : اللهم كما جَعَلْتَنَا مِنْ هُدًى وَيَهْدَى ، فَاجْعَلْهُمْ يَمُنُّ
يَهْتَدِ وَيُهْدَى .

فساق إليه القومُ ذُودًا مع قَيْنَةٍ ، وسألوه أن يَزُورَهم الفينة
بعد الفينة . فنهض يُمْنِيهِمُ العُودَ ، وَيُزَجِّى الأَمَّةَ والدُّودَ .

. . . .

قوله : يَفْضُضُهُ : يَنْقُصُهُ . المَاتِحُ : المستقى من أعلى البئر ، والمَاتِحُ ، بالياء
من قمرها . حَبْر : عالم . أطرق : أَمَالَ رأسه ساكتًا . وأَرَمَ : سَكَت . العيّ :
الذى إن كلمته لم يُحْسِنِ رَدَّ جوابه . إيه : بمعنى زدنى من سؤالات .

ابن السرى : إذا قلت : «إيه يارجل» ، فإنما تأمره أن يزيدك من الحديث
المعهود بينكما ، كأنك قلت : هات الحديث ، وإن قلت إيه : بالتثوين ، فكأنك
قلت : هات حديثًا ما ، فإلى متى سكوتك ؟ مرمأة : سهم يرمى به السبّ ، وقيل :
هو سهم مدور الفصل . بعد إشراق صبحك ، أى بعد ظهور فضلك . وإشراق
ضوء . مِمَارَاة : شك . أَبْنَتِ : بَيَّنَّت . ذَلِيق : حديد . صَهْصَلِيق : شديد .

مُثَلَّة : مقبّر الخلق ، فهي « مُفَعَّلَة » من المثل ، ويقال المثلثة والمثل بمعنى .

* * *

[ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم]

ونذكر على قوله : « أنا في العالم مثلة » ، فصلاً في ذكر قباح الوجوه من العلماء وغيرهم .

فمنهم الجاحظ ، وأراد المتوكل أن يعلم بنيه الثلاثة ولاية عهده ، فأدخل عليهم ، فارتاعوا من قبح وجهه ، فأخرج عنهم بعنف .

وحكى السموذى : أن الجاحظ قال : ذُكِرْتُ للمتوكل لتعليم بعض ولده ، فلما رأى استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم ^(١) وصرفني .
وقال الحدوني :

لَوْ يُمَسِّخُ الْخِنْزِيرُ مَسْحًا ثَانِيًا لِرَأْيَتِهِ فِي دُونَ قُبْحِ الْجَاحِظِ ^(٢)
رَجُلٌ يَنْوِبُ عَنِ الْجَعِيمِ بَوَجهِهِ وَهُوَ الْعَدُوُّ لِكُلِّ عَيْنٍ لَاحِظٍ
قال الأصمعي رحمه الله : دخلت يوماً على جعفر بن يحيى ، فقال لي : هل لك يا أصمعي من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : لجارية ؟ قلت : للمهنة ، قال : فهل لك أن أحب لك جارية نظيفة ؟ ، قلت : إني لاحتاج إلى ذلك . فأمر بجارية فأخرجت وهي في غاية الحسن والجمال والهيئة والظرف ، فقال لها : قد وهبتك لهذا ، وقال لي : خذ هذه ، فشكرته ، وبكت الجارية ، وقالت : يا سيدي ، أتعني لهذا الشيخ مع ما أرى من سماحتك وقبح منظره ! وجزعت جزءاً شديداً ، فقال لي : يا أصمعي ، هل لك أن أهوضك منها ألف دينار ؟ قلت : ما أكره ذلك ، فأمر لي بها ، ودخلت الجارية ، فقال لي : يا أصمعي ، أنكرت عليها شيئاً ، فأردت عقوبتها بك ، ثم رحمتها منك ، قلت : أيها الأمير ، أفلا

(١) نسيهما الثعالبي في ثمار القلوب ٤٠٤

أُعلِمَتَنِي قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنِّي لَمْ آتِكَ حَتَّى سَرَّحْتُ لِحَيْتِي ، وَأَصْلَحْتُ وَجْهِي وَرِعْمَتِي ، فَلَوْ عَرَفْتُ الْخَبْرَ لَسَمَرْتُ عَلَى هَيْئَتِي وَخِلْعَتِي ، فَوَاللَّهِ لَوِ رَأَيْتَنِي كَذَلِكَ لَسَا عَاوَدْتُ شَيْئًا تَنْكَرُهُ أَبَدًا .

وما ضَرَّ مِنْ ذِكْرِنَا قُبْحَهُمْ مَعَ الْعِلْمِ الَّذِي رَبَّنَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَكَذَا يَنْبَغِي لِمَنْ خُلِقَ قَبِيحَ الصُّورَةِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ لَهَا الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ ، وَالْأَفْعَالَ الْحَسَنَةَ ، ثَلَاثًا يَجْمَعُ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ .

كَانَ الْأَوْثَقِيُّصُ الْحَزْرَوِيُّ أَقْبَحَ النَّاسِ خِلْقَةً ، وَمَا رُويَ مِثْلُهُ فِي الصَّفَافِ وَالزَّهْدِ . وَكَانَ قَاضِي مَكَّةَ ، فَقَالَ يَوْمًا لِحُلَسَائِهِ : قَالَتْ لِي أُمِّي : يَا بَنِي إِنْكَ خُلِقْتَ خِلْقَةً لَا تَصْلُحُ مَعَهَا لِمَجَالَسَةِ الْفَتَيَانِ فِي بُيُوتِ الْقِيَانِ ، فَعَمَلِكَ بِالذِّينِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْفَعُ بِهِ الْخُفْيَةَ ، وَيُتِمُّ بِهِ النُّقِصَةَ . فَفَفَفَفَ اللَّهُ بِكَلَامِهَا ، فَوُلِّيتُ الْقَضَاءَ .

وَرَوَى أَنَّ أُمَّ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ أَوْصَتْهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الرُّصِيَّةِ ، حِينَ أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْفَنَاءَ فِي حَدَاثَتِهِ ، فَتَرَكَهُ وَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، فَذَهَبَ بِهِ حَيْثُ بَلَغَ .

وَكَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ أَعْوَرُ أَسْوَدُ أَفْطَسُ أَشْلَى أَهْرَجٌ ، ثُمَّ عَمِيَ . وَأُمُّهُ سُودَاءُ تَسَمَّى بَرَكَةً ، وَقِيلَ لِأَهْلِ مَكَّةَ بِمَدِّ مَوْتِهِ : كَيْفَ كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِيمَكُم ؟ قَالُوا : كَانَ مِثْلَ الْعَافِيَةِ الَّتِي لَا يُعْرِفُ فَضْلُهَا حَتَّى تُفْقَدَ .

وَكَانَ فِي خِلْقَةِ أَبَانَ بْنِ عُمَانَ كُلِّ عَيْبٍ ، وَكَانَ يُضْرَبُ بِمُيُوبَةِ الْمَثَلِ فِي الْمَدِينَةِ .

كَانَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ أَمِيرَ الْيَمَنِ يَوْمًا جَالِسًا إِذْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ ، وَمَعَهَا ابْنُ صَفِيرٍ يَتَّبِعُهَا ، وَيَطَأُ أَذْيَالَهَا ، فَقَالَتْ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنْ تَمَّتْ زَوْجَتِي مَنْ لَيْسَ بِكَفٍّ ، فَقَالَ : مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَتْ : ابْنُ ذِي مَنَاجِبٍ ؟ فَقَالَ : عَلَىَّ بِهِ ، فَدَخَلَ أَقْبَحَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ ، وَأَشْوَهَهُمْ خَلْقًا ، قَالَ : مَنْ هَذِهِ مِنْكَ ؟

قال : امرأتى ، قال : خلّ سبيلها ، ففعل ، فأطرق من ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لَعَنَرى لَقَدْ أَصْبَحْتُ غَيْرَ مُحِبِّبٍ وَلَا حَسَنٌ فِي عَيْنِهَا ذُو مَنَاجِبِ
فَمَا لَمْ تُهَاجِرْ لَنَا تَبَيَّنَتْ وَجْهَهُ وَغَيْنًا لَهُ خَوْصَاءُ مِنْ تَحْتِ حَاجِبِ
وَأُنْفًا كَأَنْفِ الْبَكْرِ يَقَطُرُ نَاتِئًا عَلَى لَحْيَةٍ عَضْبَاءُ مِنْهُ وَشَارِبِ
أَنْبَتَ بِهَا مِثْلَ الْمَهَاءِ نَسُوقَهَا فَيَا حَسَنَ مَجْلُوبٍ وَيَا شَرَّ جَالِبِ

وكان تزوجها بمكة وقدم بها اليمن . والصبي هو ابن جامع المنفى المشهور .

وحكى البعترى في نوادره عن رجل سمّاه قال : مررت بامرأة من أجل الناس ، معها رجل من أقبحهم ، قلت لها : يا أمة الله ، مَنْ هذا منك ؟ قالت : رجلتي ، قلت : وَمَنْ قرّنتك به ؟ قالت : أخيتي ، قلت :

جَزَى الرَّحْمَنُ عَنْكَ أَخَاكَ شَرًّا فَقَدْ أَخْزَاكَ فِي الدُّنْيَا وَزَادَا
فَمَ أَرَا مُفْزِلًا قُرْنَتْ بِكَابٍ وَلَا خِزًا بِطَانَتِهِ بِجَادَا
وقال آخر :

أَلَا رُبَّ بَيْضَاءٍ الْحَاجِرِ طَائِلَةٍ تُسَاقُ إِلَى وَغْدٍ مِنَ الْقَوْمِ تَنْبَالِ
يَقُولُونَ جَرَّتْهَا إِلَيْكَ قَرَابَةٌ فَوَيْحَ الْعَذَارَى مِنْ بَنَى الْعَمِّ وَالْخَالِ !

وقال آخر :

لَا بِنَ عَبْدِ النُّورِ وَجْهٌ صَارَ لِلتُّبَيْحِ مَلَاذَا
قَالَ قَرْدٌ إِذْ رَأَاهُ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ذَا

وقال في بشار :

تُؤَانِبُ أَقْدَارًا وَأَنْتَ مَشْوَةٌ وَأَقْرَبُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ شَبِّهِ الْقِرْدِ

وكان بشار ضخمًا قبيح الوجه ، جاحظ الحدقتين ، أقبح الناس عَمًى ومنظرًا .

قال فيه حماد مجرد :

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِ الْإِذَى وَالْهَدْ بُرْدٌ^(١)
إِذَا مَا نُسِبَ النَّاسَ فَلَا قَبْلَ وَلَا بَعْدَ
وَأَمَى بِشَبِّهِ الْقِرْدَا إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فقال بشار عندما سمع هذا البيت : ما أخطأ ابن الزانية من حين شبّهني بقرد
وجعل يبكي ويقول : ما حيلتي ! يراني ويشبّهني ، ولا أراه فأشبهه ! وبعده :

وَلَوْ تُنْفِيه فِي صَلْدٍ صَمًا لَا نَصَدَعَ الصَّلْدُ
هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَا مَا ت لَمْ يُوجَدَ لَهُ قَعْدُ

وأنشده رجل قول حماد :

دُعِيتَ إِلَى بُرْدٍ وَأَنْتَ لَنْبِيرِ وَهَبِكَ الْبُرْدِ نَكْتُ أَمُكْ مِنْ بُرْدٍ

فقال : هاهنا أحد ؟ قال : لا ، قال : أحسن والله ابن الزانية ، ولقد تمّيتاً
له في بيت واحد على خمسة معانٍ من المجهول ، وهي : « دعيت إلى برد » معنى .
« وأنت لنبيره » معنى ثان ، و « هبك لبرد » معنى ثالث ، « نكت أمك »
ثتم واستخفاف بمجرد ، وهو معنى رابع ، ثم ختمها بقوله : « من بُرد » فأنه
بالطامة الكبرى .

وأوجع ما مرّة عليه من قول حماد :

لَوْ طُلِيتُ جِلْدَتُهُ عَذْبَرًا لَأَسْدَتُ جِلْدَتَهُ الْعَنْبَرَا^(٢)
أَوْ طُلِيتُ مِنْسَكًا ذَكِيًّا إِذَا تَحَوَّلَ الْمَسْكُ عَلَيْهِ خَرًا

كان حفص بن أبي بردة^(٣) أنفطس أعفص مقبّح الوجه ، وكان حماد صديقه ،
فغناشدوا الشعر يوماً ، فطمعن حفص على مرقش ، فقال حماد :

لَقَدْ كَانَ فِي عَيْنَيْكَ بِأَحْفَصُ شَاغِلٌ وَأَنْفُ كَثِيلِ الْعُوزِ عَمَّا تَقْبَعُ^(٤)

(١) الشعر والخبر في الأغاني ١٤ : ٣٢٩ (٢) الأغاني ١٤ : ٣٣١

(٣) ط : « وردة » تصحيف . (٤) الأغاني ١٤ : ٣٥١

تَتَّبِعُ لِحْنًا فِي كَلَامٍ مَرْقَشٍ وَوَجْهَكَ مَبْنًى عَلَى الْقَحْنِ أَجْمَعِ
فَأَذْنَاكَ إِقْوَاءَ وَأَنْفِكَ مُكْفَأَ وَعَيْنَاكَ إِطْهَاءَ ، فَأَنْتَ لِلرَّقْعِ
أَخَذَ تَشْبِيهِ الْأَنْفِ بِالثَّيْلِ مِنْ قَوْلِ كَعْبٍ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ :

فَقَدْتُ الْوَلِيدَ وَأَنْفًا كَثِيلَ الْبَعِيرِ أَبِي أَنْ يَبُولَا
قال أبو زيد : رأيت أعرابيًا كأنَّ أنفه كوزٌ من عِظَمِهِ ، فرآنا نضحك ،
فقال لنا : ما يضحككم ؟ فوالله لقد كنتُ في قومٍ يسمُّونني الأَفْطَسَ .
وقال الشاعر :

إِذَا أَنْتَ أَقْبَلْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ فَكَلِمَةٍ مِنْ خَلْفِهِ
فَإِنْ أَنْتَ وَاجِهَتَهُ بِالْكَلا مَ لَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ مِنْ أَنْفِهِ
وقال آخر :

إِنَّ عَيْسَى أَنْفِ أَنْفِهِ أَنْفُهُ ضِعْفٌ لِضِعْفِهِ^(١)
لو تراه راكبًا وَالْأَنْفُ قَدْ جَالَتْ بِعِطْفِهِ
رَأَيْتُ الْأَنْفَ فِي الدَّرَجِ جَ وَعَيْسَى رِذْفُ أَنْفِهِ

وقال الحسن بن جعفر بن يحيى :
ذاك الوزير الذي طالت علاوته كَأَنَّهُ نَاطِرٌ فِي السَّيْفِ بِالطُّولِ
وقال أبو علي الخليلي^(٢) :

حَابُورٌ وَيَنْحُكُ مَا أَخَصَّكَ بَلْ أَخَصَّكَ بِالْعُيُوبِ !
وَجَهٌ قَبِيحٌ فِي التَّبَسُّمِ كَيْفَ يَحْسُنُ فِي الْقُطُوبِ !

كان جحظة البرمكي ثاقب العينين جدًا ، قبيح الوجه ، فقال فيه ابن الرومي :
نَبَتْ جَحْظَةُ يَسْتَعْمِرُ جَحْظَتُهُ مِنْ فِيلٍ شِعْطَرُ نَجْرٍ وَمِنْ سَرَطَانٍ^(٣)
يا رَحِمَةَ لِنَادِمِهِ تَحْتَمَلُوا أَلَمْ الْعَمِیُونَ لِلْأَذْنَةِ الْأَذَانِ

(١) هو الحسين بن الفضل ، والبيتان في ديوانه ٢٩

(٢) ذيل زهر الآداب ٢٨١

(٣) ذيل زهر الآداب ١٩٥

وكان طيّب الغناء ، وحضر مجلسه عليّ بن بسام ، ففترّق القوم الخادّة
فقال جعظّة : مالي لا أعطى غداة ؟ فقال له ابن بسام : غنّ فالخادّة كلها إليك
تصير ، وقال فيه :

يا مَنْ هَجُونَاهُ فَعَنَانَا أَنْتَ وَحَقُّ اللَّهِ أَهْ بَنَانَا
سَيَانٍ إِنْ غَنَى لَنَا جَعْظَةٌ أَوْ مَرَّ مَجْنُونٌ فَرَانَا
وله فيه أيضاً :

لجَعْظَةِ الْحَسَنِ عِنْدِي يَدٌ أَشْكُرُهَا مِنْهُ إِلَى الْحَشْرِ
لَسَا رَأَى رَدَّ رِذْوَنُهُ وَمَا نَفَى عَنْ وَجْهِهِ الْمُنْكَرُ

كان الخطيئة قبيح المنظر ، كثير الشرّ ، فالتبس يوما إنسانا بهجره فلم
يهد ، فجعل يقول :

أَبْتَ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلُّمًا بِشَرٍّ فَا أَدْرِ لَنْ أُنَاقِئُهُ^(١)
فَاطْلُعْ فِي مَاءٍ فَرَأَى وَجْهَهُ ، فَقَالَ :

أَرَى لِي وَجْهًا قُبِحَ اللَّهُ شَخْصَهُ قُبُحٌ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبُحٌ حَامِلُهُ
نظر إلى هذا إسماعيل بن معمر القراطيسيّ فقال :

وَبَلَى عَلَى سَاكِنِ شَطِّ الْعَصْرَةِ مِنْ وَحْنَتِهِ شَمْتُ بَرْقِ الْحَيَاةِ^(٢)
مَا تَنْقِضِي مِنْ عَجَبٍ فِكْرَتِي مِنْ خَصْلَةٍ قَرَطَ فِيهَا الْوَلَاةُ
تَرَكَ الْحَبِيبِينَ بِلَا حَاكِمٍ لَمْ يَقْعُدُوا لِلْعَاشِقِينَ الْقَصَاةُ
وَقَدْ أَتَانِي خَبَرٌ مَاءَنِي مَقَالُهُ فِي السَّرِّ : وَأَسْوَأُ تَاهَا
أَمْثَلُ هَذَا يَتَنَعَى وَصَلْنَا أَمَا يَرَى ذَا وَجْهِهِ فِي الْمِرَاةِ !

وقال الأصبهانيّ : إن القراطيسيّ سأل العباس بن الأحنف فقال له :
يا أبا الفضل ، هل قلتَ في معنى قولِي هذا شيئاً ؟ فقال : قلت :

(١) ديوان الخطيئة ١٢٠ . (٢) الاغاني ٢٠ : ٨٨ ، ٨٩ — سامي

جاريةٌ أعجبها حُسنُها ومثلُها في النَّاسِ لم يَخْلُقِ^(١)
 خَبَرْتُهَا أَنِّي مُحِبٌّ لَهَا فَأَقْبَلَتْ تَضَحِكُ مِنْ مَنْطِقِي
 وَالتَفَتَتْ نَحْوَ فِتَاةٍ لَهَا كَالرَّشَاءِ الْوَسْثَانِ فِي قَرْطَقِ
 قَالَتْ لَهَا قَوْلِي لِهَذَا الْفَقِي انْظُرْ إِلَى وَجْهِكَ ثُمَّ اعْشَقِي

وقال الصَّغَلَى في صفة عذول قبيح :

رَأَى وَجْهَ مَنْ أَهْوَى عَذُولِي فَقَالَ أَجَلَّكَ مِنْ وَجْهِ أَرَاهُ كَرِيهَا
 قُلْتُ لَهُ بَلْ وَجْهٌ حَبِيٍّ مَرَاتٍ فَأَنْتَ تَرَى تَمَثَالَ وَجْهِكَ فِيهَا
 وَلابِنِ الْقَابِلَةِ السَّبْقِي :

وَوَجْهٌ حَبِيْبٍ رَقَّ حَسَنًا أَدِيمُهُ يَرَى الْعَصْبُ فِيهِ وَجْهَهُ حِينَ يَنْظُرُ
 تَعَرَّضَ لِي عِنْدَ الْإِقَاءِ بِهِ رَشَاءً تَسْكَدُ الْمُحْتِمَا مِنْ مَحْيَاهُ تَقَطَّرُ
 وَلَمْ يَتَعَرَّضْ كَيْ أَرَاهُ وَإِنَّمَا أَرَادَ يُرِينِي أَنَّ وَجْهَكَ أَصْفَرُ
 وَلِبَعْضِ الْمَصْرِيِّينَ فِي غِلَامٍ يَهْوَاهُ :

يَجْرِي النَّسِيمُ عَلَى غِلَالَةِ خَدِّهِ وَأَرْقَ مِنْهُ مَا يَمُرُّ عَلَيْهِ
 نَاولَتْهُ الْمَرَاةُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ فَعَكَسَتْ فِتْنَةً نَاطِرِيَهُ إِلَيْهِ

وقال الرَّمَادِيُّ :

وَإِذَا أَرَادَ تَنْزُهَاً فِي رَوْضَةٍ أَخَذَ الْمَرَاةَ بِكَفِّهِ فَتَنَزَّهَا

كَانَ لِلْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَصِيفَةٌ ظَرِيفَةٌ كَثِيرَةُ الْمُلَحِّ وَالنَّوَادِرِ ، وَكَانَتْ
 صَاقِيَتَهُ ، وَكَانَ أَبُو نَوَاسٍ يُولَعُ بِهَا وَيَمَازَحُهَا ، فَقَالَ لَهَا يَوْمًا : إِنِّي أَحْبَبْتُكَ وَتَبْغِضِينَنِي
 فَلَمْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَتْ لَهُ : وَجْهُكَ وَالْحَرَامُ لَا يَجْتَمِعَانِ ، فَقَالَ :

مذكّرة مؤنثة مَهْأَة إذا برزت تشبهاً غلاماً^(١)
تَعَا فُ الماء والعسل المصنّى وتشرّب من فتوتها المداما
تقول للحظها^(٢) ياسيفُ أبشِر ستروى من دم وتشق هاماً
وقائلة لها في وجهه نصبح هلام قتلت هذا المستهما ؟
فكان جوابها في حسن مسّ :^(٣) أجمع وجه هذا والحراما !

ومن ملح ابن لنسكك في أهاجى أبي رياش :

على القبح الفظيع أبو رياش يعاثرنا بأخلاقٍ ملاح^(٤)
يبيح أكفناً أبداً قفاه فنصفعه على وجه الزاح

وله فيه أيضاً :

قل للوضع أبي رياش لا تبلّ تيه كلّ تيه بالولاية والعمل^(٥)
ما ازددت حين وليت إلا خسة كالسكّلب أنجس ما يكون إذا اغتسل

* * *

قوله : تعريس ، أى نزول آخر الليل . يهدى : الأول يرشد ، ويدلّ على الطريق ، ويقال : هداه يهديه هدىً في الدين ، وهداه يهديه هدايةً في طريق . يهدي : يعطي هدية ، ويقال : أهداه هديةً يهديها إهداءً ، إذا أعطاها . الذود : ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل ، ولا تكون إلا إناثاً . قينة : جارية ممتنة ويقال : القينة الأمة ، كانت ممتنة أو غير ممتنة . الفينة : الساعة والحين ، ويقال : إنى لآتية الفينة بعد الفينة ، وفينة بعد فينة ، يستعمل بالألف واللام وبتركهما ، أى أديم الاختلاف إليه الحين بعد الحين والوقت بعد الوقت . يزجى : يسوق . السفية : البطال المشتغل باللهو .

(٢) الديوان : « لسيها »

(٤) البقيعة ٢ : ٢٢٦ ، ٢٢٧

(١) ديوانه ٣٩٢ .

(٣) الديوان : « سر »

قال الحارث بن همام : فاعترضته ، وقلت له : عهدي بك
سفيها ، فتي صرت فقيها ! فظل هنيئة يحول ، ثم أنشأ يقول :

لَبِستُ لِكُلِّ زَمَانٍ لَبُوساً

ولا بَسْتُ صَرَفِيهِ : نَعَمي وُبُوساً

وعاشرتُ كُلَّ جَلِيسٍ بِمَا يُبْلِغُهُ لَأَرْوِقَ الْجَلِيسَا
فَعِنْدَ الثَّرَوَةِ أُدِيرُ الْكَلَامَ وَبَيْنَ السَّقَاةِ أُدِيرُ الْكُتُوسَا
وطوراً بوغْظِي أُسِيلُ الدُّمُوعَ

وطوراً يَلَهْوِي أُسِرُ النُّفُوسَا

وأقرى السامع إمّا نَطَقْتُ ياناً يَقُودُ الْحُرُونِ الشُّمُوسَا
وإن شئتُ أَرْعَفَ كُنَى الْبِرَاعِ

فساقطاً دُرّاً يَحْمِلِي الطُّرُوسَا

وكم مشكلاتٍ حَكَّيْنِ الشُّهَا

خفاء فَعِرنَ بِكَشْفِي شُمُوسَا

وكم مُلِعَ لِي خَلْبَنَ الْعُقُولِ وَأَسَارَنَ فِي كُلِّ قَلْبٍ رَسِيدَا

وعَذراءُ فَهَتْ بِهَا فائِثَتِي عَلَيْهَا الشَّاءُ طَلِيقاً حَبِيسَا

هنيئة : سوية ، مصغرة هنة ، ويقال في تصغيرها هُنَيْة وهُنَيْة ، كما تصغر سنة
سُنَيْة وسُنَيْة . يحول : يتصرف . لبوسا : ثوباً يشاكله ، أخذه من قول النابغة :

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها
 لا بست : خالطت . مَرَقَ قِيهِ : حالته من الخير والشر . عاشرت : صاحبت .
 يلائمه : يوافقه . أروق : أعجب ، والعَرَفَ اسم لحادث الدهر ، لأنه يصرف
 الأشياء عن وجوها . طوراً : مرة . أَقْرَى السامع : أعطى الآذان ، وأجمل
 فيها البيان . إِمَّا نَطَقْتُ ، أَى إِنْ نَطَقْتُ . الحرون : الذى يأبى المشى والانتقاد .
 الشَّمُوس : الذى إذا نحس وثب ، وقيل : الذى يمنع الركاب . الِيزَاع : الأقلام :
 أرعفها : أسالها بالداد . يُحْمِلُ : يزين . الطروس : الكتب ، تُمِيت بذلك لأنها
 ممحوّة ، والمطروس : المحوّة . قال رؤبة :

• كما رأيت الطلل المطروسا •

[بما قبل فى وصف القلم]

وعلى ذِكْر اليزاع قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي فى قلم :
 وأهيفَ طاوى الكشعر أسمرَ ناطقٍ له جَوْلَانٌ فى بطون المهارق^(١)
 كأنَّ اللآلى والزَّبَرْجَدَ نُطْقُهُ ونورَ الخُزَامَى فى عيون الحدائق
 إذا استمجلته الكف أمطر خالهُ بلا صوت إرعاد ولا صوب بارق
 وقال ابن عبد ربه :

بكفه ساحرُ البيان إذا أَدَارَه فى صحيفه سَحَرَا^(٢)
 مهنفٌ تَزْدَهى به صفٌ كأنما حُلِمَتْ به دُورَا
 يكاد عنوانها لرُوعته بُنْيِك عن سرّها الذى استترا

وقال التّهامي :

يَلْقَى العِدَا من كُتُبِهِ بكتائبٍ يجرّزن من زَرَدِ الحروف ذُبُولَا^(٣)

(١) العقد ٤ : ١٩١ ، أدب الكتاب ٨١ . (٢) العقد ٤ : ١٩٣ .

(٣) ديوانه ٣١ .

(٦ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

فترى الصحيفة حليّة وجيادها أقلامه وصريهرن صهيلاً
في كفّه قلم أنم من القنا طولاً وهن أنم منه طولاً
وله أيضاً :

وإذا راش بالأفامل منه قلماً واستمدت ساء وسراً^(١)
قلم دبر الأقاليم حتى قال فيه أهل القناسخ إمراً
يتبع الرمح أمره فابن عشرين ذراعاً بالرأى يخدم شبراً

السها : نجم خفي . خَلَبَن : خدعن . أسأرن : أبقين ، والسور : البقية .
وفي الحديث : « إذا أكلتم فأسئروا » ، وأخذت سائرته ، معناه بقيته . الرئيس : أول
برء الحصى ، يريد أن هذه الملح لمدوبتها إذا حلت في القلب أحدثت فيه حركة
وهزة ، وإذا سمع ذو الذكاء كلاماً مستظرفاً من نثر أو نظم وجدله ديباً
وقشعريرة . وأخذ « وكم مشكلات » ، من قول علي رضي الله عنه :

إذا المشكلات تصدّين لي كشفت حقائقها بالنظر^(٢)
وإن برقت في مخيل الصّواب عياده لا يجتليها البصر
مقنّمة بغيوب الأمور وضعت عليها صحيح الفكر
لساناً كيشقّشة الأرحبّي أو كالحسام اليماني الذّكر
وقلباً إذا استنطقته الغيوب أمر عليها بواهي الدرر

عذراء : قصيدة بكر ، لم يسبق إليها . فُهِت : نطقت . اثني : رجع . طليقاً :
منتشراً في الناس . حبيساً : موقوفاً عليها لا يتعدّاها لغيرها .

[ذكر مدح الشعراء للشعر]

ومدح الشعراء للشعرباب شأوه بعيد ، وسنذكر لحبيب - وهو المبرز فيه -

ولغيره ما يستحسن ويستجاد ، قال حبيب :

جاءتك من نظم اللسان قلادة
خُذيتُ حذاء الحضرمية أرففتُ
إنسية وحشية كَثُرَتْ بها
أما المعاني فهي أبكارُ إذا
مِمَّا كان فيها التُّلُو للكنون^(١)
وأجادها التخصير^(٢) والتبيين^(٣)
حركات أهل الأرض وهي سكونُ
فُضَّتْ^(٤) ولكن التوافي هُونُ

وقال أيضاً :

فوالله لأفئك أهدى قصائدًا
يُحَاكِ بها بُرْدُ عليك مجدّدُ
ألذ من التلوي وأطيب نفحة
أخف على سمع وأقل قيمة
إليك يَحْمِلُنِ الثناء للجلال^(٥)
ونحسبه درًا عليك مُفَصَّلًا
من المسك مفتوقًا وأيسر عملاً
وأفصر في سَمْعِ الجليس وأطولاً

وقال البحترى :

تَطْوَعُ التوافي فيكم فكانتَا
وكم لى من محبوكة الوشى فيكم
يُطِيرُ إليكم من علو قصيدتها^(٦)
إذا أنشدت قام امرؤ يستعِيدها

وقال أيضاً :

ألسْتُ الموالى فيكَ نظمَ قصائدٍ
ثناء تَخَالُ الروض منه منورًا
هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً^(٧)
ضحى وتخال الوشى فيه مُسَهَّمًا

وقال أيضاً :

إليك التوافي نازعاتٍ قواصدًا
يُسَيِّرُ ضاحي وشيها ويُفَنِّمُ^(٨)

(١) ديوانه ٣٣٠ ، ٣٣١ ط : « التحصين » وصوابه من الديوان .
(٢) الديوان : « نصت » .
(٣) ديوانه ١٩٨٤
(٤) ديوانه ٢٥٥
(٥) ديوانه ٦٥٥
(٦) ديوانه ١٩٣١
(٧) ديوانه ١٩٣١
(٨) ديوانه ١٩٣١

ومشرقة في النظم غراً يزيدُها بهاء وحسناً أنها لك تُنظَّمُ
ضوامينُ للحاجات إمّا شوافها مشقّةً ، أوحاكتِ تُحكَمُ

وقال علي بن الجهم :

ولكنّ إحسان الخليفة جعفر وعانى إلى ما قلت فيه من الشُّعر^(١)
فسار مسير الشمس في كل بلدة وهبّ هبوب الريح في البر والبحر

ولابن الرومي يهجو :

خذها إليك منيعة ستارة في الناس من بادٍ ومن متحضر
تقدو إليك بحاصبٍ وبتاربٍ وعلى الرواة بلؤلؤ متخير

وقال السري الموصلي :

أتتك يجمول ماء الطبع فيها مجال الماء في السيف الصَّقيل^(٢)
قوافٍ إن نذت للره عطفًا نى الأعطاف في بُردٍ جميل
وقال أيضاً^(٣) :

شرقت بماء الطبع حتى خلتها شرقت لرونقها^(٤) بتبرٍ ذائب
ويقول سامعها إذا ما أنشدت أعتود سجد أم عتود كواكب
وقال أيضاً :

ألقاؤها كالدرّ في أصدافه لا بل تزيدُ عليه في لآلئه^(٥)
من كلّ رائحة الجلال كأنما جاد الشباب لها برونقٍ مائه
والشعر بحرٌ حُزّتْ أنفَسَ دُرّه وتنافس الشعراء في حصْبائه

(٢) ديوانه ٢١٨

(١) ديوانه ١٤٧

(٤) الديوان : «لريتها» (٥) ديوانه •

(٣) ديوانه ٢٣

وقال أيضاً :

لفظ صَقَلْتُ متونهُ فكأنهُ
وكانما أجريت في صفحائِهِ
أغرَبْتُ في تحبيرهِ فرواته
وقطعت منه شبيبة لم تشتغل
وإذا ترقق في الصحيفة ماؤه
يُصْنِى اللَّيْبُ لَهُ فيقسم لُبُهُ
جِدُّ يطير شرارُهُ ، وفكاهُهُ
ومشرقات النظم دُرِّ مِخَابِ^(١)
حرَّ اللُّجَيْنِ وخالص الزُّرْيَابِ
في نزهة منه وفي استغرابِ
عن حسنة بصبا ولا بتهابِ
عَبَقَ النسيم فذاك ماء شبابه
بين التَّعْجُبِ منه والإعجابِ
أَسْتَعْطِفُ الأَحبابَ للأحبابِ

قال يحيى بن أكرم لحمد بن حازم : ما في شعرك شيء غير أنك لا تطيله، قال :

أَبَى لِي أَنْ أَطِيلَ الشَّعْرَ قَصْدِي إِلَى الْعَنَى وَعَلِمِي بِالصَّوَابِ^(٢)
فَأَبْعَثُنَّ أَرْبَعَةَ وَخَمْسًا مَثَقَّةً بِالْقَاطِ عِذَابِ
خَوَالِدَ مَا حَدَا لَيْلُ نَهَاراً وَمَا حَسُنَ الصَّبَا بِأَخِي الشَّبَابِ
وَمَنْ إِذَا وَسَمْتُ بِهِنَّ قَوْمًا كَأَطَوَاقِ الْحَمَامِ فِي الرُّقَابِ
وَمَنْ إِذَا أَقَمْتُ مَسَافِرَاتٍ تَهَادَاها الرُّوَاةُ مَعَ الرُّكَّابِ

* * *

عَلَى أَنتَى مِنْ زَمَانِي خُصِصْتُ

بِكَيْدٍ وَلَا كَيْدَ فِرْعَوْنَ مُوسَى

يُسَّرُّ لِي كُلَّ يَوْمٍ وَغَى

أَطَامَنْ لَهَاها وَطِيسًا وَطِيسًا

وَيَطْرُقُنِي بِالْخَطُوبِ الَّتِي

يُذَيِّنُ الْقَوَى وَيُسَيِّنُ الرُّعُوسَا

ويذني إلى البعيد البغيض ويبعد عني القريب الأنيب
ولولا خسامة أخلاقه لما كان حظي منه خسيباً
قللت له : خفف الأحزان ، ولا تلم الزمان ، واشكر لمن نقلك
عن مذهب إبليس ، إلى مذهب ابن إدريس .

• • •

قوله : على أنني ، أى مع أنني . وقوله : ولا كيد فرعون موسى ، أضاف
فرعون إلى موسى ، لأن الفراعنة كانوا جماعة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة فرعوناً ، وفرعون هذه الأمة
أبو جهل » .

وفرعون موسى ، كان أكبر الفراعنة كيداً وأطولهم عمراً ، وأعتاهم على
الله ، وأسراهم مملكة .

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام :
يَا رَبِّ ، أَمَهَلْتَ فرعون أربعائة سنة ، وهو يقول : أنا ربكم الأعلى ،
ويكذب بآياتك ويمجد رسلك ! فأوحى الله تعالى إنه كان حسن الخلق منهل
الحجاب ، فأجهت بأن أكانه .

وأما عذابه لبنى إسرائيل فقد قدمناه في الخامسة .

ومما يحكى عنه أنه كان يأمر بالقَصْبِ فيشق ، ويُجمل أمثال الشفار ، ثم
يضيف بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبال من بنى إسرائيل فيوقفن عليه ، فيحز
أقدامهن ، حتى إن المرأة لتضع ولدها فيقع بين رجلها ، فتظل تطؤه تنقي به
حدَّ القَصْبِ عن رجلها .

قال وهب بن منبه : بَلَّغَنِي أنه ذبح في طلب موسى تسعين ألف ولد .
ولسب الثعالبي المفسر فرعون ، فقال : هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الزيان

ابن أراشه بن ثروان بن عمرو بن قاذم بن حلاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام .

قوله : يُسْقَر ، أى يهتيج . وغى : حرب . لظاها : حرّها . وطيساً : شدة ، وحى الوطيس : اشتدت الحرب ، وأصله تنور من حديد يطبخ فيه ، فشبهت شدة الحرب وحرارتها به . وقيل : هو حفرة يُخْتَبَزَ فيها . والوطيس : الوطء الشديد ، والبلاء الذى يطسّ الناس ، أى يدقهم ويقتلهم .

يطرقنى : يقصدنى ليلاً . الخطوب : الأمور الشداد . خساسة : حقارة . حظى : نصيبى .

ومما قيل فى معنى قوله : ويدنى إلى البعيد البغيض . . البيت .. قول الزاهد ابن عمران :

إلى المام كلّ ثقيل قد أضربنا نروم نقصهم والشئ يزاد
ومن يخفّ علينا لا يلمّ بنا ولثقل مع الساعات ترّداد
ويقرب منه قول الشاعر :

وكيف يودّ القلب من لا يودّه بلى قد تريد النفس من لا يريدّها
وقال عدى بن الرقاع^(١) :

تبلى^(٢)ك أخت بى لوى إذ رميت سواها وأصاب تنبلك إذ رميت سواها
وأعارها الحدّان منك مودةً وأعار غيرك ودّها وهواها
وهذا من قول الأعشى :

عَلَّقْتُهَا عَرَضًا وَعَلَّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي ، وَعَلَّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٣)

(١) اللّآلى ١٣٩ . (٢) ط : « تبلىك » ، والصواب ما أتت به من اللّآلى

(٣) ديوانه ٥٧ .

وقال مسلم بن الوليد - وهو صريع الفوائى ، وكان حاملاً فولأه بنو سهل
جرجان فشرّف - فقال :

أهلُ الصفاء نأيتُم بعد قُرْبِكُمُ فإِنتفتُ بعيشِ بَعْدِكُم صافي^(١)
وقد قصدتُ ندى مَنْ لا يوافقنى فكان سهمى عنه الطائش الطافى
أردتُ «عمرأ» وشاء الله «خارجة» أما كفى الدهر من خلني وإخلافي
ولهذا أشار ابن شرف بقوله :

سَلْ من رضى عَنِ الزَّمانِ فَإِنَّهُ كَرِضا الْفَرَزْدَقَ عَنِ بَنى بَرْبُوعِ^(٢)
فَهُ حَالٌ قد تَنَقَّلَ عَهْدُها كخِلافِ نَقْلِ الدَّهرِ حالِ صَرِيعِ
دارتُ دَراريَ الخُطوبِ قِواصِداً حتّى نَظَرنَ إلَيَّ من تَرَبِّيعِ
ولهُ أيضاً يَتَشكى :

مالى أَجاذِبُ ذى الدُّنيا مَولِيَّةً فَكَلَّ ثوبَ عَليها قَدَمَ دُبُرِ^(٣)
أتى الزَّمانُ عَلى يأسٍ بِهِ لَبِئى الدُّنيا كَبَشُرى بِمولودِ عَلى كِبَرِ
وقال أيضاً :

إِنى وَإِنْ عَزَتْنى نَيْلُ المَلى لَأَرايَ حَرَمَ الفَتى خَلَّةَ زَيدتِ عَلى العَدَمِ^(٤)
تَقَلَّدَتْنى الِليالى وَهى مَدِيرَةٌ كَأَننى صَارمٌ فى كَفِّ مَنهزمِ
وقال جعظلة :

ضاقَت عَلى وَجوهِ الرأى فى نَفَرِ يَلقَوْنَ بالجُعدِ والكُفَرانِ إِحسانِ
أَقَلَبَ الطُرفَ تَصعِيداً وَمَنحَدَراً فإِ أَقابِلَ إِنساناً يَإِنسانِ
وقال أيضاً :

لَقَد ماتَ إِخوتِى الصَّالحونَ فإِلى صَدِيقٍ وَمالى عَمادُ

(١) ديوانه ٣٢٧

(٢) نقله الميمنى فى التتف ١٠٤

(٣) نقله الميمنى فى التتف ١٠١

(٤) نقله الميمنى فى التتف ١١١

إِذَا أَقْبَلَ الصَّبِيحَ وَتَى السَّرُورُ وَإِنْ أَقْبَلَ اللَّيْلَ وَتَى الرَّقَادُ
قوله : خَفَضَ ، أَيْ سَكَنَ .

* * *

[ترجمة الإمام الشافعي]

وابن إدريس هو الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن خافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، يلتقي نسبُه مع بني هاشم وبني أمية في عبد مناف .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نحن وبنو المطلب كهاتين » - وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى مضمومتين .

وحاصرت قريش بني المطلب مع بني هاشم في الشَّعْب .

وكان الشافعي أعلم الناس وأورعهم وأعبدم ، وأجودم ، فإن أردت أن تقف على حفظه ومبلغ علمه ، فانظر رحلته .

ووصفه بعضُ أهل العلم فقال : هو خفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسبِه وشريكه في حسبه .

زَوْج المطلب ابنه هاشمًا الشَّفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخيه ، فولدت له عبد يزيد جدّ الشافعي رضي الله عنه ، فكان يقال لعبد يزيد : الحَضُّ لاقْدَى فيه ، فولد الشافعي رضي الله تعالى عنه هاشمان : هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فالشافعي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، لأن الشفاء أخت عبد المطلب ، فهي عمة النبي صلى الله عليه وسلم .

وأسلم السائب جدّه يوم بدر ، وكان صاحب راية بني هاشم بن عبد مناف

أَمِيرَ وَفَدَى نَفْسَهُ ، فَأَسْلَمَ ، فَقِيلَ لَهُ : لِمَ لَمْ تُسَلِّمْ قَبْلَ أَنْ تَفْتَدِيَ ؟ قَالَ : مَا كُنْتُ أَحَرَمُ لِلزُّمَنْجَةِ طَعْمًا لَهُمْ فَتَ .

قال أبو ثور : ما رأيتُ ولا رأى الراءون مثله .

وقال أحمد بن حنبل : ما صلّيت صلاة منذ أربعين سنة ، إلا وأنا أدعوه الله للشافعي . وقال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له هذا الدعاء ؟ قال : يا بني كان كالشمس للدين ، أو كالعافية للناس .

وحدث صالح بن أحمد بن حنبل قال : مشى أبي مع بَنَاتِ الشافعي في ركابه ، فبعث إليه يحيى بن معين فقال له : يا أبا عبد الله ، أما رضيت إلا أن تمش مع بنته ؟ فقال : يا أبا زكرياء ، لو مشيت من الجانب الآخر لكان أنفع لك ، وما يمس أحدٌ محبرة إلا وللشافعي في عنقه منة .

وقال الشافعي رضى الله عنه : ما شُبِّهْتُ منذ ست عشرة سنة ، لأنَّ الشَّجْعَ يَثْقُلُ البدن ، وَيَقْسِي القلب ، وَيَزِيلُ الفِطْنة ، وَيَحْلِبُ النوم ، وَيَضَعِفُ صاحبه من العبادة .

وقال : ما حَلَفْتُ بالله لأصداقاً ولا كاذباً .

وقال : ما ناظرتُ أحداً قطَ فأحببت أن يخطيء ، وما كلّمتُ أحداً إلا أحببت أن يوفق ويسدّد ويعان ، ويكون عليه من الله رعاية وحفظ . وما كلّمتُ أحداً إلا وأنا لا أبالي أن يُبَيِّنَ الله الحقَّ على لسانه أو لساني ، وما أوردتُ الحجة على أحدٍ ، فقبل مني إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا نابرتني على الحق أحدٌ ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته .

وكان يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة .

وقال السكراييسي : بثُّ معه غير ليلة فكان يصلي نحرًا من ثلث الليل ، فما رأيتُه يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فثأرة آية . وكان لا يمر بآية فيها رحمة إلا

سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين ، ولا بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل النجاة منها لنفسه ولجميع المسلمين .

وقال عمر بن عبد الله البَلَوِيّ: جلسنا يوماً نتذاكر الزّهاد والعباد والعلماء ، وما بلغ من زهدهم وفصاحتهم وعلمهم ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا عمر ابن نباتة ، وقال : فيم تتحاورون ؟ فأعلمناه ، فقال عمر : والله ما رأيت رجلاً قطّ أوزع ولا أخشع ولا أصبَح ولا أسمع ، ولا أعلم ولا أكرم ولا أجمل ، ولا أجَلّ ولا أفضل ، من محمد بن إدريس الشافعيّ ، خرجت أنا وهو والحارث بن الليث إلى الصفا ، وكان الحارث صاحب صالح المرّي ، وكان من المتّقين الخاشعين ، وكان حسن الصوت ، فقرأ ﴿ هَذَا يَوْمَ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾^(١) فرأيتُ الشافعيّ رضي الله عنه قد تغيّر لونه ، واقشعرّ جلده واضطرب اضطراباً شديداً ، ثم خرّ مغشياً على وجهه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وأعراض الغافلين ! اللهم خضعتُ لك قلوبُ العارفين ، وذلتُ لك قلوبُ المشتاقين ، اللهم هب لي جُردك ، وجَلّلي بسِرتك ، واهف عن تقصيري بكرم وجهك . ثم قمنا وتفرّقنا .

وقال الربيع بن سليمان ، سمعت الشافعيّ رضي الله عنه ، يقول : أتى عليّ عيد وليس عندي نفقة ، فاستسلفت سبعين ديناراً لنفقة أهلي ، فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجل من قريش يشتكي إلى الحاجة فأخبرته خبري ، وقلت له : خذ ما تحبّ ، فقال لي : ما يقضي إلا أكثر من هذه الدنانير ، فقلت له : نخذها ، وبثّ ومامعي دينار ولا درهم ، فبينما أنا في منزلي إذ أتاني رسول جعفر بن يحيى البرمكي ، يقول : أجب الوزير ، فأجبتّه . فقال : ما شأنك في هذه الليلة ؟ يهتف بي هاتف كما دخلت في النوم ، يقول : الشافعيّ الشافعيّ ، فأخبرته بالخبر ، فأعطاني خمسمائة دينار ، ثم قال : أزيدك . فأعطاني خمسمائة أخرى ، فلم يزل يزيدني حتى أعطاني ألفي دينار .

ومن جوده أن سوطه وقع من يده ، فأعطى مَنْ ناوله إياه خمسين دينار .
وورد مكة بعشرة آلاف درهم ، ففُضرب خبائه خارجها ، فأتاه الناس ،
فما برح من موضعه حتى فرَّقها .

وكان شاعراً مجيداً ، قال أبو القاسم بن الأزرق : دخلت عليه ، فقلت له :
يا أبا عبد الله ، أما تنصفنا لك هذا الفقه تفوز بفوائده ، ولنا هذا الشعر ، وقد
جئتُ نُدخلنا فيه ! فإما أفردتْنا أو أشركتْنا في الفقه ، وقد أتيتُ بأبيات إن
أجزئها بمثلها ثبت من الشعر ، وإن عجزتْ تُب منه ، فقال لي : إيه يا هذا ،
فأنشدته هذا الكلام :

ما همّتي إلا مقارعة العدا خلق الزمان وهمّتي لم تخاقي
والناس أعينهم . إلى سبب الغنى لا ينظرون إلى الحجا والأولقي
لكنّ مَنْ رُزِق الحجا حرّم الغنى ضدّان مفترقان أيّ تفرق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتُنّي بنجوم أقطار السماء تعلقي

فخال الشافعي رضي الله تعالى عنه : ألا قلت كما أقول ارتجالاً :

إن الذي رزق اليسار فلم يَبَلْ حمداً ولا أجراً لغير موقٍ^(١)
فالجدّ بدني كلّ أمر شاسع والجدّ يفتح كلّ باب مُغلق
فإن سمعت بأنّ مجدوداً حوى عوداً فأتمر في يديه فحققي
وإذا سمعت بأنّ محروماً أتى ماء ليشرّبه ففاض فصدق
وأحقّ خلق الله بالهمّ امرؤ ذو همّة يُبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه بُؤس الليب وطيب عيش الأحمق

فقلت له : لا قلتُ شعراً بعدها .

(١) ديوانه . ، ونقل جامعه عن محمد بن منصور ، قاله : قرأت في كتاب طاهر بن محمد
السيابوري بخط الإمام الشافعي ، وذكر الأبيات .

قال المبرّد : كان الشافعي رضي الله عنه أشعر الناس وأدب الناس ، وأعرفهم بالفقه والقراءات ، ولقد أخبرني بعض أصحابي أنه مات ولداً لعبد الرحمن ابن مهدي ، فكتب إليه الشافعي رضي الله عنه : يا أخي ، عزّ نفسك بما تُعزّي به غيرك ، واستتبع من فلك ما تستتبعه من غيرك . واعلم أن أمض المصائب قد سرور ، وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمع اكتساب وزر ! فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك ، ألهمك الله عند المصائب صبراً ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً ، وكتب إليه :

إني أمزيك لا أتي على ثقة من الحياة ولكن سنة الدين^(١)
فما العزّي يباقي بمد ميته ولا للعزّي وإن عاشا إلى حين
وقال أيضاً :

على ممي حينما يمتّ ينفعي قلبي وعاء له لا بطن صندوق^(٢)
إن كنت في البيت كان العلم فيه ممي أو كنت في السوق كان العلم في السوق
وقال أيضاً :

ومنزلة السفيه من الفقيه كنزلة الفقيه من السفيه^(٣)
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهّد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه تقطع في مخالفة الفقيه

وناظر الشافعي محمد بن الحسن الكوفي بالرة فقطعه الشافعي ، فبلغ ذلك هارون الرشيد ، فقال : أما علم محمد بن الحسن إذا ناظر رجلاً من قريش ، أنه يقطعه ؛ سائلاً أو مجيباً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « قدّموا قريشا ولا تقدّموا عليها ، وتعلّموا منها ولا تعلّموها » ، فإن علم العالم منها يسع طباق

الأرض . وكان الشافعي يعظم محمد بن الحسن له ، واستعار شيئاً من كتبه فلم يسمعه بذلك ، فكتب إليه الشافعي رضي الله تعالى عنه :

قُلْ لِلَّذِي لَمْ تَرَ عِيَةً نَأْمَنُ رَأَاهُ مِثْلَهُ (١)
وَمَنْ كَانَ مِنْ رَأَى . قَدْ رَأَى مِنْ قَبْلَهُ
الْعِلْمُ يَنْهَى أَهْلَهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ أَهْلَهُ
لَمْ يَبْذُلْهُ لِأَهْلِهِ لَعَلَّهُ

فبعث إليه بما سأل .

وقال في النقيع ابن عبد الحكم وقد اعتلّ فعاده :

مَرِضَ الْحَبِيبُ فَمَدَّتْهُ فَرَضْتُ مِنْ حَذَرِي مَحَلَّتْهُ
شَفِيَّ الْحَبِيبُ فَمَادَنِي فَشَفِيتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

وقال أبو سعيد : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول بيتين وهما :

إِنِّي أَرَى نَفْسِي تَتَوَقَّعُ إِلَى مَعْرِ
فَوَاقِهِ مَا أَدْرِي أَلَّاخْفُضُ وَالْفَنَى أَقَادُ إِلَيْهَا ، أَمْ أَقَادُ إِلَى الْقَبْرِ !

قال : فو الله ما كان إلا قليل حتى صيق إليهما جميعاً .

ورأيت بعد وفاته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أجلسني على كرمي

من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب .

وقال المُرْزُوقُ : دخلت عليه غداة وفاته فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولسكأس المنية خارباً ، ولا أدرى إلى الجنة نصير نفسي فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ! ثم أنشأ يقول :

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتَ الرَّجَا مَعِي لَعْفُوكَ سُلْمًا^(١)
تَعَاظَمَنِي ذَنْهِي فَلَمَّا قَرَسَتْهُ يَتَعَفَّوْكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

وكانت وفاته في رجب ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين ، ودفن في صبيحتها
هو ابن أربع وخمسين سنة ، وصلى عليه السري بن الحكم أمير مصر ، ودفن
بها نحو قبور الشهداء في مقبرة بني عبد الحكم وعند رأسه عمود من الحجر
كبير ، وفيه مكتوب : « هذا قبر محمد بن إدريس الشافعي أمين الله » .

وقال الشافعي : أظلم الظالمين لنفسه مَنْ تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب في مودة
من لا ينفعه ، وقيل مدح مَنْ لا يعرفه .

وقال : مَنْ غلبت عليه شدة الشهوة بحب الدنيا لزمته العبودية لأهلها ،
ومن رضى بالقنع زال عنه الخضوع .

وقال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ بِجَاوِرِي مَنْ لَيْسَ مِثْلِي بِشَاكِهٍ^(٢)
أَخَامَتِهِ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلَهُ
قال : وسمته بفشد :

عُسْنِ النَّفْسِ وَاحْلُهَا عَلَى مَا يَزِينُهَا تَعِشْ سَالِمًا وَالْقَوْلُ فَيْكَ جَمِيلٌ^(٣)
وَلَا تَوَلِّ النَّاسَ إِلَّا تَجَمَّلًا نَبَا بِكَ دَهْرٌ أَوْ جَفَاكَ خَلِيلُ
وَأِنْ ضَاقَ رِزْقُ الْيَوْمِ فَاصْبِرْ إِلَى غَدٍ عَسَى نَسْكَبَاتُ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ
وَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ امْرِئٍ مَتَلَوِّمٍ إِذَا الرِّيحُ مَالَتْ مَالٌ حَيْثُ تَمِيلُ
وَمَا أَكْثَرَ الْإِخْوَانَ حِينَ تَعْدُهُمْ وَلَكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ ۱

قال : وسمع رجلاً يَسْفُهُ على رجل من أهل العلم ، فقال لأصحابه : تزعموا
أسماعكم عن استماع الخنثى ، كما تزعمون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع
شريك القائل ، وإن السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه ، فيحرم على أنه
يفرغه في أوعيتكم .

نظم بعضهم هذا المعنى ، قال :

فَسَمِعَكَ مَنْ عَنِ سَمَاعِ الْخَنَثَى كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْخَنَثَى شَرِيكَ لِقَائِهِ فَاَنْتَبِهْ

وكان الحسن البصري رحمه الله ، إذا خطب الجمع ، وذكر السلف ،
يتكلم تشاغلاً عن خطبته ، فيقول له في ذلك ، قال : إن السامع والمتكلم
شريكان ، ألم تسمع قول الشاعر :

فجاء به ناطق منهم بليغٌ ومستمعٌ صامتٌ
فكلُّ له حظه أنه أعان مع الناطق الساكتُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ ذِمِّيَ لِمَا تَعْلَمُ مِنْ صَفَحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَاخْشِ سَكُونِي إِذْ أَنَا مَنَعْتُ فَيْكَ لِمَسْمُوعِي خَنِي الْقَائِلِ
فَالسَّامِعُ الْقَوْلَ كَمَنْ قَالَهُ وَالْمُوكِّلُ الْمَأْكُولَ كَالْأَكْلِ

وذكر الفنجدبي الشافعي ، فقال : هو إمام الأنام ، ونظام الإسلام ، أحد
الأئمة الأربعة الأطواد ، الشاخنة في الدين الأجواد ، رضيع لبان النبوة ، أفضل
العلماء ، وأعلم الفضلاء ، وصدر البدور وبدر الصدور ، وهادي القعاة ، وداعي
الهداة ، إكسير العلوم ، وإكليل الرسوم : عِلْمُ العلماء شَغْلِيَّةٌ مِنْ عِلْمِهِ ، وَحِلْمُ
العُلَلاءِ جَذْوَةٌ مِنْ حِلْمِهِ ، وَعُقَاثِدُ الْأَصُولِ مَقْتَدَحَةٌ مِنْ زَنَادِ كَلِمَاتِهِ ، وَقَوَاعِدُ

الفروع مقترحة من عداد نعمائه ، فارس هَيَّجَاء المشكلات ، ومقوم عَوَجَاء
المعضلات ، منبع السَّخَن ، ومُتَمِّع السَّخَن ، فاز بفلبات الأقران ، وحاز قَصَبَاتِ
الزَّهَان ، بَطْهَارَةِ الأعراق ، ودَمَائَةِ الأخلاق ، وفَغَامَةِ شرف الأمومة ، وكرامة
طرفي الأبوة والعمومة ، دَرَّةُ الأصداف ، من صميم آل عبدمناف ، كشف الظلمة
عن الأمة ، وصرف عنهم المظلمة المدهمة ، بلمر كالبحر اللججى ، ورأى كالبدر
فى الآيل الدججى ، مذهبه مؤيد بنصوص القرآن ، وفصول الفرقان ، أسس بُنيانه
على تقوى من الله ورضوانه ، فهو بين المذاهب والأديان ، كالناظر فى الأجفان
والسمع فى الآذان ، والعقل فى الإنسان ، والمذل للسلطان ، أحله الله محل
القدس ، وأدلى إليه سحاب الأنس فى كلام أ كثر من هذا .

* * *

فقال : دَعِ الْهَتَّار ، ولا تهتك الأستار ، وانهض بنا لنضرب
إلى مسجد يثرب ، فمضى أن ترخص بالمرار ، درن الأوزار .
فقلت : هيهات أن أسير ، أو أفقه التفسير ، فقال : تالله
لقد أوجبت ذمًا ، وطلبت إذ طلبت أمًا . فهاك ما يشفى النفس ،
وينفى اللبس ، قال : فلمّا أوضح لى المعنى ، وكشف عني
الغمى ، شدّذنا الأكوار ، وسرت وسار . ولم أزل من مسامرتة ،
مدة مسأيرته ، فيما أنسانى طعم المشقة ، ووددت معه بُفَدَ
الشقة ، حتى إذا دخلنا مدينة الرسول ، وفزنا من الزّيارة
بالسؤل ، أشام وأغرقت ، وغرب وشرقت .

...

قوله : **دع اِهْتَارَ :** ، أى أترك تمزيق العِرض ، وفلان يهتار فلانا ، أى يسابه بالباطل من القول ، والقبیح من اللفظ ، وأصل الِهْتَار سَقَط الكلام والباطل ، والمهارة : القول الذى ينقض بمضه بعضاً ، وأِهْتَر الرجل فهو مهْتَرٌ ، إذا أُولع بالقول فى الشيء ، واستهْتَر ، فهو مستهْتَرٌ : ذهب عقله فيه ، وانصرفت إليه همهته . تهْتِك : تخرق وتكشف ، يريد أنه لما عرض له بتقائمه قال له : **دع كشف العيب ،** فليس هذا موضعه . انهض : تقدم . لنضرب : لنمشى فى الأرض . ترْحض : نفعل . المزار : زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم . **درن الأوزار :** وضع الذنوب . هيهات : معناه بُعْدَ ذلك عنك . أققه : أفهم ، ووذِمّا : جمع ذمة ، وهى العهد . أمّا : شيئاً قريباً ، والأمم : القصد . هاك : أى خذ . المعنى : المغطى المشكل المعنى ، وأراد به شرح المائة الفتيا الملفةزة . ويقال لمن يطلب ما يمكن ولم يشطّط : **طلب أمّا** قال عبيد الله بن قيس الرقيات :
كوفيةٌ نازح محلتها لا أممٌ دارها ولا صتَبٌ^(١)

الصلّيب : القرب . الغنى : هى الغمة التى تغطى على القهن ، والمعنى الأمر المتلبس . الأكوار : ما هو للإبل كالبراذع للدواب . الشقة : السفر البعيد . والشول : المراد ، أشأم وأعرت : قصدَ الشأم وقصدتُ العراق .

[فصل فى زيارة قبر الرسول عليه السلام]

ونذكر هنا فصلاً فى زيارة القبر المعظم وتوديع زائره له ووصف الروضة والمسجد وذكر يثرب ، وهى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجرة ، سماها طنبية لما كان اشتقاقها من التثريب^(٢) . وكان صلى الله عليه وسلم يغير الأسماء التى تدل على الاستعباح إلى ضدّها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ زار قبرى وجبت له خفاعة » .

(١) ديوانه ٨ ، وفيه « ولا سقب » ، وهما سواء . (٢) التثريب : الإفساد

ابن عمر رضى الله عنهما : يثرب أرض مدينة الرسول في ناحية منها .
وقال شيخنا ابن جبير في روضته صلى الله عليه وسلم : شاهدنا ^(١) الروضة
المكرّمة ، وقد وقع الأذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعية الأصهباني الذي
ورث النباة والوجاهة في العلم كابراً عن كابر ، المعروف برئيس العلماء ،
توارثه عن أبي قاب ، وقد غصّ الحرم بالمتنظرين ، وقد أعد له كرسي يازاء
الروضة المقدسة ، فصعد وحضر قراؤه أمامه ، فابتدءوا بالقراءة بنغيات عجيبة ،
وتلاحين مطربة بهيجة ، وهو يلحظ الروضة المقدسة ، ويؤمن بالبكاء . ثم أخذ
في خطبة من إنشائه سحرية البيان ، وسلك في أساليب من الوعظ بالأسان ،
وأشد أبياتاً بديمة من قوله ، كان يردّد منها هذا البيت ، ويشير إلى الروضة
المعظمة المطهرة .

هانيك روضته تفوح نسيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وتمدّى في وعظه إلى أن أطار النفوس من خشية ورقة ، هو يستلذ من
التقصير ، لهول ذلك المقام ويقول : عجباً لألكن العجم ، كيف ينطق عند
أفصح العرب . وتهافت الأعاجم عليه معلنين بالتوبة ، وقد طاشت ألبابهم ،
ودهشت عقولهم ، فيلقون نواصيرهم بين يديه ، فستدعى الجمّين ، ويجرّهم ناصية
ناصية ، وكلّما جزّ ناصية كساها عمامة ، فتوضع عليه للحين عمامة أخرى ، ثم
ختم مجلسه ، بأن قال : معشر الحاضرين ، قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله ،
وهذه الليلة بحرم رسوله ؛ ولا بد لا واعظ من كذبة ، وأنا أسألكم حاجة وإن
ضمنتها إلي أرقّت لكم ماء وجهي في ذكرها . فأعلن الناس بالإسماع وشهيقهم
قد علا ، فقال : حاجتي أن تكشفوا ردوسكم ، وتبسطوا أيديكم ، ضارعين لهذا
النبي الكريم في أن يرضى عني ويعتري الله عز وجل لي . ثم أخذ في تعداد
ذنوبه ، والاعتراف بها ، فأطار الناس عمامتهم ، وبسطوا أيديهم للنبي صلى الله

(١) رحلة ابن جبير ص ١٦٨ وما بعدها مع تصرف .

عليه وسلم ، داعين له باكين متضرعين ؛ فما رأيت ليلة أكثر دموعاً ، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة . ثم انفضَّ المجلس .

قال ابن جبير رحمه الله : ثم كان في اليوم التالي لهذه الليلة وداعنا للروضة للكرامة ، فياله وداعاً ، ذهلت له النفوس ارتباعاً ، حتى طارت شماعاً ، وماظنك بموقف ينادى بالتوديع فيه سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ! إنه لموقف تنفطر فيه الأفئدة ، وتطيش له الألباب المتثددة ، فوا أسفاه وأسفاه ! كلُّ ييوح لديه بأشواقه ، ولا يجد بُدّاً من فراقه ، فما تستطيع إلى الصبر سبيلاً ، ولا تسمع في ذلك المقام إلا رنةً وعويلاً ، وكلُّ بلسان الحال ينشد :

مَحْبَبِي تَقْتَضِي مَقَامِي وَحَالِي تَقْتَضِي الرَّحِيلَا

بِوَأَنَا اللَّهَ بِزِيَارَةِ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ مَنَزَلِ الْكَرَامَةِ ، وجعله شفيعاً لنا يوم القيامة ، وأولمنا بفضلَه في جواره الكريم دار المقامة .

ثم ذكر الروضة المقدسة مع المسجد العتيق الذي احتوى على الروضة ، فقال : المسجد المبارك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُسْتَطِيلٌ ، وتمحُّه من جهاته الأربع بلاطات مستطيلة ، ووسطه كله محن مفروش بالحصى والرمل ، وفي الصحن خمس عشرة نخلة ، فالجهة القبليّة لها خمس بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجنوبيّة كذلك ، على الصفة المذكورة والشرقيّة لها ثلاث بلاطات ، والغربيّة لها أربع بلاطات . وطول المسجد مائة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعددُ سَوَارِيهِ مائتان وتسعون ، وهي أعمدة متصلة بالشئمك دون قسيّ تنمطف عليها ، فكانتها دعائم قوائم ، وهي من حَجَرٍ منحوت قطعاً قطعاً ، مُكَلِّمَةٌ^(١) مثقوبة توضع أثني في ذكر ، ويفرغ بينهما الرصاص للذباب إلى أن يتصل هموداً قائماً ، وتُكسى بِقِلَالَةٍ جَيِّدٍ ، ويبلّغ في صقلها ودلكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض ، وتُحَفّ بالبلاط المتصل بالقبلة من

البلاطات الخمس مقصورة تسكتفه من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، وعلى رأس المحراب حجر مربع أصغر قدر شبر في شبر ، ظاهر البريق ، يقال : إنه كان مرآة كسرى . وفي أعلى داخل المحراب مسمار مثبت في جداره ، فيه شبه حقه صغير لا يعرف من أى شىء هو ، ويؤمنون أنه كان كأس كسرى . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع أزاراً على إزار مختلف الصنعة واللون ، مجزّع أبدع تجزيع . والنصف الأعلى من الجدار مزين كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، قد نتج الصانع فيه نتائج غريبة من الصنعة ، تضمنت تصاوير أشجار مختلفة الصفات ، ماثلة الأغصان بثمرها ، والجداران الشرقى والغربى الناظران إلى الصحن مُحَرَّتان أبيضان مُقرَفَسان ، قد زُيِّنَا برسم يتضمن أنواعاً من الأصبغة إلى ما يطول وصفه من الاحتفال في هذا المسجد المبارك .

وفي الجهة الشرقية بيتٌ مصنوع من عُود لمبيت بعض سَدَنَتِهِ ، وسَدَنَتُهُ فنيانٌ أحايش صقالبُ ظراف الهيئات ، نظاف الملابس ، والمؤذّن الراتب فيه أحد أولاد بلال ، وفي جوف الصحن قبة كبيرة تُعرَف بقبة الزيت ، هي مخزن لجميع آلات المسجد .

وله تسعة عشر باباً لم يبقَ منها مفتوحاً سوى أربعة : اثنان في الغرب ، ويعرفان بباب الرحمة ، وباب الخشية ، واثنان في الشرق : باب جبريل ، وباب دار عثمان التي استشهد بها ، وباب الرجاء . وفي الشرق خمسة مغلقة ، وفي الغرب كذلك ، وفي الجنوب أربعة وفي القبلة واحدٌ صغير ، وله ثلاث صوامع إحداها في الركن الشرقى على هيئة الصوامع ، واثنان في ركني الجهة الجنوبية صغيرتان على هيئة بُرجين ، والروضة المقدسة مع آخر الجهتين ، الجهة القبليّة تمايلي الشرق ، وقد انتظمت من بلاطاته تمايلي الصحن في السعة اثنين وثيقت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات ، وشكلها شكل

عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله ، والصفحات الأربع محروقة عن القبلة تحريفاً بديعاً ، لا يتأتى لأحد معه استقبالها في صلاته ، لأنه ينحرف عن القبلة ، والذي اخترع ذلك في تدبيرها مخافة أن يتخذها الناس مصلى عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه . وأخذت من الجهة الشرقية سعة بلاطتين ، وانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة ، وسعة الصفحة القبليّة منها أربعة وأربعون شبراً ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً ، ومن الركن الشرقي إلى الركن الجنوبيّ صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الجنوبيّ إلى الغربيّ صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الغربيّ إلى القبليّ صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً ، وفي هذه الصفحة صندوق آبنوس مختم بالصندل ، مصفح بالنضة ، مكوكب بها طوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه أربعة ، وهو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم ، فجميع سعة الروضة من جميع جهاتها مائة شبر ، واثنان وسبعون شبراً ، وهي مؤزّرة بالرخام البديع النحت الرائع النعت ، وينتهي الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقلّ يسيراً ، وعليه من الجدار المسكرم ثلث آخر ، قد علاه تضمين المسك والطيب مقدار نصف شبر مسوّدًا متراكبًا ، متشققًا مع طول الأزمنة والأيام ، والذي يملؤه من الجدار شبابيك عود متصلة بالشمك الأعلى ، لأنّ أعلى الروضة متصل بسمك المسجد ، وإلى حيز إزار الرخام تنتهي الأسعار ، وهي لازوردية اللون ، مختمة بخواتم بيض مثمنة ومربعة ، وفي داخل الخوانيم دوائر مستديرة ، ونقط بيض تحف بها ، فنظرها منظر بديع الشكل . وفي أعلاها رسم مائل إلى البياض ، وفي الصفحة القبليّة أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسار فضة ، هو قبالة الوجه المسكرم ، فيقف الناس أمامه للاستلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر رضي الله عنه ، ومما يلي كتفي أبي بكر رأس عمر رضي الله عنهما ، فيقف المسلم مستدير القبلة ، ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلم ثم ينصرف يمينًا إلى وجه أبي بكر ، ثم إلى وجه عمر رضي الله تعالى عنهما .

وأمام هذه الصنعة المكرّمة نحو العشرين قنديلاً معلقة من القضة ، وفيها اثنتان من ذهب ، وفي جوف الروضة حوضٌ صغيرٌ مرخّمٌ في قبلته شكلُ البحر ، قيل : إنه بيت فاطمة رضى الله تعالى عنها ، ويقال : هو قبرها ، وعن يمين الروضة المكرّمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو في الحوض المبارك الذى طوله أربع عشرة خطوة ، وعرضه ست خطا ، وهو مرخّم كله وارتفاعه شبر ونصف ، وارتفاع المنبر نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجة ثمانية ، وبابه على هيئة الشباك مقفلٌ يُفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر .

والمنبر مغطى بعود الآبنوس ، ومقعد النبي صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهرٌ ، وقد طبق عليه لوح من الآبنوس غيرٌ متصل به ، يصونه من القعود عليه ، يدخل الناس أيديهم إليه ، ويمسحونه تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رجل المنبر اليمنى ، حيث يضع الخطيب يده حلقة فضة مجوفة مستطيلة تشبه حلقة الخياط ، لكنها أكبر لآلة تستدير في موضعها ، يزعمون أنها كانت لعبة للحسن والحسين في حال خطبة جدّهما ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وفي الروضة الصغيرة التى بين القبر والمنبر ، جاء الأثر أنها روضة من رياض الجنة ، وقدرها ثمان خطا ، ويتزاحم الناس في هذه الروضة للصلاة ، وبازائها لجهة القبلة عمود ، يقال إنه مُطبق على بقية الجذع الذى حنّ للنبي صلى الله عليه وسلم وقطعة منه في وسط العمود ظاهرة ، يقبلها الناس ، ويمسحون خدودهم فيها وعلى حافتها في القبلة منها صندوق كبير للشمع والأنوار التى توقد أمام الروضة كلّ ليلة ، ومصلّى الإمام في الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق ، وبينها وبين الروضة الكبيرة محملٌ كبيرٌ مدهون عليه مُصْحَفٌ كبيرٌ في غشاء مقفل ، هو أحد المصادف الأربعة التى وجّه بها عثمان إلى البلاد ،

ويازاء المتصورة لجهة المشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد ، ويليهما في البلاط الثانى دَفَّةٌ لجهة الشرق ، وَدَفَّةٌ مطبقة على وجه الأرض إلى سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض ، يُفَصِّلُ إلى خارج المسجد إلى دار أبى بكر ، وهو كان طريق عائشة رضى الله عنهما إليها . وذلك الموضع هو موضع الخوخة المُفضية لدار أبى بكر رضى الله عنه التى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإبقائها ، ويازاء دار أبى بكر دار عمر وابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين .

وفىما ذكرناه كفاية ، والله تعالى أعلم .

المفامة الثالثة والثلاثون وتشرّف بالتفليسيّة

حكى الحارث بن همام ، قال : عاهدتُ الله مُذْ يَفْعْتُ ،
ألاَّ أُوخِّرَ الصَّلَاةَ مَا اسْتَطَعْتُ ؛ فَكُنْتُ مَعَ جَوْبِ الْقَلَوَاتِ ،
وَلَهُوَ الْخَلَوَاتِ ، أُرَاعِي أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ ، وَأَحَازِرُ مِنْ مَأْتَمِ
الْفَوَاتِ . وَإِذَا رَافَقْتُ فِي رَحْلَةٍ ، أَوْ حَلَلْتُ بِحِلَّةٍ ، مَرَحَبْتُ
بِصَوْتِ الدَّاعِي إِلَيْهَا ، وَاقْتَدَيْتُ بِمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهَا .

فَاتَّفَقَ حِينَ دَخَلْتُ تَفْلِسَ ، أَنْ صَلَّيْتُ مَعَ زَمْرَةٍ مَقَالِسَ
فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ ، وَأَزْمَعْنَا الْإِنْفِلَاتَ ، بَرَزَ شَيْخٌ بِأَدَى الْمَلَقَوَةِ ،
بِأَلِي الْكُسُوفَةِ وَالْقَوَّةِ ، فَقَالَ : عَزَمْتُ عَلَى مَنْ خُلِقَ مِنْ طِينَةِ
الْحَرِّيَّةِ ، وَتَفَوَّقَ دَرَّ الْمَصِيبَةِ ، إِلَّا مَا تَكَلَّفَ لِي لُبْثَةً ، وَاسْتَمَعَ مِنِّي
نَفْثَةً ، نِمَ لَهُ الْخِيَارُ مِنْ بَعْدِ ، وَبِيَدِهِ الْبَذْلُ وَالرَّدُّ . فَعَقَدَ لَهُ
الْقَوْمُ الْحَبَا ، وَرَسَوْا أَمْثَالَ الرُّبَا .

يفعت : شببت ولم أبلغ الحلم ، وقاربت ذلك .
ابن أبي الخيزر : يفع الغلام وأيفع ، إذا كان ابن سبع سنين ، فإذا ناهز الحلم
قيل : مُراهق وكوكب^(١) ، فإذا أدرك قيل : فيه حَزَوْر .

غيره : غلام يفعه غضُّ الشباب ، وجارية يفعه ، والجمع أيفاع وأيفع ، فهو
يافع على غير قياس . قال ابن سيده رحمه الله : ولم يقل أحدٌ منهم يفع الغلام ،
ولا مُوَفِع ، ومثله أبقل للموضع ، وأورس ، والورس : نبتٌ أصفر . جوب :

(١) في القاموس : الكوكب : الغلام المراهق .

قطع . الخلوات : حيث يخلو للذاته . أبراعى . أحفظ . مائم : إثم . الفوات . فوت الوقت . رافقت فى رحلة : صاحبت فى ارتحال وسفر . حَلَلْتُ : نزلت ببلدة . والحلّة : جماعة البيوت ، والحلّة : القوم الحُلُول والجمع حِلال . مَرَحِبْتُ : قلت مَرَحَبًا . الدّاعى : هو للوُذْن .

[ما قيل فى أداء الصلاة فى وقتها وما جاء فى تركها]

وجاء من الأثر فى تأخير الصلاة قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليصلّى الصلاة وما فاتهُ وقتها ، ولما فاتهُ من وقتها أعظمُ أو أفضلُ من أهلِهِ وماله » . فهذا وقد أدرك آخر الوقت سيندم على فوات أوله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الوقت الأول من الصلاة رضوان الله ، والثانى عفو الله » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : رِضْوان الله أحبُّ إلى من عفوه . وإنما قال ذلك لأن عفو الله لا يتصوّر إلا عند اكتساب خطيئة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النّبى صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة من النار ، ومن لم يحافظ عليها كان يومَ القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الذى تفوته صلاة العصر ؛ فكأنما وَرَّ أهلَهُ وماله » .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى عماله : إن أهمّ أموركم عندى الصّلاة ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيّع .

وجاء فى القرآن : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصلاةَ واتَّبَعُوا الشهواتِ فسوف يلقونَ غيًّا ﴾ ^(١) ، وفى التفسير : لم يتركوا الصّلاة وإنما أضاعوا وقتها . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تنفريط فى النوم ، وإنما التفريط فى الذى يؤخّر الصلاة إلى وقت الأخرى » .

وسُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، قَالَ :
« هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا » .

ومما يُستظَرَفُ من هذا الباب أَنَّ المنصور قيل له : إن أبا دُلَامَةَ لا يحضر الصلاة ، لآَنه معتكفٌ على الخمر ، وقد أَفْسَدَ فتيان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لأصلحته وغيره . فلمَّا دخل عليه قال : أبو دُلَامَةَ الماجن ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا والجنون ، وقد ساورت بابَ قُبْرِي ، فقال : عني من استكاثتك وتضرعتك وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر في مسجدي ، فإن فانتك لأحسِنَ أدبَكَ ، ولأطيلن حبسَكَ . فوقع في شرِّ أمر ، فلزم المسجد أياماً ثم كتب رقعةً ودفنها إلى المهدي ، فأوصلها إلى أبيه وفيها :

لمسجده وانقصر مالي وللعصر ^(١)	ألم تعلمَا أَنَّ الخليفةَ لَزَنِي
فوبلي من الأولى ، ووبلي من العصر !	أصلي به الأولى جميعاً وعصرهما
فألي في الأولى وفي العصر من أجر	أصليهما بالكُره في غير مسجدي
يحطُّ بها عني الثَّقِيلَ من الوزر	يكلفني من بعد ما شئتُ توبةً
ولا البر والإحسان والخير من أمرى	ووالله مالي نيّةٌ في صلاتها
ولم ينشرح يوماً لفشيانها صدرى	لقد كان في قومي مساجدُ جحّة
لو أن ذنوب العالمين على ظهري !	وما ضرّه - والله يغفر ذنبه -

فقال : صدقَ دَعْوُهُ بُضِّلَ مَنْ يشاء ، وما بضرني ذلك ! والله لا يفلح هذا أبداً ، فدعوه يفعل ما يشاء .

وكان الجمّاز منقطعاً إلى أبي جَزْء الباهلي ، فتناسك أبو جَزْء ، فقال للجمّاز : لا أحب أن تحالطني إلا أن تنسك فأظهر النُّسك ، ثم كتب إليه :

قد جفاني الأمير كي أنقرّي فقرّيتُ مكرهاً بِلُفائِهِ^(١)
والذي أنطوى عليه المعاصي علم الله نيتي من سمائِهِ
ما قرّاة لمكرّو بقرّاةٍ قد رواه الأمير عن فقّهائِهِ
ومن مجون أبي نواس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحَبَّسه ، فكلّمه فيه
الفضل بن الربيع ، وأخرجه كتب إليه :

أنتَ يابن الربيع علّمتني الخيّرَ وعوّذتنيهِ والخيّرُ عادة^(٢)
فارعوى باطلي وراجعتني الحلمُ فأحدثتُ رهبةً وزهّادةً
لو تراني ذكرتُ بي الحسن البهـ ريتُ في حال نسكه أوقْتادةً
للمسابيح في دراعى والمُضجف في لَبّي مكانَ القِلادة
فإذا شئتُ أن ترى طرفه تَدـ سَجب منها مليحةً مستفّادةً
فادْعُ بي لا عدمتَ تقويمَ مثلي فتأملُ بعينك السّجّادة
لورآها بعضُ المرائين يوماً لا اشتراها يمدّها للشهادة
أترى لاحَ للصلاة بوجهي تُوقن النفسُ أنه من عبّادة

وأذن بشار لأصحابه والمائدة بين يديه ، فأكل ولم يدعُهم طعامه ، ثم دعا
بطشتَ وكشّف عن سوءته فبال ، ثم حضر الظهر والعصر والعشاء الأولى
والآخرة ، فلم يُصلِّ فقالوا له : أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها
عليك . قال : وما هي ؟ قالوا : دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعُنا إليه ، قال :
إنما أذنت لكم لتأكلوا ، ثم ماذا ؟ قالوا : دَعَوْتَ بالطشت ونحن حضورٌ
فبُلتُ ونحن نراك ؛ فقال : أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم للأمورون بغُصّة
البصر دُوني ، ثم ماذا ؟ قالوا : حَضَرَتِ الصلاة فلم تصل ، فقال : إن الذي
يقبلها تفارق يقبلها جملة . هذا على أنه القائل :

(١) الأماي ٣ : ٤٦ . تقرى : تنسك .

(٢) ديوانه ١٤٥ ، ذيل زهر الآداب ١٦٨ .

ألم تر أن الدهر يقدح في الصِّمَاءِ وأن بقائى إن حيت قليل^(١)
خليلك ما قدمت من عمل التَّقَى وليس لأَيَّامِ المنون خليلُ
فعتس خائفًا للموت أو غير خائفٍ^(٢)

على كلِّ نفسٍ للحِمَامِ دليلُ

وقال الحسن رحمه الله تعالى^(٣) :

وندمانٍ يرى غيباً^(٤) عليه بأن يمسى^(٥) وليس له انتشاء
إذا نبهته من نوم سُكْرِ كفاه مرةً منك النداء
إذا ما أدركته الظهر صلى^(٦) فلا ظهرٌ عليه ولا عشاء^(٧)
بُصلى هذه في وقت مذى فكلَّ صلاته أبداً قضاء

[ذكر مدينة تفلّيس]

تفليس : مدينة بأرمينية بينها وبين قالى قلا ثلاثون فرسخاً، ومن قالى قلا
ابتداء الأنهار للعظام، أولها الفرات - وقد تقدّم - يأخذ من قالى قلا فرسخين،
ثم يشق مغرباً إلى دَبِيل إلى وَرْثَان، ثم يصب إلى بحر الخزر، والثاني الكبير
يخرج من مدينة قالى قلا، ثم يشق إلى مدينة تَفْلَيْس مشرقاً إلى مدينة بَرْدعة
وأرضها، ثم يقرب من بحر الخزر، فيلتقى مع الرّس ويصيران نهراً واحداً.
ويقال : إن خلف الرّس ثلثمائة مدينة خراب، وهي التي ذكرها الله تعالى،
وأصحاب الرّس بُعث إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه، فأهلكوا. وقيل في
أصحاب الرّس غير ذلك .

(١) نقله اليازودي في مختاراته ٤ : ٤٦ (٢) المختارات : « عاتف »

(٣) مختار الأغاني ٣ : ٦٦

(٤) ط : « عيبا » ، تصحيف . (٥) المختار : « يلقي » .

(٦) ط : « حيا » ، وما أثبتته من المختار .

(٧) المختار : « ولا عصر عليه ولا عشاء » .

وإرمينية مقسومة على ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول مدينة دَبِيل ، ومدينة
قَالِي قَلَا ، ومدينة خَلَاط ، ومدينة شَمَشَاط ، ومدينة السَّوَاد ، والجزء الثاني مدينة
بَرْدَعَة ، ومدينة البَيْلُقَان ، ومدينة قَيْلَة ، ومدينة الباب والأبواب والثالث
مدينة خَزَوَان ومدينة تَفْلَيْس . والمدينة التي تعرف بمسجد ذِي الْقَرْيَيْن ،
وافتحَّت إرمينية في خلافة عُثْمَان ، وافتتحها سُلَيْمَان بن ربيعة الباهلي في سنة
أربع وعشرين .

عُصْبَة : جماعة . مفاليس : فقراء ، وأفلس الرجل : صار صاحبُ فلوس بعد
أن كان صاحب دنانير . أَرَمَعْنَا الْإِنْفَلَات : عَزَمْنَا عَلَى الْخُرُوج . اللقوة : داء
يأخذ في الوجه ، والفواق : ما بين الحلبتين . دَرَّ الْعَصْبِيَّة : لبن الحمية ، وهو
مَثَل . نفقة : كلمة . البذل : العطاء . والرد : النعم . الحبا : عقد اليدين على
الركبتين . رَسَوْا : ثَبَتُوا . الرِّبَا : الكُدَى .

* * *

فَلَمَّا آتَسَ حُسْنَ إِنْصَاتِهِمْ ، وَرَزَانَةَ حَصَاتِهِمْ ، قَالَ : يَا أُولِي
الْأَبْصَارِ الرَّائِقَةِ ، وَالْبَصَائِرِ الرَّائِقَةِ ؛ أَمَّا يُعْنَى عَنِ الْخَبَرِ الْعِيَانِ ،
وَيُنْبِئُ عَنِ النَّارِ الدَّخَانِ ؛ شَيْبٌ لَا تُحْ ؛ وَوَهْنٌ فَادِحٌ ، وَدَاهٍ
وَاضِحٌ ، وَالْبَاطِنُ فَاضِحٌ .

وَلَقَدْ كُنْتُ وَاللَّهِ ثَمَنَ مَلَكٍ وَمَالٍ ، وَوَلِيَّ وَآلٍ ، وَرَفَدَ
وَأَنَالَ ، وَوَصَلَ وَصَالَ ؛ فَلَمْ تَزَلِ الْجَوَائِحُ تَسْحَتُ ، وَالتَّوَابُ
تَنْحَتُ ؛ حَتَّى الْوَكْرُ قَفَرٌ ، وَالْكَفُّ صِفَرٌ ، وَالشُّعَارُ ضُرٌّ ،
وَالْعَبْشُ مُرٌّ ؛ وَالْعَصْبِيَّةُ يَتَضَاعَوْنَ مِنَ الطَّوْرِ ، وَيَتَمَنَّقُونَ

حُصَاة النُّوى ولم أَقُمْ هَذَا المقَامَ الشَّائِنَ ، وَأَكْشِفَ لَكُمْ
الدَّفَائِنَ ؛ إِلَّا بَعْدَ مَا شَقِيتَ وَلَقِيتَ ، وَشَبْتُ مِمَّا لَقِيتَ ؛
فَلَمَّيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيتُ . ثُمَّ تَأَوَّهَ تَأَوَّهَ الْأَسِيفِ ، وَأَنْشَدَ
بصوتٍ ضَعِيفٍ

* * *

آنس : أبصر . إِنْصَاتِهِمْ : سَكَوَتُهُمْ . رِزَانَةُ حَصَاتِهِمْ : رِجَالُهُ عَقُولُهُمْ ،
وَالْحَصَاةُ يَكْنَى بِهَا عَنِ الْعَقْلِ ، قَالَ طَرْفَةُ :

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لم يكنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لِذَلِيلٍ^(١)

الْأَبْصَارُ الرَّامِقَةُ : الْعَيُونُ النَّاظِرَةُ . الْبَصَائِرُ : جَمْعُ بَصِيرَةٍ وَهِيَ الْمَعْتَدُ .
الرَّائِقَةُ : الْمَعْجِبَةُ . الْعِيَانُ : الْمَعَانِيَةُ ، يَقُولُ : مَعَانِيَتُكَ الشَّيْءُ تُعْنَى عَنْ خَبْرَتِهِ
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْسَ الْخَبِيرُ
كَالْمَعَانِيَةِ » .

يَنْبِيُّ : يَخْبِرُ . لَانْح : ظَاهِرٌ . وَهَنْ : ضَعْفٌ . فَادِحٌ : مُثْقَلٌ بَيْنَ . فَاضِحٌ :
أَيُّ صَاحِبِهِ فِي شَهْرَةٍ وَفَضِيحَةٌ . مَلِكٌ : كَانَ مَلِكًا أَوْ مَلِكُ الْأَمْوَالِ الْعِظَامِ فَصَارَ
ذَا مَلِكٍ : مَالٌ : صَارَ ذَا مَالٍ . وَلِيٌّ : صَارُوا لِيَا . آلٌ : سَاسَ ، أَيُّ صَارِيَسُوسٍ
النَّاسَ ، أَيُّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا ، قَالَ هَرَجَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَلْنَا وَلِإِلٍ عَلَيْنَا .
رِفْدٌ : وَهَبَ الرِّفْدَ . أَنَالَ : أَعْطَى الْفَتِيلَ وَالنَّوَالَ ، يُقَالُ : مِنْهُ نَائِلُهُ وَأَنْلَتْهُ .
وَصَلَ : أَعْطَى صِلَةً ، وَلِلزَّفْدِ وَالنَّوَالِ : الْمَطَاءُ . وَالْإِبَالَةُ : السِّيَاسَةُ ، آلُ الْأَمِيرِ
رَعِيَّتُهُ أَحْسَنُ سِيَاسَتِهِمْ ، وَآلُ مَالِهِ يُوَلُّهُ : أَصْلَحُهُ . صَالٌ : بَطِشٌ وَهَدَدٌ ، وَصَالٌ

(١) لم أجده في ديوان طَرْفَةَ ، وَالْبَيْتُ فِي الْلسَانِ (حَمِي) ، وَنُسِبَ مَعَ بَيْتِ قَبْلِهِ إِلَى
كُتُبِ بْنِ بَعْدِ الْفَنَوِيِّ .

الفعل : هَدَرَ في قطيعه . الجوائح : المصائب . تَسَحَّت : تستاحل الأموال .
 تنحَّت : تنجر وتأخذ . النوائب : النوازل . الوكر : قعر المنزل : صِفَر : خالية
 من الدرَاهم . الشَّعَارِ : اللباس : يتضاغون : بصيغون ، والضَّغَاء صياح الذئب
 إذا جاع ، والضَّغَاء : البكاء بذلَّ وخشوع . الطَّوَى : الجوع . مصاصة : ما يمسَّ
 منه . الشَّائِن : العائب صاحبه . شَقِيت : أدركنى الشقاء . لُغِيت : أصابتنى
 لقوة . تَأَوَّه : توجع ، وقال أَوْه . الأسيف : الحزبن .

* * *

أشكو إلى الرَّحْمَنِ مُبْحَانَهُ تَقَلَّبَ الدَّهْرُ وَعُدْوَانُهُ
 وحادثاتٍ قَرَعَتْ مَرُوتِي وَقَوَّضَتْ مَجْدِي وَبُنْيَانَهُ
 واهْتَصَرَتْ عُودِي وَيَأْوِيلَ مَنْ
 تَهْتَصِرُ الْأَحْدَاثُ أَغْصَانَهُ

وَأَحْمَلْتُ رَبْعِي حَتَّى جَلَّتْ مِنْ رَبْعِي الْمَجْلِ جِرْدَانَهُ
 وغادرثنى حارراً بائراً أَكْبَدُ الْفَقْرَ وَأَشْجَانَهُ
 من بَعْدِ مَا كُنْتُ أَخَانَرُوهُ
 يَسْحَبُ فِي النُّعْمَةِ أُرْدَانَهُ

يَخْبِطُ الْعَافُونَ أَوْرَاقَهُ وَيَحْمَدُ السَّارُونَ نِيرَانَهُ
 فَأَصْبَحَ الْيَوْمَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ أَعَانَهُ الدَّهْرُ الَّذِي عَانَهُ
 وَازْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا
 وعاف عافِي المَرْفِ عِرْفَانَهُ

فهل فتى يحزنه ما يرى من ضر شيخ دهره خانه
 فيفرج الهم الذي هم — ويصلح الشأن الذي شانه

* * *

عدوانه : ظلمه . قرعت مَرَوْنِي : ضربت صخرتي ، وأراد بها نفسه .
 قوتضت : نفقت وهدمت . اقتصرت : كسرت وحتقت ، وهضر الفصن :
 تعطله وانحناؤه ، وضرب بالمرّة والعود أمثالا وهو يريد جسده وماله . أمحلتها :
 جعلته محلاً . جلت : طردت . المدجل : الذي لا نبات فيه ولا رزق . جردانه :
 فقرانه ، وقد تقدّم فائدة هذا المعنى . بأرا : هالكاً . أكابد : أقاسى . أشجانه :
 أحزانه . أخا ثروة : صاحب غنى . يسحب . يجرّ . أردانه : أذباله . يختبط :
 يطلب . العافون : الطالبون للرزق ، وخبطت الورق : ضربتها بالعصا ، فتسقط
 فعملتها الإبل ، فيضرب بها المثل لمطية الكريم ، وأنشد زهير^(١) :

وليس مانع ذي قُرْبَى وذى رَحِمٍ^(٢) يوما ولا معدماً من خابطٍ ورَقاً
 السارون : الماشون بالليل . عانه : أصابه بالعين . ازورّ : انقبض . عاف :
 كره . عافى العُرف : طالب المعروف . عرفانه : معرفته . هته : أذابه .
 وشانه : عابه .

[من كلام الأعراب]

ومن كلام العرب في هذا الباب، ما حكى الأصمعي رحمه الله: أن الأعراب
 أصابهم سنوات كثيرة جذبة ، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين أيديهم
 أمراء يقول : أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ،

(١) ديوانه : ٥٢ .

(٢) الديوان : « وذى نسب » .

عابرو سبيل وفلال بؤس ، وصَرَعى جَدْب ، تتابعت علينا سنون ثلاث غيَّرت النِّعم ، وأكلت النِّعم ، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نملأ بذلك نفوسنا ، ونمئى بالغيث قلوبنا ، حتى هاد مختاراً ، وعاد إشرافنا ظلاماً ، فأقبلنا إليكم بصراعنا الوعر ، وينشكينا السهل ، وهذه آثار مصائبنا لأئمة في قَسَمَانِنَا . فرحم الله متصدّقاً من كثير ، أو مواسياً من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وكسِفَ البال ، وبلغ المجهود ، والله يجرى للمتصدّقين .

وقف أعرابي على حلقة يونس النحوي ، فقال : الحمد لله ، وأعوذ به أن أذكّره وأنساه ، إنا أناس قد قدمنا هذه المدينة ثلاثون رجلاً ، لاندفن ميتاً ، ولا نتحوّل عن منزل ، وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً تصدّق على ابن سبيل ، ونصّر طريق ، وقبّل سنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله . ولا عمل بعد الموت ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ الله قَرْضاً حَسَناً فيضاعفه له ﴾ ، إن الله لا يستقرض من عوَر ، ولكن ليبلّو أخبار عباده .

قال الأصمعي رحمه الله : وقف أعرابي علينا ، فقال : تتابعت علينا سنون ، بتغيير وانتقاص ، فما تركت لنا ضيماً ولا رَيْماً^(١) ، ولا نافطة ولا عافطة^(٢) ، ولا ناغية ولا راغية^(٣) ، فأمانت الغرّاع وأفنت الزّرع ، وعندكم من فضل الله نعمة فأعينوا من عطية الله إياكم ، وارحموا أبا أيتام ، وأنضاء زمان ، فلقد خلفت أقواما لا يمرضون مريضهم ، ولا يكفّنون ميتهم ، ولا ينتقلون من المنزل وإن كرهوه ، ولقد مشيت إليكم حتى انتعلت الدماء ، وجُعْتُ حتى أكلت النوى الحارقة .

وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقالت :

(١) الضيع جمع ضيعة ، وهي المقار . والريح : سبيل الوادي من كل مكان مرتفع .

(٢) العافطة : النجعة ، وكذلك النافطة .

(٣) النغاء : صوت الغنم ، والرغاء : صوت البعير أو الذقة .

إِنِّي أُتَيْتُ مِنْ أَرْضٍ شَاسِعَةٍ ، تَهْبِطُ هَابِطَةٌ ، وَتَرْفَعُ رَافِعَةٌ ، فِي مَلَحَاتٍ مِنْ
الْبَلَايَا ، بَرَيْنَ لَحْيٍ ، وَهَضْنٍ عَظْمِي ، وَتَرْكَنِي وَاهِمَةٌ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ ،
بَعْدَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ ، لَا قَرَابَةَ تُؤْوِيَنِي ، وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِيَنِي .
فَسَأَلْتُ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ : مَنْ الْمَرْتَجَى سَيِّبُهُ ، لِلْأَمُونِ عَيْبُهُ ، الْكَثِيرِ نَائِلُهُ ، لِلْكَفَى
سَائِلُهُ ، فَذَلَّلْتُ عَلَيْكَ ، وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازِنَ ، فَقَدْتُ الْوَالِدَ وَالرَّافِدَ ، فَاصْنَعْ
فِي أَمْرِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ تَحْسِنَ صَفْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ أُودِيَّ ^(١) ،
وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، فَقَالَ : بَلْ أَجْمَعَنَّ لَكَ قَعْلَ بِهَا ذَلِكَ .

خَرَجَ الْمُهْدِيُّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ بَعْدَ هَدَاةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، فَسَمِعَ أَهْرَابِيَّةً مِنْ جَانِبِ
الْمَسْجِدِ ، وَهِيَ تَقُولُ : قَوْمٌ مُتَظَلِّمُونَ ، نَبَتْ عَنْهُمْ الْعِيُونَ ، وَقَدَحَتْهُمْ الدُّبُونُ ،
وَهَضَّتْهُمْ الشُّنُونُ ، بَادَتْ رِجَالُهُمْ ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ ، أَبْنَاءُ سَبِيلٍ ، وَأَنْصَاءُ
طَرِيقٍ ، وَصِيَّةُ اللَّهِ وَوَصِيَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ بِخَيْرٍ كَلَامُهُ
اللَّهُ فِي سَفَرِهِ ، وَخَلَّفَهُ فِي أَهْلِهِ ! فَأَمَرَ لَهَا مِخْسَمَاتَةَ دَرَاهِمٍ .

وَعَمَّا جَاءَ فِي ذِمِّ السُّؤَالِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَأَنْ يَأْخُذَ
أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ فِيهِ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ دَجْلًا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ،
فِيَسْأَلُهُ ؛ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ » .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابًا مِنَ السُّؤَالِ ، فَتَحَ اللَّهُ
عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفَقْرِ » .

وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفٍ : كُلُّ سُّؤَالٍ وَإِنْ قَلَّ أَكْثَرُ مِنْ كُلِّ نَوَالٍ
وَإِنْ جَلَّ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لِلْسَّاكِينِ لَا يَمُودُونَ مَرِيضًا ، وَلَا يَشْهَدُونَ
جَنَازَةً ، وَلَا يَحْضُرُونَ جُمُعَةً ، وَإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي أَعْيَادِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ يَسْأَلُونَ

(١) الصَّدَقَةُ : الْإِعْطَاءُ . وَالْأُودَى : الْأَهْوَجَاجُ .

الله من فضله ، اجتمعوا يسألون الناس ما بأيديهم .

سأل سائل بمسجد الكوفة فلم يُعْطَ شيئاً ، فقال : اللهم إنيك بحاجة عالم لا تعلم ، أنت الذي لا يعوزك نائل ، ولا يلحقك سائل ، ولا يبلغ مدحك قائل ؛ أسألك صبراً جميلاً ، وفرجاً قريباً ، وبصراً بالهدى ، وقوة فيما تحب وترضى . فتبادروا إليه بالعطية ، فقال : لا والله لا أرزؤكم الليلة شيئاً ، ثم خرج وهو يقول :

ما نال باذلٌ وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا التوال مع السؤال وزنته رجح السؤال ، وخف كل نوال
وإذا بليت يبذل وجهك سائلاً فابذله للمتكرم المفضل
وقال بعض الأدباء : المخذول من كان له إلى اللثام حاجة .

وأنشد الجاحظ في نواره لأهرابي :

سير النواعج بالقيمة في الضحى يمشى الدليل بها على بلبال
خير من الطمع الذي ومجلس بفناء لا طلق ولا مفضل
فابئت حوائجك للليك فإنه يفنهم قبل تخشع بسؤال

* * *

قال الراوى : فصبت الجماعة إلى إن تستثبته ، لتستنجش خبائنه ، وتستنفض حقيقته ، فقالت له : قد عرفنا قدر رببتك ، ورأينا در مزنيتك ؛ فمرقنا دوحه شعبتك ، واخسر اللثام عن نسبتيك . فأعرض إغراض من منى بالإغنائ ، أو بشر بالبنات ، وجعل يلعن الغرورات ، ويتأفف من تغيض المروءات . ثم أنشد بلفظ صادع ، وجرس خادع :

لَعَمْرُكَ مَا كُلَّ فَرْعٍ يَدُلُّ جَنَاهُ اللَّذِيذِ عَلَى أَصْلِهِ
فَكُلَّ مَا حَلَاحِينَ تَوَاتَى بِهِ وَلَا تَسْأَلِ الشَّهْدَ عَنْ نَعْلِهِ
وَمِيزٌ إِذَا مَا اغْتَصَرْتَ الْكَرُومَ
مُؤَلَّفَةٌ عَصْرِكَ مِنْ خَلِّهِ
لِتُغْلِي وَتُرْخِصَ مِنْ خَبْرَةٍ وَتَشْتَرِيَ كَلًّا شِرًّا مِثْلَهُ
فَعَارُهُ عَلَى الْقَطَنِ اللَّوْذَعَى دُخُولُ النَّمِيزَةِ فِي عَقْلِهِ

* * *

قوله : تَسْتَشْتَبُهُ : تَحْقُقُ مَنْ هُوَ . تَسْتَنْجِسُ ، تَسْتَفْجِسُ ، وَالتَّجَشَّسُ :
استخراج الشيء المجهول المستور . وقيل : تنفير الوحش ، وهو من الأول ، لأنَّ
تنفير الماعن كما يظهر الكامن . خُبَاتُهُ : سِرُّهُ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِظَاهِرِهِ حَيْثُ
قَالَ : كَيْتَ وَكَيْتَ .

الحقيفة : وعاء يعلِّقُه الرجل خلف رَحْلِهِ ، يجعل فيه ما يميز عليه مما يحتاج
أن يفتاوه متى شاء ، وأراد بها هنا موضع سِرِّهِ . تَسْتَنْفِضُ : تنثر ما فيها .
رَبْتِكَ : قدرك وميزانك . دَرَّ مِزْنُكَ : ماء سحابك ، وأراد ما أبدى لهم
من البلاغة . دَوْحَةٌ : شجرة . شَمْبِتِكَ : فرعك وغصنك . اخْسِرَ : أزل
واكشف . اللثام : ما يُجْعَلُ عَلَى الأنف والشم ، يريد هرفنا أصلك ، ومن أين
أنت . مُنَى : بُلَى . الإعنات : المشقة ، وعنته وأعنته : كلفته ما يشق عليه .
وَبُشِّرَ بالبُشْرَاتِ : أَخْبِرَ بولادتهنَّ ، وقد أخبر الله تعالى أن مَنْ بُشِّرَ بالأنثى
خلَّ وجهه مسودًّا وهو كظيم ، يتوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ . وقد
تقدم وأد البنات وهو دسهن في التراب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر : « لا تَكْرَهُوا البنات فإنهنّ المؤمنات الغاليات » . وقال عليه الصلاة والسلام « أَحَبُّوا البنات ، فإنّي أبو البنات » ، وإنّ الرجل إذا ولدت له ابنةً هبط إليها مَلَكٌ فسحبا على ظهرها ، وقالوا : ضعيفة خرجت من ضيف ، مَنْ أَعَانَ عَلَيْكَ لَمْ يَزَلْ يَصَابُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله : يتأفف ، يقول : أف أف ، وهو من فعل المهموم الملهوف . تنقّض المروءات : ذهب الأفعال الحسان . صاعد : شديد يشقّ الأذن . جرس : صوت . جنّاه : ما يجتنى منه . الشهد : العسل ، أى كل العسل ، ولا تسلم من الفعل التى صنعتها ، ولا من أين هو ، ضربه مثلاً لترك سؤالهم عنه ، إذ أقدم . سُلَافَة : خمر لم تُفَصَّر . عصرك : تمصيرك . خبرة : معرفة وتجربة . اللوذعى : الذى . التقيّة : ضعف التدبير والنظر ، لأنّ الذى لا يحسن التدبير ، والنظر إذا سقط غرّه الناس وعابوه .

* * *

قال : فازدّهم القومَ بذكائِهِ ، واختلّبهم بِمُحَسِّنِ أَدَائِهِ مع دائه ، حتّى جمعوا له خبائيا الخمين ، وخفائيا الثمين ، وقالوا له : يا هذا ، إنك مُنَحْتٌ على رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ ، وتعرّضت إخليةً خليةً . فخذ هذه العصابة ، وهبها لا خطأ ولا إصابة .

فزلّ قَلَمُهُمْ مَنزَلَةَ الكثر ، ووصلَ قبولُهُ بالشكرِ . ثم تولى يجر شِقَّهُ ، وينهبُ بالخبطِ طُرُقَهُ .

قال المخبرُ بهذه الحكاية : فصوّر لي أنّه مُحمِلٌ لِعَلِيَّتِهِ

مَتَصَنِّعٌ فِي مِشِيَّتِهِ . فَهَضْتُ أَنْهَجُ مِنْهَا جَهَ ، وَأَقْفُو أَذْرَاجَهُ ؛
وَهُوَ يَلْحَظُنِي شَزْرًا ، وَيَوْسِعُنِي هَجْرًا ؛ حَتَّى إِذَا خَلَا الطَّرِيقَ ،
وَأَمْسَكَنَ التَّحْقِيقَ ، نَظَرَ إِلَى نَظَرٍ مِنْ هَشٍّ وَبَشٍّ ، وَمَا حُضَّ
بَعْدَ مَا غَشَّ ، وَقَالَ : إِنِّي لِإِخْلَاكَ أَخَا غَرْبَةٍ ، وَرَائِدَ صُحْبَةٍ ؛
فَهَلْ لَكَ فِي رَفِيقٍ يَرْفُقُ بِكَ وَيُرْفِقُ ، وَيَنْفُقُ عَلَيْكَ وَيُفْنِقُ ؟
فَقُلْتُ لَهُ : لَوْ أَتَانِي هَذَا الرَّفِيقُ لَوَاتَانِي التَّوْفِيقَ . فَقَالَ لِي :
قَدْ وَجَدْتَ فَاغْتَبِطْ ، وَاسْتَكَرَّمْتَ فَارْتَبِطْ .

* * *

ازدهی : دعام إلى الزهو والإعجاب به . ذكائه : حدة ذهنه . اختلبهم :
خدعهم . الخنين : أطراف الثوب ، كالكم وغيره ، والثَّيْنُ : أطراف الرداء
وشبهه ، والخُنْبَةُ في الثوب الخيط ، وقد خبفته عطفته وكففته بالخياطة ، وقيل :
الخنين القبض ، والخُنْبَةُ لما يلي من حُجْزَةِ السراويل والإزار ، والجمع خُبْنٌ ،
والتُّبْنَةُ ما يلي الظهر من السراويل والإزار . حُلَّتْ : رَكِبَتْ . رَكِيَّةٌ : بئر . بكية :
قليلة الماء . خلية : جَنَيع النحل حيث كان من حجر أو شجر ، وقيل الخلية
الخشب المنقورة لها خاصة ، والخلية في غير هذا السفينة ، فشبهت خلية النحل بها .
خلية : فارغة ، العُبابَة : الشيء القليل إذا أخذ منه بكثرة . الخبط : أراد به أخذ
الأموال بالسؤال ، يقال : خبطت الشجرة خبطاً ، نفضت ورقها ، أراد أنه كان
يحرّ جانبه الملّ ، فكل من مرّ به وسأله رَحِمَهُ . محيل : مغيّر . حليته : خلقته
وصفاته . نهضت : تقدّمت للمشي . أنهج منهاجه : أمشي في طريقه . أقفو
أذواجه : أتبع آثاره . يلحظني : ينظرني .

شزراً ، أي في جهة بمؤخر عينه . قال ابن الأنباري : نظر إلى شزراً ، أي
نظر إلى من جانب عينه من شدة العداوة والبغضاء ، يقال : شزر يشزّر ، إذا نظر

من جانب عينه من العداوة أو من الفرق . ويوسعني هجرأ ، أى يكثر تجنبني ومباعدتي . هش : خف واهتز . بش : حسن اللقاء ، ويقال : بش فلان بفلان ، إذا سر به وفرح وانبطأ إليه ؛ ويقال : تبشش به بمعنى بش به ، والبشاشة والمشاشة الطلاقة والتبشيم . ماخص : أخلص ودّه . غش : ضد أخلص ، ويقال : غشه ، أى عمل فيما يحبه شيئاً قليلاً وخلطه بما يسوءه ، أخذ من النشش ، وهو الشراب السكر . إخالك : أحسبك . رائد : طالب . يرفق بك : يلاطفك ويكون بك رفيقاً . يرفق : يوليكَ مراقبة ، أى يعينك بماله حتى يجد معها الرفق . لوانانى : لواقني . اغتبط ، أى كن به مغتبطاً أى محبباً في بقائه ، والغبطة : حسن الحال . استسكرمت فارتبط ، أى اتخذت كريماً ، وجاء هذا اللفظ في حكاية ذكرها أبو علي ، وهى أن فتى من العرب جاء إلى أمه ، وقد عميت فقال لها : يا أمه ، إني اشتريت فرساً ، فقالت : صفه لى ، قال : إذا استقبل فظني ناصب ، وإذا استدبر فمقل^(١) هاضب ، وإذا استعرض فسّيد^(٢) قارب ، موالى للسمعين ، طامح النافرين ، مدعاق الطليبين ، قالت : أجدت إن كنت أمربت ، قال : إنه مشرف التليل ، سبط الخصيل ، وهواه الصهيل ، قالت : أكرمت فارتبط^(٣) .

...

ثم ضحك ملياً ، وتمثل لى بشراً مويّاً ؛ فإذا هو شيخنا السروجي ، لا قلمبة بجسمه ، ولا شبهة فى وسمه ؛ ففرحت بلقائه ، وكذب لقوته ، وهممت بعلامته ، على سوء مقامته ، فشحا فاه ، وأنشد قبل أن الحاه :

ظَهَرْتُ بِرَثٍ كَيْمًا يَقَالُ فَقِيرٌ يُزَجِّى الزَّمَانَ الْمَزَجَّى

(١) الهقل : الفتى من النعام ، والهضب : نوم من السير .

(٢) السيد : الذئب ، والقرب : نوم من السير .

(٣) بجم الأمثال ٢ : ١٤١

وَأُظْهِرْتُ لِلنَّاسِ أَنْ قَدْ فُلِحْتُ

فَكَمَّ نَالَ قَلْبِي بِهِ مَا تَرَجَّى

وَلَوْلَا الرِّمَاءُ لَمْ يُرْتَلَى وَلَوْلَا التَّفَالُجُ لَمْ أَلْقَ فُلْجًا

نَمَّ قَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِي فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَرْتَعٌ ، وَلَا فِي أَهْلِهَا
مَطْمَعٌ ؛ فَإِنْ كُنْتَ الرَّفِيقُ ، فَالطَّرِيقَ الطَّرِيقَ . فسيرنا منها
مُتَجَرِّدِينَ ، وَرَافِقُهُ عَامِنِينَ أَجْرَدِينَ . وَكُنْتُ عَلَى أَنْ أَصْحَبَهُ
مَا عِشْتُ ، فَأَبَى الدَّهْرُ الْمُسْتِ .

قوله : مَلِيًّا ، أَي طَوِيلًا . قُلْبَةً : مِثْلُهُ . قَالَ الْكِسَائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَا بِهِ قُلْبَةٌ ،
أَي شَيْءٌ يَنْقَلِبُ فَيَنْقَلِبُ مِنْ أَجَلِهِ عَلَى فِرَاشِهِ لِنَفْسِهِ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَا بِهِ
مِنْ وَجَعٍ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : قُلْبَةُ الرَّجُلِ إِذَا أَصَابَهُ وَجَعٌ فِي قَلْبِهِ ،
فَلَا يَكَادِي نَقْلَهُ مِنْهُ . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَعْنَاهُ مَا بِهِ دَاءٌ ، مَا خُوِذَ مِنَ الْقُلُوبِ ،
وَهُوَ دَاءٌ يَصِيبُ الْإِبِلَ فِي رِمْسِهَا فَيَقْلِبُهَا إِلَى فَوْقِ . شَبْهَةٌ : التَّبَاسُ وَتَغْيِيرُ . وَسَمِعْتُ :
صِفَاتِهِ . اللَّقِيَّةُ : الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْقَاءِ . وَقَالَ فِي الدَّرَةِ ^(١) : الْعَرَبُ يَقُولُ :
لَقِيَّةٌ وَلِقَاءَةٌ وَلِقَايَةٌ ، إِذَا أَرَادُوا لِلْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ ، فَإِنْ أَرَادُوا الْمَصْدَرَ ، قَالُوا : لَقِيَّتَهُ لِقَاءً
وَلَقَى وَلَقِيًّا ، هَذَا وَأُنْشِدُ :

وَأِنْ لِقَاهَا فِي الْمَسَامِ وَغَيْرِهِ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ بِالْبَدَلِ عِنْدِي لِرَاجِحٍ

وَحْطًا مَنْ يَقُولُ : لَقِيَّتَهُ لِقَاءَةً وَاحِدَةً ، وَأَغْفَلُ أَنْ سَبَّوْهُ قَالَ فِي كِتَابِهِ :
أَنِيَّتَهُ إِنِّيَّاتَةً ، وَلَقِيَّتَهُ لِقَاءَةً وَاحِدَةً .

والقوة : استرخاء القوى ومواجهه . مقامته : مجلسه الذي كدى به
شحاتاه : فتحه قال جرير :

وَضَعَ الخَزِيرَ قِيلَ أَيْنَ مجامعٍ فَشَعَا جَعْفَلَه جُرَافَ هَبْلَعٍ^(١)
الخزير ، ينقط الخاء ثم زاي : دقيق يلبك بشعهم ، وجراف الشيء سخونة.
ألمه : ألومه . يزجي : يسوق . المزجي : اللليل الخير ، وهذا كما قال : لبست
الخميصه أبنى الخبيصة . فُلجت : أصبت بفالج . الرثانة : سوء الحال . التفالج : استعمال
الفالج ، وهو خَدَرٌ يصيب الجسد . فلجاً : فوزاً وظفراً . مَرَتع : موضع يرعى فيه .
مُنَجَّرِدَيْنِ : مُشرعين ، وانجرد الرجلُ في سيره ، إذا جدَّ في الذهاب . أجردين :
تامنين كاملين ، وسرتُ يوماً وشرّاً وحولاً أجرد ، وجريداً أي تاماً ، قال
سويد بن كراع :

وَجَشَنِي خَوْفَ ابْنِ عَفَانَ رَدَّهَا فَتَفَقَّطَهَا حَوْلَا جَرِيدَا وَمَرَبَا^(٢)
الاشت : المفرق .

المقامة الرابعة والثلاثون وتعرف بالزبيدية

أخبر الحارث بن همام ، قال : لما جبتُ البيدَ إلى زبيد ،
صحبتني غلامٌ قد كنت ربيته إلى أن بلغ أشده ، وثقفته حتى
أكملُ رُشدَه .

وكان قد أنسَ بأخلاقى ، وخبرَ مجالبَ وفاقى ؛ فلم يكن
يتخطى مرامى ، ولا يُخطئُ في المرامى ؛ لا جرم أن قُربَه
التأطت بصفري ، وأخلصته لخصري وشفري ، فالوى به الدهرُ
المبيدُ ، حين ضُمَّتْنا زبيد .

* * *

جبت : قطعت . البيد : الصحارى .

زبيد : بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا ، وليس في اليمن بعد
صنعاء أكبر منها . ولا أغنى من أهلها ، ولا أكثر خيرا ، واسعة البساتين ،
كثيرة المياه والنواكه من الموز وغيره ، وهى برية لا ساحلية .
وبلغ أشده : أى بلغ الحلم ، وقيل ثلاثين سنة . قال الأزهري رحمه الله تعالى :
الأشد في كتاب الله تعالى على ثلاث معان : أما قوله تعالى في قصة يوسف عليه
السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(١) فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا
في اليتيم ، حكاه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشده ، وبلوغه أشده أن يؤنس
الرشد منه مع أن يكون بالغا .

وأما قوله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾^(١) فقرن بلوغ الأشد بالاستواء وهو أن تجتمع قوته ، ويكتمل وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب . وأما قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٢) فهي نهاية بلوغ الأشد ، وعندها بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اجتمعت حكمته وتمام عقله ، فبلوغ الأشد محصور البداية محصور النهاية ما بين ذلك .

تفقه : قوته وحذقته . خير : أى جرب وعرف . مجالب وفاق : أى عرف من أين يجلب ما يوافقنى . يتخطى : يتجاوز . مراعى : مرادى ومقصدى . لاجرم ، أى لا محالة ولا بد ، ثم صارت بمعنى حقاً . قُرْبَة : ما يُتَقَرَّبُ به إلى من الميزة . التاطت : لصقت . بصفري : بنفسى وقلبى ، والصَّغَر دود فى البطن ، إذا جاع الإنسان عَضَّتْ شراسيفه ، وهى رقيق البطن ، قال أعشى باهلة :

* وَلَا يَمُضْ عَلَى شُرُوفِهِ الصَّغَرُ *^(٣)

فيريد أن هذا الغلام مهذب يأتى بمحاولاته على الوفاق ، ويقرب الطعام من مولاه وقت الحاجة ، ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نَعَمًا لِّلْمَمْلُوكِ أَنْ يَتَوَقَّاهُ اللَّهُ ، بِحَسَنِ عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَطَاعَةِ سَيِّدِهِ نَعَمًا لَهُ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إِذَا نَصَحَ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ فَلَهُ أَجْرَانِ » .

أخلصته : أفردته . أوى : ذهب به وأهلكه . المبيد : المهلك . ونشهد هنا أربابنا لابن الحضرمي فى غلام هلك للمتوكل ببطليلوس :

غَالَتْهُ أَيْدَى الْمَنَايَا وَكُنَّ فِي مَقْلَتَيْنِ

(١) سورة القصص ١٤ (٢) الأحقاف ١٥ (٣) الكامل ٤ : ٦٥ ، وصدره :

* لَا يَغْمِزُ السَّانِ مِنْ أَيْنٍ وَلَا وَهَبِ *

وكان يَسْقَى الندامى بطرفه ويدَّيه
غُصْن دَوَى وهلالٌ جاء الكسوفُ عليه

ويُسْتَحْسِن لابن ملام أن ينشد في وصف هذا الغلام :

حين نَمَتْ آدَابُهُ وتردَّى برداء من الشَّبَابِ جَدِيدِ
وسقاه ماء الشَّبِيبة فاهْتَزَّ اهْتِزَازَ الغصنِ النَّدَى الْأَمْلُودِ
وسمت نحوه العيون وما كَانَ عليه لَزَائِدٍ من مَزِيدِ
وكأَنِّي أدعوه وهو قَرِيبٌ حين أدعوه من مكان بعيدِ
وأنشد بعضهم :

نأى آخر الأيام عنك حبيبٌ فللمن سَحَّ دَائِمٌ وغروب^(١)
كأن لم يكن كالغصنِ في مَيْعة الضُّحَى

سقاه النَّدَى فاهْتَزَّ وهو رطوبُ
وريحان صدرى كان حين أَشْمُهُ ومونس قَعْرِى كان حين أُغِيبُ
وكانت يدي ملآنة ثم أصبحتُ بِحَمْدِ إلهى وهى منه سَلِيبُ

* * *

فلما شالت نَعَامَتُهُ ، وَسَكَنْتْ نَأْمُتُهُ ، بقيتُ عامماً ،
لا أَسِيغُ طعاماً ، ولا أَرِيغُ غَلاماً ، حتَّى أَلْجَأْتَنِي شَوَائِبُ الْوَحْدَةِ ،
وَمَتَاعِبُ الْقَوْمَةِ وَالْفَقْدَةِ ؛ إِلَى أَنْ أَعْتَاضَ عَنِ الدَّرِّ الْخَرْزَ ،
وَارْتَادَ مَنْ هُوَ سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ ؛ فَقَصَدْتُ مَنْ يَبِيعُ الْعَبِيدَ ،
بِسُوقِ زَيْدٍ ، فَقُلْتُ : أَرِيدُ غَلاماً يُعْجِبُ إِذَا قُلِّبَ ، وَيُحْمَدُ

(١) لإبراهيم بن المهدي يرثى ابنه ، وهى قصيدة وردت في الكامل ٤ : ٢٣ - ٢٥ ،
ومنها هذه الأيات .

إِذَا جُرَّبَ ؛ وَلِيَكُنْ مِمَّنْ خَرَجَهُ الْإِكْيَاسُ ، وَأَخْرَجَهُ إِلَى
السُّوقِ الْإِفْلَاسِ ؛ فَاهْتَزَّ كُلُّ مِنْهُمْ لِمِطْلَبِي وَوَتَبَ ، وَبَذَلَ
تَحْصِيلَهُ عَنْ كَشَبَ . ثُمَّ دَارَتْ الْأَهْمَلَةُ دَوْرَهَا ، وَتَقَلَّبَتْ
حَوَازِهَا وَكَوْزَهَا ، وَمَا نَجَزَ مِنْ وَعْودِهِمْ وَعْدُ ، وَلَا سَحَّ لَهَا
رَعْدُ .

فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّخَاسِينَ ، نَاسِينَ أَوْ مُتَنَاسِينَ ، عَلِمْتُ
أَنْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ خَلَقَ يَفْرِى ، وَأَنْ لَنْ يَحْمُكَ جِلْدِي مِثْلُ
ظُفْرِي . فَرَفَضْتُ مَذْهَبَ التَّفْوِيضِ ، وَبَرَزْتُ إِلَى السُّوقِ
بِالصُّفْرِ وَالْبَيْضِ .

• • •

شالت نعماته ، أى ارتفع نعشه . ويقال فى المصلوب : شالت نعماته ، أى
ارتفعت خشبته ، وشالت نعمة القوم ، أى ولّوا منهزمين ، وهو مِثْلُ يُفَرِّبُ
لِلْإِهْزَامِ وَلِلْهَلَاكِ وَلِتَفَرِّقَ . وَأَنْشَدَ الشَّاعِرُ :

تَلَقَى خِصَامَةً بَيْنَنَا أَرْمَاحُنَا شَالَتْ نِعَامَةً أَبْنَا لَمْ يَفْعَلْ

بِمُخَاطَبِ أَعْدَاءِهِ وَقَدْ وَافَقَهُمْ ، يَقُولُ : هَلَمْ تَلَقَى فِي الْفُرْجَةِ الَّتِي بَيْنَنَا أَرْمَاحُنَا ،
وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ ، هَلَكَ وَانْهَزَمَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ، يَدْعُو عَلَيْهِ وَيَنْسِبُ ذَلِكَ لِلنِّعَامَةِ ،
لَأَنَّ النِّعَامَ مَوْصُوفٌ بِالسُّخْفِ وَالرُّقِّ وَالشَّرَادِ . فَإِذَا قَالُوا : شَالَتْ نِعَامَتُهُمْ ،
وَحُشَّتْ نِعَامَتُهُمْ ، وَرَقَّ رَأْيُهُمْ ، فَصْنَاهُ إِذَا تَرَكُوا مَوَاضِعَهُمْ بِجَلَاءٍ أَوْ بِمَوْتٍ .
وَيَقَالُ : أَحَقُّ مِنْ نِعَامَةٍ ، لِأَنَّهَا تَنْشُرُ لِلطَّعَامِ ، فَوَيْلًا رَأَتْ بَيْضَةً نِعَامَةٍ أُخْرَى
وَحَدَّهَا فَحَفَضَهَا ، وَتَنْسَى بَيْضَتَهَا ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأُخْرَى فَتَرَى عَلَى بَيْضَتِهَا غَيْرَهَا ،
فَتَضِي لُوجُهَا ، وَإِيَّاهَا عَلَى ابْنِ هَرَمَةَ يَقُولُ :

كفتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا^(١)

قوله الجاحظ :

وأما أبو عبيدة فقال : عقى الحمامة . وقال ابن الأعرابي ، بيضة الجبل التي سار بها المثل هي بيضة النعامة التي تتركها فلا تهتدي إليها فتفسد فلا يقربها شيء . قال الراعي :

لو كنت من أحد يُهْجَى هجوتكم
يا بن الرِّقَاع ولكن لست من أحدٍ^(٢)
تأبى قضاة أن ترضى لكم نسباً^(٣)
وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

قوله : تأمته ، أي حركته التي تنمو بحياته . وزعموا أنه القامة بوزن القامة ، عرق اليافوخ . أسخ طعاما : اسقميل بقله . أريغ غلاما : أطلبه . السداد : اسم ما يسد به الشيء ، مثل سدّ القارورة وهو صمامها ، وسدّ الفقر ما يذهب ويكتفى به من المال ، وسدّ الشجر ما يذهب خوفا من الخيل والرجال ، والسداد بالفتح : الإصابة في المنطق ، وقال يعقوب : السداد والسداد بمعنى واحد ، وسنميد ذكره في أخبار العرجي .

والعوز : فقد الشيء فإنه أراد عبدا يسدّ به فقد غلامه الميت . إذا قلب أي إذا قلبت خلقته وجدت كل جزء منها حسا . خرجه : حدّقه ورباه . الأكياس : أهل الفطنة والحذق . الإفلاس : الفقر . وثب : قهر وعجل إلى

(١) ديوانه ٨٧ ، قال في شرحه : « يضرب مثلا لمن ترك ما يجب عليه الاهتمام به والجِد فيه ، واعتفل بما لا يلزمه » .

(٢) اللسان - بيض ، والبيت الثاني في المضاف والمنسوب ٤٩٦ .

(٣) اللسان : « تأبى قضاة لم تعرف لكم لبا » .

المشي . بذل : أعطى ، تَحَصِيلُهُ : وجوده وحصوله . كَثَبَ : قرب يريد أنه أعطى من نفسه القدرة على حصوله في أقرب مدة . دارت الأهله دورها ، أى كملت الستة وكمَلت الأهله فيها بالطلوع . كَوَّرَها وَحَوَّرَها : زيادتها ونقصانها ، وقد تقدّم الكور والحور . نجمز : حضر . سَحَّ : أمطر .
 الفخاسين : الدالّين للعبيد والدواب . ثعلب : أخذ من الفئس وهو الدفع ، فعنى الفخاسين الذين يشترون العبيد لهدنوم إلى غيرهم . ليس كلُّ مَنْ خَلَقَ يَفْرِى ، مثل ، وخلق قدّر ، يقال : خلق الصانع الجلد ، إذا قدر مايقطع منه ، وقيل : اخلّق : القَطْع ، والفرى : القَطْع أيضاً ، ولكن تقديره ، فعنى المثل : ليس كلُّ من قطع شيئاً قدر مايقطع به ، ويفرى أيضاً : يُحَسِّنُ القَطْع على جهة الإصلاح . قال زهير :

ولأنتَ تَفْرِى ماخَلَقْتَ وبمَنْضٍ للنوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى^(١)
 ويقال أيضاً : خلق الشيء صَنَعَهُ ، وفَرَاه : أفسده ، وأراد ليس كلُّ الناس يحسن شراء العبيد .

قوله : لا يحك جِلْدِي مثل ظفري هو مثل يضربُ في ترك الانتكال على الناس ، قال الإمام الشافعى رضى الله عنه :

ماحكَّ جِلْدَكَ مثل ظَفْرِكَ فتولَّ أنتَ جَمِيعَ أَمْرِكَ
 وإذا قَصَدْتَ حاجة فاقصد لمعترف بقَدْرِكَ
 رفضت : تركت . التفويض : أن يتكفل الرجل على غيره ويسلم أمره إليه . العُفْرُ والبَيْض : الدنانير والدرهم .

فإني لأستعْرِضُ الْعِلْمَانَ ، وأستَعْرِفُ الْأَنْثَانَ ، إذ عَارَضَنِي
 رجلٌ قد اخْتَطَمَ بِلِثَامِهِ ، وَقَبَضَ عَلَى زَنْدِ غُلَامٍ ، وقال :

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي غُلَامًا صَنِيعًا
 فِي خَلْقِهِ وَخَلْقِهِ قَدْ بَرَعَا
 بِكُلِّ مَا نَطَلَتْ بِهِ مُضْطَلِمَا
 يَشْفِيكَ إِنْ قَالَ وَإِنْ قُلْتَ وَعَى
 وَإِنْ تُصِيبَكَ عَثْرَةٌ يَقُولُ لَهَا
 وَإِنْ تَسْتَعِثُّ السَّمَاءَ فِي النَّارِ سَعَى
 وَإِنْ تُصَاحِبُهُ وَلَوْ يَوْمَ رَعَى وَإِنْ تُقْنَعُهُ بِظُلْفٍ قَنَعًا
 وَهُوَ عَلَى الْكَيْسِ الَّذِي قَدْ جَمَا
 مَا فَاهُ قَطُّ كَاذِبًا وَلَا ادْعَى
 وَلَا أَجَابَ مَطْمَعًا حِينَ دَعَا وَلَا اسْتَجَازَنَتْ سِرًّا أَوْ دَعَا
 وَطَالَمَا أَبْدَعَ فِيمَا صَنَعَا وَفَاقَ فِي النَّشْرِ وَفِي النَّظْمِ مَعَا
 وَاللَّهِ لَوْضَنُكَ عَيْشٍ صَدَعَا وَصِيبِيَّةٌ أَضْحَوْا عُرَاةً جَوْعَا
 * مَا بَعَثُهُ بِمُلْكٍ كَسَرَى أَنْجَمَا *

قال : فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ خَلْقَهُ الْقَوِيمَ ، وَحُسْنَهُ الصِّمِيمَ ، خَلَقَهُ
 مِنْ وَلَدَانِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، وَقُلْتُ : مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا
 مَلَكٌ كَرِيمٌ .

• • •

استعرض : أطلب أن يُعرض على ، وعارضني : قابلني . استعريف : أطلب
 معرفته . اختطم : جعل اللثام على طرف الأنف - وهو الخنطم والخرطوم للسمك -
 واللثام : ما كان على الأنف من النقاب . والزند : طرف عظم الساعد المتصل
 (٩ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

بالكف ، فهو قد قبض على أرق موضع في الذراع . الصنّع . الحاذق بالصناعة ،
والمرأة صنّاع . برع : فضّل وفاق غيره . نطت : علقت . مضطاماً : مكتفياً
قوياً عليه . وعى : حفظ . لماً ، كلمة تقال للعائر - يعنى : أقال الله عثرتك ، وسلمك
الله - نسّمه السّنى : تكلفه المشى . رعى : حفظ الصحبة . الظّلف لاشاة بمنزلة
الحافر للدابة . الكيّس الحاذق . فاه : تكلم .

ثم قال : لم يدعه الضمّع قطّ فأجابه . استجاز : استحل . نثّ : نشر ،
أبدع : أغرب وأنى بما لم يسبق إليه . ضنك : ضيق . صدّع : كسر ، وأنشدوا
في هذا المعنى :

وقد تُخرجُ الحاجاتُ يا أمّ مالكٍ علائقَ من ربِّ بهنّ ضنّينِ
خلقه التويم : المعتدل القامة . الصميم : الخالص ، وهو فاعيل ، من صمّ الشيء .
إذا لم يكن فيه فرجة ولا خلل . خلّته : حسبته .
[ذكر الغلمان وأخبار عشاقهم]

ونشّد في هذه المقامة في الغلمان ماله سبب وتعلّق بذكر يوسف عاينه
السلام ، أو يكون الغلام مملوكاً حتى يوافق غرض المقامة .

كان شفيّع غلامُ المتوكل أحسنَ الفتيان وأظرفهم ، وكان المتوكل - يُجنّ
به جنونا ، فأحت يوماً أن ينادم حسين بن الضحّاك ، وأز يرى ما بقي من شهوته -
وكان قد أسنّ - فأحضره وسقاه حتى سكر ، وقال لشفيّع : اسقه ، فسقاه وحيّاه
بوردة ، وكانت على شفيّع ثياب موردة . فدّ حسين يده إلى ذراع شفيّع ، فقال
المتوكل : أتحمّش أخصّ خديمي بمحضرتي ، فكيف لو خلوت به ! ما أحوجك
إلى الأدب ! وكان قد غمز شفيعاً على العبث به ، فدعا بدواة فكّتب :

وكالوردة الحمراء حيّاً بوردةٍ من الورد يمشى في قراطق كالورد^(١)

(١) ديوانه ٤٣ ، والأغاني ٧ : ١٧١ ، وفيه : « وكالوردة البيضاء حيا بعنبر » .

له عِبَثَاتٌ عِنْدَ كُلِّ نَحِيَّةٍ بِكَفِّهِ تَسْتَدْعِي الْحَلِيمَ إِلَى الْوَجْدِ^(١)
تَمَنَيْتُ أَنْ أُسْقَى بِعَيْنَيْهِ شَرْبَةً تَذَكَّرْنِي مَا قَدْ نَسِيتُ مِنَ الْعَهْدِ
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ أَبْتَ فِيهِ لَيْلَةً خَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ عَلَى وَعْدِ

ثم دفعها لشفيع فأعطاهما المتوكل : فاستملاهما وقال : أحسنت والله
يا حسنين ! ولو كان شفيع ممن تجوز هبته لوهبته لك ؛ ولكن بحياقي يا شفيع
إلا كنت ساقية بقية يومنا . وأمر له بمال كثير .

وكان لمز الدولة غلام تركي ، وكان وضى الوجه ، منهمكا في الشراب ،
ولقرط ميل . مولاه إليه جملة رئيس سرية جردها الحرب بنى حمدان ، وكان
المهلب^(٢) يستظرفه ويستحسنه ، فقال :

ظَلِمِي يَرْوِقُ الْمَاءُ فِي وَجَنَاتِهِ وَيَرْوِقُ عَوْدُهُ^(٣)
وَبِكَادُ مَنْ شَبَّهَ الْعَذَا رَى فِيهِ أَنْ تَبْدُو نَهْوُهُ
نَاطَلُوا بِمَقْعِدِ خَضْرِهِ سَيْفًا وَمِنْطَقَةً تَقْوَدُهُ^(٤)
جَسَلُوهُ قَائِدَ عَسْكَرٍ ضَاعَ الزَّعِيلُ وَمَنْ يَقْوَدُهُ^(٥)

فكانت الدائرة على جيش الغلام ، كما أشار إليه ، ولوغزاهم بالسلاح الذي
أمر به البغواء غلاما غازيا وهو :

يَا غَازِيَا أَنْتَ الْأَحْزَانُ غَازِيَةٌ إِلَى فَوَادِي الْأَحْشَاءِ حِينَ غَزَا^(٦)
إِنْ بَارَزْتُكَ رِمَاةُ الرُّومِ قَارِمُهُمْ بِسَهْمِ عَيْنَيْكَ تَقْتُلُ كُلَّ مَنْ بَرَزَا
لَكَانَ الظَّافِرُ الْغَالِبُ .

وكان^(٧) بديع غلام عمير^(٨) للأموري أحسن خلق الله وجها ، وكان

(١) الديوان : « بعينه تستدعي الحلي » .

(٢) هو الحسن بن محمد ، من ولد قبضة بن المهلب بن أبي صفرة . له ترجمة في اليتيمة ١٠٢ : ٢

(٣) اليتيمة ٢ : ٢٠٣ ، وفيها : « يرق » (٤) يشوده أى يثقله .

(٥) الرعيل : الحيش (٦) يتيمة الدهر ١ : ٢٢٤ .

(٧) الخبر والشعر في الأغاني ٢٠ : ٥٦ - ساسى ، ومختار الأغاني ٧ : ٢٨٧ .

(٨) في المختار : « هر » .

الوزير ابن الزيات مفتوناً به ، فاجتاز عليه راكباً بآلة الحرب ، فقال فيه :

راحَ علينا راكباً طِرفُهُ أغيدُ مثل الرِّشَاءِ الْآنَسِ
قد لبسَ القِرطَقَ واستمسكتُ كفاءَ من ذِي بَدَنِ مائِسِ
وقلَّدَ السيفَ على غُنَجِهِ كأنه في وقعة الدَّاحِسِ
أقولُ لما أن بدا مقبلاً : يا ليتني فارسُ ذا الفارِسِ !

وقال ابنُ الزقاق :

ومهندٍ عَضْبٍ براحةٍ أُغِيدِ في جفنه عَضْبٌ يَقْدُ مفاصِلِي^(١)
يسطو بذلك وذا فيعدو قِرْنُهُ بهما صريعَ لواحظٍ ومناصِلِ
ماضٍ كلا السَّيْفَيْنِ لكنَّ لحظه أمضى وإلا فاسألنَّ مَقَاتِلِي

وكان لأبي عيسى بن الرشيد غلام اسمه يُسْر^(٢) ، وكان آيةً في الجمال ، وكان صالح أخوه يتعشقه ، فبلغت لأبي عيسى قصةٌ جرت بينهما ، فحجبه ومنعه أن يخرج من داره إلا بحافظ ، وكاد حسين بن الضحاك يموت فيه عشقاً ، فقال فيه :

ظَنُّ من لا كان ظَنًّا بحبيبي فحَمَاهُ^(٣)
أرصد البابَ رقيبِي ن ه فاكتفاهُ
فاذا ما اشتاق قربي ولقائي منَعاهُ
جعل الله رقيبِي من السَّوءِ فِدَاهُ

وقال فيه :

إنَّ مَنْ لا يرى وليس لا يراني نُصِبَ عيني عَمَلٌ بِالْأُمَانِي^(٤)

(١) ملحق ديوانه : ٢٩٧ .

(٢) الخبر والشعر في الأغاني ٧ : ٢٢٠ ، وديوانه ١٢١ ، وفي ط : د بشر .

(٣) الأغاني ٧ : ١٨٧ ، ديوانه ١١٢ .

(٤) الأغاني ٧ : ١٩٢ ، ديوانه ١٢٢ .

يَأْبَى مَنْ ضَمِيرُهُ وَضَمِيرِي أَبْدَا بِالْمَغِيبِ يَنْفَجِيَاتِ
نَحْنُ شَخْصَانِ إِنْ نَظَرْتَ وَرَوْحًا نَ إِذَا مَا اخْتَبَرْتَ مَتَزَجَانِ
فَإِذَا مَا هَمَّتْ بِالْأَمْرِ أَوْ هَمَّ بِشَيْءٍ بَدَأَتْهُ وَبَدَأَنِي
كَانَ وَقَفًا مَا كَانَ مِنْهُ وَمَنِي فَكَأَنِّي حَكِيمُهُ وَحَكَائِي
خَطَرَاتُ النَفُوسِ مَتَا سَوَاءٍ وَسَوَاءٍ تَحْرُكُ الْأَبْدَانِ

وجاءه يوماً فتحدث معه ، فأشار لتقبيله ، فقال له بشير : إياك والتمعرض
لي وانجُ بنفسك ، وكانت فيه عَرَبُودَة ، فقال فيه حسين :

أَيُّهَا الْفَنَاءُ فِي الْعَمَدِ أَنَا مَطَوِيُّ عَلَى السَّكَنِ
إِنَّمَا زَخَرْتُ لِي خُدَعًا قَدَحْتُ فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
مَا لِلْأَنْسِ كَانَ مَبْتَدَلًا مِنْكَ لِي بِالْأَمْسِ لَمْ يَمُدْ^(١)
يَوْمَ تَعْطِينِي وَتَأْخُذْهَا دُونَ نَدْمَانِي يَدًا بَيِّدِ
ذَاكَ يَوْمٌ كَانَ حَاسِدُنَا فِيهِ مَعْدُورًا عَلَى الْحَسَدِ

* * *

نَمْ اسْتَطَقَّتْهُ عَنِ اسْمِهِ ، لَا لِرَغْبَةٍ فِي عِلْمِهِ ؛ بَلْ لَأَنْظَرُ
أَيْنَ فَمَاحَتِهِ مِنْ صَبَاحَتِهِ ، وَكَيْفَ أَهْجَتُهُ مِنْ بَهْجَتِهِ ؛ فَلَمْ يَنْطِقْ
بِخُلُودٍ وَلَا مُرَّةٍ ، وَلَا فَاهَ فَوْهَةَ ابْنِ أُمِّهِ وَلَا حُرَّةٍ . فَضَرَبْتُ
عَنْهُ صَفْحًا ، وَقُلْتُ لَهُ : قُبْحًا لِمَيْكَ وَشُقْحًا ، فَغَارَ فِي الضَّحْكَ

(١) ديوانه ٤٨ الأغاني ٧ : ١٩٢ ، وبعده في الأغاني والديوان :

هَاتِ يَا خُدَاعُ وَاحِدَةً مِنْ كَثِيرٍ قُلْتَهُ وَقَدِيدِي
لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ حَلْفِكَ لِي بِوَفَاءِ الْعَهْدِ بَعْدَ غَدِ
مَا الَّذِي بِاللهِ صَيَّرَهُ بَعْدَ قُرْبٍ فِي مَدَى الْأَبْدِ

وأنجد ، ثم أنفض رأسه إلى وأنشد :
 يا مَنْ تَلَهَّبَ غِيظُهُ إِذْ لَمْ أَبُحْ
 بانسي له ، ما هكذا مَنْ يُنْصِفُ
 إِنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ إِلَّا كَشَفُهُ
 فأصبح له ، أنا يوسف أنا يوسف
 ولقد كشفت لك الغطاء فإن تكن
 فطناً عرفت وما إخالك تعرف
 قال : فسرى عني بشعره ، واستبى لبي بسعره ؛ حتى
 شذت عن التحقيق ، وأنسيت قصة يوسف الصديق ؛ ولم
 يكن لي هم إلا مساومة مولاة فيه ، واستطلاع طلع الثمن
 لأوفيه ، وكنت أحسب أنه سينظر شراً إلى ، ويُنلي السيمة
 علي ؛ فأحلق إلى حيث خلقت ، ولا اعتلق بما به اعتلقت ؛
 بل قال : إن الغلام إذا نزر ثمنه ، وخفت مؤنه ، تبرك به
 مولاة ، والتحف عليه هواه ، وإني لأوثر تحبيب هذا الغلام
 إليك ، بأن أخفف ثمنه عليك ، فزن مائتي درهم إن شئت ،
 واشكر لي ما حيت . فنتقدته المبلغ في الحال ، كما يُنقد في
 الرخيص الحلال ، ولم يخطر لي يال ، أن كل مُرخَص غال .

* * *

قوله : استنطقته ، أي سأله أن ينطق . صباحته : حسنه . لهجته : لفظه ،
 وأصلها طرف اللسان ، فكفى بها عن حلاوته . بهجته : حسنه وانصارت ،

وأصلها حسن اللون . لم ينطق بحلوة ولا مرة ، أى بكلمة جيدة ولا رديئة .
 فاه : نطق . ضربتُ عنه : أعرضت عنه . صفحا ، أى أوليته صفحة وجهي ، وهى
 جانبه . شُفعا ، إتباع لقبح ، وقيل : هى من شَقَحَ البُشر ، إذا تغيّرت خضرته
 بحمرة أو صفرة ، وهو أقبح ما يكون فى رأى العين ، وقيل : هو من شَقَحْتُ
 العود إذا كسرتَه ، وقال : هو من أشقاح الكلاب ، وهى أدبارها ، ويقال :
 قُبجا وشُفعا بضم أولهما وفتح ه . غارَ : آتى الغور ، وهو المنخفض من الأرض .
 أنجد : أتى نجداً ، ومعناه بالغ فى الضحك وذهب فى جهاته . أنفض رأسه ، أى
 حرّكه ؛ كأنه يهدّد ويستخفّ به . تَلَهَبَ : اشتعل . أُنْبِجَ : أنكلم . أصيخَ :
 استمع . أنا يوسف ، أى أنا حرّ مثل يوسف صلوات الله عليه ، إذ باعَه إخوته .
 سرّى عَنِّي : أزال لومى استبى لئى : أى تملك عطفى بسِجره وحلاوة كلامه .
 شدّدت : تحيَّرت ، وهو مقلوب دهشت . التحقيق : التمييز ، وهذا كما قال الشاعر :

والله ما فتنتُ نفسي بحاسنُه إلا وقد سحرتُ ألفاظُه أذني
 ما تُصدِرُ العينُ عنه لحظةً مالاَ كأنه كلُّ شيءٍ مرتَفَى حَسَنٍ

استطلاع طلعه : استخبار خبره ، والسؤال عَنْ قدره . لأَوْفِيَه : لأعطيه
 كاملاً وافيّاً . شرزراً : نظر فيه إعراض . التسمية : السَّوْم ، وهو السؤال عن
 الثمن . ما حَلَقَ إِلَىَّ حيثُ حَلَقْتُ ، أى ما دار إِلَىَّ حيثُ دُرْتُ ، أى ما كان
 عنده شيء مما ظننتُ به من طلبه سوماً غالياً . نَزُرُ قُلُوبَهُ : مؤنثه : لوازمه وما يحتاج
 إليه . تبرّك : رآه مباركاً ، والبركة : الكثرة والسعة . التحف : انضم . هواه :
 حبّه . أوثر : أفضّل .

* * *

فلَمَّا تحَقَّقَتِ الصَّفَقَةُ ، وحَقَّتِ الفُرْقَةُ ، هَمَلَتْ عَيْنَا الغلامُ ،
 ولا هُمُولَ دَمْعِ الغمام ، ثم أقبل على صاحبه وقال :

لِحَاكَ اللَّهُ هَلْ مِثْلِي يَبَاعُ لَكَيْمَا تَشْبَعَ الْكَرِشُ الْجِيَاعُ
 وَهَلْ فِي شِرْعَةِ الْإِنصَافِ أَتَى أَكُلْفُ خُطَّةٍ لَا تُسْتَطَاعُ
 وَأَنْ أَبْلَى بَرُوعٍ بَعْدَ رُوعٍ وَمِثْلِي حِينَ يُبْلَى لَا يُرَاعُ
 أَمَا جَرَّبَتْنِي فَخَبِرْتَ مِنِّي نَصَائِحَ لَمْ يَمَازِجْهَا خِدَاعُ
 وَكَمْ أَرَصَدْتُ نِيَّ شَرِّكََا لَصِيدٍ فَعَدْتُ وَفَى حَبَائِلِي السَّبَاعُ
 وَنُلتَ بِنِي الْمَصَاعِبِ فَاسْتَقَادْتُ
 مَطَاوِعَةً وَكَانَ بِهَا امْتِنَاعُ

* * *

تَحَقَّقَتِ الصَّفَقَةُ : تَمَّ الْبَيْعُ . هَمَلْتُ : سَأَلْتُ . الْغَمَامُ : السَّحَابُ لِحَاةُ اللَّهِ :
 لَمَنَّهُ وَأَبْعَدَهُ ، وَلَحِيتَ الرَّجُلَ : لَمَسْتُهُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ لَحَوْتِ الْعُودِ الْحَوَّهِ وَلَحِيتُهُ أُلْحَاهُ ،
 إِذَا قَشَرْتَهُ ، وَأَنشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ فِي نَوَادِرِهِ :

لَحَوْتُ تُشْمَسًا كَمَا تُلَحَّى الْعَصَا سَبَا لَوْ أَنَّ السَّبَّ يُدْنِي لَدَيْ (١)
 وَيُقَالُ : لَاحَاهُ مَلَا حَاةَ وَلَحَا ، أَصْلُهَا الْمُبَالَغَةُ ، ثُمَّ كَثُرَتْ حَتَّى جُمِلَتْ كُلُّ
 مَمَانَةٍ وَمَدَافَعَةٍ مَلَا حَاةَ . الْكَرِشُ : الْعِيَالُ ، وَكَرِشَ الرَّجُلُ عِيَالَهُ وَصَنَارَ وَلَدِهِ ،
 وَيُقَالُ فِي الْمَعِيلِ : عَلَيْهِ كَرِشٌ مَنْثُورَةٌ ، وَإِذَا أَكْثَرَتِ الْمَرْأَةُ أَوْلَادَهَا قِيلَ : نَثَرَتْ
 كَرِشَهَا ، وَقَدْ قَدَّمَ أَنْ صَبِيغَةُ جَوْعَ . الشَّرْعَةُ : الطَّرِيقُ . وَالْخُطَّةُ ، مِثْلُ الْقِصَّةِ :
 الْأَمْرُ يَقَعُ بَيْنَ الْقَوْمِ . أَبْلَى : أُمْتَحَنَ . الزُّرُوعُ : الْفَزَعُ ، لِأَنَّهُ يَصِيبُ الزُّرُوعَ وَهُوَ
 الْقَلْبُ . يَمَازِجُهَا : يَخَالِطُهَا . أَرَصَدْتُ : جَمَعْتُ نِيَّ رَصْدًا ، وَالرَّصْدُ : مَنْ يَرْقُبُكَ
 وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ فَإِذَا جَنَّتْهُ هَجَمَ عَلَيْكَ . وَالشَّرْكَ : آتَةُ الصَّيْدِ . حَبَائِلِي : شَبَابِي
 نَطْتُ : عَلَّقْتُ . الْمَصَاعِبُ : الْأُمُورُ الشَّاقَّةُ . اسْتَقَادْتُ : انْقَادْتُ .

(١) الْبَيْتُ فِي السَّنَنِ - لَحَا . وَفِي ط : لَحِيتُ ، وَمَا أَتَيْتُهُ مِنَ السَّنَنِ .

وَأَيُّ كَرِيهَةٍ لَمْ أَبْلِ فِيهَا وَغُفْمٌ لَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ بَاعٌ
وَمَا أَبَدْتُ لِي الْآيَامَ جُرْماً فَيُكْشَفُ فِي مَصَارِمَتِي الْقِنَاعُ
وَلَمْ تَعَثُرْ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مِنِّي عَلَى عَيْبٍ يُكْتَمُ أَوْ يُذَاعُ
فَأَتَى سَاغَ عِنْدَكَ نَبْذُ عَهْدِي كَمَا نَبَذْتُ بُرَايَتَهَا الصَّنَاعُ
وَلَمْ سَمَعْتَ قَرَوْنُكَ بَامْتِهَانِي

وَأَنْ أُشْرَى كَمَا يُشْرَى الْمَتَاعُ
وَهَلَّا صُنْتُ عَرِضِي عَنْهُ صَوْنِي

حَدِيثُكَ يَوْمَ جَدِّ بَنَّا الْوَدَاعُ
وَقُلْتُ كَمَنْ يُسَاوِمُ فِي هَذَا سَكَابٍ فَمَا يُعَارُ وَلَا يُبَاعُ
فَمَا أَنَا دُونَ ذَلِكَ الطَّرْفَ لِيَكُنْ

طِبَاعُكَ فَوْقَهَا تِلْكَ الطَّبَاعُ
عَلَى أَتَى مَا نَشِدُ حِينَ يَنْبَغِي أَضَاعُونِي وَأَيَّ فِتْنَى أَضَاعُوا

* * *

أَبْلٍ: أَبْلَعُ وَأَجْهَدُ نَفْسِي فِيهِ. غُفْمٌ: غَنِيمَةٌ. جُرْمٌ: ذَنْبٌ. مَصَارِمَتِي: مُقَاطَعَتِي، وَكُشِفَتْ فِي الْأَمْرِ الْقِنَاعُ، إِذَا جَاهَدْتَ فِيهِ وَبَالَغْتَ. تَعَثَّرَ: تَطَلَّعَ: يَكْتُمُ: يَسْتُرُ. يَذَاعُ: يَفْشَى وَ«بِحَمْدِ اللَّهِ» فِي الْبَيْتِ، وَقَعْتَ اعْتِرَاضًا بَيْنَ الْعَامِلِ وَالْمَعْدُولِ، كَمَا وَقَعْتَ فِي التَّاسِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ اعْتِرَاضًا بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَخَبَرِهِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَنْتَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - وَلِيَّ عَهْدِي» وَتَعَلَّقَ بِهَا بِحَذُوفِ تَقْدِيرِهِ: أَبْتَدَى بِحَمْدِ اللَّهِ، أَوْ أَفْتَتَحُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَلَصَنِي مِنْ عَيْبٍ يُغْتَرَّلَى عَلَيْهِ، أَوِ الَّذِي جَمَّلَكَ وَلِيَّ عَهْدِي، وَمِنْهُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مَعْنَاهُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَابْتَدَى بِحَمْدِهِ، أَوْ أَفْتَتَحُ بِحَمْدِهِ، وَدَخَلْتُ الْوَاوَ هُنَا لِفَيْرٍ مَعْنَى الْمَطْفِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَحَمْدُهُ، لَكَانَ الْمَعْنَى:

أسبغته تسبيحًا وأحده حمدًا ، هكذا يقتضى ما جاء من المصادر منصوبًا في هذا الباب ، وفي قولنا : وبحمده لا يكون المعنى ما تقدم في المنصوب ، ولكن الباء أذنت بمعنى ابتدأت ، أو أبدأ بحمد الله ، كأنك قلت : حمدت الله على إلهامه إياي تسبيحه ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قوله ساغ : أى سهل . نبذ : ترك . البراية : ما يتساقط من العود إذا نُجِرَ ، ومن القلم إذا بُرِيَ ، وكذا يأتى في مثل البرادة والنخاعة ونحوها . الصنّاع : الحاذقة بالصنعة ، والرجل صنّع بغير ألف . قرّونك : نفسه . سمعت : جادت . أشرى : أباع . عنه ، أى عن البيع . صونى حديثك ، أى صيانتى للحديث الذى أحدثت من يمينى وأنا حرّ . يوم جدّ بنا الوداع ، أى في هذه الساعة التى تريد أن تودّعنى فيها . سكّاب : اسم فارس لرجل من العرب من بنى تميم ، سأل بعض الملوك أن يبيعه منه ، فأبى عليه وقال :

أَيَّتَ الْأَمْنِ إِن سَكَّابٍ عِلْقُ كَرِيمٍ لَا يُعَارَ وَلَا يَبَاعُ^(١)
مَقْدَاةَ مَكْرَمَةٍ عَلَيْنَا يُجَاعُ لَهَا الْعِيَالُ وَلَا تَجَاعُ

الطرف : الفرس الكريم ، يقول : لست أنا دون الفرس ، لكن طباع مالكه أفضل من طباعك ، حيث كان يجمع عياله ويشبعه ، ولم يهنه بالبيع كما أهنتنى به .

[ذكر العرجى وإيراد بعض شعره]

وعَجَزَ البيت الأخير صدر بيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنهم ، وهو العرجى ، سُمِّيَ بذلك لأنه وُلِدَ بالعرج^(٢) من مكة ، وقيل : بل كان له بها مال ، وكان يُكثر الاختلاف إليه ، فنُسب إليه . يكنى أبا عمرو ، وهو شاعر

(١) البيت الأول في اللسان ، والصاحح وتاج العروس - سكّاب .

(٢) ياقوت : العرج : قرية جامعة في واد من نواحي الطائف .

مطبوع بالفضل مجيد ويشبهه في غزله ومقصده بهمر بن أبي ربيعة ، وكان يهوى
جنداء أم إبراهيم بن هشام الخزومي ، ولها يقول :

أبصرت وجهاً لها في جيده نلعم تحت العقود وفي القرطين تشهير^(١)
وجه تحير فيه الماء في بشر صاف له حين أبدته لنا نور
ولها يقول :

إلى جنداء قد بعثوا رسولاً ليخبرها فلا صحب الرسول^(٢)
كان العام ليس بعام حج تغيرت المواسم والشكول
ولها يقول :

عوجى علينا ربة المودج إنك إن لا تفعلى تخرجى^(٣)
فالمج إن حجت وماذا منى وأمله إن هى لم تخرج !
فما استطاعت غير أن أومات نحوى بعينى شادن أدعج
وقال أيضاً :

باناً بأنعم ليللة حتى بدا صبح يلوح كالأغر الأشقر^(٤)
فتلازماً عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المسير

فلما شاع نسيبه بها قبض عليه ابنها محمد عند ولايته الحجاز ، بسبب طلبه
عليه ، فغربه بالسياط وألقى الزيت على رأسه ، وأوقفه للناس في الشمس ، حتى
غشى عليه ، وسجنه بضع سنين حتى مات في سجنه ، فقال في السجن :

أضاعوني وأى نتي أضاعوا ليوم كريمة وسداد نغر^(٥)

(١) ديوانه ١٠٥ ، وفيه : « تشهير » .

(٢) ديوانه ١٩٠ ، الأغاني ١ : ٣٩٧ . وفيه : « ليحزنها »

(٣) ديوانه ١٧ ، الأغاني ١ : ٤٠٧ .

(٤) الأغاني ١ : ٣٩٧ ، الديوان ١٧٨

(٥) الأغاني ١ : ٤١٣ ، ديوانه ٣٤٥

وخلّوني ومعتّرك النّايا وقد شرعت أسنّتهم لنعري
 كائن لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتى في آل عمرو
 أجرّ في الجامع كلّ يوم فيالله مظلمتي وقسري !
 عسى الملك الحبيب لمن دعاه ينجيني ويعلم كيف شكرى
 فأجزى بالكرامة أهل ودّي وأجزى بالعداوة أهل وتري

فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، قبض على محمد بن هشام وأخيه إبراهيم ودعا لهما بالسّياط ، فقال له محمد : أسألك بالقرابة ! قال : وأى قرابة بيني وبينك ؟ قال : فأسألك بصهر عبد الملك ! فقال : لم تحفظه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يضرب قرشيّ إلا في حدّ ، فقال : ففي حدّ أضربك وقود ، قال : وما ذاك ؟ قال : أنت أول من سنّ ذلك على العرّجى وهو ابن عبي وابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فما رعيت [حقّ] ^(١) جدّه ولا نسبه بهشام من قبل أمّه ، اضربهما ^(٢) يا غلام ، فضربهما ضرباً مبرّحاً ، وأنقلا بالحديد ووجهيهما إلى يوسف بن عمر ، وأمره بتعذيبهما ، فضربهما حتى ماتا .

وغنى إسحاق الموصلى الرشيد قوله :

* أضاعوني وأى فتى أضاعوا *

فسأل من سبب هذا الشعر ، فأخبره بمحدث العرّجى ، قال إسحاق : فرائقه يتغيّظ ، فلما أخبرته بما فعل بابنى هشام ، جعل وجهه يُسفر وغيظه يسكن ، ثم قال : يا إسحاق ، لولا ما حدثتني به من فعل الوليد ، لما تركت أحداً من أمثال ^(٣) بى مخزوم إلا قتلته بالعرّجى .

ومن جيد شعر العرّجى :

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظرٌ لذنب جفونى ، أم جفونى تجمّما ^(٤)

(٢) الأغاني : « اضرب يا غلام »

(١) من الأغاني

(٣) كذا في الأغاني ، وفي ط : « أمثال » (٤) ديوانه ٣٦ ، وفيه : « نمر » .

فإن يكُ من ذنبٍ ^(١) ففي ذاك حكمهم
وحسب امرئ في حقهِ ^(٢) أن يُجسَّ كما
كمثل شهاب النار في كفِّ قابسٍ ^(٣)
إذا الريح هبَّت وهو كابٍ أضرمَا

ومن جيله :

أخبرتُ أنك قلتَ نقتله
والله لا آتِي لَكُمْ سَخَطًا
والله لا أنسى تطوِّفها
كما بدرُ صورتها إذا انتقبت
لا تفعلين ، فدنسكمُ نفسى ^(٤)
حتى أغيبَ في نرى رمسى
تهتزَّ بين كواعب خمس
وإذا سقرت فأنت كالشمسى

ومنه :

حورٌ بعثنَ رسولاً في ملاطفة
فجئتُ أمشى على هولٍ أجشمه
أمشى كما حرَّكتُ ريحَ يمانية
حتى جلستُ إزاءَ البَيتِ مكتئماً ^(٥)
فبتُ أسقى بأُكواسٍ أعلَّ بها
تُبَّتْ إذا أسقطَ النَّساءُ الوَهمَ ^(٦)
تَجشَّمُ المرءَ هولاً في الهوى كَرَمُ
غصنا من البانِ رطباً طاهُ الرَّهمَ ^(٧)
وطالبُ الحاج تحت الليل يكتم
من باردٍ طاب منه الطعم والنَّسمُ

وفي معنى قوله : أمشى كما حرَّكت . . البيت يقول ابن دعلج :

قالتُ لقد أعييتنا حُجَّةٌ
فأتِ إذا ما هجَّعَ السَّامِرُ ^(٨)

(١) الديوان : « في ذنبى » .

(٢) الديوان : في « حقنا » .

(٣) كذا في الديوان ، وخط : « فارس » (٤) ديوانه ١٤٨ وفيه : قلت : نهجره .

(٥) ديوانه ٢ ، وفيه : « ثقنا » .

(٦) الديوان : « طلة الرهم » . والرم . المطر الخفيف .

(٧) الديوان :

• لما بلغتُ إزاءَ البابِ مكتئماً •

(٨) كذا في الأصول ، والبيت الثاني ينسب إلى عمر بن أبي ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩ •

وَاسْتَقَطَّ عَلَيْنَا كَسُوطُ النَّدَى لَيْلَةً لَانَا وَلَا آمُرُ

وَقَالَ الْوَاتِقُ :

قَالَتْ إِذَا اللَّيْلُ دَجَا فَأَتَيْنَاُ فُجْتُهَا حِينَ دَجَا اللَّيْلُ
خَفْنِي وَطَهَ الرَّجُلُ مِنْ حَارِسٍ وَلَوْ دَنَا حُلَّ بِهِ الْوَيْلُ
وَمِنْ ظَرْفِ الْعَرَجِيِّ ، أَنَّهُ وَعْدُهُوهُ أَنْ تَزُورَهُ فِي مَنْتَزِهِ ، فَجَاءَهُ عَلَى أَتَانٍ
وَمَعَهَا جَارِيَةٌ لَهَا ، وَجَاءَ الْعَرَجِيُّ عَلَى عَيْرٍ وَمَعَهُ غَلَامٌ ، فَوَاقَعَهَا الْعَرَجِيُّ ، ثُمَّ
خَرَجَ فَرَأَى الْغَلَامَ يَوَاقِعُ الْجَارِيَةَ وَالْعَيْرَ عَلَى الْأَتَانِ ، فَلَمَّا نَظَرَ الْحَالَ قَالَ : هَذَا يَوْمٌ
غَابَ هَذَا لَهُ .

* * *

[فصل في التضمين]

وَيُسَمَّى أَخْذُ الْحَرِيرِيِّ شَطْرَ بَيْتِ الْعَرَجِيِّ التَّضْمِينَ ، وَلَيْسَ بِسَرَقَةٍ .
وَالتَّضْمِينَ يُكُونُ فِي بَيْتٍ وَفِي شَطْرِ بَيْتٍ ، وَالشُّعْرَاءُ تَتَوَلَّعُ بِهِ كَثِيرًا ، وَهُوَ مِنْ
صِنْفَةِ الْبَدِيعِ ، فَمَنْ الثَّانِي قَوْلُ الْأَخْطَلِ :

وَأَتَدُّ سَمَا لِلْخَرْتَمِيِّ فَلَمْ تَقُلْ بَعْدَ الْوَفَى لَكِنْ تَضَائِقَ مَقْدَمِي^(١)
وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

وَجُزْتُ عَلَى بَابِ الْأَمِيرِ كَأَنِّي
قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلِ

وَمِنْ تَضْمِينَ بَيْتٍ بِكَالِهِ قَوْلُ الْحَسَنِ بْنِ هَافٍ :

إِنِّي عَجَبْتُ فِي الْأَيَّامِ مَعْتَبَرٌ وَالذَّهْرُ يَأْتِي بِالْوَانِ الْأَعَاجِبِ

(١) البيت في المدة ٢٥ : ٧٨ والبدیع لابن المعتز ١١٤ ، ونسبه إلى الأخطل ، ولم أجده في ديوان الأخطل .

من صاحبٍ كان دنياي وآخرتي عدّا على جَهَارًا عَدُوَّةَ الذِّبْرِ
قد كان لي مثلٌ لو كنتُ أعقلُه من رأى غالبَ أمرٍ غير مغلوبِ
لا تَمْدَحَنَّ امرأً حتى تَجْرِبَهُ ولا تَذَمَّهُ من غير تجريبِ
فَضَمَّنَ هذا البيتَ .

قال ابن حجاج :

قد قلت لما أن رجعتُ مُوَلِّيًّا ومعِيَ مدَايِرُ من السِّكِّابِ^(١)
نحن الذين لهم يقال وكلفا فَلَّ العِصَا وطريدة الحجاب
قومٌ إذا قصدوا الموكَّ لطلبِ نَتِفَتْ شواربُهُمْ على الأبواب
وقال ابن رشيقي : سألتُ بعض أصحابي أن أضَمَّنَ له قول الشاعر :
فإن فخرتَ بآباءٍ لهم شرفٌ قلنا صدقت، ولكن بئسَ ما وُلِدُوا^(٢)
ولا أزيد على بيت واحد ، قلت :
أصبحت من جملة الأشراف إن ذُكِرُوا
كواحد الآس لا يزكو له عِدْدُ
والتضمين كثير .

* * *

[خبر للنضر بن شميل مع المأمون]

وعلى بيت المرجى :

* أضاعوني وأنى فتى أضاعوا *

حديث النضر بن شميل، قال: ^(٣) كنتُ أدخل على المأمون في سمره فدخلتُ

(١) بقيمة الدهر ٣ : ٧٩ . (٢) التنف ٢٤

(٣) نزعة الألباء ٨٥ - ٨٧ ، درة القواسم ٦٤ مجمع الأدباء ١٩ : ٢٣٩

ذات ليلة وعلى أطمار أخلاق ، قال : يا نَضْر ، ما هذا التَّقَشُّفُ ! تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلُفان ؟ قلت : أنا شَيْخٌ ضَعِيفٌ ، وَحَرٌّ مَرَوْ شَدِيدٌ ، فَأَتَبَرَّدُ بهذه الخُلُفان ، قال : لا ، ولكنك قَشِفٌ ، فَيَحْمَلُ مِنْكَ هذا على التَّقَشْف . ثم أجريتنا الحديث ، فقال : حَدَّثَنَا هَشِيمٌ ، عن مجاهد ، عن الشعبي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأةَ لدينها ولجمالها وكالها ، كان فيها سِدَادٌ من عَوَزٍ » فأورده بفتح السين ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، حَدَّثَنَا عوف بن أبي جميلة الأعرابي ، عن الحسن عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأةَ لدينها ولجمالها وكالها كان فيها سِدَادٌ من عوز » ، وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا ، وقال : كيف قلت يا ناضر « سِدَاد » ؟ قلت : سِدَادٌ لَأَنَّ « السِّدَادَ » هنا لحن ، قال : أو تلحطني ! قلت : إنما لحنَ هَشِيمٌ - وكان لِحَانَهُ - فتبع أمير المؤمنين لفظه ، فقال : فما الفرق بين السِّدَادِ والسِّدَادِ ؟ قلت : السِّدَادُ التقصد في الدين والسبيل والسِّدَادُ بالكسر البُلغة في الشيء ، وكلٌّ ماسدَدَت به شيئا فهو سِدَادٌ ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم هذا العرجي من ولد عثمان ، يقول :

أضاعوني وأتى فتى أضاعُوا ليومَ كَرِيهَةٍ وسِدَادٍ تَقَرِّ

ثم أطرق مليا ، وقال : قَبِيعَ الله من لا أدب له ! ثم تجارينا الحديث ، فقال : كيف روايتك للشعر ؟ قلت : قد رويت الكثير منه ، قال : فَأَنْشِدْنِي أَحْسَنَ مَا قَالَهُ العرب في الحِلْمِ فَأَنْشِدْتَهُ :

إذا كانَ دُونِي مَنْ يُبْلِيتُ بِجَهْلِهِ
أَيُّتُ لِنَفْسِي أَنْ أَقَابِلَ بِالْجَهْلِيِّ

وإن كان مثلي في محلٍ من العلاء هويت إذا حلما وصفحا عن المثل

وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجاء رأيت له حقَّ التقدّم والفضل
 قال : ما أحسن ما قال ! فأنشدني أحسن ما قالته للعرب في الحزم
 فأنشدته :

على كلِّ حالٍ فاجعل الحزم عُدَّةً لِمَا أنت باغيه وهورنا على الدهرِ
 فإن نلتَ أمراً نلتَهُ عن عزيمةٍ وإن قصرت عنه الحقوق فمن عُدْرٍ
 قال : فما أحسن ما قال ! فأنشدني أحسن ما قالته للعرب في إصلاح العدوِّ
 حتى يكون صديقاً ، فأنشدته :

وذِي غيلةٍ ساءلته قهرته فأوقرته متى بسببِ التَّعْهِيلِ
 ومَنْ لا يدافعُ سيئاتِ عدوِّه بإحسانه لم يأخذ الطُّولَ من عِلِّ
 ولم أَر في الأشياءِ أسرعَ مهلكاً لضغْنِ قديمٍ مِنْ ودادٍ معجَلِ
 قال : ما أحسن ما قال ! فأنشدني أحسن ما قالته للعرب في السكوت
 فأنشدته :

إني لهجرُني الصديقُ تحنباً فأريه أن لهجره أسبابا
 وأراه إن عاتبه أفرئته فيكون تركي للكتاب عتاءا
 وإذا بليتُ بجاهلٍ متعكِّمٍ يمد الحال من الأمور صوابا
 أوليته متى السكوتَ وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

قال : ما أحسن ما قال ! ثم قال : ما مالك يا نصر ؟ قلت : أريضةٌ بمرورِ الرُّودِ
 أنصابتها^(١) وأتمرَّزها ، قال : أفلا نفيدك مالا معها ؟ قلت : إن رأى ذلك
 أمير المؤمنين ، فإني لذلك لاحتاج .

فأخذ القُرطاسَ وكتب وأنا لا أدري ما يكتب ، ثم قال : كيف تأمر إذا

(١) أنصابتها ، أي أشرب مهابتها .

أردت أن تُترب الكتاب، قلت : يا غلام أترَب الكتاب، قال : فهو ماذا ؟
قلت : مترَب ، قال : فمن السَّحاة ، قلت : يا غلام اسحُ الكتاب ، قال : فهو
ماذا ؟ قلت : مسحَى^(١) ، قال : فمن الطين ، قلت : يا غلام طين الكتاب ، قال :
فهو ماذا ؟ قلت : مطين ومُطان ، فقال : هذه أحسن من الأولى ، ثم قال : يا غلام
أتر به واسحه وطينه . ثم صلى بنا العشاء ، ثم قال لغلامه : امض معي إلى الفضل بن
سهل بهذا الكتاب ، فلما قرأه قال : بيم استأملت أن يأمر لك أمير المؤمنين
بخمسين ألف درهم ؟ وما سبب ذلك ؟ فأخبرته الحديث على جهته ، فقال : لحنت
أمير المؤمنين ، فقلت : كلاً إنما لحن هشيم — وكان لجانة — فتبع أمير المؤمنين
الفاظه ، وقد تتبع الفاظه الفقهاء ورواة الأخبار . فبجل لي ما في الكتاب ، وأمر
لي من عنده بأربعين ألف درهم ، فانصرفت بتسعين ألف درهم بحرف
استفاده من .

وهذا الخبر جاء في أخبار النحويين . وذكره الحريري في درة الفواص
بأخصر مما ذكرناه ، ثم قال ياتر الخبر : وقد أذكرني هذا المثل أحياناً أنشدنيها
أحد أشياخي رحمه الله لأبي الهيثم :

لي صديق هو عندي عَوَزٌ	من سداد لا سداد من عَوَزٌ
وجهه يذكّرني دار البلى	كلّما أقبل نحوى وضمر ^(٢)
وإذا جالسى جرّعتني	غصص الموت بكربٍ وعلّز ^(٣)
بصف الودّ إذا شاهدني	وإذا غاب وثى بي وهمز
كحمار الشوّ يبدى مرحاً	فإذا سيق إلى الخنل غمز
ليتني أعطيتُ منه بدلاً	بنصبي شرّ أولاد المعز

(١) مجالس العلماء : و « مسحوى » .

(٢) ضمز : سكت ولم يتكلم .

(٣) العاز : محرّكة : اللق واللم .

قد رضىنا بيضة فامدة عَوْضًا منه إذ البيع نَجَزْ

• • •

[حكاية أبي حنيفة والإسكاف]

وكان لأبي حنيفة رحمه الله جارٌ إسكاف بالكوفة ، يعمل نهاره أجمع ، فإذا أجنه الليل رجع إلى منزله بالخمر ولحم أو سمك ، فيطبخ اللحم أو يشوى السمك ، حتى إذا دبَّ الشراب فيه رفع مقبرته يُنشد :

أضاعوني وأنى فنى أضاعُوا ليوم كريمة وسداد تُفَرِّ

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت ، حتى يبلّغه النوم .

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصلّي الليل كله ، ويسمع جلسته وإنشاده ، فقطع صوته ليالى ، فسأل عنه فقيل له : أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، وهو محبوس ، فصلّى الفجر وركب بقلته ، ومشى فاستأذن على الأمير ، قال : ائذّنوا له ، وأقبلوا به راكبًا ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففعل به ذلك ، فوسّع له الأمير مجامسه ، وقال له : ما حاجتك ؟ قال : لى جارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، فتأمر بتخليته ؟ قال : نعم ، وكلّ مَنْ أَخَذَ من تلك الليلة إلى يومنا هذا ، ثم أمر بتخليتهم أجمعين . فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف ، فلما أوصله داره ، قال له أبو حنيفة : أترانا يا فتى أضعناك ؟ قال : لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرًا عن محبة الجوار ورعاية الحق ، والله على ألاّ أشرب الخمر أبدًا ، فتاب ولم يعد إلى ما كان عليه ^(١) .

[من حكايات الجوارى والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع فى المقامات من ظرف الحكايات التى تضمنت بيع

المالِك عند الضرورات ، وما للأجواد من جزيل الهبات ، مما ذكروا من أحسن أخبار الفلمان أن جعفر بن يحيى عرض عليه في بعض متوجّهاته مملوك من ممالك رجل جفاه السلطان ، قبض ماله ، وأمر ببيع ممالكه ، فعرض عليه من جملتهم غلام كاطر شاربه ، أجل الناس ، يدير بين فكّيه لسانا أبين من الصبح . قال جعفر : فقلت له : ما اسمك ؟ قال : ماهر ، فقلت له : وما صنعتك ؟ قال : الأدب والفناء والشعر وما شئت من بعد ، فسألت عن ثمنه ، فقال : خمسمائة دينار للضرورة ، قال : فأدبت ثمنه ، وسألت أن يُسمِعني شيئاً من غنائه ، فأخذ العود وغنى :

حاشمُ جبال الحب فوق وإتني لأعجز عن حل القميص وأضمتُ
ظفرتي بكمانِ اللسان فن لكم بكمانِ عين دُمها الدهر يذرفُ
فأطربني غناؤه ، وشجاني فأجزته ، ووهبت له وخامت عليه ، وأمرته بمادلتني . فلما اجترتُ منزل مولاة بمقدار ميل ، أنشأ يقول :

وما كنت أخشى معيذا أن يبيعتني بشيء ولو أضحت أنامله صِفرا
أخوم ومولامُ وحاملُ مرتهم ومن قد نوى فيهم وعاشرهم دهرًا
أشوقًا ولنا تمض لي غير ساعة فكيف إذا خب المطى بناشهرًا

فقلت : يا غلام ، أتعرف منزل مولاك من ها هنا ؟ فقال : هيهات ، وهل نخفى معالم السب ؟ فقلت : اذهب فانت حرّ لوجه الله تعالى ، ووهبت له ألف دينار ، فقال لي زميلي : أمثل هذا يُعْتَق ؟ فقلت : أوَمِلهُ يُمَلِّك ! فوالى وهو يقول :

لا يوجدُ الخبر إلا في معادته والشرحيث طلبت الشر موجودُ
وحدث ابن عائشة قال : كان لرجل من قيس عيلان جارية ، وكان

بها معجبا ، ولها مكرما فأصابته حاجة وجهد ، فقالت له : لو بعثني فإن نلت
طائلا عدت به عليك ، فعرضها للبيع ، فعرضت على عمر بن عبد الله بن معمر
المذحجي ، فأعجبته فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما مضت لتدخل القصر ودعت
مولاهما وأنشدته :

هنيئا لك المال الذي قد أصبته ولم يبق في كفي إلا تفكري
أقول لنفسي وهي في كرب غشية أفلئ فقد بان الحبيب أو اكثري
إذا لم يكن لاوصل عندك حيلة ولم نجدى بدا من الصبر فاصبري
فأجابها مولاهما :

فلولا تعود الدهر بي عنك لم يكن لفرقتنا شيء سوى الموت فاعذري
أدوب بحزن من فراقك موجع أناجي به قلبا طويل التفكير
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذ بيدها فهي لك وثمنها .



قال : فلما وهي الشيخ أيساته ، وعقل مُناغاته ، تنفس
الصعداء ، وبكى حتى أبكى البعداء ؛ ثم قال لي : إني أحل هذا الغلام
حل ولدي ، ولا أميرته عن أفلاذ كبدي ؛ ولولا خلو مراحي ،
وخبو مضاجي ؛ لما درج عن عشي ، إلي أن يشيع نعشي ،
وقد رأيت ما نزل به من لوعة البين ، والمؤمن هين لين ،
فهل لك في تسليته قلبه ، وتسريته كربيه ؛ بأن تعاهدني على
الإفالة فيه متى استقلت ؛ وألا تستقلني إذا ثقلت ؛ ففي الآوار

الْمُسْتَقَاةُ ، الْمَرْوِيَّةُ مِنَ الشُّمَاةِ : مَنْ أَقَالَ نَادِمًا يَبْعَثُهُ ، أَقَالَهُ اللَّهُ
عَشْرَتَهُ .

قال الحارثُ بن همام : فَوَعَدْتُهُ وَعَدًا أَبْرَزَهُ الْحَيَاءُ ، وَفِي
الْقَلْبِ أَشْيَاءُ ، فَاسْتَدْنِي حِينَئِذٍ الْغُلَامَ إِلَيْهِ ، وَقَبَلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ،
وَأَنشَدَ وَالْدُمْعُ يَرْفُضُ مِنْ جَفْنَيْهِ :

خَفَضُ : فَدَتَكَ لِلنَّفْسِ مَا تُلَاقِي

مِنْ بُرْحَاءِ الْوَجْدِ وَالْإِشْفَاقِ

فَمَا تَطَاوُلَ مَدَّةُ الْفِرَاقِ وَلَا تَنِي رِكَائِبُ التَّلَاقِ

• مُحَسِّنُ عَوْنِ الْقَادِرِ الْخَلَاقِ •

• • •

قوله : هقل مناغاته ، أى فهم كلامه ، والمناغة تكليم الطفل بما يهوى
ويفرح به ، فإذا ردّد الصبي كلامك أوحا كاك فقد ناغاك . الضعفاء : ارتفاع نفس
المهموم . أفلاذ : قطع ، يريد أولاده ، والفلة : قطعة من الكبد ، ولقرط
الإشفاق به والحبة فى الولد ، يخاطبه أبواه بقاى وكبدى . وقالوا : أولادنا
أكبادنا ، وقال الشاعر :

وإِنَّمَا أَوْلَادُنَا يَبْتَنَّا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

مُرَاحَى : موضع إبلى ودوائى ، وكفى يخلو المراح من الفقر وذهاب المال .
درج : مشى . لوعة البين : حُرقة الفراق . هَيْنَ لَيْنَ ، هَامَعَ الْإِزْدَوَاجُ مَخْفَقَتَانِ ،

فإن أفرِدنا شَدَدنا . قوله : لَمَّا دَرَجَ عَنْ عُشَى ، بقول : لولا الفقر ما بعته مادمتُ
حيًا . وتسرية كربه : إزالة همه . المتقاة : المختارة . المدونة : المكتوبة الجموعة ،
والحديث معروف من طريق أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَقَالَ نَادِمًا يَبِيعُهُ أَقَالَه الله عثرته » ، أى عفا من زلته .
أبرزه : أظهره ، ويريد بقوله : وفى القلب أشياء : أنه أضمر ألا يقيله أبدا .
يرفض : يسقط متفردًا . خَمَضَ : سَكَنَ . بُرَحَاء : شَدَّة . الوجد : الحزن .
الإشفاق : الخوف . تَنَّى : تَفَتَّرَ .

• • •

ثم قال له : أَسْتَوْدِعُكَ مَنْ هُوَ نِعَمُ المولى . وشمّر ذنبه
وَوَلَّى . فليث السلام فى زفير وعويل ، رَيْشَمَا يَقْطَعُ مَدَى
ميل . فلما استَفَاقَ ، وكفكَف دَمْعُهُ المَهْرَاقَ ، قال : أَتَدْرِى لِمَ أَغَوَلْتُ
وعَلَامَ عَوَلْتُ ؟ فقلتُ : أَظُنُّ فِرَاقَ مَوْلَاكَ ، هو الذى أَبْكَاكَ .
فقال : لِمَنْ لَنِى وَاِدٍ ، وَأَنَا فى وَاِدٍ ، وَلَكُمْ بَيْنَ مُرِيدٍ وَمُرَادٍ ،
ثم أنشد :

لَمْ أَبْكِ وَاللهِ عَلَى إلفٍ تَزَحْ

وَلَا عَلَى فَوْتٍ نَعِيمٍ وَفَرَحٍ

وإنما مَدَمَعُ أَجْفَانِي سَفَعُ عَلَى غَبِيٍّ لِحْظُهُ حِينَ طَمَعُ

وَرَطْلُهُ حَتَّى تَعْنَى وَافْتَضَّحُ

وضيغَ المنقوشة البيضاء الواضح

وَيْكَ أَمَّا نَاجَتْكَ هَاتِيكَ الْمُلْحَ
بَأَنِّي حُرٌّ وَيَمِي لَمْ يُبْسَحْ
• إِذْ كَانَ فِي يُوسُفَ مَعْنَى قَدْ وَضَحَ •

• • •

زَفِير: أنفاس مرتفعة . عويل: بكاء . ريث: قَذَر . مَدَى: غاية . والمِيل: قَدْر مَدَّ البَصَر من الأرض ، ويقال إنه ألف خطوة من خُطَا البعير ، والقرسخ: ثلاثة أميال ، والبريد أربعة فراسخ . استفاق: استراح وخف ما يجده . كفسف: ردّ وأذهب . المَهْرَاق: اللصوب . أعولت: بكيت بصوت هالٍ ، وأمول إموالاً: صاح ، ورقع صوته ، وعولت على كذا اتسكت عليه ، وعلى الله معولاً اتسكالى ، وقال الشاعر:

• وَلَيْسَ عَلَى رَبِّبِ الزَّمَانِ مَعُولُ •

كم بين مُريد ومُراد ، يريد أنهما متقاربان في اللفظ ، متباعدان في المعنى ، لأن المرید في الشيء المحبّ فيه ، والمراد الشيء المطلوب ، وهو المحبوب ، فأنّت قد تُريد الشيء فتُمنّعه، وغيرك قد يراد له فيأباه ولا يريد ، فاللفظان متضادان ، فيقول: التبس عليك سرّ بكأني فظننت أنه على فراق مولاي . فتفطن الآن أنه على سُخف عقلك ، كما التبس اللفظان على غير ناقد ، فإذا تفطن لهما تباعدا عليه ، والمرید عند أهل الإرادة المبتدى ، والمراد المنتهى ، فالمرید هو الذي نُصب للتعب واللقاساة ، والمراد الذي لقي الأمر من غير مشقة ، فهو مرفوق به مرفقةً ، وقيل: للمرید متعجّل والمراد: محمول .

الجنيد: المرید تتولاه سياسة المعلم، والمراد تتولاه رعاية الحق، لأن المرید بسره، والمراد بطيره ، فتى يلحق السائر الطائر !

القشيري : كل مرید في الحقيقة مُراد، لأنه إذا أراد الحق للخصوصية ، وفقه
للإرادة ، ولكنهم فرقوا بينهما .

قوله : إلف ، أى صاحب . نَزَح : بَعُد . سَفَح : جرى . غَبَى : جاهل .
لَحَظَه : نظره . طَمَح : ارتفع . وَرَطَه : أنشبه ، والوَرَطَه : أهوية تكون في رأس
الجبيل يشق على مَنْ وقع فيها الخروج منها . وتورطت للماشية : وقعت في الورطه ،
قال طُفيل :

تهابُ طريقِ الحقِ نحسبُ أنه وُعُورٌ ورِاطٌ وهو بَيْدَاهُ بُلُغٌ^(١)
وقيل : الورطة : الوحل تقع فيه الغنم ، فلا يمكنها التخلص ، ثم ضرب مثلاً
في كل شدة يقع فيها الإنسان ، وأورطت فلانا فتورط هو ، أى وقع فيما يفسر
التخلص منه .

أبو عمرو : الورطة الملكة ، قال الزجاج :

إن تأت يوماً مثلَ هذى الخَطَّة نلاقٍ من ضَرْبِ نَمِيرٍ وَرَطَه^(٢)
قوله : نَعْنَى ، أى تعب . افتضح : اشتهر ، والوَضَح : الشديدة البياض النقية ،
أى ضيَع الدرام المنقوشة البيض ، والوَضَحُ : البيان والضوء والغرة والقضة
والدرم الصحيح ، وقيل : إنه وصف الدراهم بالمصدر ، كما يقال : امرأة زُورٌ
وكرَم . وبك : عَجَباً لك . وقوله : هاتيك ، يقال للمذكّر : ذا ، وهو القريب ، وذاك
لما هو أبعد ، وذلك لأبعد الثلاثة ، وللمؤنث ذه وذى وبلايا ، وتأتى وهى
للقريبة ، وتيك لالتى هى أبعد منه ، وتلك وتالك لأبعدهن ، وتدخل ها التنيبه على
كل ما ليس فيه لام ، لأن اللام موضوعة للبعيد ، وها موضوعة للقريب ، فلا يجمع

(١) البيت في السائر - ورط .

(٢) اللسان (ورط) وقطع يميز ، وصوابه من اللسان .

بينهما ، نحو هذا وهذاك وهاتا ، وشاهده :

• وليست دارنا هاتا بدار •

وهذه وهذى وهذ وهاتيك ، وشاهده قولُ ذى الرُّمة :

قد احتملتُ مئىً فهاتيك دارها بها السَّحْمُ تَرْدَى والحَمَامُ المَطْوَقُ^(١)

قوله : لم يبيع ، أى لم يجعل مباحاً .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة أنا خصمهم ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل عاهد ثم غدر ، ورجل باع حرّاً ، ورجل استأجر أجيراً فلم يوفّه أجره » . وَضَحَ : تبين .

...

قال : فتمثلتُ مقالهُ في مِرآة المَدَاعِبِ ، ومعرِض المَلَاعِبِ ، فتصلَّبَ تَصَلَّبَ المُحِقِّ ، وتبرأً مِنْ طِينَةِ الرِّقِّ . فجَلُنَا في مُخَاصَمَةٍ ، واتَّصَلَتْ بِمَلَكَمَةٍ ، وأَفْضَتْ إلي مُحَاكَمَةٍ : فَلَمَّا أَوْضَحْنَا لِلْقَاضِي الصُّورَةَ ، وتَلَوْنَا عَلَيْهِ السُّورَةَ ، قال : أَلَا إِنَّ مَنْ أَنْذَرَ ، فَقَدْ أَعْذَرَ ، وَمَنْ حَذَرَ كَمَنْ بَشَّرَ . وَمَنْ بَصَّرَ فَمَا قَصَّرَ ؛ وَإِنْ فِيمَا شَرَحْتُمَاهُ لَدَلِيلًا عَلَى أَفْءِ هَذَا الْغَلَامِ قَدْ نَبَّهَكَ فَمَا ارْعَوَيْتَ ، وَنَصَحَ لَكَ فَمَا وَعَيْتَ . فَاسْتُرْ دَاءَ بَلْهَكَ وَاكْتُمُهُ ، وَلَمْ تَفْسِكَ وَلَا تَلْمُهُ ، وَحَذَارٍ مِنْ اغْتِلَاقِهِ ، وَالطَّمَعِ فِي اسْتِرْفَاقِهِ ، فَإِنَّهُ خُسْرُ الْأَدِيمِ ، غَيْرُ مَعْرُوضٍ لِلتَّقْوِيمِ .

(١) ديوانه ٣٩٠ . قال في شرحه : « السَّحْمُ : السود ، يعنى الغريبان . تردى ، أى تذهب .

والغراب لا يستطيع الخفى . ويروى : « بها السَّحْمُ فَوْضَى » .

وقد كان أبوه أخضره أمس ، قُبِيلَ أَفُولِ الشَّنْسِ ، واعترفَ
بأنه فرعه الذي أنشأه ، والآ وارث سواه ، فقلت للقاضي :
أوتعرفُ أباه ، أخزاه الله ! ، فقال : وهَلْ يُجْهَلُ أبو زيد الذي
جُرْحُهُ جُبَّارٌ ، وعند كلِّ قاضٍ له أخبارٌ وإخبارٌ ، فتحرقتُ حينئذٍ
وحولّقتُ ، وأفقتُ ولكنَّ حينَ فاتَ الوقتُ ، وأيقنتُ أنَّ
لِثَامَهُ كَانَ شَرَكَ مَكِيدَتِهِ ، وبيتَ قَصِيدَتِهِ . فنكسَ طرفي ما أقيتُ ،
وآليتُ ألا أعملَ ملثماً ما بقيتُ .



تمثلت : تصوّرت . اللداعب : الممازح . والمعرّض بفتح الميم : للوضع الذي
تُعرّض فيه الأشياء ، والمعرّض الثوب تُعرّض فيه الجارية . تصلّب : تقوّى ، وهو
« تَقَلُّبٌ » من الصّلابة وهي الشدة . والأرض الضّلبة : القوية . ولا أعلم أحداً خالف
في هذه الرواية إلا ابن ظهرفاّنه رواه : « نصّلت » بالتاء بنقطتين ، وفسره بتجرّد
وجدت ، وكل جاد مجاهد مسرع في أمره : فهو مُتَصَلِّتٌ فيه ، فذكروا أنه تصحّف
عليه اللفظ ، فشرحه على تصحيفه . الحق : صاحب الحق . الرّق : العبوديّة : وذكر
الطينة لأنها أصل الخلق . وتبرأ منها ، تباعد . جُلْنَا : تصرّفنا . ملاكمة : مدافعة
ومُضاربة ، والاسك : الضرب بمُجمّع الكف . أفضت : انصلت . أوضحنا :
بيّنا . الصورة : القصة . تَلَوْنَا : قرأنا . وذكرواها له . أنذر : أعلم . أعذر : أنى
بُعْذَرٌ ، ويقال : قد أعذر من أنذر ، أى قد بلغ أقصى العذر من أنذك ، وهُدَّر
الرجل فهو معذّر ، إذا اعتذر ولم يأت بمذر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمَعْذِرُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ . ارعويت : رجعت عن جهلك وانكسفت . بلهك ، غفلتك
وجهلك . حَذَارٍ ، أى احذر أن تتعلّق به . استرقاقه : تملّكه وتميّده ، ومنه

قولهم : سوق الرقيق ، ومنه سُمِّيَ العبد رقيقاً ، لأنهم يرقون لئلا يكتمهم ويخضعون له ويدذلون : والأديم : الجلد . للتقويم : لمعرفة قيمته . أقول : غروب . أنشاء : أحدثه وولده . جُبَّار : باطل . إخبار : إعلام . وأخبار : جمع خبر ، وأخبره : أعلمه . تحرَّقت : عضضت أسناني حتى صوتت من شدة الغيظ . حرَّقت : قلت : لاحول ولا قوة إلا بالله . أفت : انتبهت ، وأنشد للفنجدية في معنى هذا :

بفتضحُ الجاهلُ لكنَّهُ من بعد ما غرَّبه الناصحُ
ويصلح ابنُ السوء لكنَّهُ من بعد مامات الأبُ الصالحُ

قوله : وأيقنت أن لثامه كان شرك مكيدته ، أى شبكة حيلته . وبيت القصيدة : أحسن بيت فيها ، فأراد أن حيلته كانت لثامه ، فكس طرف : أى كسر عيني ، وأمال نظري .

• • •

وَلَمْ أَزَلْ أَتَاوَهُ لُحْسِرِ صَفَقَتِي ، واقتضاجي بين رُفَقَتِي . فقال لي القاضي ، حينَ رأى امتناعي ، وتبينَ حرَّ ارتِمَاضِي : يا هذا ، ما ذهب من مالك ما وعظك ، ولا أجرمَ إليك من أيقظك . فاتعظ بما نابك ، وكاتم أصحابك ما أصابك ؛ وتذكرْ أبداً ما دهمك . لتقي الذِّكرى ذِراهمك ، وتخلِّق بتخلُّق منِ ابتلي فصبر ، وتجلت له العبر فاعتبر .

قال الحارث بن كهمام : فودعته لابساً ثوب الخجل والحزن ، صاحباً ذيلي الغبن والغبن ، ونويتُ مكاشفة أبي زيد بالهجر ، ومصارمته يد الدهر . فجعلتُ أتكِّبُ عَنْ ذِراهِ ، وأتجنبُ أَنْ

أَرَاهُ ؛ إِلَى أَنْ غَشِيَنِي فِي طَرِيقٍ ضَيِّقٍ ، فَجِئَانِي تَحِيَّةَ شَيْقٍ ، فَأَزِدْتُ عَلَى أَنْ عَبَسْتُ وَمَا نَبَسْتُ ، فَقَالَ لِي : مَا بِالْكَ شَمَخْتَ بِأَنْفِكَ عَلَى الْفِكَ ! فَقُلْتُ : أُنْسَيْتَ أَنَّكَ اخْتَلْتَ وَخَتَلْتَ ، وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ! فَأَضْرَطُّ بِي مُتَهَارِياً ، نَمَّ أَنْشُدَ مُتَلَفِياً :



أَنَاوَه : أَنْوَجَعَ . رَفَقَتِي : أَحْبَابِي . امْتَعَاظِي : تَوَجَّعِي . ارْتِمَاظِي : حُرْقَةٍ قَلْبِي مِنْ شِدَّةِ الْهَمِّ ، وَلَا يَكُونُ الْمَتَمِضُ كَاطْطًا ، فَلَا يَدُّ مِنْ ظُهُورِ الْكَرْبِ عَلَيْهِ ، وَأَمْرٌ مِمِّضٌ وَمَاعِضٌ ، أَيْ مِمِّضٌ كَارِبٌ .

قوله : مَا ذَهَبَ مِنْ مَالِكَ مَا وَعْظُكَ ، هُوَ مِثْلُ ، وَمَعْنَاهُ إِذَا ذَهَبَ مِنْ مَالِكَ شَيْءٌ حَذَرُكَ أَنْ يَحِلَّ بِكَ مِثْلُهُ ، فَتَأْدِيبُهُ إِيَّاكَ عَوَظٌ مِنْ ذَهَابِهِ . أَجْرَمَ : أَذْنَبَ . فَابِكَ : نَزَلَ بِكَ . دَهَمَكَ : غَشِيَكَ . تَجَلَّتْ : ظَهَرَتْ . الْعَبْرُ : الْعَلَامَاتُ الْخَوْفَةُ ، وَاعْتَبِرْتَ بِالشَّيْءِ إِذَا انْتَعِظْتَ بِهِ . الْحُجْلُ : الْحَيَاءُ . سَاحِبَا : جَارَا . الْغَبْنُ : بَسْكَوْنُ الْبَاءِ فِي الْبَيْعِ ، وَبِفَتْحِهَا فِي الرَّأْيِ ، يَرِيدُ أَنَّهُ غَبْنٌ فِي رَأْيِهِ وَبَيْعِهِ ، قَالَ فِي الدَّرَةِ : الْغَبْنُ بِإِسْكَانِ الْبَاءِ فِي الْمَالِ ، وَبِفَتْحِهَا فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ . نَوَيْتَ : أَضْمَرْتُ . مَصَارِمَتُهُ : مَقَاطَعَتُهُ ، وَصَرَمْتُ فَلَانًا : قَطَعْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ . وَالْعَرَمُ : الْقَطْعُ ، وَقِيلَ لِلَّيْلِ صَرِيمٌ ، لِانْقِطَاعِهِ عَنِ النَّهَارِ ، وَهُوَ فِي تَأْوِيلِ مَنَصْرُومٍ أَيْ مَقْطُوعٍ ، وَكَذَلِكَ الصَّرِيمُ مِنَ الرَّمْلِ ، وَهُوَ الَّذِي انْقَطَعَ مِنْ مَعْظَمِهِ .

يَدُ الدَّهْرِ : أَيْ أَبَدُ الدَّهْرِ .

أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَالسَّابِقُ السَّابِقُ إِلَى الْجَنَّةِ » .

دَرَاه :جهته . غَشِيَنِي : قَصَدَنِي وَأَنَانِي عَلَى غَفْلَةٍ . شَتِيق : شديد الحب ،
 حَانِبَسْتُ : مانسكأمت . شَمَخْتُ : رفعت أنفك كبراً ، وشمخ : تكبر . خَنَت :
 خدعت ، وخانل فى معنى خَنَل ، وأصل الخائلة المشى للصيد قليلا قليلا خفية لئلا
 يُسمع حسك ، ثم جُمِلت مثلا لكل شئ ورئى به وسأتر على صاحبه . مثلافيا :
 مقدار كما للألثة .



يَا مَنْ نَدَا مِنْهُ صُدُو دُ مُوحِشُ وَتَجْهِمُ
 وَغَدَا يَرِيشُ مَلَاوِمَا مِنْ دُونِ الْأَسْهَمِ
 وَيَقُولُ : هَلْ حُرُّ يُبَا عُ كَمَا يُبَاعُ الْأَدَمُ
 أَقْصِرْ فَا أَنَا فِيهِ بِذِ عَا مِثْلُ مَا تَتَوَّمُ
 قَدْ بَاعْتَ الْأَسْبَاطُ قَبْلِي يَوْسُفَا وَهَمُّ هَمُّ
 هَذَا وَأَقْسِمُ بِالنَّبِيِّ بِسَرِي إِلَيْهَا الْمُتَّهَمُ
 وَالطَّائِفِينَ بِهَا وَهَمُّ شَعْتُ النُّوَاصِي سَمُّهُمْ
 مَا قَتْتُ ذَاكَ الْمَوْقِفَ إِلَّا مُخْزِي وَعِنْدِي دِرْهَمُ
 فَاعْذِرْ أَخَاكَ وَكَفَّ عَنْهُ مَلَامَ مَنْ لَا يَفْهَمُ



تَجْهَمُ : عُبُوس . مَلَاوِمَا : جمع مَلَام أو ملاومة ، وهى اللوم والعتاب ،
 يريد أن لومه أنفذ من السهام . الْأَدَمُ ، قيل : أراد به الفرس وقصد لونه للقافية ،
 وقيل : أراد العبد الأسود . بَدْعَا ، أى أو لا أى ما أنا أول من فعل ذلك . الْأَسْبَاطُ :

إخوة يوسف عليه السلام . وهم م : أى وهم أنبياء لم يتغيروا عن مراتبهم ، ويقال : هو هو ، أى هو كما عهدته لم يتغير .

[قصة يوسف عليه السلام]

وقد جرى ذكرُ يعقوب والأسباط في المقامات في مواضع، وبقي هذه المقامة على ذكر يوسف وجهاله وبيع إخوته إياه . ونريد أن نلمّ بطرف من أخبارهم على شرط الكتاب .

ذكر أهلُ الأخبار أن يعقوب - وهو إسرائيل عليه السلام - تزوج بنت خاله ليا بنت لئان بن بتويل، فولدت له رؤوبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وغيرهم، ثم توفيت وخلف على أخيها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين . وكان يوسف وأمه قد قُسم لهما من الحسن شطره، فكفلت يوسف عمته . وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة لإسحاق يتوارثونها على قدر أسنانهم. فلما ترعرع يوسف أراد يعقوب أخذه منها، وقال لها : والله لأقدر على الصبر عنه، فقالت له : والله لا أقدر على صبري إليك . فلما رأت عزمه على أخذه، حزمت للمنطقة تحت ثياب يوسف وهو نائم، ثم ادعت فقدّها فطلب فوجدت عنده، وكان من سذنتهم أن من سرق شيئاً أخذ فيه، فتركه لها حتى ماتت . فلما رجع إلى أبيه شغل به عن سائر بنيهِ، فحسدوه، فسألوا أباهم إرساله معهم للنزعة، بعد أن ضمنوا حفظه، فأخرجوه إلى البرية، وأخذوا يضربونه، وكلما ضربه واحد استغاث بآخر، فيضربه الآخر . فلما كادوا يقتلونه منعهم يهوذا، وذكّرهم بما ضمنوا لأبيه من حفظه، فانطلقوا فأدّلوه في الجب، وهو يقول : يا أباه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الآباء ! وكان بعض إخوته لأمه، فجعل يتعلق بشفير الجب، فربطوا يديه، وألقوه فيه، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يتجّوك . ثم أرادوا أن يرّضخوه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام خفية منهم .

ثم مرت سيارة فأدلى واردٌهم دلوّه فتعلق به ، فلما رآه بشر به السيّارة .
وقال السّدى: إنّ الذي أخرجه إنّما دعا صاحباً له اسمه بشرى ، فأنى إخوته الذين
أخرجوه وقالوا: إنه عبد لنا ، فباهوه منهم بعشرين درهماً على أن يُخرجوه من
أرض الشام ، فشرطوا لإخوته أن يفرّ بوه ، ويذهبوا به إلى مصر ، فعينئذ رجعوا
إلى أبيهم عشاء يبيكون .

فهذه قصة بيع الأسباط يوسف على اختصار .

ثم إنّهُ لما بلغ مصرَ من العزيز ، وكان فرعون - وهو الريّان بن الوليد -
قد ولّاه خزائنها ، فكان من قصّته مع امرأة العزيز ومن حبّها فيه ومن دعاها
إياه لنفسها ، ومن تأبّيه من ذلك واستنزالها إياه ؛ حتى ممّ بها ، ورؤيته برهان
ربه - وهو رؤيته صورةً يعقوب يعضّ على إصبعه ، وقيل : إنه رأى في الحائط
مكتوباً : « ولا تقربوا الزنا - ومبادرته الباب فاراً منها ، وقدّها قيصه من دُبر ،
وجوده العزيز على باب الدّار جالساً مع ابن عمّ له ، وهو الشاهد من أهلها - وقيل :
إنه كان صبيّاً في المهد - واشتهار أمرهما بمصر ، حتى تحدّثت به نسوة في المدينة ،
وقلن : امرأة العزيز تُرّاد فتاه عن نفسه ، وإحضارها لمن وإعدادها لمن ما يتكهن
عليه - وقيل : المتكهن الأترج - وأمرها له أن يخرج عليهنّ ، وإعظامهنّ إياه حتى
شغلن به عن أنفسهنّ ، وقطنن أيديهنّ وقلن : حاش لله ما هذا بشراً ، تنزيهاً له
عن أن يأتي - مثله ربيّة ، فكان من هذا الخبر ما قص الله في القرآن ونطقت به
التّفاسير والأخبار .

ثم إنّ امرأة العزيز قالت للعزيز: إنّ عبدك فضّحنى في النّاس فإما سجنّته ،
وإما برزت للنّاس أعتذر عن نفسى ، فحبسه ، فدخل معه رجلان أحدهما خباز
الملك والآخر نديمه . وكان لما بلغ الحلم آتاه الله حُكماً وعِلماً من العبارة ، فكان

في السَّجَن يفسر الرؤيا للسَّجُونِ ، ويمرض مرضاهم ، ويوسع على من ضاق عليه مكانه ، قال أحد الفتيين لصاحبه : هلمَّ نُجرب هذا العبد . فسألاه من غير أن يربا شيئاً ، وقال له : إنا نراك من المحسنين في معاشرتكَ أهل السَّجَن ، قال لهما : أمّا أحدكما فينادم الملك ، وأمّا الآخر فيصَلِّب ، فقال له : مارأينا شيئاً ، قال لهما : قُضِيَ الأمر فيكما . ثم قال للذي ظن أنه ناجٍ منهما : اذكُرني عند ربك ، وأخبره أني محبوس ظلمًا . فأوحى الله تعالى إليه : إن اتخذت من دوني وكيلًا لأطيلن سجنك ، فعوقب بالسَّجَن حيث همَّ بامرأة العزيز ، وبإطالته حيث انكَل في أمره حل غير ربه .

ثم كان من رؤيا الملك وجَّهَل أهل دولته وتفسير يوسف لهما ، وقول الملك : انثوني به وتأنيبه الخروج حتى يسأل النسوة عن شأنه وشهادتهنَّ عند الملك بتبرئته واعتراف امرأة العزيز بأنها راودته ، وقوله في العزيز : ﴿ لَيْعَلْ أَنَّى لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ ﴾ .

ويقال إن جبريل قال له عند ذلك : ولا يوم هممت بما هممت به ! فقال : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي .. ﴾ الآية . واستخلاص الملك لإياه لنفسه ، وجعله على خزان أرضه ؛ ما اشتهر قرآنًا وتفسيرًا .

ويقال إن العزيز مات في تلك المدة ، وإن يوسف تزوجها ، وقال لهما : أليسَ هذا خيرًا ؟ فقالت : لا تلهي ، كنت امرأة حسناء في مُلكٍ ودُنْيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حُسنك ، فطَلَبْتَنِي نفسي على ما رأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، وأنها ولدت له ابنتين .

ثم أجذبت الأرض ، فأناه إخوته منتجمين ، فكان من أمره معهم ، وإحسانه إليهم في السَّكِل ، وطلبه لهم أن يأتوه بشقيقه بفيامين ، ورجوعهم موقرين ، ورغبته إليهم في إرساله معهم ، وأخذه بسرقة الصَّوْاع وتأذيهم بذلك ، ورجوعهم إليهم (١١ - شرح مقامات الحريري ج ١)

أبيهم وتوالى الحزن على يعقوب بفقد ابنه ، وأمره لبنيه أن يرجعوا طالعين ليوسف وأخيه ، ودخلهم على يوسف أذلاء صاغرين ، وتمريفه إياهم بمكانه ، وبعثه بالقميص إلى أبيه ، وجمع شملهم بعد طول مدة الفراق ما نص الله تعالى أنه عبرة لأولى الألباب . ولولا أن الأمر في كتب التفسير أشهر من أن يحمل ، لفسرناه فصلاً فصلاً .

قوله : وأقسم بالتي يسرى إليها المتهم - بمعنى مكة - والمُتهم الآتي بهامة ، وبهامة اسم مكة ، قال الأصمعي : سمعت العرب تقول : إذا انحدرت من ذات عرق فقد أنهت . شئتُ سهُم : أى متفيرة ألوانهم وشعورهم .

قوله : اهذر أخاك ، قال زيد بن علي : ثلاثة لا يجتمعن إلا في كريم : حُسن الحضر ، واحتمال زلات الإخوان ، وقلة الملاة للصدق .

نمّ قال : أمّا مَنذرتني فقد لاحت ، وأمّا دراهمك فقد طاحت ؛ فإن كان افشعراؤك مِنِّي ، وازورارك عَنِّي ، لفرطِ شَفَتِكَ عَلَى غُبْرِ نَفَقَتِكَ ، فلسْتُ بِمَنْ يَلْسَعُ مَرَّتَيْنِ ، وَيُوْطِي عَلَى جَمْرَتَيْنِ . وإن كنت طويت كَشْحَكَ ، وأطمت شَحْكَ ، لَتَسْتَنْقِذَ مَا عَلِقَ بِأَشْرَاكِ ، فَلَتَبْنِكَ عَلَى هَقْلِكَ الْبَوَاكِ .

قال الحارث بن همام : فاضطررتني بلفظه الخالب ، وسبحره الغالب ، إلى أن عدت له صفياً ، وبه حَفِيًّا ، ونبذت فعلته ظَهْرِيًّا ، وإن كانت شيئاً فَرِيًّا .

لاحت : ظهرت . طاحت : هلكت اقشعرارك : انقباضك .
والقشعريرة : رعدة وانقباض . ازورارك : انقباضك وميلك . لفرط شفقتك ،
لكثرة خوفك . غبر نفقتك : أى تخاف على ما يبقى من نفقتك وإن أخذها .
يوطىء ، أى يجعل غيره يطاء الجمر ، أى لا أضرب مرتين . والكشع : الخضر ،
وقيل : الجنب ، وقيل : هواسم لما بين الأضلاع ، ورأس الورك ، وكلها مقاربة ،
وطوى كشحه على أمر ، استمر عليه ، وطوى كشحه ، مثل يضرب للجانبة
والسكامة ، قال الشاعر :

طوى كشعاً خليلك والجناحا لبين منك ثم غداً وراحاً^(١)
والشع : البخل مع الحرص ، واضطرنى : الجأئى ، الخالب : الخادم .
صفيًا : صاحباً مخاصماً . حفيًا : معينا . كريماً : مكرماً ، نبذت : رميت . وطرح
ظهيراً ، أى خلف ظهري ، واتخذ ظهرياً ، أى عُدّة يستظهر بها ، أى يجعلها
خلف ظهره حتى متى احتاجها استعملها فرياً : عجباً ومنكراً ، والفرى :
الأمر العظيم ، والفرى الكذب .

ومما جاء فى الشعر على أخبار يوسف عليه السلام

قال ابن الزقاق :

بأبى وغير أبى أغنُّ مَهْمَهفٌ مهضوم ماخلف الوِشاحِ تَحِيصُهُ^(٢)
لبس الفؤادَ فزَقَقَهُ جفونهُ فأتى كيوسف حين قُدَّ قَبِيصُهُ

وقال أيضاً :

وسافرٍ عن قرٍ مبسَمٍ عن دَرَرٍ^(٣)

(٢) ديوانه ١٩٦ ، والنجيبي : الضامر البطني .

(١) اللسان (كشع)

(٣) ملحق ديوانه ٢٩٣

لولا حور وقد سل حُسام الحور
لقد منه شفاً قميصه من دُبُر

ومن الملح في ذلك قول ابن حجاج في مختيار :

فديت وجه الأمير من قمرٍ
إن زلخا لو أبصرتك لما
بل وحياتي لو كنت يوسفها
فإنني عالم بأنك لو
سبقها واندلقت تتبعها
ولم تزل بالكدين تنقرها^(١)
طبعك كالماء في سهولته
إن الملوك الشباب ما خلّقوا
يجلو القذى نوره عن البصر^(٢)
ملت إلى الحشر لذة النّفار
لم تك من تهمة العزيز برى
شممت ربّا نسيمها العطير
من بين تلك البيوت والحجر
من قبل وقت العشا إلى السّحر
لكن أبو الزُّرقان من حَجَرٍ
إلا صلاب الفياش والكمَرِ

وقال آخر :

قميص يوسف لما قد من دُبُرٍ
وفي قميصك لما قد من دُبُرٍ
كانت براءته فيه من الكذب
تما يدلّ على الفحشاء والريب

وقال آخر في الحسن بن وهب :

إذا لقيت بني وهب بمنزلة
مؤدّبون على الفحشاء من صغري
قميص أثناهم بنشق من قبل
معنكون ولم تقطع سرّهم
لم تدرا أيهما الأنقى من الذّكر
مدرّبون على النّكراء من كبري
وقص ذكراهم تنفذ من دُبُرٍ
بين الحواضين والدايات بالكمَرِ

(٢) البنية : د أقصرها .

(١) البنية ٣ : ٤٠

المقامه الثالثه والثلاثون وتعرف بالتقليسيه

حكى الحارث بن همام قال : مَرَزْتُ فِي تَطَوٍّ فِي بِشِيرَاز ، عَلَى نَادٍ
يَسْتَوْقِفُ الْمُجْتَازَ ، وَلَوْ كَانَ عَلَى أَوْفَازٍ ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ تَعَدِّيهِ ،
وَلَا خَطَّتْ قَدَمِي فِي تَخَطُّيهِ ؛ فَمَجَّتْ إِلَيْهِ لِأَسْبُكَ سِرَّ جَوْهَرِهِ ؛
وَأَنْظَرُ كَيْفَ ثَمَرُهُ مِنْ زَهْرِهِ ، فَإِذَا أَهْلُهُ أَفْرَادٌ ، وَالْعَانِجُ إِلَيْهِمْ مُفَادٌ .
وَيَنْمَانَحُنُ فِي فَكَاهَةِ أَطْرَبَ مِنَ الْأَغَارِيدِ ، وَأَطْيَبَ مِنْ حَلَبِ
الْعَنَاقِيدِ ؛ إِذَا احْتَفَّ بِنَاذِرِ طَمَرَيْنِ ، قَدْ كَادَ يُنَاهِزُ الْعُمَرَيْنِ ، فَحَيًّا
بِلِسَانِ طَلِيقٍ ، وَأَبَانَ لِإِبَانَةِ مِنْطِيقٍ ، نَمَ احْتَبَى حُبُورَةَ الْمُتَتَدِينِ ،
وَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . فَازْدَرَاهُ الْقَوْمُ لِطَنَرِيهِ ، وَنَسُوا
أَنَّ الْمَرْءَ بِأَصْفَرِيهِ

• • •

القطواف : مصدر طوّفت حول الشيء ، إذا أ كثرَت الشيءَ حوله ،
وقد طفتُ به وأطفتُ ، وإذا درت وأ كثرَت ذلك قلت : طوّفت .

وشيراز : مدينة فارس العظمى ، وهى مدينة جليلة عظيمة ، ينزلها الولاة ،
ولها سعة حتى إنه ليس فيها منزل ، إلا وفيه لصاحبه بُستان فيه جميع الثمار
والرياحين والبُقول ، وكل ما يكون فى البساتين . وشُرْب أهلها من عيون
تجرى فى أنهارٍ تأتي من جبالٍ يسقط عليها الثلج .

قوله : ناد : مجلس . يستوقف : يحبس ويجعله يقف . المجتاز : خاطر الطريق
المار عليه .

أوفاز : انخفاز وعجلة ، ومنه قولهم : قعد مستوفزاً ، معناه قعد على وفز من الأرض ، والأوفاز : جمع وفز وهو ألا يطمئن في قعوده . قال الجوهري رحمه الله تعالى : تقول نحن على أوفاز ، ولاتقول على وفز ، ومعناه ألا تلقاه مُعدّاً . الأزهري : الوفزة : الوثبة بعجلة ، وقعد مستوفزاً ، إذا رفع اليدين ووضع ركبتيه ولم يطمئن .

نعتيه : تحطيه وجوازه . وخطت : مشت . عجت : ملت . أسبك . أجرب سرّ جوهره : أراد باطن أهله إذ كانوا في الظاهر ذوي مناظر ، فأراد أن يعرف : هل هم أهل علوم وآداب ، حتى يكملوا في الظاهر والباطن ، أم أمرم على خلاف ذلك . وبين ذلك بقوله : كيف ثمره من زهره ، فكش بالزهر عن ظاهرهم ، وبالثمر عن سرهم الباطن ، وسر كل شيء : باطنه وخاله ، وقال المعري :

فلا يفرّئك بشرٌ من سواه بدا ولو أنار ، فكم نورٌ بلا ثمر^(١)

قوله : أفراد ، أي كبراء لا نظير لهم ، فن مال إليهم استفاد ، وأفراد : نجوم الدركارى . والمائج : المائل . فكاهة : حديث مطرب . الأغاريد : أصوات الطير ، ويطلقون على ما كان فيه حنان ورقة منها اسم التغريد والغناء ، إلا الحمام فإنهم يسمون أصواتها غناء وتغريدا وبكاء ونياحاً ، يأخذونه من حال السامع لها . وقرئ على أبي الحسن بن السراج قول سويد بن الأعم :

لقد تركت فؤادك مستجناً مطوقةً على فنن تغنى
يميل بها وتركه بلعن إذا ما عن لاهـزون أنا

(١) سقط الزند ١٣٩ ، وفي ط : « سر » موضع : « بشر » .

قَالَ : إِنَّمَا تَكُونُ أَصْوَاتُ الْحَمَامِ عَلَى مَا فِي نَفْسِ الْمُسْتَمِعِ ، فَإِذَا سَمِعَهَا مَنْ
يَطْرِبُ سَمَّاها غَنَاءً ، وَإِذَا سَمِعَهَا مَنْ يَحْزَنُ سَمَّاها بَكَاءً .

وَقَالَ ابْنُ قَاضِي مِيلَةَ مَصْدُقًا لَمَّا قَالَ ابْنُ التَّرَاجِ :

لَقَدْ قَرَضَ الْحَمَامُ لَنَا بِسَجْعٍ إِذَا أَصْنَى لَهُ رَكْبٌ تَلَاخِي
شَجَا قَلْبَ الْخَلَى قَال غَنَى وَبَرَحَ بِالشَّجَى قَال فَاخَا^(١)

وَسَهَقَ الْمَرْمَى بِقَوْلِهِ :

بَارِضٍ لِلْحَمَامَةِ أَنْ تَفْنَى بِهَا وَلَنْ تَأْسَفَ أَنْ تَفْوَخَا^(٢)

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي شَرْحِ الْمَدْرِ فَصْلًا لِلْحَمَامِ . وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْبَحْتَرِيِّ :

حَيَّتِكَ عَنَّا كَمَالٌ طَائِفٌ طَائِفُهَا فِي جَنَّةٍ نَفَعَتْ رَوْحًا وَرِيحَانًا
غَنَّتْ سُحَيْرًا فَنَاجَى الْفَصْنَ صَاحِبَهُ سِرًّا بِهَا ، وَتَدَاعَى الطَّيْرُ إِعْلَانًا
وَرَقٌّ تَفْنَى عَلَى غُصْنٍ مَهْدَلَةٍ تَسْمُو بِهَا وَتَمَسُّ الْأَرْضَ أَحْيَانًا
تَحَالُ طَائِرُهَا نَشْوَانٌ مِنْ طَرَبٍ وَالْفَصْنُ مِنْ هَزَقٍ عِطْفَيْهِ نَشْوَانًا

وَهَذِهِ دِيبَاجَةُ أَبِي عِبَادَةَ . وَحَلَبُ الْعَنَاقِيدِ : الْحُمْرُ . احْتَفَتْ : انْتَقَلَمَ .
طَائِرِينَ ، أَيْ تَوْبِينَ خَلَقَيْنِ . يَنْهَازُ : يَقَارِبُ . الثَّمَانِينَ : ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَذَلِكَ
أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ الشَّبِيهِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ فِي نَمَاءٍ وَزِيَادَةٍ وَقُوَّةٍ ، وَمِنَ الْأَرْبَعِينَ إِلَى
الْثَمَانِينَ فِي نَقْصٍ ، فَالْبَالِغُ الثَّمَانِينَ قَدْ اسْتَوْفَى عُمرَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ . وَسُئِلَ
ذُو الرُّمَّةُ عَنْ سَنَةِ ، فَقَالَ : بَلَغْتُ نِصْفَ عُمُرِ الْهَرَمِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ : الْعُمُرُ
سَعُونَ سَنَةً ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ » .

(١) تَارَ الْأَزْهَارُ ٧٩ ، وَنَسَبَهُ لِلنَّازِي .

(٢) سَقَطَ الزُّنْدُ ٢٤٥ .

(٣) مِنْ زِيَادَاتٍ دِيوَانِهِ .

ومن حديث أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَنْتَ عَلَيْهِ سِتُونَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ » ، فالعمران على هذا مائة وعشرون سنة . والحكماء يزعمون أنه منتهى ما يبلغ عمر ابن آدم ، والأظهر من سباق المقامة أنه أراد الأول ، لأن مَنْ قارب مائة وعشرين سنة لا يلتذ بخمر ولا بغيره وهو يزعم في المقامة أنه يحاول شربها لغناه وغير ذلك .

قوله : أَبَانَ : بَيَّن . مِنْطِيق : فصيح . احتبَى حبوتهم ، أى جلس مثل جلوسهم المنتدين : أهل المجلس . ازدراه : احتقره .

أصغريه : قلبه ولسانه ، وقيل لهما الأصفران لصغر حجمهما مِنْ بين الأعضاء لفضلهما وشرفهما على الأعضاء ، قال علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : ولكفى مدرب الأصفرين ، ولجلبهما القيام والكمال ، كأنه قال : المرء يقوم أموره بلسانه وقلبه ، ويكمل المرء بهما ، قال الأصمعي رحمه الله تعالى : كان ضمرة بن أبي ضمرة قصيرا ، وكان يقول : للرم بأصغريه ، بقلبه ولسانه .



وأخذوا يتداعونَ فَضَلَ الخطاب ، ويمتدئون عُدَّة من الأخطاب ، وهو لا يُفِيضُ بِكَلِمَةٍ ، ولا يُبَيِّنُ عن سِمَةٍ ، إلى أن سَبَرَ قَرَائِحَهُمْ ، وَخَبَرَ شَائِلَهُمْ وَرَاجِحَهُمْ . فحين استخرج دَفَائِنَهُمْ ، واستنْثَلَ كَنَائِثَهُمْ ، قال : يا قوم لو عَلِمْتُمْ أَنَّ وراءَ الْفِدَامِ ، صَفْوَ الْمُدَامِ ، لَمَا احْتَقَرْتُمْ ذَا أَخْلَاقٍ ، وَقُلْتُمْ مَا لَهُ مِنْ خَلَاقٍ . ثُمَّ قَجَّرَ مِنْ بَنَائِعِ الْأَدَبِ ، وَالتَّكْتِ الثُّخْبِ ، مَا جَلَبَ بِهِ بَدَائِعَ الْعَجَبِ ،

واستوجب أن يكتبَ بذوب الذهب . فلما خلب كلَّ خلبٍ ،
 وقلب إليه كلَّ قلب ، تحلحل ، ليرحل ، وتأهب ، ليزهب ،
 فملقت الجماعةُ بذيله ، وعاشت مسرَب سَيْلِه ، وقالت له : قد
 أرينّا ونسمَ قدحِك ، فخبّرنا عن قَيْضِك ومُحْك . فصمتَ صُوت
 من أفحِم ، ثم أغولَ حتّى رُحِم .

قال الراوى : فلما رأيتُ شوبَ أبى زيدٍ ورؤبُه ، وأسلوبه
 المألوفَ وصوبه ، تأملتُ الشيخَ على سُومَةِ مُحْيَاه ، وسُهوِكِهِ رَبَاه ،
 فإذا هو إِيَاه .



بداعون : بدعو بعضهم بعضاً إلى ذكر الفصاحة ، والأشبه أن يكون من
 الأدعية ؛ وهى الأحجية والأغلوطه ، كأنهم يحتاجون . وفصل الخطاب ، كناية
 من الفصاحة . يعتقدون : يحسبون ، الأخطاب : جمع خطب ، ولا يقال للعود
 حطب حتى يحفّ ماؤه ويبيس ، فأراد أنهم حسبوا أبا زيد من جنس الخطب
 لا نضارة فيه ، كأنه لا علم عنده . وقال الشاعر :

إذا العود لم ينثر وإن كان شعبةً من المثرات اعتدّه الناسُ لاحتطبِ

بُغيض : يتكلم ويندفع فى القول ، وفاض لسانه وأفاض ، أى أبان . يبين :
 يبين . سمة : علامة . سبر : قاس وجرب . قرائحهم : أذهانهم . خبر : جرب .
 شائلهم : ناقصهم . راجحهم : وافهم ، والشائل من الدرهم : الناقص الذى يشول
 به الميزان ، أى يرتفع ، والراجع ضده . وقال فى الدرة : الشائل المرتفع ، وأنشد :

ياقوم من يمدد في عجزه القاتل المرد على الدائق^(١)
لما رأى ميزانه شائلاً وجاء بين الأذن والعائق

استنثل كنفائهم : استخرج ما عندهم ، والكفانة : جمعة السهام . الفِدام :
خرقة يُجمل على فم الإبريق ليصفو الخربها . أخلاق : ثياب بالية . خَلَّاق :
نصيب وافر من الخير . يتابع : يخرج الماء من العيون . التفتت : المعاني
الغامضة ، والنكتة : نقطة في شيء تخالف لونه ، فإذا كانت في الكلام فهي عيونه .
الْفُخْب : المختارة . بدائع : غرائب . ذوب الذهب : ما ذاب منه ، ولو أنشدتم
شعراً يوافق مجلسهم لم يكن إلا أبيات الناشئ :

كانهم في صدور الناس أئدة^٢ تحس ما أخطروا فيها وما اعتمدوا
يُبْدُونَ للناس ما تخفي ضائرتهم^٣ كأنهم وجدوا منها الذي وجدوا
دلّوا على باطن الدنيا بظاهرها وعلم ما غاب عنهم بالذي شهدوا
مطالع الحق ما من شبهة غسقت^٤ إلا ومنهم لديها كوكب يقد

أو أبيات ابن شهيد حيث قال :

وفتية كالتجوم حسنا كلهم شاعر^٥ نبيل^(٦)
مقعد الجانبين ماضٍ كأنه الصارم العقيل^٧
راموا انصرامي^(٨) عن العالي والقرب من دونها كليل^٩
فاشدت في إثرها مسخ^{١٠} كل كثير به قليل^{١١}

(١) هرة الفواس ٨٥ ، ٧٦ .

(٢) ديوانه ١٣٩ .

(٣) الديوان « انصرام » .

فِي مَجْلِسِ شَاهَةِ الْقَصَافِي تَطْيِيشٌ فِي وَصْفِهِ الْقُفُولِ^(١)

قوله : خَلَبَ ، أَيْ خَدَعَ . وَالْخَلَبُ : الْحِجَابُ الَّذِي بَيْنَ سَوَادِ الْقَلْبِ وَسَوَادِ
الْبَطْنِ . تَحَلَّحَلَّ : تَحَرَّكَ ، وَأَصْلُهُ لِلْبَعِيرِ إِذَا حَرَّكَتَهُ لِلْقِيَامِ يَقُولُ لَهُ : حَلْ حَلْ .
عَاقَتْ : مَنَعَتْ وَحَبَسَتْ . مَسْرَبٌ : طَرِيقُ مَسِيلِ الْمَاءِ ، وَمَسْرَبٌ يَسْرُبُ سَرُوبًا :
مَضَى عَلَى وَجْهِهِ فِي سَفَرٍ بَعِيدٍ ، وَمَسْرَبُ الْمَاءِ يَسْرُبُ مَرَبًا وَمَسْرَبًا فَهُوَ سَرَبٌ :
سَالٌ ، وَالْمَعْنَى مَنَعْتَهُ الْمَشْيَ . وَمَنْ قَدَحَكَ : عَلَامَةُ سَهْمِكَ ، وَالْقِدْحُ السَّهْمُ قَبْلَ
أَنْ يُرَاشَ وَيَرْكَبَ نَصْلُهُ . وَأَرْوَيْتَنَا مِنْ نَضْحِكَ ، أَيْ أَسْقَيْنَا مِنْ بِلَالِكَ ،
وَالنَضْحُ : الرِّشُّ الْخَفِيفُ : قَيْضُكَ وَمُحْكٌ ، أَيْ ظَاهِرُكَ وَبَاطِنُكَ ، لِأَنَّ الْقَيْضَ
قَشْرَةُ الْبَيْضَةِ الْعُلْيَا وَقَلْبُهَا الْأَصْفَرُ هُوَ الْمَحْ ، بِجَاءٍ غَيْرِ مَنْقُوطَةٍ .

الْفَجْدِيهِ : عَنْ قَيْضِكَ وَمُحْكٌ أَيْ عَنْ نَسَبِكَ وَبِلَالِكَ . صَنَتْ : سَكَتَ .
أَفْعَمَ : غَلَبَ وَقَطَعَ عَنِ الْكَلَامِ . أَعُولٌ : بَكَى . وَشَوَّبَ أَبُو زَيْدٍ وَزَوِيهِ ،
أَيْ تَخْلِيطُهُ فِي حَيْلِهِ ، وَالشَّوْبُ : الْخِلَاطُ ، يَقُولُ : شُبَّتِ الْمَاءُ بِاللَّبَنِ ، أَيْ خَلَطَتْهُمَا
وَالرَّوْبُ : اتِّخَاذُ الرَّائِبِ ، وَالشَّوْبُ : اللَّبَنُ الْمَذْجُوجُ بِالْمَاءِ هُنَا ، وَالرَّوْبُ : الْخَالِصُ .
وَيُقَالُ : مَا عِنْدَهُ شَوْبٌ وَلَا رَوْبٌ ، أَيْ لَا مَرْقَ وَلَا لَبَنَ ، وَقِيلَ : الشَّوْبُ
الْعَسَلُ ، وَالرَّوْبُ اللَّبَنُ : وَفُلَانٌ يَشُوبُ وَيَرْوُبُ ، أَيْ يَخْلُطُ وَيَصْنُفُ ، وَأَصْلُهُ
يَرْبِي ، قُلْتُ « يَرْوُبُ » طَلِبًا لِلزَّادِ وَاجٍ ، يَضْرَبُ مِثْلًا لِمَنْ يَخْلُطُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَالشَّوْبُ وَالرَّوْبُ جَمِيعًا : الْخِلَاطُ ، وَرَابَ الرَّجُلَ رَوْبًا : اخْتَلَطَ عَقْلُهُ وَرَأْيُهُ .
أَسْلُوبُهُ : طَرِيقُهُ . الْمَأْلُوفُ الْمَلْتَزِمُ . صَوْبُهُ : قَصْدُهُ وَجَانِبُهُ وَصَوَابُهُ . سَهْوَةٌ مَحْيَاةٌ :
تَغْيِيرُ وَجْهِهِ . سُهُوكَةُ رِيَاءٍ : نَتْنُ رَائِحَتِهِ مِنَ النَّحْرِ وَغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُ : فَإِذَا هُوَ إِيَّاهُ :

(١) الْبَيْتُ فِي الدِّيَوَانِ :

فِي مَجْلِسِ شَاهَةِ الْقَصَافِي وَطَارَدَتْ وَصْفُهُ الْقُفُولِ

استعمل إياه ، وهو ضمير منصوب في موضع الرفع ، وهو غير جازم عند سيبويه ، وجوزّه الكسائي في مسألة مشهورة جرت بينهما :

[ذكر مسألة نحوية]

قال الفجديسي: سألت شيخنا العلامة إمام النحاة جمال العلماء ، أبا محمد عبد الوهاب بن برّي بن عبد الجبار المقدسي عن شرحها ، فقال أيده الله: سألت شرح الله صدرك ، وأعلى في منازل الشرف قدرك ، عن المسألة التي جرت بين سيبويه والكسائي ، وهي قوله : « كنت أظن أن العقب أشد لسمعة من الزبور فإذا هو إياها » ، وسألت عن وجه النصب في « إياها » عندهم أن أجاز ذلك . فاعلم أن مذهب النحويين البصريين في مثل هذه المسألة أن يكون ما بعد إذا مرفوعاً بالابتداء والخبر ، فيقال : فإذا هو هي ، على حد ما في الكتاب العزيز : ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ ^(٢) ، فإذا هنا ظرف مكان وليست كالزمانية ، وسأفرق بينهما . وتقديرها في نحو : خرجت فإذا زيد قائم : خرجت فالحفرة زيد قائم ، والعامل في إذا ، قائم ، وإن شئت نصبت قائماً على الحال ، وجعلت الخبر في إذا ، كما تقول : خرجت فإذا زيد قائم فالقائم بالرفع على الخبر والنصب على الحال ، ومذهب الكوفيين في الحال أن تكون نكرة ومعرفة ، ومن هنا منع سيبويه من إياه في المسألة ، لأن المضمر لا يقع حالاً لتعريفه وعدم الاشتقاق فيه ، والحال تكون نكرة مشتقة ، والكوفيون يميزون النصب على معنى : خرجت فإذا زيد قائماً . والأقرب عندي أن يريدوا فإذا هو موجود إياها ، فحذف الخبر وهو موجود دلالة الكلام عليه ، ومثل هذا عندهم : لئن ضربته ليضربته السيد الشريف ، فينصبون السيد بإضمار ، فإذا حملته على هذا تخرج .

(٢) سورة الضراء ٣٢ ، الأعراف ١٠٧ .

(١) سورة الأعراف ١٠٨ .

وحكى عن أبى زيد أنه سمع هذه المسألة من العرب ، بنصب «إياها» ، فإن صح أنه سمعها فهذا وجه ، ويجوز في قياس قولهم : أن يكون على إسقاط الكاف ، وم يروون في الخبر : « ذكاة الجنين ذكاة أمه ^(١) » ، بنصب « ذكاة » يقدرون كذكاة أمه ، فتقديرها فإذا هو كذا ، أى فإذا الزنبور كالعقرب ، وهم يجيزون إدخال الكاف على الضمير ، وسيبويه يمنعه إلا في الشعر كقول العجاج :

• وأم أوعالٍ كها أو أقربا •

وقال رؤبة :

فلا أرى بعلًا ولا حلائلًا ^(٢) كهم ولا كهن إلا حائلًا

وأجاز بعض النحويين أن يكون «إياها» كناية عن الجملة ، التقدير : فإذا هو لسمته كسمتها ، فكفى عن الجملة بقوله : «إياها» وينصب على الحال ، لأنها كناية عن الجملة ، وهي نكرة فتصير في حكم النكرة ، كما صارت الماء في : ربه رجالاً نكرة في المعنى ، لكونها كناية عن نكرة ، ولذا دخلت «رُب» ماياها ، وهي لا تدخل إلا على نكرة ، فهذا ما يقتضيه وجه النصب في «إياها» على ما ذكره الكوفيون ، والفرق بين إذا الزمانية والمكانية من أوجه :

أحدها أن الزمانية تقتضى الجملة الفعلية لما فيها من معنى الشرط ، والمكانية تقع بعدها الجملة الابتدائية أو المبتدأ وحده .

والثاني : أن الزمانية تقتضى جوابا والمكانية لا تقتضيه .

والثالث : أن الزمانية مضافة إلى الجملة التى بعدها ، والمكانية ليست مضافة إلى ما بعدها ، بدليل خرجت فإذا زيد ، فزيد مبتدأ وإذا خبره .

(١) الخبر في النهاية لابن الأثير ٢ : ١٦٤ . قال : والتذكية الذبح والنحر . . .

(٢) ديوانه ١٢٨ .

والرابع : أن الزمانية تكون في صدر الكلام ، نحو إذا جاء زيد فأكرمه ،
والمكانية لا يُبْعَدُ بها إلا أن تكون جواباً للشرط ، كالفاء في قوله : ﴿ وإن
نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ .

والخامس : أن الزمانية تقتضي الاستقبال والمكانية تقتضي معنى الحضور ،
لأنها المفاجأة ، والمفاجأة للحاضر دون المستقبل .
انقضى الكلام عليهما على جهة الاختصار .

• • •

فكتمتُ سِرَّهُ كما يُكْتَمُ الدَّاءُ الدخيل ، وسترْتُ مَكْرَهُ وإن
لم يكن يُخِيل ؛ حتَّى إذا نَزَعَ عن إغوالِهِ ، وقد عَرَفَ عُثُورِي
على حالِهِ ، رَمَقْنِي بعَيْنِ مِضْحَاكِ ، ثمَّ طَفِقَ يُتَشَدُّ بِلِسَانِ
مُتَبَاكِ .

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَعُوذُ لَهُ مِنْ فَرَطَاتِ أَثَقَلَتْ ظَهْرِيَّةِ
بِاقِوْمٍ كَمِنْ عَاتِقِ عَانِسٍ

تَمْدُوْحَةُ الْأَوْصَافِ فِي الْأَنْدِيَّةِ
قَتَلْتَهَا لَا أَتَّقِي وَارْتَأَى يَطْلُبُ مِنِّي قَوْدًا أَوْدِيَّةِ
وَكُلَّ مَا اسْتُذْنِبْتُ فِي قَتْلِهَا أَحَلَّتْ بِالذَّنْبِ عَلَى الْأَقْصِيَّةِ
وَلَمْ تَزَلْ تَقْمِي فِي غِيَّهَا وَقَتْلِهَا الْأَبْكَارَ مُسْتَشْرِِيَّةِ

قوله : الداء الدخيل ، هو الذي لا يُتَكَلَّمُ به استقباحاً له أو لعله . يُخِيلُ :
يشبهه وبشكل ، وخال يُخِيلُ : اشتبه . نزع : كفت ، إغواله : بكائه . عُثُورِي :
اطلاعي . رمقني : نظر إلي . بعين مضحك ، أي كثير الضحك . مُتَبَاكِ :

مستعمل للبكاء بتكلف . أعنو : أذل . فرطات : سقطات وزلات . عاتق : شابة قد أدركت ولم يبين بها زوجها ، بل هي بكر ، ويريد بها الحر التي لم يفض أحد خاتمها . وعانس : طالت إقامتها في بيت أبيها . الأندية : المجالس . القود : قتل النفس بالنفس . استذنبت : نسبت إلى الذنب : الأفضية : جمع قضاء ، أي كلما قيل لي : فعلت هذا الذنب ؟ قلت : إنما هو قضاء الله وقدره ، وأخذ هذا المعنى من قول الحسين بن الضحاك :

واتركي التذلل على مَنْ قاله^(١) وانسي جوري إلى حكم القضاء^(٢)

ولهذا البيت حكاية أدبية ، قال الحسين : كانت لي قوبة في دار الوائق ، فبينما أنا نائم ذات ليلة ، إذ جاءني خادم من خدام الحرم ، فقال لي : إن أمه المؤمنين يدعوك ، فقلت له : وما الخبر ؟ قال : إنه كان نائما إلى جنب حظيته فقام وهو يظنها قائمة ، فألم بجارية أخرى ، وعاد إلى فراشه ، ففضبت حظيته وتركته حتى نام ، ثم قامت ، ودخلت حجرتها فانقبه وهو يظنها عنده ، فطلبها فلم يجدها ، فقال : من اختلس كريمتي ، ونحكم أين هي ! فأخبرناه أنها قامت ففضبت ومضت إلي حجرتها . فدعا بك ، قال : فضيت مع الرسول ورويت أيماناً في طريقي ، فلما جئته خبرني القصة ، وقال لي : قل في هذا شيئاً ، فقكرت هنيهة كأتى أقول شعراً ، ثم أنشدته الأبيات :

غَضِيتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى غَضِبَةً فَلَهَا الْعُتْبَى عَلَيْنَا وَالرُّضَا^(١)
بَا فِدَتِكَ النَّفْسُ كَانَتْ هَفْوَةً فَاغْفِرِيهَا وَاصْفَحِي هَمًّا مَعَى
وَاتَرَكِي التَّذَلُّ عَلَى مَنْ قَالَه وَانْسِي جَوْرِي إِلَى حِكْمِ التَّقْضَا
فَلَقَدْ نَبَّهْتَنِي مِنْ رَقْدَتِي وَعَلَى قَلْبِي كُنْبِرَاتُ الْفَضَا

قال : أحسنتَ بحياتي ، أعدّها عليّ يا حسين ، فأعدتها عليه حتى حفظها .
وأمر لي بخمسمائة درهم . فقام ومضى إلى الجارية فأنشدّها الأبيات فتراضيا ، فكان
بعدُ إذا رآني تبسّم لموقع الأبيات ونجحها عند الجارية ، والإحالة على القضاء
بالذنب هو مذهب التجزئية فمن فعل منهم ذنبا قال : لا ذنب لي ، إنما قُدِّرَ
عليّ ومذهب القدريّة خلافه ، قال الشاعر في ردّه :

إذا أذنبوا قالوا مقاديرُ قُدِّرَتْ وما العار إلا ما تجرُّ المقاديرُ

وقوله : غيها ، أي فسادها . مستشرية : لاحتية مصممة ، واستشرى الشيء :
انتشر ، واستشرى في أمره : لجّ فيه .

[وَأَدَّ الْبَنَاتِ]

والقتل الذي ذكره للبنات هو الواد الذي كانت تفعله الجاهلية ، قال الله
سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾

والموءودة : التي تُدفن حية ، فتقتل بالتراب ، والواد : القتل .

وورد قيس بن عاصم المِغَفَرِيّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له :
بعض الأنصار عن وأده البنات ، فقال قيس : ما ولدت لي بنتٌ إلا وأدتها ،
وما رحمتُ منهنَّ إلا واحدة ولدتها أمها ، وأنا في سَفَرٍ ، فدفعتها إلى أخوالها ،
وقدمتُ فسألت عن الحمل ، فأخبرت أنها ولدت ميتاً . ومضت سنون ، حتى
ترعرعت ، فزارت أمها ذات يوم ، فدخلتُ فرأيتها قد صَفَرَتْ شَعْرَهَا ، وجعلت
في قرونها شيئاً من الخُلُوق ، ونظمت عليها ودعاً ، وألبستها قلادة ، وجعلت في
عنقها مخنقة ، فقلت : مَنْ هذه الصبية قد أعجبتني حسنُها ؟ فبكت ثم قالت : هذه
ابنتك ، كنتَ خبرتكَ أنّي ولدت ميتاً ، وهذه التي ولدت ، فجعلتها عند خالها ،
وبلغت لهذا البالغ . فأمسكتُ عنها حتى اشتغلتُ أمها ، ثم أخرجتها يوماً ، فحُفِرَتْ

حفرة فجعلتها فيها ، وهى تقول : يا أبت أنفطئنى بالتراب ا حتى واريئها وانقطع صوتها ، فارحمت واحدة منهم ممن وأدت غيرها . فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إِنْ مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يَرْحَمُ ^(١) » .

وذكر ^(٢) أن قيساً وأد بيده بضع عشرة ابنة ، وكان السبب فى وأد البنات أن المشرج ^(٣) اليشكرى أغار على قوم قيس ، فسبا نساء فيهن ابنته وابنة أخيه ، فدخل قيس إليهم فسألهم أن يهبوها له ، فوجد المشرج قد اصطفاهما لنفسه ، فسأله إياها ، فقال : قد جعلت أمرهما إليهما ، فإن اختارتاك فخذها ، فاختارتا المشرج ، فانصرف فوآد كل ابنة له خوفاً من القضيعة ، فافتدت به العرب فى ذلك .

قال الهيثم : إن الوأد كان مستعملاً فى قبائل العرب قاطبة ، وكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وقد قلّ إلّا فى تميم .

وقيل : كان الوأد فى تميم وقيس وبكر وهوازن وأسد ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم ، ولهذا جاء تحريم الدم ، وهذا خبر بين أن الوأد كان للعاجة لا للأنف ، وبه نزل القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا يَبْقُوتَنَّ أَوْلَادُهُنَّ ﴾ .

ومن ذكر أنه كان أنفة وأنه كان فى تميم ، ومن جاورهم فيحتاج بحديث أبى عبيدة ، أن تميما منعت النعمان الإتاوة ، فوجه إليهم أخاه الريان ، وجُل من معه من بكر بن وائل ، فاستاق النعم وسبى الذرارى . وفى ذلك يقول للمشرج اليشكرى :

(١) الخبر فى الأغاني ١٤ : ٦٩ ، ٧٠ (٢) الخبر فى الكامل ٢ : ٨٢

(٣) ط : « المستخرج ، تصحيف ، وفى الأغاني ونهاية الأرب ٤ : ١٢٧ » « همرو بن

المشرج » .

(١٢ — شرح مقامات الحريرى ج ٤)

لَمَّا رَأَوْا رَابِعَ النِّعَمَانِ مُقْبِلَةً قَالُوا أَلَا لَيْتَ أَدْنَى دَارِنَا عَدَنُ
يَالَيْتَ أُمَّ تَمِيمٍ لَمْ تَكُنْ عَرَفْتَ مُرًّا^(١) وَكَانَتْ كَمَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ
وَقَالَ النِّعَمَانُ فِي جَوَابِهِ :

لَهُ بِكَرٍّ غَدَاةَ الرَّوْعِ لَوْ بِهِمْ يُرْمَى ذُرًّا حَضَنَ زَالَتْ بِهِمْ حَضَنُ
إِذَا أَرَى أَحَدًا فِي النَّاسِ يُشَبِّهِهُمْ^(٢) إِلَّا فَوَارِسَ خَامَتِ عَنْهُمْ الْيَمِينُ
فَوَدِدْتُ إِلَيْهِ تَمِيمٌ ، فَأَنَابَ إِلَيْهِمْ ، وَأَحَبَّ الْبُقْيَا . وَقَالَ :

مَا كَانَ ضَرًّا تَمِيمًا لَوْ تَقَمَّدَهَا مِنْ فَضْلِنَا مَا عَلَيْهِ قَيْسُ عَيْلَانِ

فَسَأَلُوهُ النِّسَاءَ ، فَقَالَ : كُلَّ امْرَأَةٍ اخْتَارَتْ أَبَاهَا رُدَّتْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ اخْتَارَتْ
صَاحِبَهَا تُرِكَتْ عَنْدهُ فَكُلُّهُنَّ اخْتَرْنَ آبَاءَهُنَّ إِلَّا ابْنَةَ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ،
اخْتَارَتْ صَاحِبَهَا عَمْرُو بْنُ الْمَشْرِجِ ، فَتَذَرَّ قَيْسٌ : أَلَا تَوَلَدَ لَهُ ابْنَةٌ إِلَّا قَتَلَهَا .
فَهَذَا شَيْءٌ يَغْتَلِّ بِه مِنْ وَأَدِ الْبَنَاتِ ، وَيَقُولُ : فَعَلَنَاهُ أَفْئَةً ، وَقَدْ كَذَّبَ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْحَمِيدِ . وَأَيْنَ فَعَلَ قَيْسٌ فِي الْوَادِ وَقِسَاوَةَ قَلْبِهِ مِنْ فَعَلَ
صَمْعَةَ بْنِ نَاجِيَةَ بْنِ عَقَالِ بْنِ الْفَرَزْدَقِ ! فَإِنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَعْمَلُ عَمَلًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِنَفْسِي ، أَبْتَغِي ذَلِكَ
لِلْيَوْمِ ؟ قَالَ : وَمَا عَمَلُكَ ؟ قَالَ . أَضَلَّ نَاقَتَيْنِ عَشْرًا وَبَيْنَ^(٣) ، فَرَكِبْتُ جَمَلًا
وَمَضَيْتُ فِي بُغَايَاهُمَا ، فَرَفِعَ لِي بَيْتٌ فَقَصَدْتُهُ ، فَإِذَا شَيْخٌ جَالِسٌ بِفَنَاءِ الدَّارِ ،
فَسَأَلْتُهُ عَنْهُمَا ، فَقَالَ : هُمَا عِنْدِي ، وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِمَا قَوْمًا مِنْ أَهْلِكَ مُعْتَرٍ ،
فَجَلَسْتُ عَنْدهُ لِيَخْرَجَا إِلَيَّ ، فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ كِسْرِ الْبَيْتِ ، فَقَالَ لَهَا :
مَا وَضَعْتَ ؟ فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا شَارَكْنَاهُ فِي أُمُورِ النَّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى وَأَدْنَاهَا !

(١) ط : « مروا » تصحيف . (٢) الكامل : « أشبههم » .

(٣) المشراء : الناقة التي أتى عليها مذحلت عشرة أشهر .

قالت : وضعت أنتي ، قلت : أتبيعنيها ؟ فقال : وهل تبيع العرب أولادها ؟
قال : قلت : إنما أشتري حياتها لارقيها ، فقال : بكم ؟ قلت : احتكم ،
قال : الناقتين والجل ، قلت : ذلك لك ، على أن يبلّغني وإياها الجل ، ففعل .
فأمّنت بك يا رسول الله ، وقد صارت لي سنة في العرب ، أشتري كل
موودة بناقيتين وجل ، فمندی إلى هذه الغاية ثمانون ومائة موودة ،
قد أفتتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينفعك ذلك ، لأنك لم
تبخر وجه الله ، وإن تعمل في إسلامك عملا صالحا تُذَبَّ عليه » .

وقال الفرزدق يفتخر بفعل جده على جرير :

ألم تر أنا بنودارم زُرارة منّا أبو مَعْبِدٍ^(١)
ومنا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم تُؤادِ
أيطاب مجد بني دارم عطية كالجمل الأسود
قرّني بحكّ قفا مُقرّف لثيم مآثره فُقدو
ومجد بني دارم دونه^(٢) مكان السماكين والفرقد

وعطية هو أبو جرير ، ويأتي في الأربعين .

وجاء في الحديث الترغيب في إكرام البنات ، قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم . « مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ
النَّارِ » . وفي طريق آخر « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، وَثَلَاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ بَنَاتٍ ،
أَوْ أَخْتَانِ ، فَأَحْسَنَ صَحْبَتَهُنَّ وَاللَّهُ أَنْتَى فِيهِنَّ ، فَلَهُ الْجَنَّةُ » .

ولبهنّهم تهنئة بمولودة : اتصل بي خير المولودة ، كرّم الله غُرَّتَهَا ، وأنبأها
غبائًا حسنًا ؛ وقد علمتُ أنهنّ أقربُ إلى القلوب ، وإن الله عز وجل قد بدأ بهنّ

(١) ديوانه : ٢٠٥

(٢) الديوان : « فوقه » .

في الترتيب، فقال سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءً مِّمَّنْ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ﴾^(١)
وما سماه الله تعالى هبة فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أخرى.

وقال بعض الشعراء :

أَحَبُّ الْبَنَاتِ وَحُبُّ الْبَنَاتِ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ
فَإِنَّ شَعْبِيًّا مِنْ أَجْلِ ابْنَتَيْهِ أَخَذَهُ اللَّهُ مَوْسَى كَلِمَةٍ
وفي الحديث : « دَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ » .

مزى رجلٌ يحيى بن خالد في حُرْمَةِ له ، قال : أَيُّهَا الْوَزِيرُ دَفَنُ الْحُرِّمِ مِنَ
النِّعَمِ ، ثُمَّ قَالَ :

نَمَزَ إِذَا رُزِنَتْ فَخَيْرُ دَرْعٍ بِسَرِيٍّ لِلْمَصَائِبِ دِرْعُ صَبْرٍ
فَلَمْ أَرْ نَمَةً شَمَلَتْ كَرِيمًا كَمُورَةٍ مَسْلَمٍ سُبُورَتِ بِقَبْرِ
وقال عمر بن أبي علقمة المري :

إِنِّي وَإِنْ سَيِّقَ إِلَى الْمَهْرِ أَلْفٌ وَعَبْدَانِ وَذَوْدٌ عَشْرُ
• أَحَبُّ أَصْهَارِي إِلَى الْقَبْرِ •

وقال إسحاق بن جَلَف :

لَوْلَا أُمِّيَّةٌ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْعَدَمِ وَلَمْ أَجُبْ فِي اللَّيَالِي حِنْدَسَ الظُّلَمِ^(١)
نَهَوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ^(٢)

(١) ط : « أبو إسحاق » ، وهو خطأ .

(٢) ديوان الحماسة بشرح التبريزي ١ : ٢٧٤ ، ويعدده هناك :

وزادني رغبة في العيش معرفتي ذلَّ اليتيمة يحفوها ذوو الرِّجَمِ
أحاذرُ الفقرَ يوماً أن يُيْلِمَ بها فيهنك السُّرَّ عن لحمٍ على وَصَمِ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

لكلُّ أبي بنتٍ يراعى شئونَهَا ثلاثة أصهارٍ إذا ذُكِرَ الصَّهْرُ
فبيتٌ يَغْطِهَا وبعْلٌ يَصُونُهَا وقَبْرٌ يُوَارِيهَا وخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ

وقال آخر :

لأنِّي أَسْنُ مِنْهَا فَقَدْ زَوَّجْتُهَا كَفَوْا وَضَمِنْتَ الصَّدَاقَ مِلِكًا

• • •

حَتَّى نَهَانِي الشَّيْبُ لَمَّا بَدَأَ فِي مَفْرِقِي عَنْ تِلْكَ كُمِ الْمُغْصِيَةِ
فَلَمْ أَرِقْ مَذَّ شَابِ فَوْدِي دَمًا مِنْ عَاتِقِي يَوْمًا وَلَا مُصْنِيَةِ
وَهَآنَذَا الْآنَ عَلَى مَا يُرَى مَنِّي وَمِنْ حِرْفَتِي الْمُسْكِدِيَةِ
أَرُبُّ بِكْرًا طَالَ تَغْنِيْسُهَا وَحَجَبُهَا حَتَّى عَنْ الْأَهْوِيَةِ
وَهِيَ عَلَى التَّغْنِيْسِ مَخْطُوبَةٌ كَخِطْبَةِ الْغَانِيَةِ الْمُغْنِيَةِ
وَلَيْسَ بِكَفِيْنِي لِتَجْهِيْزِهَا عَلَى الرِّضَا بِالْدُّوْنِ إِلَّا مِيْنِ
وَالْيَدُ لَا تُوَكِّي عَلَى دِرْهَمٍ وَالْأَرْضُ قَفْرٌ وَالسَّمَاءُ مُصْنَحِيَّةٌ
فَهَلْ مَعِيْنٌ لِي عَلَى تَقْلِيْهَا مَصْحُوبَةٌ بِالْقَيْنَةِ الْمُلْهِيَةِ
فِيْغْسِلُ الْهَمُّ بِصَابُونِهِ وَالْقَلْبُ مِنْ أَفْكَارِهِ الْمُضْنِيَةِ
وَيَقْتَنِي مَنِّي الثَّنَاءُ الَّذِي تَضُوْعُ رِيَاءُهُ مَعَ الْأَدْعِيَةِ

• • •

قوله : فَوْدِي ، أى ناحية رأسى . مُصْنِيَةِ : لها صَبُوة ، أو يصبو إليها
مَنْ رَأَاهَا ، وجعل الحمر مُصْنِيَةِ ، لأنها تغلب شرابها فتصيرهم سكارى ، عقولهم

عقول الصبيان ، فهي تلعبُ بهم كما تلعب الأم بصبيانها . حرّ فتى : صنعى
 للسكدية : الصعبة ، وأكدى الحافر : بلغ كدبه ، فرفع عن الحفر آيساً من الماء .
 ثم استعير لغير ذلك أرب : أصلح . تغنيسها : إقامتها بغير زوج .

قال عمر رضى الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مكتوب
 فى القوراة : مَنْ بلغت ابنته اثنتى عشرة سنة ، فلم يزوّجها فأصاب إثمًا فإثم
 ذلك عليه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ بلغَ له ولد النكاح وعنده ما ينكحه به فلم
 ينكحه ، فأصاب إثمًا فالإثم بينهما » . ويعنى بها خيراً قديمة حجبتها عن الأهوية ، لئلا
 يُفسدها الهواء .

قوله : مخطوبة : مطلوبة . الغانية : البارعة الجمال التى غنيت بحسنها عن
 الزينة ، قال الرستمى : أصلها فى ذات الزوج التى استغنت بزوّجها ، ثم قيل
 فى غير ذات الزوج . قال عماره : هى الشابة التى تعجب الرجال ويمجبونها . المغنية :
 التى نشأت فى النوى ، وأغنى بمعنى استغنى ، والمغنية أيضاً : التى تغنى زوجها عن
 غيرها لكمال خصالها . توكأ : تُشد وتربط ، والركاء : انليط بشدة به فم الوعاء .
 وراود عبدٌ فى الجاهلية ابنة سيّده عن نفسها ، فأمكنته حتى بلغ أربه
 منها ، ثم عِدّت إليه فجئته . فقال لها أبوها فى ذلك ، فقالت : مَنْ ورد غير مائه ،
 صدر بمنل حاله ، إن العبد لمن نوكه قد ابتذل إناء لم يوكه ، فقال أبوها : يابنتي .
 لاشلّا ولا مى .

ومتيه : محذوفة اللام ، ولا يدرى أوامها أم ياء ، قاله صاحب العين .
 وقال ابن الأعرابي : اثأبت القوم ، وأمايتهم : صاروا بى مائة ، ففى مايت
 دليل قاطع على أن اللام باء .

وقال الفراء رحمه الله تعالى وكُراع : أصلها مئيه ، وأنشد :

قلتُ والربَّ كَبَّ قد تُخَطِّيه مِنِّيَّةُ أدنى عطيات آباءِ ميثاتُ

قوله : قَفَرٌ : غير عامرة . مُصْحِيَّةٌ : زال سحابها ، ضربه مثلاً للخُلُوعِ من المال ،
فلا في أرضه خصب فتعمر من أجله ، ولا في سماءه سحب فيرجى خيرها . وقوله
تقدّم لفيبي مطر .

الفَيْئَةُ للملهمية : الجارية المغنّية ، وهى فى كلام العرب الأُمّة ، مغنّية كانت أو
غير مغنّية ، قال زهير :

• رَدَّ التَّيَّانَ جِمالَ القومِ ناحتلوا^(١) •

واشتقاقها من قُنْتُ الشيء أَقِينَهُ قَيْنًا ؛ إذا لمته ، قال الشاعر :

ولى كَيْدٌ مجروحةٌ قد بدا بها سدُوعُ الهوى لو أن قَيْنًا يَقِينُهَا^(٢)
ولهذا سُمِّيَ الصَّوَاعُ والحداد قَيْنًا ، والماشطة قَيْنَةً .

قوله : فيفسل اللهم بصابونه : يعنى فينقى همى بالخمر لأنها تنفى الهمَّ والحزن
والغم كما يفسل الصابون وسخ الثوب . المضنية : الممرضة . يفتنى : يكتسب .
نضوع رِياءه : تتحرك راحته ، يريد أنه يكتسب منه السامع الدعاء فيثنى عليه
ثناء حسنًا فى الدنيا ويدعوه بالآخرة ، ويقال : ضاع المسك بضوع ، أى انتشرت
رائحته ، وقال الشاعر :

وما هو إلّا المسكُ عند ذوى الحجبى

بِضُوعٍ وعند الجاهلين بغيضُ

(١) ديوانه ١٦٤ ، وبعيته :

• إلى الظهيرة أمرٌ بينهم كَبِكُ •

(٢) السان - قين

قال الراوى : فلم يَبْقَ فى الجماعة إِلاَّ مَنْ نَدَيْتَ لَهُ كَفَّهُ ،
وانبأعَ إِليه عُرْفُهُ فَمَّا نَجَحَتْ بُغْيَتُهُ ، وَكُمَلَتْ مِئَّتُهُ ، أَخَذَ يُذْنِ
عليهم بِصَالِحٍ ، وَيُسَمِّرُ عَنْ سَاقِ سَارِحٍ ؛ فَتَبَعَتْهُ لَأَسْتَعْرِفَ رَيْبَةَ
خَدْرِهِ ، وَمَنْ قَتَلَ فى حَدَثَانٍ أَمْرَهُ ، فَكَأَنَّ وَشَكَ قِيَامِي ، مِثْلَ لَهُ
مَرَامِي . فَازْدَلَفَ مِنِّي ، وَقَالَ : افْتَقَهُ عَنِّي :

قَتَلَ مِثْلِي يَا صَاحِبَ مَزْجِ الْمُدَامِ لَيْسَ قَتْلِي بِلَهْذَمٍ أَوْ حُسَامٍ
وَالَّتِي عُنُسَتْ هِيَ الْبِكْرُ بِنْتُ الْكَرِّمِ لَا الْبِكْرُ بِنْتُ الْكِرَامِ
وَلتَجْهِيْزَهَا إِلَى الْكَأْسِ وَالطَّاءِ سِ قِيَامِي الَّذِي تَرَى وَمُقَامِي
فَقَفَّ هُمْ مَا فَلَنَسَهُ وَتَحَكَّمْ فى التَّغَاضِيِ إِن شِئْتَ أَوْ فى الْمَلَامِ

ثم قال : أَنَا عَرِيدٌ ، وَأَنْتَ رِغْدِيدٌ ، وَبَيْنَنَا بَوْنٌ بَعِيدٌ . ثُمَّ
وَدَّعْنِي وَأَنْطَلَقَ ، وَزَوَّدَنِي نَظْرَةً مِنْ ذِي عَمَقٍ .

نَدَيْتَ : كَرَمْتَ . انبأعَ : سأل . عُرْفُهُ : معروفه . نَجَحَتْ : انقضت وامت ،
بُغْيَتُهُ : طَلِبَتُهُ . طَفِقَ : أَخَذَ وَجَعَلَ . سَارِحَ : ذَاهِبٌ ، يَرِيدُ أَنَّهُ شِمْرٌ لِّلسَّيْرِ ،
وَأَضَافَ سَاقًا لِّسَارِحٍ ، وَهُوَ يَرِيدُ : مِنْ سَاقِ رَجُلٍ سَارِحٍ ، أَيْ ذَاهِبٍ . رَيْبَةُ
خَدْرِهِ ، أَيْ أَلَّتِي رِبَاهَا فى بَيْتِهِ ، وَرَيْبَةُ الرَّجُلِ بِنْتُ أَمْرَأَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ لَهَا
ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرْبِيْهَا فَهِيَ « فَعِيلَةٌ » بِمَعْنَى مَفْعُولَةٌ ، فَأَصْلُهَا مَرْبُوبَةٌ ، وَيُقَالُ : رَبَّ فلان
فلانا وَرَبَّاهُ وَرَبِّيَّةً وَتَرْبِيَّتُهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . حَدَثَانٌ : أَوَّلٌ . وَشَكَ : سُرْعَةٌ .
مَرَامِي : مَرَادِي وَمَطْلَبِي . اَزْدَلَفَ : قَرُبَ ، وَيُقَالُ : قَتَلْتُ الْخَمْرَ ، إِذَا مَزَجْتَهَا ،
وَقَدْ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : مَزْجِ الْمُدَامِ .

[حكايات وأشعار حول الحجر]

قال الأخطل :

قُتِلْتُ اقْتُلُوا مِنْكُمْ بِمَزَاجِهَا وَأُخِيبَ بِهَا مَقْتُولَةٌ حِينَ تُقْتَلُ^(١)

وكان الأخطل خليماً ، فأتى هنا على الممزوجة . وقال في التي لم تمزج :

وَكَأْسٍ مِثْلَ عَيْنِ الدِّبْكِ صَرَفٍ تُنْفِى الشَّارِبِينَ لَهَا الْعُقُولَا^(٢)
إِذَا شَرِبَ الْفَقِي مِنْهَا ثَلَاثًا بَغِيَرِ الْمَاءِ حَاوِلَ أَنْ يَطُولَا
حَتَّى قَرَشِيَّةً لَاشَكَّ فِيهَا وَأَرْخَى مِنْ مَآزِرِهِ الْفُضُولَا

• • •

وأصبح عبد الملك يوماً في غداةٍ باردة ، فأنشد هذه الأبيات ، ثم قال :
كَأَنَّ الْأَخْطَلَ الْآنَ فِي حَانُوتِ خَارِ مَحَلِّ الْإِزَارِ ، مُسْتَقْبِلَ الشَّمْسِ . ثُمَّ بَعَثَ
مَنْ يَطْلُبُهُ بِدِمَشْقَ ، فَوَجَدَهُ كَمَا وَصَفَ .

وقال له يوماً : أَلَا تُسَلِّمُ فَنَفَرٍ ضَلَّكَ فِي الْفَيْءِ وَنَعْمَتِكَ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ؟
قال : فكيف بالحجر ؟ فقال له عبد الملك : وما تصنع بها ، وإن أولها مُرٌّ وآخرها
مُسْكِرٌ ؟ قال الأخطل : وفيما بين هاتين منزلة مايسرتك لكك بها .

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه وقد أعطى كأس خمر ممزوجة :
إِنَّ الَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا قُتِلْتُ - قُتِلَتْ - فَهَاتِمًا لَمْ تُقْتَلْ^(٣)
كِلْتَاهَا حَكَبَ الْعَصِيرُ فَعَاطَنِي بِرُجَاجَةٍ أَرْخَاها لِلْمُسْفَصَلِ
فدعا بالقتل على الذى أعطاها له ممزوجة .

(١) ديوانه ٤ ، وروايته : « فأطيب بها » .

(٢) ديوانه ٣١١

(٣) ديوانه ٣٧١

وذَكَرَ الْحَرِيرِيُّ فِي الدَّرَةِ^(١) الْبَيْتَيْنِ ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ : « أَرْخَاهَا » الْقِيَاسُ :
أَشَدَّهَا إِرْخَاءً لِلْمَفْصَلِ ، لِأَنَّ أَصْلَ هَذَا الْفِعْلِ أَرْخَى ، فَبِنَاؤُهُ أَيْسَ مَقْدِسًا كَمَا قَالُوا :
« مَا أَحْوَجُهُ إِلَى كَذَا فَبِنَاؤُهُ مِنْ حَوْجٍ ، وَإِنْ كَانَ قِيَاسُهُ : مَا أَشَدَّ حَاجَتَهُ .

وَلِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ حِكَايَةٌ يَحْسُنُ أَنْ نَعْقِبَهُمَا بِرَوَايَتِهَا ، وَنَضُوعِ نَشْرُهَا بِنَشْرِ
مُخْلِجِهَا ، وَهِيَ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْأَنْبَارِيُّ عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا
الْحَسَنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّبَعِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ السَّمَاكِ السَّعْدِيُّ
قَالَ : حَدَّثَنَا أَحَدُ بْنُ ظَبْيَانَ الْحَازِزُ ، قَالَ : اجْتَمَعَ قَوْمٌ عَلَى شَرَابٍ لَهِمْ ، فَغَنَاهُمْ
مُغْنِيهِمْ يَشْعُرُ حَسَانَ : « إِنْ التَّتِي » الْبَيْتَيْنِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : اسْرَأَتِي طَالِقُ إِنْ
لَمْ أَسْأَلِ اللَّيْلَةَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْقَاضِيَّ عَنْ عِلَّةِ هَذَا الشَّعْرِ ، لَمْ قَالَ : « إِنْ
التَّتِي » ، فَوَحَّدَ ، ثُمَّ قَالَ : كِلْتَاهُمَا ، فَتَتَّى ؟ فَأَشْفَقُوا عَلَى صَاحِبِهِمْ وَتَرَكَوْا
مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَمَضَوْا يَتَخَطَّوْنَ الْقَهَائِلَ ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى بَنِي شُقْرَةَ وَعُبَيْدُ اللَّهِ
ابْنُ الْحَسَنِ يَصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالُوا : قَدْ جِئْنَاكَ فِي أَمْرٍ قَدْ دَعَيْتَنَا إِلَيْهِ
ضَرُورَةً ، وَشَرَحُوا لَهُ خَبْرَهُمْ ، وَسَأَلُوهُ الْجَوَابَ ، فَقَالَ :

• إِنْ التَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا •

هَتَفَتْ بِهَا الْمَرْزُوجَةُ بِالْمَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : مِنْ بَعْدِ : كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ ، يَرِيدُ الْخَمْرَ
الْمَحْتَلِبَةَ مِنَ الْعَنْبِ ، وَالْمَاءَ الْمُتَحَلِّبَ مِنَ السَّعَابِ ، الْمُسَكَّنِي عَنْهَا بِالْمُعْصِرَاتِ فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) ، قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْأَجَلُّ الْأَوْحَدُ
الْعَالِمُ أَبُو مُحَمَّدٍ أَدَامَ اللَّهُ سَعَادَتَهُ : فَهَذَا مَا فُسِّرَ بِهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ .

وَقَدْ بَقِيَ فِي الشَّعْرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى كَشْفِ سِرِّهِ ، وَتَبْيَإْنِ نُسْكَتِهِ ، أَمَا قَوْلُهُ :

إِنْ التَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا قُتِلْتُ قُتِلْتُ . . .

فَإِنَّهُ خَاطَبَ بِهِ السَّاقِيَّ الَّذِي كَانَ نَاوَلَهُ كَأْسًا مَمْزُوجَةً ، لِأَنَّهُ يُقَالُ : قُتِلْتُ الْخَمْرَ
إِذَا مَزَجْتُهَا ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ فُطِنَ لِمَا قَدْ فَعَلَ ثُمَّ مَا اقْتَنَعَ مِنْهُ بِذَلِكَ

حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزج . وقد أحسن كل الإحسان في تجنيس اللفظ ،
ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطي منه ما لم تقتل - بمعنى العرف - لثقي لم تمزج .

وقوله : أرخاها للفصل ، بمعنى اللسان ، وُسِّمِيَ مِفْضَلًا بكسر الميم ، لأنه به
يفصل بين الحق والباطل ، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الإسماع
وخفض الجناح ، ما يقذف في نزاهته أو بغض من نُبِلَ وبراعته .

وبضارع هذه الحكاية في وطأة انقضاء المتقشفين المستفتين وتلايئهم في
مواطن اللين ، ما يحكي أن حامد بن العباس ، سأل علي بن عيسى في ديوان
الوزارة عن داء الخمار ، وعن دوائه ، فأعرض من كلامه ، وقال : ما أنا وهذا
للسألة انخجل حامد منه ، ثم التفت إلى قاضي القضاة أبي عمرو ، فسأله عن ذلك
فتنحنت القاضي لإصلاح صوته ، ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ
فخذوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتهوا ﴾ ^(١) ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام :
« استمعينوا على الصناعات بأهلها » . والأعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه
الصناعة ، قال :

وكلسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ وأخرى تَدَوَيْتُ مِنْهَا بِهَا ^(٢)
لكي يعلم الناسُ أنني امرؤُ أتيت المروءة من لهايها

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام ، فقال :

دعْ هناك لومي فإنَّ اليومَ إغراءٌ وداوِني بالتي كانت هي الداء ^(٣)

فأسفر حينئذ وجه حامد ، وقال لعلي بن عيسى : ما ضرك يا بارد أن تهجِبَ

(١) سورة المائدة ٤١

(٢) دايونه ١٧٣

(٣) ديوانه ٢٣٤

بعض ما أجاب به قاضي القضاة ؛ وقد استظهر في جواب المسألة بقوله سبحانه
 أولاً ، ثم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام ثانياً ، وبين الفتيا وأدى المعنى ،
 ونفقتي من العهدة . فكان خجل علي بن عيسى من حامد بهذا الكلام
 أكثر من خجل حامد منه ، لبدأ ابتداء بالمسألة وتبع حسان مسلم بن الوليد ،
 فقال وأحسن :

إذا شئنا أن نسقي مدامةً فلا نقتلها كل ميتٍ محرّم^(١)
 خلطاً دماً من كرمه بدمائنا فأظهر في الألوان منا الدم الدم
 وقال أبو نواس في العُرف :

وكُميت أرقها وهجُ الشمس وصيفٌ يفتي بها وشتاءُ
 لم يشنها الطامى بطبخ ولا غيـرها عن طبيعة الكرم ماءً
 وقال فيه أيضاً :

نوارت من الأبصار من عهد آدم حذاراً لكون الماء يوماً قرينها^(٢)
 فصننها عن الماء الفراح وأسقى فإلك إن لم تسقي متدونها
 على أنه القائل :

ألا دارها بالماء حتى تليتها فلن نكرم المصعباء حتى نهينها
 وقال أبو نواس لإخوانه في مرض موته : إياكم والخمر صرّفاً فإنها أعرفت
 كبدي ، قال ابن رشيقي :

قدّر المدامة فوق قدّر الماء فارغب بكأسك عن ميوى الألفاء^(٣)

(١) ديوانه ١٧٩ .

(٢) ديوانه ٣٤٩ .

(٣) التفت .

مالي ومَزَجَ الرّاحَ إلّا في في بالرّيق من فم غادة حساه
ذاك المزاج وإن تعدّاني الذي في لُزْن من ذى رِقَّةً وصفاه
أشهى وأبلغ في الفؤاد مَسَرَّةً من غيره وأدب في الأعضاء
لي العُرفُ إن مَزَجَ القديم ولم أكنُ مستأثراً فيها عن التَّدَمُّاءِ

وقال أيضاً :

قلت لمن ناوأي مُرَقِّ ما بَيَّ حَبَّ الفَيْد بل حُبِّها^(١)
لا تسقى راحكَ ممزوجة واشرب فما يمكنى شربها
ما راحتي في الرّاح إن غُبِرَتْ دعها كما جاء بها رَبُّها

ونصل بهذا النقط ، ما قيل في نبيذ الزبيب ، قال أبو الأسود الدؤلي :

دع الخمر بشربها الفسوة فإنتى رأيتُ أخاها مغنياً بمسكاتها
فإن لا يكفها أو تكفه فإنه أخوها غَذَتْهُ أمُّه بلبانها

يقول : إن لا يكن الزبيب الخمر أو الخمر الزبيب ، فإنهما أخوان غديا باين واحد
وهي الحبّة التي هي أصل العنب والزبيب ؛ فأحدهما ينوب مناب الآخر ،
وأنشد الحامضي :

تركتُ الحميا لستُ أخفّار شربها وما حاجتي في أن أمرّ الأعادبا
ولكنّ آخرى من نبيذٍ معقٍ بمَنِّيك إن أكَثرت منه الأمانيا
أخو الخمر من عنقودها غير أنهم إذا قطعوها جَفَّقُوهُ لياليا

قال المأمون : نقلت هذا المعنى بأبيات ملوكية لا تحضر السوق بمثلها :

صَلَّى النَّدَمَانِ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ بَكَأَسٍ مِنْ مُعْتَقَةِ الدُّنَانِ
 بَكَأَسٍ خَمْرٍ وَإِنِّي عَتِيقٌ فَإِنَّ الْعَبْدَ عُبَيْدٌ خَمْرَوَانِي
 وَجَنَّبَنِي الزَّيْبِيْنَ طَرَا فَشَأْنُ ذَوِي الزَّيْبِ خِلَافُ شَانِي
 فَأَثَرُهَا وَأَزْعَمُهَا حَرَامًا وَأَرْجُو عَفْوَ رَبِّ ذِي اسْتِقْنَانِ
 وَيُسْرِهَا وَيَزْعُمُهَا حَلَالًا وَتِلْكَ عَلَى الشَّقِيقِ حَسَارَتَانِ

سأل رجل شريحاً القاضي : هل النبيذ حلال أم حرام؟ فقال : حلال، فقال :
 قليله خير أم كثيره؟ قال : قليله ، قال الرجل : مارأيت حلالاً وقليله خير من
 كثيره إلا هذا .

وقال قتيبة بن مسلم لقاضي مرو : بلغني أنك شربت النبيذ ، قال : نعم
 أصلحك الله ! أشربُ منه ما يسلي العقل ويطيب النفس ، ويُغني عن الماء، ويهضم
 الطعام ، قال : فما بقيت؟ قال : أبقيت أخبثه وأردأه ، الاتكاء على الشمال ،
 ومنادمة الرجال ، والاختلاف إلى المبال .

وترك رجل النبيذ ف قيل له : لِمَ تركته وهو رسول السرور إلى القلب؟ فقال :
 ولكنه بنس الرسول ! يُبْعَثُ إلى الجوف فيذهب إلى الرأس .

• • •

قوله لَهْزَم : هو سِنَان الرُّمَح . بنت الكرم : الخمر ، ونجهمزها :
 حملها . والطاس : إناء الخمر كالإبريق يصب منه الشراب في الكأس ،
 وجمعه طاسات ، قال النائي :

وَكَأَنَّمَا الطَّاسَاتُ تَمَّا حَوَّلَهَا مِنْ نُورِهَا يَسْبَحْنَ فِي ضَعْفَاحِ
 لَوُبَّتْ فِي غَدَقِ الظَّلَامِ ضِيَاؤُهَا طَلَعَ الْمَسَاءُ بَقُرَّةَ الْإِصْبَاحِ

[مما قيل في ذم الفناء ومدحه]

وقدّم في المقامة أنه لا يجهزها إلا مصحوبة بالقينة، أي لا يشربها إلا بالفناء .

وقد ذموا الفناء ومدحوه ، فأما ذمه ، فقال السكندى : الفناء برسام حادّ ، لأن المرء يسمع فيطرب ، فيسمح فيفتقر ، فيغمّ فيمرض فيموت .

وقال يزيد بن الوليد : إياكم والفناء فإنه يسقط المروءة ، وينقص الحياء ، ويبدى العورة ، ويزيد في الشهوة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويصنع بالعقل ما يصنع به السكر وإن كان ولا بد فجنّبوه النساء ، فإن الفناء داعية الزنا .

وأما مدحه فقال ربيعة بن عبد الرحمن : السماع مطربة ، وهو من نتيجة العقل ، فمن كره السماع ، دلّ بذلك على قلة عقله .

وقال بعض الفلاسفة ، جعلت الذات خمسا في خمس ، فجعل اللمس لليدين ، والشمّ للمنخرين ، والسمع للأذنين ، والذوق للسان ، واللون للعينين ، وعلى كلّ جارحة تعب من الذات إلا النّعمة ، فإنه لا تعب على الأذنين فيها ، ولذلك صار النّاس كلّهم عربّهم وعجميّهم ، صغيرهم وكبيرهم مشتركين في الإصاخة إلى النّعمة الحسنة ، والصوت المستمتع ، مقباينين في غير ذلك . وقد يوجد أكثرها في أكثر الحيوان كالخيل يصفر لها عند الشرب ، فتشرب والإبل يحدّى لها فتفقد ، قال الشاعر :

فليس الشّراب إلّا بالملاهي وبالحرّكاتِ في نهم وزير
فلا تشرب بلا طربِ فإنّي رأيت الخيل تشرب بالصّفير
وقال آخر :

فانظر إلى الإبل التي هي - وبك - أغلظ منك طبعاً

تُصْنِي إِلَى صَوْتِ الْحَدَاةِ فَتَقْطَعُ الْفَلَوَاتِ قَطْعًا

قوله : التفاضى أى التفاؤل . حرّيد : سبيء الأخلاق عند سُكْرِهِ ، وهو الذى يؤذى بيده ولسانه أصحابه . رَعْدِيد : جَبَان فزّاع . بَوْن : فضل ومزينة من ذى علق ، أى من صاحب محبة ؛ هو مثل يضرب لمن ينظر بودّ ومحبة ابن طريف : العلق : الحب ، وعلق فلان فلانة ، أى أحبّها . والله الوفاق .

المقامة السادسة والثلاثون المملطية

أخبر الحارث بن همام قال : أَنَحْتُ بِمَلَطِيَّةٍ مَطِيَّةَ الْبَيْنِ ،
وَحَقِيقَتِي مَلَأَى مِنَ الْتَيْنِ ؛ جَعَلْتُ هَجِيرَايَ ، مُذْ أَلْقَيْتُ بِهَا عَصَايَ ؛
أَنْ أَتَوَرَدَ مَوَارِدَ الْمَرْحِ ، وَأَتَصَيَّدَ شَوَارِدَ الْمِلْحِ ؛ فَلَمْ يَفْتِنِي بِهَا
مَنْظَرٌ وَلَا مَسْتَمِعٌ ؛ وَلَا خَلَا مِنِّي مَلْعَبٌ وَلَا مَرْتَعٌ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ
يَبْقَ لِي فِيهَا مَأْرَبٌ ، وَلَا فِي الثَّوَاءِ بِهَا مَرْغَبٌ ، عَمَدْتُ لِإِنْفَاقِ
الذَّهَبِ فِي ابْتِياعِ الْأَهَبِ . فَلَمَّا أَكْمَلْتُ الْأَعْدَادَ ، وَتَهَيَّأَ الظُّعْنُ
فِيهَا أَوْكَادٌ ، وَجَدْتُ بِهَا تِسْعَةَ رَهْطٍ قَدْ سَبَّحُوا قَهْوَةً ، وَارْتَبَّحُوا
رَبْوَةً ، وَدَمَّائَتْهُمْ قَيْدُ الْأَلْحَاطِ ، وَفُكَّاهَتْهُمْ خُلُوءُ الْأَلْفَافِ ،
فَنَحَوْتَهُمْ طَلَبًا لِمُنَادَمَتِهِمْ لَا لِمُدَامَتِهِمْ ، وَشَفَقًا بِمَازَجَتِهِمْ
لَا بِزُجَاجَتِهِمْ .

• • •

أَنَحْتُ الْمَطِيَّةَ : صَيَّرْتُهَا بَارَكَةً بِالْأَرْضِ .

[ذَكَرَ مَلَطِيَّةَ]

مَلَطِيَّةٌ : بَلَدٌ بِالْجَزِيرَةِ ذَاتِ أَنْظَارٍ وَقُرَى ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرِّقَّةِ خَمْسُونَ
فَرْسَخًا ، وَالرِّقَّةُ : أُمُّ قُرَى الْجَزِيرَةِ ، وَذَكَرَهَا الْمَسْعُودِيُّ فِي شَعْرِهِ فَقَالَ :

وَلَمْ يَحْلُبُوهَا مِنْ وَرَاءِ مَلَطِيَّةٍ نَصَدَّعَ أَجْبَالُهَا وَأَكَامُ

(١) ضَبَطَهَا يَاقُوتٌ : « بَفَتَحَ أَوَّلَهُ وَثَانِيَهُ وَتَخْفِيفَ الْيَاءِ » قَالَ : وَالْعَامَّةُ تَقُولُ بِتَشْدِيدِ
الْيَاءِ وَكَسْرِ الطَّاءِ .

(١٣ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

وقيل : مَلَطِيَّةٌ في ثغر الشام .

قال اليمقوي : مَلَطِيَّةٌ هي المدينة العظمى ، وكانت قديمة فأخربها الروم ،
خبناها المنصور سنة تسع وثلاثين ومائة ، وجعل عليها سوراً واحداً ، ونقل إليها
عدة قبائل من العرب ، قال : وهي في مستوٍ من الأرض يحيط بها جبال الروم ،
وماؤها من عيون وأودية من الفرات ، وخففها المتنبى ضرورةً فقال :
وكرت فدرت في دماء مَلَطِيَّةٍ مَلَطِيَّةُ أُمِّ لَبْنين تَكُولُ^(١)

قوله : مَطِيَّةُ البين ، يريد ناقة السفر ، أى أقام بها وترك السفر . الحقيبة :
وعاء الرحل . والتمين : الذهب . هَجِيرَانِي : عَادَتِي . وألقى بها عصاه ، أى أقام
بها وترك السفر . أنورد : أطلب وأدخل ، وتوردت الإبل الماء : دخلته قطعة
قطعة . والمرح : النشاط . شوارد : نوافر ، وأراد أنه أتبع نفسه جميع المذات
بملطية وشاهدتها . مرتع : موضع خصب كثير الطعام . مأرب : حاجة .
الثواء : الإقامة . عمدت : قصدت . ابقياح الالهَب : اشتراء العُدود للسفر .
الظمن : الارتحال . الرهط : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة . سَبَّئُوا قهوةً : اشتروا .
ارتبثواربوة : طامعوا كذبةً ، وقال الحسن :

وفتيانٍ صِدْقٍ قد صرفت مطيهم إلى بَيْتِ خَمَارٍ نَزَلْنَا به طُهرًا^(٢)
أَتَيْنَا يهوديا تجمل ظاهراً

وَيُضْمِرُ في المكنون من مِرَّةِ الشَّرَا
فجاء بها زَيْنِيَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ فلم نستطع دون الشُّجود لها صَبْرًا
خَرَجْنَا على أَنَّ المَقَامَ ثَلَاثَةٌ فطابت لنا حق أقنا بها شهرًا

(١) ديوانه ٣ : ١٠٢ .

(٢) ديوانه ٢٧٢ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

وقال في شراء الخمر بثيابه :

نجوت من اللص المغير بسيفه إذا مارماه بالتجار سبيل^(١)
 حوصلت^(٢) خارا على بخمرة فراح بأثوابي^(٣) ورخت أميل

وقال الأمير تميم بن المعز :

شربنا على نوح المطوقة الورق وأردية الروض الملقفة الملق^(٤)
 معتقة أفى الزمان وجودها فجاءت كفوت الأخطأ ورقة المشق
 كأن السحاب الغر أصبحن أكواسا

لنا وكان الراح فيها سنا البرق
 فبقنا نحت الكأس حنا وإننا لنشربها بالحث صرفا ونستسقى
 إلى أن رأيت النجم وهو مغرب

وإقبال^(٥) رايات الصباح من الشرق

كأن سواد الليل والفجر طالع

بقية لطنخ الكحل في الأعين الزرق^(٦)

وأحسن في هذا المعنى ما شاء ، إلا أنه جعل شربنا في الروض على نوح الحمام ،
 ولوهوض من لفظ « النوح » لفظ الغناء أو التعزيد لسكان أتم للذته ، كما
 قال ابن الرومي :

وأذكي نسيم الروض ريمان ظل^(٧) وغى معنى الطير فيه فرجما^(٧)

(١) ديوانه ٣٢٣ (٢) ديوانه : « وسلطت »

(٣) الديوان : « بأسلاحي »

(٤) ديوانه ٢٩٦ وفيه : « الملقوفة » .

(٥) الديوان : « وأقبل »

(٦) الديوان : « بقايا مجال الكحل في الأعين الزرق » .

(٧) نقله البارودي في مختاراته ٤ : ٧٥ .

وكانت أهازيج الذباب هنا كمُ على شدوات الطير صوتاً موقماً
وقال آخر :

وكأسٍ كربق الإلف شَغَشَمَهَا به

وعيشي من هذا الشراب المُشَغَم
إذا ما شربنا كأسها صبّ فضلها على رَوْضِنَا للمُسمِع المُتَخَلِّع
المسمِع : المُنْعَى ، بمعنى به الذباب الذي ذكره عنتره في قوله :

فدري الذباب بها يُنْعَى وحده هَزِجًا كفعل الشارب للترنم^(١)

ولأنما ذكر الحريزي الربوة ، لأنّ الثبات فيها أحسن وأسلم من نبات
الانخفاض ، لأنّ نبات الانخفاض وَخِم ، قال الله تعالى : ﴿ كَثَلْ جَنَّةٍ
بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلهَا ضَعْفَيْنِ ﴾^(٢) . وقال المتنبي^(٣) :

• نحنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنت الغمام •

قوله : دمائهم قَيْدُ الأُلْحَاطِ ، أي سهولة أخلاقهم تنقيد عيون الناظرين إليهم ؛
حتى لا ينظروا إلى غيرهم ، قال ابن المعتز :

مَنْظَرُهُ قَيْدُ عُيُونِ الْوَرَى فليس خَلَقَ يَتَلَقَاهُ

نحوتهم : قصدتهم . شفا : حُبًّا .

* * *

(١) من المعلقة ص ١٨١ - بقرح القبريزي ، ورواية البيت هناك .

وَحَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرِدِ كَفِعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ

(٢) سورة البقرة ٢٦٥ (٣) ديوانه ٣ : ٣٤٣ ، صدره :

أَيْنَ أَرْمَعْتَ أَيُّهَذَا الْمَهَامُ

(٤) ديوانه

فَلَمَّا انْتَضَمَتْ عَاشِرُهُمْ ، وَأَضْحَيْتُ مَعَاشِرَهُمْ ، أَلْفَيْتُهُمْ أَبْنَاءَ
عَلَاتٍ ، وَقَذَائِفَ فَلَوَاتٍ ؛ إِلَّا أَنَّ لُحْمَةَ الْأَدَبِ ، قَدْ أَلَفَتْ شَتْلَهُمْ
أَلْفَةَ النَّسَبِ ؛ وَسَاوَتْ بَيْنَهُمْ فِي الرُّتَبِ ؛ حَتَّى لَا حُوا مِثْلَ كَوَاكِبِ
الْجُوزَاءِ ، وَبَدَّوْا كَالْجَلَّةِ الْمُنَاسِبَةِ الْأَجْزَاءِ ، فَأَبْهَجَنِي الْاهْتِدَاءُ إِلَيْهِمْ ،
وَأَتَمَدَّتْ الطَّالِعُ الَّذِي أَظْلَمَنِي عَلَيْهِمْ ، وَطَفِقْتُ أُفِيضُ بِقِدْحِي مَعَ
قِدَاحِهِمْ ، وَأَسْتَشْفِي بِرِيَا حِيهِمْ لِابْرَاحِيهِمْ ، حَتَّى أَذْمُنَا شُجُونَ الْمُنَافِضَةِ ،
إِلَى التَّحَاجِي بِأَلْمَ قَايِضَةٍ ، كَقَوْلِكَ إِذَا عَنَيْتَ بِهِ الْكَرَامَاتِ : مَامِثْلُ
الذُّومِ فَاتٍ ؛ فَأَنْشَأْنَا نَجْلُو السَّهَاءَ وَالْقَمَرَ ، وَنَجْنِي الشُّوكَ وَالشَّمْرَ .

• • •

انضطمت : مرت معهم في نظام واحد ، والنظام الجوهر . معاشرم :
مصحابهم . ألفتهم : وجدتهم . أبناء علاتٍ ، أى غرباء من بلاد مختلفة ،
وبنو العلات : الذين أبوم واحد وأمهاتهم شتى . قذائف فلوات ، أى قد رمت
بهم القنار ، والطرق المختلفة واحدها قذيفة ، وهى التى يُقذف أى يرمى بها .
لحمة ، أى قرابة . ألفت شتلهم : أى جمعت متفرقهم ، وجعل للأدب لحمة مجازاً ،
وجعل الأدب يجمعهم كما يجمع بنو العلات الأب ، والبلاد تفرقهم ، كما تفرق
بنو العلات الأمهات .

[مما قيل فى المودة بين الشعراء]

وهذا نحو ما يحكى ^(١) أَنَّ دِعْبِلًا ذُكِرَ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ فَكَفَّرَهُ وَلَعَنَهُ ،
وَقَالَ : كَانَ يَظْهَرُ عَلَى أَبِي تَمَامٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، دِينًا وَشِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ
مَنْ حَضَرَ : لَوْ أَنَّ أَبَا تَمَامٍ أَخُوكَ مَارَدَتْ عَلَى مَدْحِكَ لَهُ ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ يَكُنْ

(١) الخبر فى أخبار أبي تمام لمصولى ٦١ ، ٦٢ .

أخى في النسب ، فهو أخى في المودة والأدب ، أما سمعت ماخطبني به «
وأشد لأبي تمام :

إن كان يجمعنا الإخاء فإننا تفدو وتسرى في إخاء تاليد^(١)
أو يفترق نسب يولف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
وكرر أبو تمام هذا المعنى ، فأحسن بقوله :

ذو الود هي وذو القربى بمنزلة وإخوتي أسوة عندي وخلائي^(٢)
عصابة جاورت آدابهم أدبي فهم وإن فرقوا في الأرض جيران^(٣)
أرواحنا في مكان واحد وغدت أجسامنا في عرق أو خرسان
وأشد إسحاق اللوصلي :

يقولون لي هل من أخ أو قرابة قلت لهم إن الشكول أقارب
تسبي في رأبي وعزى ومذهبي وإن باعدتنا في الولاء للناسب
وليس أخى إلا الصحيح وداؤه ومن هو في وصلي وقرني راغب
وكان لسليمان بن وهب نديم يأنس به ، فمر بدّ عليه ليلة فاطرحه وجفاه
فوقف له بالطريق ، فلما مرّ به وثب إليه ، ثم قال : أيها الوزير ، لانتكُن في
أمرى إلا كما قال علي بن الجهم :

القوم أخذانُ صديق بينهم نسب من المودة لم يعدل به نسب^(٤)
تراضعوا دزة الصمباء بينهم فأوجبوا الرضيع الكأس مايجب
لا يحفظون على السكران زلته ولا يربك من أخلاقهم ريب
فقال : قد رضيت عنك رضا صحيحا ، فعدّ لشأنك .

(١) ديوانه ٨٦ ، وبعده :

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحذر من غمام واحد

(٢) وفيه : « وإخواني » . (٣) الديوان : « بشام أو خرسان » ،

(٤) ديوانه ١٠٥ ، ١٠٦ ، الأمانى ١٠ : ٢٤٣

قوله الرنب : أى المنازل الرفيعة . مثل كواكب الجوزاء ، أى فى الإضاءة والرفعة . والجملة المتناسبة الأجزاء ، أى المتفقة ، يعنى مقاديرهم فى الفضل وغيره . متساوية لانفاضل بينهم ، كالجملة التى لاهمية لبعضها على بعض ، وأقل جملة حسابية أجزاؤها متناسبة لا كسر فى بعضها ولها النصف والثالث والرابع والخمس والسادس والسبع والثمن والتسع والعشر هى ألفان وخمسمائة وعشرون ، نصفها ألف ومائتان وستون وثلاثمائة وأربعون ، ورربها ستمائة وثلاثون ، وخمسها خمسمائة وأربعة ، وسدسها أربعمائة وعشرون وسبعها ثلثمائة وستون ، وثمانها ثلثمائة وخمسة عشر ، وتسعها مائتان وثمانون وعشرها مائتان واثنان وخمسون .

قوله : أبهجنى ، أى أفرحنى أخذت : وجدته عمودا . الطالع : النجم الذى يسعد به صاحبه وينجح على زعمهم . طفت : أخذت . أفيض يقذحى : أضرب بسهمى ، وهذا من فعل الميسر : وأراد أنه يمشى كلامه مع كلامهم ويدخل مداخلهم . أدتنا : أوصلتنا . شجون المفاضة . طرق المراجعة فى الكلام ، والشجون فى الكلام ، تداخله ، واختلاط بعضه ببعض ، والتفاوض : الاندفاع فى الحديث ، وفى المثل : الحديث ذو شجون ، أى ذو فنون وأصله من الشجر المشجون ، وهو الشجر الذى التف بعضه ببعض . التحاجى : التفاوض . المفاضة : المفاضة والمقارضة . الكرى : النوم . فات ، بمعنى مات ، وأراد أن هذا النوع من الألفاظ هو أن يؤتى بلفظ عوضا من لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد ، والمائلة التى بينهما إنما هى موافقة المعنى . نجلو : نكشف . السها : نجم خفى ، وقرن السها فى خفائه مع القمر فى ظهوره ، وإنما يشير إلى قولهم فى المثل : أريها السها وترينى القمر ، وأواد أهما بأنون باقظة ظاهرة المعنى ، وأخرى خفية ، فلا يتم لهم شئ .

وِينَا نَحْنُ نَنْشُرُ الْقَشِيبَ وَالرِّثَّ ، وَنَنْشُلُ السَّمِينَ وَالْعَثَّ ،
وَعَلَّ عَلَيْنَا شَيْخٌ فَذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ ، وَبَقِيَ خُبْرُهُ وَسَبْرُهُ ؛ فَنَلَّ
مُثُولَ مَنْ يَسْمَعُ وَيَنْظُرُ ، وَيَلْتَقِطُ مَا تَنْثُرُ ، إِلَى أَنْ نُفِضَتْ
الْأَكْيَاسُ ، وَخَصَصَ الْيَاسُ .

فَلَمَّا رَأَى إِجْبَالَ الْقَرَائِصِ ، وَإِكْدَاءَ الْمَاتِحِ وَالْمَائِحِ ، جَمَعَ
أُذْيَالَهُ ، وَوَلَّانَا قَذَالَهُ ، وَقَالَ : مَا كُلُّ سَوْدَاءٍ تَمْرَةٍ ، وَلَا كُلُّ
صَهْبَاءٍ خَمْرَةٍ ، فَأَعْتَلَقْنَا بِهِ اغْتِلَاقَ الْحِرْبَاءِ بِالْأَغْوَادِ ، وَضَرَبْنَا دُونَ
وِجْهَتِهِ بِالْأَسْدَادِ ، وَقُلْنَا لَهُ : إِنَّ دَاءَ الشَّقِّ أَنْ يُعَاصَ ، وَإِلَّا
فَالْقِصَاصُ الْقِصَاصَ ؛ فَلَا تَطْمَعُ أَنْ تَجْرَحَ وَتَطْرَحَ ، وَتُنْهَرَ الْفَقُّ
وَتُسْرَحَ . فَلَوَى عِنَانَهُ رَاجِعًا ، ثُمَّ جَثَمَ بِمَكَانِهِ رَاصِعًا ، وَقَالَ :
أَمَّا إِذَا اسْتَرْتَمُونِي بِالْبَحْثِ ، فَلَا حُكْمَ حُكْمِ سُلَيْمَانَ فِي الْحَرْتِ .

* * *

القشيب : الثوب الجديد . الرث : الخلق . نشل : نخرج النشيل ، وهو
لحم يطبخ بلا قائل ثم يُنشَل ، أى يُخرج بالمدشَل ، وهو حديدة معقفة . ذهب
حبره وسبزه : هويته ولونه ، قال القراء : من قولهم : جاءت الإبل حسنة الإخبار
والإسبار ، قال الأصمعي رحمه الله : هى الجمال والبهاء وآثار النعمة ، يقال : فلان حسن
الحبر والسبر ، إذا كان جميلاً حسن الهيئة ، وفى الحديث : يخرج من النار رجل
قد ذهب حبره وسبزه ، أى قد ذهب جماله وبهاؤه ، ومعنى الخبر خبراً لأنه يزين
الكتائب ، ويحسن القرطاس ، وخبرت الشيء زينته ، وقيل إنه سُميَ خبراً لأنه
يؤثر فى القرطاس ، فيكون علامة فيما يقع فيه ، ويقال للأثر : حبرة وحبار ،

والسَّيْر: الأصل واللون والهيئة والمنظر، والسَّيْر ما يدلُّ به على لون الدابة وكرمها، ويروي حَبْرهُ وسَيْرُهُ، بكسر أو لمّا وفتح، فإذا كسرا كانا اسمين، وإذا فتحا كانا مصدرين، وحَبْرهُ علمه، وسَيْرهُ قياسه. مثل: تمثّل قائماً. الأكياس: أوعية الدرام، ونفضت: ألقي ما فيها، وأراد فراغ كلامهم. وحَصَص: تبيّن، اليأس: ضد الرجاء. إجبال القرائح: انقطاعها عن الكلام. إكداء: صعوبة، وأصل هذا في البئر، فأول ما يرشّح من ماءها هو القريحة، ثم نقل إلى الطبيعة والذهن، وأجبل الحافر: إذا حال بينه وبين الماء جبل، وأكدى: حال بينه وبينه كُدَيّة، والجبل والسكديّة حجارة وصلابة تفرّض في البئر، لا يمكن حفرها معها، ثم يقال: أكدى أى قلّ خَبْرُهُ وأجبل الشاعر، أى انقطع شعره. وأكدى فلان عطائى، أى قطعه وقال خيره، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾^(١). والماتح: المستسقى على فم البئر. والماتح: النازل إلى قعرها ليملاً الدلاء ويفرّق بينهما بنقطتي الحرف الذى قبل آخرهما، فتى كانتا فوق الحرف، فالمستسقى فوق البئر لكثرة الماء، ومتى كانتا تحته فالمستسقى في قعر البئر ليملاً الدلو بيده، وذلك لقلة الماء، وإذا تكاثرت الدلاء عليه، وكثُر صياح الناس عليه من رأس البئر، وكل يرغب ليملاً دلوه، فيأخذ دلو من لأمال له فيضرب به رجا البئر، أى جانبه ليتدع الناس عنه، ثم يضرب مثلاً للمهان، قال الشاعر:

فلا يُرَمَى بى الرَّجَوَانِ إِنّى أَقلُّ القومِ مَنْ يُغْنِي مَكَانِي^(٢)

وقالت جارية من العرب تستعطفه:

بأيّها المأمع دلوى دُونَكَا إِنّى رأيتُ الناسَ يَحْمَدُونَكَ^(٣)

(١) سورة النجم ٣٤.

(٢) اللسان - مبيح.

(٣) اللسان - رجا

ومن أمثالهم : أبصر من المائع ياست- للمائع .
وأنشد الفنجدية :

يا مائع العين عُدِمَتْ الرَّدَى

من حوض هذى العين كم تَسْتَقِي
من شيمة الماء انحدار فم ماء جفوني أبدا برنقى
قوله : جمع أذياه : شمر ثيابه للقيام . قذاله : قفاه .

ما كل سوداء تمرة ، مثل . والسوداء تستعمل للتمر والقمح فيقول :
ما كل الكلام سهل فتعاطونه وما كل ما جئتم به بفائق فيدخل في باب المقايضة ،
وهو مثل يضرب في موضع التهمة .

والصهباء : من أسماء الحجر ، والصبية أن تعلق الحرة شجرة وأصوله سود .

[الحرباء وما ورد فيها من الشعر]

الحرباء : دويبة تستقبل الشمس بوجهها إذا استوت في كبد السماء ،
وإن لم يأت لها الفرصة بوجهها تملكت وتقلبت ، ولم تزل في قلق حتى تميل
الشمس ، فستقبلها - أعنى قُرَصَها - بوجهها حتى تغرب وهي في طول يومها ،
لأننا كل شيئا ، فإذا جاء الليل ذهب تبغى ماتا كل ، والأنثى منها حرباء .

وقال أبو عبيدة : الحرباء تستقبل الشمس برأسها أبدا ، يقال : إنما تفعل
ذلك لتلقى جسدها برأسها ، وقيل : الحرباء ذكر أم حُبِين ، وفي صدره استرخاء
وقرب من الأرض ، فإذا حيت الأرض بالشمس خاف على صدره أن تحرقه
الأرض لازوقه بها ، فيصعد على عود شجرة ، فليتزمه بهديه ، ويجعله بينه وبين
الشمس ، ويضرب به المثل في التشبث بما تعلق به ، وذلك أنه إذا تعلق بعود
التزمه ، وقبض عليه فلا يفارقه ، حتى يستوثق من آخر ، فيضرب المثل به ،
فيقال : أحزم من الحرباء . وقال قيس بن الحداية :

بانت سعادُ فأَمسى القلبُ مشتاقاً وأفلقتها نوى الإزماح إقلاقاً^(١)
 واحتثَّ حاموهمُ بزلاً مخبئةً كُوم الذرا مدد الأعضاء أفيافاً
 أنى أنيح لها حرباء تنضبُ لا يرسل الساق إلا نمسكا ساقاً

والساق : ساق الشجرة ، والتنضب : شجر يتعلق بأعواده الحرباء ،
 فيقال حرباء تنضبه ، كما يقال : ذئب غصى . وقال الأزهرى رحمه الله تعالى :
 الحرباء دوتية على خِلقة سام أبرص ، ذات أربع قوائم دقيقة الرأس مخططة
 الظهر ، وأكثر الشعراء من ذكر الحرباء وتشبيهها ، ومن جيد ذلك قول
 ذى الرمة :

ودوية جرداء جبداء خيمت

بها هفوات الصيف من كل جانب^(٢)
 كأن يدي حربائها مقشما يدا مذنب يستغفر الله تائب
 وقال آخر :

وقد جعل الحرباء يصفراً لونه ويخضر من لفح المجير غباغبه^(٣)
 وبشبح بالكفين حتى كأنه أخو نجوة عالى به الجذع صالبه^(٤)
 وقال أيضاً :

يظل بها الحرباء للشمس مائلاً على الجذل إلا أنه لا يكبر^(٥)
 إذا حول الظل المشى رأيتُه حنيفاً وفي قرن الضحى ينتصر

(١) البيت الثالث ، من أبيات ثلاثة في ديوان أبي دواد الإيادى ٣٢٦ .

(٢) ديوانه ٧٨ .

(٣) ديوانه ٤٧ ، وفي ط : « غباغبه » ، وصوابه من الديوان ، والغباغب : الجلد ، واحده غبيب .

(٤) يمشي : يمد كفيه ، كأنه مصلوب .

(٥) ديوانه ٢٢٥ ، وحجاسة ابن الشجرى ٢٢٦ ، وفي ط : « الجذع » ، وما أنبت .

من الديوان .

غدا أكتب الأعلى وراح كأنه

من الضحّ واستقبله الشمس أخضر^(١)

أخبر أنه يدور مع الشمس في وقت الزوال ، حتى تكون الشمس في
هذاء القبلة ، فكانت باستقباله لها في ذلك الوقت مُسَلِّمٌ يصلّي لها ، وفي الضحى
تكون في وجه المشرق ، فكانت نصرانيّ فيستقبلها بصلاته .

قال ابن الرومي :

ما بالها قد حسّنت ورقبها أبداً قبيح قبـح الرّقباء

ماذا لك إلّا أنّها شمس الضحى أبداً يكون رقيبها الحرباء

قوله : وجهته ، أى جبهته . والسّد : الحاجز بين الشيئين . يحاص : يحاط ،
ويقال : حاص ثوبه وعين صفرة وشقوق رجله حوصاً وحياسة : خاطها ،
وقيل : الخوص : الخياطة بعد رقمة ، ولا يكون إلا في جلد ، وأنشد يعقوب :

ترى برجله شقوقاً في كلّغ من بارى حيص ودام مُنسلع^(٢)

الكلّغ : الوسخ ، ومنسلع : متشقق . القصاص : أخذ الحق في الجنايات .

وتنهر : توسّع فترده كالنهر . الفتق : الخرق . وتسرّح : تذهب . لوى
حنانه : أماله وعطفه . جثم : برك . راصما : لاصقاً بالأرض والرّصع : تباعد
ما بين الركبتين ، ورصع بالشئ يرصع رُصوعاً إذا لازمه . استترتموني :
حلّبتهموني واستغرجتم ماعندي . والبحث : المناقشة في السؤال ، وأصله الصيد
تقول : استترت الصيد ؛ إذا بحثت عليه حتى تقيمه من مرّقه .

[قصة سليمان في الحرث]

قوله : حكم سليمان في الحرث . كان سليمان عليه السلام ، فيما ذكروا

(١) أكتب : أغبر إلى السواد . والضح : الشمس ، وقبل الضح : ما طلعت عليه الشمس

(٢) اللسان - كلم ، ونسبه وآخر إلى حكيم بن معية الرّبي .

أبيض ، وضيئاً ، جسيماً كثير الشعر ، يلبس من الثياب البياض . فلما بلغ مبلغ الرجال ، كان أبوه في أيام مُلكه يشاوره في أموره ، وكان هذا الحكم - فيما ذكر عن ابن عباس رضی الله عنهما - أن رجلين دخلاً على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : يا نبي الله ، انفلتت غنم هذا في زرعى ليلاً ، فرثمت في حرثي ، فلم تستبق منه شيئاً ، فقال له داود : اذهب ، فإن الغنم لك ، فلنكسك رقابها بما أكلت من حرثه ، فلما خرجا من عنده خطرا على سليمان عليه السلام ، فأخبراه بقضاء أبيه ، فقال : لو وُلِّيتُ أمركما لفضيت بغير هذا . فأخبر داود عليه السلام ، فدعاه وقال له : كيف كنت تقضى بينهما ؟ فقال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فيسكون له رسلها ونسلها وصوفها ، ويبذر صاحبها لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الزرع كهيئته يوم أكل ، أخذ غنمه . فقال داود : القضاء ما قضيت به ، وحكم بقضاء سليمان عليهما السلام .

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل : أراد بالحرث الكرم ، وأن الغنم أكلت قضبانته ، فأفسدته ، فحكم بها داود لصاحب الكرم ، ولم يكن بين الغنم والكرم تفاوت ، فرثوا بسليمان عليه السلام ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال : يعمل الراعى في إصلاح الكرم حتى يعود كهيئته ، ثم يأخذ غنمه .

ومن عجائب حكم سليمان عليه السلام ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : بينا امرأتان معهما ابناهما ، إذ جاء القذوب ، فذهب بأحدهما ، فقالت : هذه إنا ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنا ذهب بابنك ، فاختصما إلى داود عليه السلام ، فقضى به للكبرى فرثا على سليمان ، فأخبرناه ، فقال عليه السلام : « اثنيان يسكنين أشقاه بينكما ، فقالت الصغرى :

لا ويرحمك الله ، هو ابنها ، قضى به للصفري » . قال أبو هريرة رضى الله عنه :
والله إن كنت سمعت بالسكين قبل ذلك ، ما كنت أقول إلا المدنية .

قوله : الشماثل : الخلائق والطباع . والشمول الذهبية : الخبز الحراء .

* * *

[من وصف الشعراء للخمر]

وذكر في هذه المقامة أنهم سبثوا قهوة ، وذكر هاهنا أنها في لونها حمراء ،
والعرب تتمدح بشرب الخمر السبيطة ، وتصفها بالحررة ، كقول الأعشى ، وهو في
أوصافها في الجاهليتين ، كالحسن في الإسلاميين ، وحبّه فيها صدّه عن الإسلام :

وَسَيْئَةٌ مَّا تَعْتَقُ بَابِلُ كَدَمِ الدِّيْبِجِ سَلْبَتُهَا جِرْيَالُهَا^(١)
وقوله :

فَقَمْنَا وَلَمَّا يَصْنَعُ دِيكُنَا إِلَى خَمْرَةٍ عِنْدَ حَدَادِهَا^(٢)
فَقُلْتُ لَهُ : هَذِهِ هَاتِيهَا بِأَدْمَاءٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا^(٣)
فَقَامَ فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً تَسْكُنُنَا بِمَدِّ إِرْعَادِهَا
كُمَيْتٌ تَكْشِفُ عَنْ خُمْرَةٍ إِذَا ضَرَجَتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا^(٤)
فَجَالَ عَلَيْنَا بِإِرْبِقِهِ مَخْضَبُ كَفِّ بِفِرْصَادِهَا^(٥)

(١) ديوانه ٢٧ . والجريال : صبغ أحمر .

(٢) ديوانه ٦٩ ، ٧١ وفيه : « إلى جونة » ، وهى خاية الخمر . والحداد صاحب الخمر ،
يحد الناس عنها لنفاصها .

(٣) الأدماء : ماذقة البياض .

(٤) كميّ : تضرب إلى السواد ، فإذا مزجت ذهب سوادها وصارت حمراء . صرحت :
ذهب زبدتها .

(٥) الفرصاد : التوت ؛ إذا كان أحمر اللون .

خَفَرُحْنًا نَفَعْمَنَا نَشْوَةً تَجُورُ بِنَا بَعْدَ إِقْصَادِهَا^(١)

وقال أبو ذؤيب :

ولا الراح راحُ الشام جاءت سَبِيَّةٌ لها غاية تهدي الكريم عَقَابُهَا^(٢)
عَفَارُهَا كما التُّبَرُ لَيْسَتْ بِخَمْطَةٍ ولا خَلَّةٌ يَكْوِي الشُّرُوبُ شَهَابُهَا^(٣)

وقال الحسن :

وَتَمَارٍ أَمَحْتُ عَلَيْهِ لَيْلًا قَلَانِصَ قَدْ تَعَبِنَ مِنَ السَّفَارِ^(٤)
فَجِجَمَ وَالْكَرَى فِي مُقْلَتَيْهِ كَمَعْمُورٍ شَكَا أَلَمَ الْخُمَارِ
أَبْنَى كَيْفَ يَرْتَلَى حَرَمِي وَثُوبُ اللَّيْلِ مَصْبُوغٌ بِقَارِ
فَقُلْتُ لَهُ تَرَفَّقْ بِي فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبِيحَ مِنْ خَلَلِ الدَّيَّارِ
فَكَانَ جَوَابُهُ أَنْ قَالَ كَلَّا وَمَا صُبِحَ سِوَى صُبْحِ الْعَفَّارِ
وَقَامَ إِلَى الدَّنَانِ فَسَدَّ فَاهَا فَعَادَ اللَّيْلُ مَسْدُولَ الْإِزَارِ

وقال عبد الصمد :

وخيمة نَاظُورٍ تَحْفُ بِرَوْضَةٍ يُحْيِيكَ مِنْهَا وَرْدُهَا وَالْبَنَفْسُجُ
وَأَشْمَطُ أَعْلَى وَسْطِهَا بَدَهْجَةٍ تَرَاهُ بِهَا مِنْ قَرَرٍ يَنْشَبُجُ
دَعْوَتُ فَلْيَ وَهُوَ بِالصَّوْتِ عَارِفٌ وَأَقْبَلَ نَحْوَ الْبَابِ يَزْهُو وَيَهْرَجُ

(١) تجور : تميل . وفي ط : « قصاها » تحريف ، والصواب ما أثبتته من الديوان .
(٢) ديوان المفضلين ٧٢ والقاب : الراية . وفي الديوان : « تهدي الكرام » .
(٣) في الديوان : « جاء النى » ، قال في شرحه : أراد في صفاتها ، وهو ما قطر من اللحم .
والخملة : التي أخذت ريحاً ولم تنرك . وفي ط : « ليست بمحضة » ، تصحيف ، والخلة : الحامضة .
وقوله : يَكْوِي الشُّرُوبُ ، أى لها ومنى شديد مثل النار . والشروب : الندى .

(٤) ديوانه ٢٧٥

قلت له الصباح إن كنت مسرّجاً فقال: قفوا فالخر في الكأس تُسْرَجُ

• • •

اعلموا يا ذوى السَّمَائِلِ الأَدَبِيَّةِ، وَالشُّعُوعِ الذَّهَبِيَّةِ، أُنَّ وَضَعَ
الأُخْبِيَّةِ، لَامْتِحَانِ الأَلْمِيَّةِ، وَاسْتِخْرَاجِ الخَبِيَّةِ الخَفِيَّةِ، وَشَرْطُهَا
أَنْ تَكُونَ ذَاتَ مُمَاثَلَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، وَأَلْفَاظٍ مَعْنَوِيَّةٍ، وَلَطِيفَةٍ أَدَبِيَّةٍ؛
فَتَى نَافَتْ هَذَا النَّمَطَ، ضَاهَتْ السَّقَطُ، وَلَمْ تَدْخُلِ السَّفَطُ؛ وَلَمْ
أَرْكُمُ حَافِظَتُمْ عَلَى هَذِهِ الخُدُودِ، وَلَا مِزْتُمْ بَيْنَ المَقْبُولِ وَالتَّارْدُودِ،
فَقُلْنَا لَهُ: صَدَقْتَ، وَبِالْحَقِّ نَطَقْتَ؛ فَكِلَ لَنَا مِنْ لُبَابِكَ،
وَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ عُبَابِكَ؛ فَقَالَ: أَفْعَلُ لِكُلِّ رَتَابِ المَبْطُلُونَ،
وَيُظَنُّوا بِنِ الظُّنُونِ.

• • •

قوله: «لامتحان الألمية»، أى لاختبار الفطنة. نافَتْ: باعدت. النَّمَطُ:
النوع، يقال: الزم هذا النَّمَطَ، أى هذا المذهب والفن والطريق. ضاهت:
شابهت. السَّقَطُ: ردىء المتاع ومالاً يُعْبَأُ بِهِ. والسَّفَطُ: وعاء لجميع الثياب
الرفيعة، وسفط العلوم: الكتُب، أى لم تكتب ولم تدوّن فى الكتُب. مِزْتُمْ:
فرقتم. لُبَابِكَ: خالص ما عندك. أَفِضْ: صَبَّ. عُبَابِكَ: بحرك، وعَبَّ البحر
عُبَاباً هَاجَ واضطرب: يرتاب: يَشُكُّ.

• • •

ثمَّ قَابِلَ نَاطُورَةَ الْقَوْمِ ، وَقَالَ :

يَا مَنْ سَمَاءَ بِذَكَاءٍ فِي الْفَضْلِ وَارَى الزَّيَادِ
مَاذَا يَمَاطِلُ قَوْلِي : جُوعٌ أَمِيدٌ بَزَادِ
ثمَّ ضَحَكَ إِلَى الثَّانِي وَأَنْشَدَ :

يَا ذَا الَّذِي فَاقَ فَضْلًا وَلَمْ يُدَنْسْهُ شَيْنٌ
مَا مِثْلُ قَوْلِ الْحَاجِي : ظَهَرَ أَصَابَتُهُ عَيْنٌ

ثمَّ لَحَظَ الثَّالِثَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا مَنْ نَتَائِجَ فِكْرِهِ مِثْلَ النُّقُودِ الْجَائِزَةِ
مَا مِثْلُ قَوْلِكَ لِلَّذِي حَاجَيْتَ : صَادَفَ جَائِزَةٍ

ثمَّ أَتْلَعَ إِلَى الرَّابِعِ وَقَالَ :

أَيَا مُسْتَنْبِطَ الْغَامِ — ضٍ مِنْ لُغْزٍ وَإِضْمَارِ
أَلَا اكْشِفْ لِي مَا مِثْلُ : تَنَاوَلَ أَلْفَ دِينَارِ

ثمَّ رَمَى إِلَى الْخَامِسِ بِيَصْرِهِ ، وَقَالَ :

يَا بَيْهَذَا الْأَلْمِيقِ أَخُو الدَّكَاةِ الْمُنْجَلِي
مَا مِثْلُ أَهْمَلِ حِلْيَةٍ بَيْنَ هُدَيْتَ وَوَجَلِ

ناظورة القوم : كبيرهم الذي ينظرون إليه . سما : ارتفع . ذكاء : جودة
الذهن . وارى : مبدى النار ، أى زنده متى ضرب أوزى نارا . فاق : فضل
غيره . النتائج : ما يولده الفكر من الكلام . النقود : الدراهم . أتلع : مهتد
(١٤ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

عنقه ونصبه ، وتلع الرجل بقلع تلما : أخرج رأسه من شيء كان فيه . مسقنبط :
مستخرج . النامض : اتخفى ، وغض غموضا : دق وأحوج إلى النظر ،
والألمى : هو الذكى ، أى صاحب الفطنة .

• • •

ثم التفت لفت السادس وقال :

يا مَنْ تَقْصُرُ عن مدا هُ خطاُ مجاريه وتضعف
ما مثل قولك للذى

أَضْحَى يَحَاجِيكَ : اكْفِ اكْفِ

ثم خَلَج السابع بحاجبه وقال :

يا مَنْ له فِطْنَةٌ تَجَلَّتْ ورُتْبَةٌ فى الذَّكَاءِ جَلَّتْ

بَيْنَ فما زِلْتَ ذا بِيان مامثل قولى : الشَّقِيقُ أَفْلَتْ

ثم اسْتَنْصَت الثَّامِنَ وَأَنشَد :

يا مَنْ حَدائقُ فضله مَطْلُولَةٌ الأزهارِ غَضَّةٌ

ما مِثْلُ قولِكَ لِلْمُحَاجِي ذِي الْحِجْبَى : ما اخْتَارَ فُضَّةً

ثم حُدِج التاسع ببصره ، وقال :

يا مَنْ يشارُ إِلَيْهِ فى القَلْبِ الذِّكْرُ وفى البراعةِ

أَوْضِحْ لَنَا ما مِثْلُ قَوْلِكَ لِلْمُحَاجِي : دُسْ جِماعَه

قال الراوى : فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ، هَزَّ مَنِكَبَيْ ، وقال :

يا مَنْ له النُّكْتُ التى يُشْجِي الخُصُومَ وينكُتُ

أَنْتَ المَبِينُ فَقُلْ لَنَا مامثل قولى : خَالِي اسْكُتْ

الفتِ لفت ، أى قصد قصده بالنظر ، ولفت عنقه إلى ، أى لواها ناظرًا إلى .
 حدهاء : غايته . خليج : غمز ، وقال الراجز .

* قد خلجتُ بحاجِبِ وعينِ *

تجلت : ظهرت . جلّت : عظمت . واستنصت : سكّت . حدائق : بساتين .
 مطبولة : أصحابها الطال . غضة : ناعمة . الحجا : العقل . حدّج : رمى . البراعة :
 الفصاحة ووفور العقل . يشجى : يفصّ ، والفصص : الاختناق . ينكت : يقبلهم
 على رؤوسهم ، وطعنه فذكتّه : ألقاه على رأسه ، وعند القضاء يشجى ، وينكت ،
 أى يسكت على ذلك .

* * *

ثم قال : قد أنهلتكم وأمهلتكم ، وإن شئتم أن أعلكم
 علّلتكم .

قال : فألجأنا لهبُ الغلّ ، إلى استسقاء الغلّ ؛ فقال : لستُ
 كمن يستأثر على نديعه ، ولا ممن سمنه في أديعه . ثم كرّ على
 الأول وقال :

يا مَنْ إذا أشكل المعنى جلّته أفكاره الدقيقة
 إن قال يوماً لك المحاجي : خذ تلك ما مثله حقيقة

ثم فنى جيده إلى الثانى ، وقال :

يا مَنْ بدا يانه عن فضله مبدأ
 ماذا مثال قولهم : حمار الوحش زيناً

ثم أوحى إلى الثالث بِلَاحِظِهِ ، وقال :

يَا مَنْ غدا في فضلهِ وذكاؤه كالأصمعي

ما مثل قواك الذي حاجاك : أنفق تقمّع

ثم خلق إلى الرابع وأنشد :

يا من إذا ما عويص دجا أنار ظلامه

ماذا يسائل قولي : استنش ریح مُدامه

ثم أوهض إلى الخامس ، وقال :

يا مَنْ تنزه فهمه عن أن يروى أو يشكا

ما مثل قواك الذي

أضحى يُحاجي : غطّ هلكي

أنهلتكم : أستهيكم ، والنهل : الشرب الأول ، والعَلَل : الشرب الثاني
أعَلُّكم : أستهيكم عللاً . لبُّ الفأل ، أى حرّ العطش . يستأنر ، أى يخصّ
نفسه بشيء دون أصحابه . سمّنه فى أديمه : أى خيّره موقوف عليه ، والأديم
هنا : زقّ السمن ، وأصل المثل : سمنكم هريق فى أديمكم ، أى خيركم موقوف
عليكم ؛ قاله أبو عبيدة . وخطأ البكرى فى تفسير الأديم بالزق ، وقال :
إنما الأديم هنا طعامكم المأدوم ، ففعل بمعنى مفعول ، أى خيرهم راجع إليهم ،
وهو قول الأزهري رحمه الله ولم ينكر الأول ، وهو مثل يُضرب للبخيل ولن
لا يتعداه خيره ، وينفق على نفسه دون غيره . وقعه يقهّمه : ضربه بالمقعة ،
أى قهره وكفه ، وقع الشراب وأقع : مرّ فى الحلق مرّاً بنير جرع . كرّ :

عطف . جیده : عفته . أوحى : أشار . حلق : أحدَ النظر . عوبص : صعب .
دَجَا : اسودَّ . أنار : جمل فيه النور . نَزَّه : تباعد . يروى : يفكر ، وقد روت
الحديث ، إذا دَبَّرْنَهُ وهَيَّأَنَهُ .

* * *

ثم أقبل إلى السادس ، وأنشد :

يا أخا الفِطْنَةِ الَّتِي بَانَ فِيهِ كَلَامُهُ
سار بِاللَّيْلِ مُدَّةً أَيَّ شَيْءٍ مِثَالُهُ

ثم نَحَا بَصْرَهُ إِلَى السَّابِعِ ، وَقَالَ :

يَا مَنْ تَحَلَّى بِفَهْمٍ أَقَامَ فِي النَّاسِ سُوءَهُ
لَكَ الْبَيَانُ فَبَيَّنْ مِثْلُ: أَحْبَبَ فَرُوقَهُ

ثم قَصَدَ قَصْدَ الثَّامِنِ ، وَأَنْشَدَ :

يَا مَنْ تَبَوَّأَ ذِرْوَةَ فِي الْمَجْدِ فَاقَتْ كُلَّ ذِرْوَةٍ
مِثْلُ قَوْلِكَ: أَعْطِ إِذْ رِيقًا يُلَوِّحُ بِغَيْرِ عُرْوَةٍ

ثم ابْتَسَمَ إِلَى التَّاسِعِ ، وَقَالَ :

يَا مَنْ حَوَى حَسْنَ الدَّرَا يَهُ وَالْبَيَانَ بِغَيْرِ شَكٍّ
مَا مِثْلُ قَوْلِكَ لِلْمُحَا جَى ذِي الذَّكَاءِ: الثَّوْرُ مِلْكِي

ثم قَبِضَ بِجُمُعِهِ عَلَى رُذْيِي ، وَقَالَ :

يَا مَنْ سَمَا بِثَقُوبِ فِطْنَتِهِ فِي الْمُسْكَلَاتِ وَنُورِ كَوْكَبِهِ
مَاذَا مِثَالُ صَفِيرِ جَحْفَلَةٍ يَبْنُو تَبْيَانًا يَنْمُ بِهِ

* * *

بان : تبين . تملى : تزين . تبولاً : نزل . والدَّروة : أعلى الشئ .
تُغوب : نفوذ .

* * *

قال الحارثُ بن هَمَام : فَلَمَّا أَطَرَبْنَا بِمَاءٍ سَمِعْنَاهُ ، وَطَالَبْنَا مَكَاشِفَةَ
مَعْنَاهُ . قلنا له : اسنا من خيلِ هذا الميدان ، ولا لنا بحلّ هذه المُقَدِّ
يَدَانِ ، فَإِنْ أَبْنَتْ مَنَنْتَ ، وَإِنْ كَسَمْتَ غَمَمْتَ . فَظَلَّ يُشَاوِرُ
نَفْسِيهِ ، وَيُقَابِلُ قِدْحِيهِ ، حَتَّى هَانَ بِذَلِ الْمَاعُونِ عَلَيْهِ .

فَأَقْبَلَ حِينَئِذٍ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَقَالَ : يَا أَهْلَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَرَاعَةِ ،
سَأَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، وَلَا ظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ تُعْلَمُونَ .
فَأَوْكُوا عَلَيْهِ الْأَوْعِيَةَ ، وَرَوِّضُوا بِهِ الْأَنْدِيَةَ . ثُمَّ أَخَذَ فِي تَفْسِيرِ
مَقَالٍ بِهِ الْأَذْهَانُ ، وَاسْتَفْرَغَ مَعَهُ الْأُرْدَانُ ، حَتَّى آصَتْ الْأَفْهَامُ
أَنْوَارَ مِنَ الشَّئْسِ ، وَالْأَكْثَامُ كَأَنَّ لَمْ تُغْنِ بِالْأَمْسِ .

* * *

أَبْنَتْ : بَيَّنَّتْ . مَنَنْتَ : أَفْضَاكَ عَلَيْنَا . نَفْسِيهِ : أَرَادَ أَنَّهُ يَرُدُّ
رَأْيَهُ : هَلْ يَفْعَلُ أَوْ لَا يَفْعَلُ ؟ فَكَانَ لَهُ نَفْسَيْنِ ، يَرُدُّ الْمَشُورَةَ عَلَيْهِمَا حَتَّى يَخْلُصَ
لِهَا الرَّأْيُ الْأَرْجَحَ فِيهِمَا فَيَبْنِي عَلَيْهِ . وَقَالَ حَوِثُ الْعَبْدِيِّ :

لِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَنَفْسٌ فَبِعَصِيهَا الْفَتَى أَوْ يَطِيعُهَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى يَقْلِبُ قَدْحِيهِ . الْمَاعُونُ : الْمَعْرُوفُ ، وَقَالَ يُونُسُ :

الماعون في الجاهلية : كل عطية ومنفعة ، وفي الإسلام الزكاة والطاعة . وقال ابن عباس : الماعون المعروف كله حتى ذكر القدر والقصة والفأس .

وحكى الفنجدية عن ابن عباس : الماعون العارية ، وقال الماعون : اسم جامع لمنافع البيت ، كالقدر والفأس والماء والملح ونحوها ، وقال الأعمش :

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تنعم^(١)

والأظهر فيه ، أنه من المون ، وأصله معون بوزن « مفعول » ، تقدمت الواو التي بعد العين ، فصار موعون ، ثم قلبت ألفا كما قيل : يا جل^(٢) . وحكى الفراء عن بعض العرب : الماعون الماء ، فيكون على هذا مفعولاً من العين ، ويُقِلّ كما علّ من المون ، أو يكون فاعولاً ، من مَعْن الماء ، إذا سال . وهو أيضاً قول من اشتقه من قولهم : نُمِنَ هرباً ، أو من قولهم : عين مَعِين . قال قطرب : ماعون فاعول من المن ، وهو الشيء اليسير ، ومنهم من قال : أصله معونة ، والألف بدل الماء .

قوله : أوكوا : أى شدوا . روضوا : زينوا ، واجملوها مثل الرياض . الأردن : الأكام . آضت : رجعت أذهانهم مضينة بالقهم وزال عنها الالتباس . تغنّ بالأمس ، يريد أن أكاهم كانت بالأمس معثلة بالدرام ، ففترغت اليوم إذ وهبوا له ما فيها .

• • •

ولما تمّ بالمقرّ ، سئل : أين المقرّ ؟ فتنفّس كما تنفّس الشكول ، ثم أنشأ يقول :

(٢) ياجل ، أصله يوجل .

(١) ديوانه ٣٩ .

كُلَّ شِعْبٍ لِي شِعْبٌ وَبِهِ رَبِّي رَحْبٌ
 غَيْرَ أَنِّي بِسُرُوجٍ مُسْتَهَامُ الْقَلْبِ صَبٌ
 هِيَ أَرْضِي الْبِكْرُ وَالْجَوْ الَّذِي مِنْهُ الْمَهْبُ
 وَإِلَى رَوْضَتِهَا الْفَنَّا دُونَ الرُّوضِ أَصْبُو
 مَا حَلَا لِي بِمَدَّهَا حُلُوٌّ وَلَا اعْدُودُ بَعْدُ عَذْبُ

قال الزّاوي : فقلت لأصحابي : هذا أبو زيد السّروجي ، الذي
 أدنى مُلَعِه الأحاجي ، وأخذتُ أَصِفُ لَهُمْ حُسْنَ تَوْشِيَتِهِ . ثُمَّ
 التفتُ فَإِذَا بِهِ قَدْ ظَمِرَ ، وناء بما قَمَرَ ؛ فمَجِبْنًا مِمَّا صَنَعَ إِذْ وَقَعَ ، وَلَمْ
 نَذِرْ أَيْنَ سَكَعَ وَصَقَعَ .

* * *

المقرّ : المهرب . المقرّ : المنزل والبلد . الشكول : المرأة الشكلى
 الفائدة لأحبائها . شِعْبٌ ، أى طريق ، أى كلّ بلد لى بلد . رَبِّي رَحْبٌ ،
 أى منزلى متسع . المستهَام : الذى غلب الحبّ على قلبه فخرج هائما على وجهه
 لا يَدْرِي أين يتوجّه ، وهام يَهيمُ : ذهب عقله فخرج فى غير الطريق ، وقيل :
 الهائم : العليل القلب ، الذى يحد فى قلبه هيامًا ، وهو وَجَعَ يَجِدُهُ البعير ،
 فلا يروى من شرب الماء : قال عروة بن حزام :

بِى الْيَأْسُ أَوْ دَاءُ الْهُيَامِ أَصَابَنِى فَلْيَاكَ عَنِّى لَا يَكُنْ بِكَ مَابِيَا^(١)

أو يكون من التهويم ، وهو هجوم النوم ، وهو في الأوجه الثلاثة اسم مفعول ، وكان قياسه مستهيمًا إلا أنه لما كان كأنه مغلوب على ذلك ، جاء على هذا وحذف « به » لدلالة المعنى . والعصب : العاشق . البكر : التي ولدت بها . الجؤ : اسم لنواحي السماء . مهبّ الريح : موضع هبوبها من الجؤ ، وأراد بلمته التي يجيئ منها ويخرج عنها للبلاد . الفناء : الكثيرة الأشجار ، وتقدمت علتها . أصبو : أميل . أدنى : أقل . توشيته : تزيينه كلامه . مشيته : إرادته . طمر : وثب ، وهو من الأضداد يقال : طمرتُ الشيء : سترته ، وطمر الجرح سفل وعلاً أيضاً ، ومنه قيل لبرغوث طامر ، لنزوه وارتفاعه . ناء : نهض . قمر : حازه بالقمار . سكم : مشى مشى المقسّف . صقع : ذهب ، وقيل : لم يدر أين ذهب . والسكع : الذهاب على غير هداية ، والضقع : الناحية من الأرض ، وما أدرى أين صقع ، أى أى ناحية قصد من الأرض .



[فصل في تفسير الأوامر]

إذا أردت أن تعرف المائلة في هذه الأحاجي فننظر « جوعٌ أمدٌ بزاد » فتقابل بطوامير ، فتقسم هذه اللفظة ، فتقابل القسم الأول وهو « طوا » بقولك : « جوع » فتجده مثله في المعنى ، وتقابل بالقسم الثاني ، وهو « مير » بقولك : « أمد بزاد » ، فتجده مثله في المعنى ، والمير الإمداد بالزاد ، ومير الرجل : أعطى نفقة وقوتاً لعياله ، فهذه المائلة الحقيقية التي قدّم ، وكذلك تقابل « ظهر أصابته عين » بقولك : « مطاعين » ، فتجد المطأ الظهر ، وعين الرجل : أصيب بالعين ، وكذلك صادف جائزة ، هي ألفى صلة ، وألفى هي : صادف ، والجائزة هي الصلة ، تصل

بها مَنْ قصدك . وإن تركت الألفاظ منظومة بغير تقسيم ، ينتج منها معنى آخر فيقال لك : ما الطوامير ؟ فتقول : الكتب ، الواحد طُومار ، والمطامير : جمع مِطْمان ، وهو الكثير القطمن ، والفاصلة ، التي تقع بين شيئين فتفصل هذا من هذا والفاصلة في العروض : توالى أربعة أحرف أو ثلاثة متحركة بعدها ساكن ، وهكذا هي المقايضة في هذه المقامة ، تصل اللفظة فيكون لها معنى ، وتفصلها فيكون لها معنى آخر .

وأنا أفسر معنى المتصلة إذ المنفصلة قد وقع تفسيرها في المقامة . قوله : هادية ، أى مرشدة ، تقول : هدّني الطريق فهى هادية . والفاشية : ما يفسد القلب ، أى يفسده من الهمم والستيم ، والفاشية أيضاً القوم يفسدونك ، أى يقصدونك ويوزرونك ، والفاشية : القيامة ، والفاشية : المرأة تفشاك وتزورك ، والفاشية غشاء القلب ، والفاشية : غشاء السرج .

والمهمه : القفر ، والأخطار : جمع خطر ، وهو الفَرَر ، والأخطار : المنازل الشريفة . والأبارقة : جمع إبريق ، وهو إماء معروف ، والأبارقة أيضاً : الشيوف الصقيلة ، واحدها إبريق ، والطافية : الجيفة تطفو على وجه الماء ، أى تطلع عليه .

الفرازين : وزراء القُرمس الواحد فرزان ، ومنه فرزان الشطرنج ، الذى تسميه العامة « فرزا » ، لأنه وزير الشاه ، والشاه فى كلام القرمس الملك . وقمت : معناه كفت .

والمنقّم : الفرح بمصيبة غيره . والرخّاح من الأواني : الواسع القصير الحديد ، ورخّاح : موضع معروف . والصنّبور : النخلة الطويلة العنق القليلة الحمل ، والصنّبور أيضاً : الغاص الذى يجعله السقاء فى فم القربة ، ويشدّ

عليه ويفرغ منه الماء ، والصُنْبُورُ أيضاً : اللّثيم ، والصُنْبُورُ من الناس مَنْ
ليس له نسل .

والمُتَرَاكِين : الذناب الواحد ميرزخان . الأسكوب : المطر الكثير الصبّ
والأسكوب والأسكاب : قطعة خشب فيها قرص يُجْمَلُ في خرق الزرق .
والمقلاع : آلة يُقْلَعُ بها الشيء . والله انوفى .

تفسير الأحاجي المودعة هذه المقامة

أما جوعٌ أمدٌ بزادٍ ، فثله طوامير ، وأما ظَهْرٌ أصابته عين ، فثله مطاعين ، وأما صادف جائزة فثله الفاصلة . وأما تناول ألف دينار ، فثله هادية . وأما أهمل حلية فثله القاشية .

وأما اكفف اكفف ، فثله مَهْمَه ، وأما الشقيق أقلت فثله أخطار .

وأما ما اختار فضة فثله أبارقة ؛ لأن الرقة من أسماء الفضة ، وقد نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الرقة ربع العشر » .

وأما دس جماعة فثله طافية . وأما خالى اسكت فثله خالصة ؛ لأنك إذا ناديت مضافاً إلى نفسك جاز لك حذف الياء ، وإثباتها ساكنة ومتحرّكة ؛ وقد حُذف هاهنا حرف النداء ، كما حذفه في أصل الأجنبيّة . وصّه بمعنى اسكت ، وأما خُذْ تلك فثله هاتيك .

وأما حمار وحش زينا ، فثله قرازين ، لأن الفراء حمار الوحش ، ومنه الحديث : « كلّ الصيد في جوف الفرا » .

وأما قوله : « أنفق تقم ، فثله منتقم ؛ لأن الأمر من مان يمون من . ومضارع وقتت تقم .

وأما استنش ربح مدامه ، فثله رَحْراح ؛ لأن الأمر من استدعاء الرائحة رُح . وأما غط هلكي فثله صنبور ؛ لأن البورهم الهلكي ، وفي القرآن ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ .

وأما سار بالليل مدة ؛ فثله سراحين .

وأما أجب فرؤفة ؛ فثله مقلّاع ، لأن الأمر من ومق يبق مق . واللاع : الجبان ؛ يقال : فلان هاعّ لاعّ ؛ إذا كان جباناً جزوعاً .

وأما أعط أبريقاً يلوح بغير عروة ، فثله أسكوب ؛ لأن الأوس الإعطاء والأوس منه أس . والسكراب : الأبريق بغير عروة .

وأما الثور ملكي ، فثله اللآلي ؛ لأن اللأى على وزن القنا هو نور الوحش .

وأما صفيح جحفلة ، فثله مكاشفة ؛ لأن المكاء الصفيح ؛ قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ ، والأصل في المكاء .

المد ؛ ولكنه قصره في هذه الألفية ، كما حذف همزة الفراء في أحبيته ، وكلا الأمرين من قصر المدود ، وحذف همزة المهموز جائز .

المقامة السابعة والثلاثون وتعرف بالصَّعْدِيَّة

حكى الحارثُ بن همام قال: أَصْعَدْتُ إِلَى صَعْدَةٍ ، وَأَنَا ذُو شَطَاطٍ
يُحْكِي الصَّعْدَةَ ، وَاشْتِدَادِ يَبْدُرُ بَنَاتِ صَعْدَةٍ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ نُضْرَتَهَا ،
وَرَعَيْتُ خُضْرَتَهَا ، سَأَلْتُ نَحَارِيرَ الرُّوَاةِ ، عَمَّا تَحْوِيهِ مِنَ السَّرَاةِ ،
وَمَعَادِنِ الْخَيْرَاتِ ؛ لِأَتَّخِذَهُ جَذْوَةً فِي الظُّلُمَاتِ ، وَنَجْدَةً فِي
الظُّلَامَاتِ . فَنُفِيتَ لِي قَاضٍ بِهَا رَحِيبُ الْبَاعِ ، خَصِيبُ الرَّبَاعِ ،
تَيْمِيَّ النَّسَبِ وَالطَّبَاعِ ؛ فَلَمْ أَزَلْ أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْإِلْمَامِ ، وَأَتَنَفَّقُ
عَلَيْهِ بِالْإِجْمَامِ ؛ حَتَّى صَرْتُ صَدَى صَوْتِهِ ، وَسَلْمَانَ يَدَيْهِ .

* * *

أَصْعَدْتُ : طَلَعْتُ وَارْتَفَعْتُ ، قَالَ يَعْقُوبُ : الإِصْعَادُ إِلَى نَجْدٍ وَالْبَيْنِ
وَالْحِجَازِ ، وَالْإِنْخِدَارُ إِلَى الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَحَمَّانَ . وَقَالَ الْأَخْفَشُ : أَصْعَدُ فِي
الْبِلَادِ : سَارَ فِيهَا وَمَضَى ، وَأَصْلُهُ الْذَهَابُ فِي الصُّعُودِ وَهُوَ الِارْتِفَاعُ ، ثُمَّ تَوَسَّعُوا
فِي ذَلِكَ . قَالَ الْفَرَّاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ابْتِدَاءِ الْأَسْفَارِ وَالْحَارِجِ ، تَقُولُ : أَصْعَدْنَا مِنْ
مَكَّةَ إِلَى بَغْدَادَ ، وَأَصْعَدْنَا مِنْ بَغْدَادَ إِلَى خِرَاسَانَ ، فَأَمَّا فِي السَّلَمِ فَتَقُولُ : صَعَدْتُ
فِيهِ لَا أَصْعَدْتُ . قَالَ يَعْقُوبُ رَحِمَهُ اللَّهُ : صَعَدَ فِي الْجَبَلِ وَأَصْعَدَ فِي الْبِلَادِ : انْخَدَرَ
فِيهَا ، وَصَعِدَ : ارْتَفَعَ .

وَصَعْدَةُ : مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ بِالْبَيْنِ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ سِتُّونَ فَرَسَخًا ، وَتَحْكُمُ

فيها صنعةُ الجلود ، والجلد الصمديّ في غاية الجودة ، ويضرب المثل
بحسن نساها .

الشَّطَاط : طول القامة . والصَّعْدَةُ : الرمح . اشتداد : جرى . يبْدُر :
يسبق . بنات صَعْدَة : حر الوحش . نُضِرَتْهَا : خصبها ونعمتها ، والنضرة : صفاء
اللون وبريقه . مخارير : علماء ، والنَّحْرِير ، الماهر ، والحاذاق الذي جَرَّبَ الأمور
وعرفها ، وهو اسم يجمع وجوها من المدح ، فيستر النحرير بالعالم والمفلق
والحاذاق والماهر والعاقل . والسَّرَّاء : السادة ، وهو جمع سَرِيّ ، وهو السيد
الشريف ، وجمع فَمِيل على فَمَلَة عزيز لا يُعرف غير هذا . الجَزْوة : الجرة
الغليظة العظيمة ، وجيها بثلاث حركات ، ويجمع ثلاثها ، نحو جَذَا وجُذَا وجِذَا
نَجْدَة : قوّة وعونا . الظَّالِمَات : جمع ظُلَامَة ، وهو ما يشككيه المظلوم ، رَحِيب
الباع : واسع العطاء ، فكُنِيَ بالبائع عن ذلك . والعرب إذا وصفت الرجل
بالسخاء ، قالوا : هو رَحِيب الباع ، وطويل الباع ، وكريم الباع ، والباع والبوع
بَسْط اليد المعروف ، وقد باع يبيع منه ، ويقال للبخیل : قصير الباع . خَصِيب
الرُّبَاع ، أى هو كثير المال فجمع له كرمه كثرة ماله ، فالتناس يحدون في
كَتْفِهِ الخَصْب وقد يراد بخصيب الرباع نافق سوق الأحكام فالمتعلق به يجد
الخصب .

تسمى النسب ، أى من بنى نعيم وشرك الطباع مع التسب ، وهو يريد
أنه كامل تام في خلقه ، فنسب قبيلته لنعيم ، وطباعه للتتام والكمال فقلب
أحدهما ، وشرك بينهما للأقرب . قال ابن شرف : فيما يلمّ بهذا التشريك ، ويحسن
أن يمدح قاضى المقامة به لجوده :

جاورَ عليّا ولا تحفيلَ بحادثَةٍ إذا أدْرعتَ فلا تسألَ عن الأسَلِ (١)

اسم حكاة المسمى في الفعل فقد حاز العليين من قول ومن حمل
فالماجد السيد الحر الكريم له كالتعت والعطف والتوكيد والبدل
زان العلاء وسواه شائها، وكذا تميز الشمس في الميزان والحمل
وربما عابه ما يفخرون به

يُسَمَّى من الخضر ما يهوى من الكفل
سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء السامع ، والأفواه والمقل

فإنه أراد بقوله : «حاز العليين» ، أى حاز عليًا بالاسمية ، والعلو بالفعلية ،
وهذا مثل ما تقدم للحريري :

جاد بالعين حين أمى هواه عيّنهُ فأنشئ بلا عيّنين

فقد أوقع التشبيه على شينين ، يتفقان في اللفظ ، ويختلفان في المعنى . وقد
أنشدنا فيما تقدم لبعض المتأخرين :

فكيف أصبر عنها اليوم إذ جمعت

طيب الهواءين ممدود ومقصود

فالمقصود هوى النفس ، والممدود الهواء الذى بين السماء والأرض ، وقد
قدّمنا في تفسير قول الحريري ، وحيا المسجد بالتسليمتين ، أن السلام الواحد
على من في المسجد عند دخوله ، والثاني تحليل الصلاة .

وقوله : هنا تيمى النسب والطباع من هذا القبيل ، وأكثره في كلام
المولدين ، وهو مستعمل في كلام العرب ، ولا يبعد أن يكون من هذا قولهم :
التقى الثريان ، فإنهم يريدون بذلك كثرة المطر ، وأنه يبلغ في الأرض إلى التراب
الندى ، فالثرى الواحد المطر ، والثاني التراب الندى ، على أنه يحتمل أن يريد

بذلك أن الثراب اليابس لمَّا بَلَهُ المطر ، حتى لحق بالثراب الندى ، صار اليابس منهم ما يسمى « ثرى » ، قليل : التقى الثريان ، وقال النابغة :

وقد أَبَقْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ مَنَى كَمَا أَبَقْتُ مِنَ السَّيْفِ الْيَمَانِي^(١)
بَصْمٌ وَهُوَ مَأْنُورٌ جُرَازٌ إِذَا نُجِمَتْ بِقَائِمِهِ الْيَسَدَانِ

فسره أبو عبيد البكري^(٢) وغيره : بأنه أراد بذلك الجارحة ، والأبداق هو القوة ، فجمع على الأخف ، فهذا من قبيل ما قدمناه ، ولا يحضرني الآن غير هذا من كلام العرب .

قوله : الإلام ، أى تخفيف الزيارة . أنفق ، أنخرج ، والتفان ضد السكاد . الإجمام : الزيارة . صدى صوته ، أى متى دعاه وجده حاضراً مجيباً له ، والصدى : صوت الجبل الذى يرد عليك إذا صحت .

وابن همام فى هذا المقامة شُرْطِيّ القاضى .

[ذكر مناقب سلمان الفارسى]

وسَلَمَانُ الذى ذكره ، هو سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ، ويعرف بسلمان الخير ، قالت عائشة رضى الله عنها : كان لسلمان رضى الله عنه مجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرد به فى الليل ، حتى كاد يظلمنا عليه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرنى ربى بحُبِّ أربعة ، وأعلمنى أنه يحبهم : على ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسَلَمَان » ، رضى الله تعالى عنهم .

وأنى أبو سفيان على سلمان وصهيب وبلال ، فقالوا : ما أخذت سيوفُ الله من عُنُقِ عدوّ الله مأخذها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشَيْخِ قُرَيْشٍ

(١) هو النابغة الجعفى والبيتان فى أمالى القاتى ١ : ٧١ . والآتى ٢٤٦ والحزاة ١ : ٥١٣ . والمأنور : الباقي أثره ، والجراز : الماضى النافذ .

(٢) فصل المقال ١٤٨ .

وسيدهم ! وأنى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : يا أبا بكر ، لعلاك أغضببتهم ، لئن كنت أغضببتهم لقد أغضبت ربك فأتاهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا أخوتاه ، أأغضببتكم ؟ فقالوا : لا ، ويغفر الله لك .

وكان من أبناء أساورة فارس ، وأصله من رأمهرمز ، وقيل : كان من أصهبان ، وكان يطلب دين الله ويتبع من يرجو ذلك عنده ، فدان بالنصرانية وغيرها ، وقرأ الكتب ، وصبر في ذلك على مشقات ناله ، وكلها مذكورة في إسلامه في كتب السيرة .

وقول : تداوله في ذلك بضمة عشر رباً ، حتى أفضى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاشتراه من قوم من اليهود .

وأول مشاهد الخندق ، وهو الذى أشار بحفره ، فقال أبو سفيان وأصحابه : هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدوها .

وسئل على أنه قال : علم العلم^(١) الأول ، بحر لا ينزف ، هو منا أهل البيت ، وفي رواية : هو مثل لقمان الحكيم ، وكان فاضلاً حزيناً زاهداً عالماً متقشفاً .

وتعلم حمل الخوص ، فقيل له : لم نعمل هذا وأنت أميراً وقد أجرى عليك رزق ، فقال : إني أحببت أن آكل من عمل يدي . وكان يتصدق بما يرزق من بيت المال ، وكانت له عبادة يفرش بعضها ويلبس بعضها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان الدين في الثريا لئله سلمان » .

أبو هريرة رضى الله عنه ، كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ سورة الجمعة ، فلما قرأ : « وآخري من منهم لما يلحقوا بهم »^(٢) - وفيما سلمان - وضع يده على سلمان ، ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لئله رجل من هؤلاء » .

(١) ط : « علم » وما أئتم من الاستيعاب ص ٦٣٧ .

(٢) سورة الجمعة ٣

وتوفي في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه ، ومات ترك شيئا يورث عنه .
وفضائله كثيرة .

وعلى قولهم لأبي بكر « لا ، ويفقر الله لك » . قال أبو محمد في الدرة :
وربما أجاب المستخبر بلا النافية ، ثم عقبها بالدعاء له ، فيستحيل الكلام إلى
الدعاء عليه ، كما روى أن أبا بكر رضي الله عنه رأى رجلا ، بيده ثوب ، فقال :
أتبيع هذا ؟ فقال لا عافاك الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد علمتم لو تعلمون !
فها قلت : لا وعافاك الله !

قال أبو محمد : والمصحح ما قال يحيى بن أكرم لأمازون ، وقد سأله عن أمره ،
فقال : لا ؛ وأبد الله أمر أمير المؤمنين .

وحكى أن صاحب بن عباد لما سمع هذه الحكاية ، قال : والله لهذه
الروا أحسن من واوت الأصداغ ، في حدود المزد الملاح .

• • •

وكننت مع اشتيار شهيد ، وانتشاق رنديه ، أشهد مشاجر
الخصوم ، وأسفير بين المعصوم منهم والموضوم . فبينما القاضي
جالس للإسجال ، في يوم المخفل والاختفال ؛ إذ دخل شيخ
بالي الرياش ، بادى الارتعاش ؛ فتبصر الحفل تبصر نقاد ،
ثم زعم أن له خصما غير منقاد ؛ فلم يكن إلا كفتوه شرارة ،
أو وحن إشارة ؛ حتى أخضر غلام ، كأنه ضرغام فقال الشيخ :
أهد الله القاضي ، وعصمه من التفاضي ؛ إن ابني هذا كالقلم
الزدي ، والسيف الصدي ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويرضع
أخلاف الخلاف ، إن أقدمت أخجم ، وإذا أغربت أعجم ،

وإن أذكيتُ أَخَذَ ، وَمَتَى شَوَيْتَ رَمَدَ ؛ مع أَنى كَفَلْتَهُ مَذْ
دَبَّ ، إلى أَنْ شَبَّ ، وَكُنْتُ لَهُ الْطِفَ مَنْ رَبِّي وَرَبِّ .
فأكبر القاضى ما شكاً إليه ، وأطرف به مَنْ حَوَالِيهِ ، ثم قال :
أَشْهَدُ أَنَّ الْعُقُوقَ أَحَدُ الشُّكَلَيْنِ ، وَارُبَّ عُقْمٍ أَقْرُ لِلْعَيْنِ .

قوله : اشذيار شهده ؛ أى استخراج عسله ، وأراد اجتناء منفعته . انشاق :
شم ، يقال : نشق الريح الطيبة نشقاً وانتشَق : وتذشَق : شَمَهَا . الرِّند : شجر طيب
الرائحة ، قال ابن دريد رحمه الله : هو الآس ، وقال الجوهري رحمه الله : ربما
سُمِّيَ المودُرُندا . مشاجر المصوم : مواضع الخصاص التى يتشاجر فيها الخصمان ؛
أى يمتزج كلام هذا بكلام هذا ، من الشَّجَر ، واحدها مَشَجَر ، وقد يراد بها
المصدر ، ويُجَمَّع لاختلاف أنواعه . أسفر : أمشى بينهم بالصلح المصوم : المحفوظ
من الوقوع فيما يحذر ، وأصل العصمة فى كلامهم المنع ، وعصمته من كذا ،
إذا منعه . ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ^(١) ، أى يملك . الموصوم : ذو الوضم ،
وهو العيب ، فأراد أنه يصلح بين أهل الخير والشر . للإسجال : للحكم ،
وأسجل القاضى على نفسه بالحكم ، وسجَّل ، إذا كتب على نفسه ، فأراد أنه جلس
لحكم فى العقود والسجلات . ومحل القوم : مجتمعهم . والاحتفال : كثرة الناس
 واجتماعهم ، ومعنى احتفل الرجل : جمع ، وأراد : يكثر من الشيء الذى قصد ،
وجمع الحفل محافل ، ومنه الشاة الحفلة ، وهى التى يحبس لبيها أياً ما فى ضرعها
لا تحلب . الرياش : الثياب . تبصر الحفل : نظر الجمع وشخص فيهم . نقاد :
مفتش ، كأنه يتقد بهصره الرجال ، ويريد أنه نظر من شرط القاضى أهل الحزم

والجراءة، فأخبرهم بقصة ابنه، فأنطلقوا فأنوابه، ونقاد الدرهم: الذى يُمنع النظر فيها
والقلب لها، ليميز جيدها من رديتها. وحى إشارة، يريد إشارة العين، إذا
غمزت مَنْ تريد أن يفهم إشارتك دون غيره، والوحى: الإيماء الخفى. ضرغام:
أسد فى عظم خلقته وشدة نه. التناضى: التناقل والسكوت عن الظلم. الصدى:
الذى علاه الصدا، وهو وسخ السيف. والأخلاف جمع خِلف، وهو ما يجلب
منه اللبن ويقبض عليه الحالب. قال ابن دريد: وقيل: الخلف للناقة كالضرع
للبقرة. أحجم: تأخر. أمربت: أوضعت. أعجم: أبهم وتبس. أذكيت:
أوقدت. أحمّد: أطفأ، وخمدت النار: طُفي لهبها. كفلت: ربيتها. دب:
مشى مشى صغير على يديه ورجليه. شب: صار شاباً اللطف: أشفق وأرق. رب:
أصلح، يريد أنه أصلح أحواله، وأحسن تربيته تمرّزا من أن ينسبه الفاضى إلى
تقصير. أكبر: رآه كبيراً. أطرف: أعجب، وجملهم يستطرفون خبره.
الشكلىن: الفقدين، يريد أن الرجل إذا عمّه ولده ولم يبرّه فسكانه قد فقده.

[ذمّ العقوق]

ومما جاء فى العقوق: كان جرير الشاعر أعقّ الناس بأبيه، وكان بلال
ابنه كذلك، فراجع جرير بلالاً فى الكلام، فقال له بلال: الكاذب بينى
وبينك ناك أمّه، فأقبلت أمّه عليه، وقالت: يا عدوّ الله، تقول هذا لأبيك!
فقال جرير: دعيه، فسكانه سمعها منى وأنا أقولها لأبى.

ومن شهِر عنه العقوق بوالديه الخطيئة الشاعر، قل يهجو أباه:

لحَاكَ اللهُ نَمَّ لَحَاكَ حَمًّا أَبَا وَلَحَاكَ مِنْ عَمِّ وَخَالٍ^(١)

فبئس الشيخ أنت لدى الخازي وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
 جمعت اللؤم لاحتك ربي وأبواب السماء والضلال
 وقد تزدحم هجو نفسه وأمه .

ومن هجا أباه وغيره علي بن بسام ، وماسلم من هجائه أمير ولا وزير ،
 ولا كبير ولا صغير ، ومما قال في أبيه :

هبك عُمرَت عُمرَ عشرين نَسْرًا أرى أني أموت وتبقى^(١)
 فأن عشتُ بعد موتك يوما لأشقن جيب مالك شقا
 وقال فيه أيضا :

بعثتُ لأستهدبك عَيًّا ولم أكن عَلِمْتُ بأن التَّير صار لنا صِهْرًا
 فوجَّه به نكي نشترك في ركوبه فتركبه بطنًا وأركبُه ظهرًا
 وقال فيه أيضا :

شدت دارًا خلقها مكرمة ساط الله عليها الفرقا
 وأرانيك صريمًا وسقطها وأرانها صعيدا زلقًا
 وقال فيه أيضا :

بني أبو جعفر دارًا فشيدَها ومثله نطيسار الدور بناء
 فالجوع داخلها والذل خارجها وفي جوانبها بؤس وضراء
 ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء

وكذب ، كان أبو جعفر محمد بن نصر بن منصور بن بسام في نهاية
 السؤدد والرودة والنظافة ، رجل مترف نبيل المركب ، مابح الملابس ، طريف
 العلمان ، له همة في تشييد البنيان ، ومارثاه ابن الرومي به يدل على كذب ابنه ،
 قال ابن الرومي فيه :

أَوْذَى مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ بَعْدَمَا ضُرِبَتْ بِهِ فِي جُودِهِ الْأَمْثَالُ^(١)
 مَلِكٌ تَنَافَسَتْ الْعِلَا فِي عَمْرِهِ وَتَنَافَسَتْ فِي مَوْتِهِ الْأَجَالُ
 مَنْ لَمْ يَبْعَيْنِ صَبِيرَ نَفْسٍ تَحْدٍ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تُسِيرُ الْأَجْبَالُ
 وَدَخَرْتَهُ لِذَهْرٍ أَعْلَمَ أَنَّهُ كَالْحَصْنِ فِيهِ لَنْ يَثُولُ مَالُ
 وَتَمَتَّتْ نَفْسِي بِرُوحِ رَجَائِهِ زَمَنًا طَوِيلًا وَالتَّمَتَّعَ مَالُ
 وَرَأَيْتُهُ كَالشَّمْسِ إِنْ هِيَ لَمْ تُنْزَلْ فَالرَّفَقُ مِنْهَا وَالضِّيَاءُ يَبَالُ
 إِيَّاهُ لَفَقْدَكَ بِأَعْمَدٍ إِنَّهُ فَقِدْتُ بِكَ النِّفْعَاتِ وَالْأَنْفَالُ
 بِاللَّهِ أَقْسَمُ إِنْ هَرَكَ مَا انْقَضَى حَتَّى انْقَضَى الْإِحْسَانُ وَالْإِجْمَالُ

ولابن بسام يعزى أبا القاسم بن وهب في ابن مات له :

قُلْ لِأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ أَنِي بِكَ الدَّهْرُ لِلْمَجَائِبِ^(٢)
 مَاتَ لَكَ ابْنٌ وَكَانَ زِينًا وَعَاشَ ذُو الشَّيْنِ وَالْمَعَائِبِ
 حِمَاةُ هَذَا كَمُوتِ هَذَا فَلَيْسَ تَخْلُو مِنْ الْمَصَائِبِ

وقد تقدّم هجوه في أخيه .

ومن حسن التعطف على الابن العاق ، قول إبراهيم الصابي ، وكان
 ابنه يلقبه :

أَرْضَى عَنْ ابْنِي إِذَا مَا عَقَفِي حَذَرًا عَلَيْهِ أَنْ يَفْضَبَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَمِّي
 وَلَسْتُ أَدْرِي بِمِ اسْتَحَقَّقْتُ مِنْ وَلَدِي إِسْخَانًا عَيْنِي وَقَدْ أَقْرَرْتُ عَيْنَ ابْنِي !

• • •

قوله : ولرب عظم ، العظم ألا تلد المرأة .

(١) مختارات البارودي ٣ : ٣٢٤

(٢) خاص الخامس ١٠٩

فقال الغلام ؛ وقد أمتعه هذا الكلام : والذي نصب
القضاة للمدل ، وملاكهم أئنة الفضل والفضل ، إنه مادعاً قط
إلا أمنت ، ولا ادعى إلا آمنت ، ولا لبي إلا وأخرمت ،
ولا أوزى إلا وأضرمت ؛ بيد أنه كمن ينبغي أن يؤق ،
ويطلب الطيران من النوق . فقال له القاضي : وبم أغنتك ،
وامتحن طاعتك ؟ قال : إنه منذ صفر من المال ، ومني
بالإنحال ، يسومني أن أتلهظ بالسؤال ، وأستمطر سحب
التوال ؛ ليفيض شربه الذي غاض ، وينجبر من حاله ما انهاض ،
وقد كان حين أخذني بالدرس ، وعلمني أدب النفس ،
أشرب قلبي أن الحرص متعبة ، والطمع مغتبة ، والشره متخمة ،
والمسألة ملامة .



أمنعه : أوجعه وأغضبه ، وأمنض من ذلك وامتنع : غضب وشق عليه
وأوجمه . ادعى : نسب لنفسه ما شاء ، وفلان مدع وفعله الدعوى . آمنت :
صدقت ما ادعاه . لبي : من تلبية الحاج إذا صاح : لبيك لبيك . أحرمت : صرت
محرمًا . أوزى : أظهره النار من الزند . أضرمت : أوقدت . بيد : غير الأنوق ؛
ذكر الرخم ولا يبيض له ، فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً ، ومثله : طلب الأبق
العقوق ، والأبق الذكر والعقوق من الخيل : التي امتلأ بطنها من حملها ؛ يقال
للأنثى : قد أعقت وهي معق وعقوق ؛ فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً ، لأنه
لا يكون الأبق عقوقاً .

وبقال : إن رجلاً سأل معاوية أن يزوجه أمه هنداً ، فقال : أمرها إليها ،
وقد أبت أن تنزوج ، قال : فولئى مكان كذا وكذا ، فقال معاوية معتملاً :

طلب الأباقي العتوق فلما لم ينله أراد بيض الأنوق
والأنوق : طائر أبيض في شواحق الجبال ، فبيضها في حرز لا يطامع فيه ،
فعمناه طلب مالا يكون ، وأما طلب الطيران من النوق فنل الأول ، وهو لا يمكن .
قوله : أعنتك ، أى أنعبك ، وكلفك ما يشق عليك ، من غت البعير بعنت عنتاه ،
إذا حدث في رجله كمنر بعد الجبر ، فلا يمكنه التصرّف إلا بمشقة . قال
أبو عبيد رحمه الله : عنته : أضربه ، والعنت : الضرر ، قال : وأعنته أيضا ، أهلكه .
وقال أحمد بن عبيد : أعنته : شدد عليه ، والعنت : التشديد .

ابن عزيز : عنت : هلاك ، وأصله المشقة والصعوبة ، ومنه قولهم : أكمة
عنتوت ، إذا كانت صعبة المسالك ، وقوله تعالى : ﴿لَا أَعْنَتِكُمْ﴾ ^(١) ، أى
لأهلككم ، ويجوز أن يكون المعنى لشدّد عليكم وتعبدكم بما يصعب أداؤه
هايسكم ، كما فعل بمن قبلكم . امتحن : ابتلى . صفر : خلا . مئى : بلى .
الإحمال : الجدب والفقر . يسومى : يكلفى . أتلفظ بالسؤال ، أى أكثر
السلام به ، والتلفظ : تقبّع ما بقى في الفم من الطعام بالأسان بعد الأكل . سحّب :
جمع سحابة . النوال : العطاء ، قال ابن الأنبارى رحمه الله : اللّؤل والنوال :
المنفعة والحظ ، ونلت الرجل : إذا نفعتّه ، وأنلته حظّا ونالى فلان : نفعتى ،
وقولهم : ما كان نولك أن تفعل كذا ؛ أى ما كان لك منفعة في هذا الفعل ،
ونولك : منصوب خبر كان وأن فعل اسم كان أو بالعكس . يفيض : يسيل ويكثر .
شربه : ماؤه ، وأراد به ماله : غاض : جفّ . انهاض : انكسر . أشرب :
روى وسقى . الحرص : كثرة الطمع والطلب للدنيا ، والشرة : الحرص
الكثير . متخمّة : مفسدة ، والمسألة : سؤال ما فى أيدى الناس . ملأمة : لوم .

ثم أنشدني من فلق فيه ، ونحت قوافيه :

إرض بأذني العيش واشكر عليه شكر من القل كثير لديه
وجانب الحرص الذي لم يزل يعسط قذر المتراق إليه
وحام عن عرسك واستبقه كما يحامي الليث عن لبديته
واصبر على ما ناب من فاقة صبر أولى العزم وأغمض عليه
ولا ترق ماء المحيا ولو خولك المستول ما في يديه
فالحر من إن قذيت عينه أخفى قذى جفنيه عن ناظره
ومن إذا أخلق ديباجه لم ير أن يخلق ديباجته

• • •

فلق : شق من بين شفوه . نحت : نجر ، أراد إنشاء قصائده . والقوافي ،
من قنوت الشيء ، إذا تقبعت ، وسميت بذلك الاتباع بعضها بعضا القل : القلة .
المتراق : المرتفع . لبديته . شعر متلبد على كفله وبين كتفيه . ناب : نزل .
فاقة : فقر . أغمض ، أستره واغفل عنه ، والمحيا : الوجه . خولك : مدلك .
الناظر : سواد العين ، فيريد أنه إذا وقع في عينه قذى وهو السقط على شدة
إذابته ، أحمله الحر الكريم وصبر عليه ، وأخفاء من ناظره ، تجلّد ، أي أخفى
أذى بعض المعينين عن بعض ، وهذا غاية في المبالغة . ديباجه : ثوبه ، والديباج :
ثوب رفيع . ديباجته : خديته ، وقيل ديباجة الخد حسن بشرته ، وأخلق الشيء ،
وأخلفه غيره لازم ومتعد ، يقول : إذا افتقرت وبلى ثوبك فلا تبذل وجهك
لأحد ، ولا تهنه بالسؤال ، وهذا من قول حبيب :

ذلّ السؤال شجعا في حلق معقرضٍ من دونه شَرَقَ من خلفه حَرَضُ^(١)
 ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي إذا أفنيتهُ عَوْضُ
 وقال في ابن الزيات :

أعطى ونطفة وجهي في قراراتها بصونها الوجفات الغضة القشُبُ^(٢)
 يقول : لم يخلق وجهي سؤال ، فوجهي غضّ جديد ، والنطفة : ماء الوجه
 الذي نهى الحريري عن إراقته حين قال :

ولا ترق ماء الحياء ولو خولك المسؤل ما في يديه

[بين أبي تمام وعبد الصمد بن المعتز]

قال الصولي : كان حبيب رحمه الله لا يجيب هاجيا ، ترُفعا عنه ، فاحذر
 إلى البصرة والأهواز يمدح من بهما ، فكتب إليه عبد الصمد بن المعتز :

أنت بين اثنتين تبرز لنا^(٣) بكتيتهما بوجهٍ مُذَالٍ^(٤)
 لستَ تنفك طالبا لوصول من حبيب أو طالبا لنوال
 أي ماء الحر^(٥) وجهك يبق بين ذل الهوى وذل السؤال
 فلما قرأ الشعر قال : قد شغل هذا ما يايه ، ولا أرب لنا فيه^(٦) .

وحكي الأصبهاني قال : جمع مجلس أبا تمام وعبد الصمد ، وكان عبد الصمد

(١) ديوانه ١٤٩

(٢) ديوانه ٤٨ .

(٣) في أخبار أبي تمام للصولي : « تفدو مع الناس » .

(٤) المذال : الممان .

(٥) « الصولي : ماء وجهك » .

(٦) أخبار أبي تمام للصولي ٢٤١، ٢٤٢ .

سريح القول ، وفي أبي تمام بطء ، فأخذ عبد الصمد قرطاسا ، وكتب : أنت بين اثنتين .. الأبيات ، ورعى بها إلى أبي تمام ، فأخذه وخلّا به طويلا ، وجاء وقد كتب فيه :

أنت تنظم قول الزور والفنّد وأنت أنزُرُ من لا شيء في العدوّ
أشرجت قلبك من بفض على خرق^(١) كأنها حرّكات الروح في الجسد

فقال له عبد الصمد : يا ماصّ بظُرأمة^(٢) ، أخبرني عن « لا شيء » في العدد كيف يكون ؟ وعن قولك : « أشرجت قلبك »^(٣) ، أعيبة أو خرج ، فأشرجه ، عليك لعنة الله^(٤) .

فانقطع أبو تمام انقطاعا ماريّ مثله .

وحكاية الصوليّ أولى بالصحة من هذه ، وليس عبد الصمد من رجال أبي تمام ، ولاله من التصرف في أنواع الشعر ما لأبي تمام ، وصنّف البديع وقفّ عليه ، ولو صحت الحكاية فلا يحكم بالقدرة ، لكن يحكم بالجملة ، واستعمال ديوان حبيب في مجالس العلماء شاهد على فضله ، على أن ما جمعنا لعبد الصمد في هذا الكتاب غاية في بابه . فلنرجع إلى ما قيل في ذل السؤال .

[مما قيل في ذل السؤال]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سأل وعنده ما يفديه أو بعشيّه ، فإنما يستكثر من تجرّ جهنّم » .

(١) ط : « أشرجت » بالسين تصحيف .

(٢) بعدها في الأغاني : « يا فت » . وأشرجت العيبة : أو شدتها بخيط أو نحوه .

(٣) أشرجت العيبة : شدتها بخيط .

(٤) الخبر في الأغاني ١٣ : ٢٥٣ ، ٢٥٤ برويه عن ابن مهروبه . وفي آخر الخبر : قال أبو الفرج الأصبهاني : « كان في ابن مهروبه تحامل على أبي تمام لا يضر أبا تمام هذا منه ، وما أقل ما يمدح مثل هذا في أبي تمام » .

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما : حسبك من السؤال أنه يصف
لسان المتكلم ، وبكسر قلب الشجاع البطل ، وبوقف الحر الكريم موقف
العبد الدليل ، وبذهب بنفزة اللون ، وبمحو الحسب ، وبموجب الموت ، وبمقت
الحياة .

الأصمى رحمه الله : سمعت أهرابيا يقول : المسألة طريق المذلة ، تساب
الشريف عزه والحبيب حسبه .

وقال معاوية لعبد الله بن الزبير : أنشدني ثلاثة أبيات غريبة ، فقال
أنشدكها بثلاثين ألفاً تدفعها إلي ، فقال : حتى تنشد فأسمع ، فأنشده أبيات
الأفوه الأودى^(١) :

بلوتُ الناسَ قرناً بعد قرنٍ فلم أرَ غيرَ خَلٍّ أو فِصالٍ^(٢)
ولم أرَ في الخطوبِ أشدَّ ضرّاً وأذىً من مُعاداةِ الرِّجالِ^(٣)
وذقت مرارةَ الأشمَاءِ طرّاً فما شيءٌ أمرُّ من السؤالِ
ثم قال له : أسمعك وأنت الحكم ، فحكّم له ، وأمر له بثلاثين ألفاً .
وينظر إلى ما نسبته ابن المعتز الحبيب من إضافة ذل السؤال ، ما أضافه له
علي بن الجهم من ذل الاعتذار ، وقال يعتذر للمتوكل :

إنَّ ذلَّ السؤالِ والإعتذارِ خُطَّةٌ صَمْبَةٌ على الأحرارِ^(٤)
ليس من باطلٍ توردُها المرءُ ولكن سوابقُ الأقدارِ
فأرض للسائل الخضوعَ وللقا رِفَ ذنباً بذلةً^(٥) الإعتذارِ

(١) ديوانه ٢٢ مجموعة الطرائف الأدبية ، مبيون الأخبار ٣ : ١١٣ .

(٢) الديوان : « غير خلاص وقال » .

(٣) رواية الديوان : « فما طعم الخطوب »

(٤) ديوانه ١٤٩ .

(٥) الديوان « مضاعفة » .

إِنْ تَجَافَيْتَ مِنْهَا كُنْتَ أَوْلَى مَنْ تَجَافَى عَنِ الذُّنُوبِ الْكِبَارِ
أَوْ تَعَاقَبُ فَأَنْتَ أَعْرَفُ بِاللَّهِ وَلَيْسَ الْعِقَابُ مِنْكَ بِعَارٍ

وقال أيضاً :

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَعَجَّلُ ولادهر أيام تجور وتعدل^(١)
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأكمل أخلاق الرجال التفضل
ولاعاراً أن زالت عن المرد^(٢) نعمة ولكن عارا أن يزول التعجل
وما المال إلا حسرة إن تركته وغنم إذا قدمته معجل

قَالَ : فَعَبَسَ الشَّيْخُ وَاكْفَهَرَ ، وَانْدَرَأَ عَلَى ابْنِهِ وَهَرَ ،
وَقَالَ لَهُ : صَدِّ بِأَعْقَقِي ، يَا مَنْ هُوَ الشَّجِي وَالشَّرَق . وَيَكْ ،
أَتَعْلَمُ أَمَّكَ الْبِضَاعَ ، وَظَنَرَكِ الْإِزْضَاعَ ! لَقَدْ تَحَكَّكْتَ الْعَقْرَبُ
بِالْأَفْعَى ، وَاسْتَنْتَ الْفِصَالَ حَتَّى الْقَرْعَى . ثُمَّ كَأَنَّهُ نَدِمَ عَلَى
مَافَرَطٍ مِنْ فِيهِ ، وَحَدَّثَهُ الْمِقَّةَ عَلَى تَلَاْفِيهِ ، فَرَنَّا إِلَيْهِ بِعَيْنِ
عَاطِفٍ ، وَخَفَضَ لَهُ جَنَاحَ مُلَاطِفٍ ، وَقَالَ لَهُ : وَيَكْ يَا بُنَى ،
إِنَّ مِنْ أَمْرِ بِالْقِنَاعَةِ ، وَزُجْرَ عَنْ الضَّرَاعَةِ ، فَمِ أَرْبَابُ الْبِضَاعَةِ ،
وَأَوَّلُو الْمَكْسَبَةَ بِالصَّنَاعَةِ : فَأَمَّا ذَوُو الضَّرُورَاتِ ، فَقَدْ اسْتَنْتَنِي
بِهِمْ فِي الْمَحْظُورَاتِ ؛ وَهَبَكَ جَهْلَتَ هَذَا التَّأْوِيلِ ، وَلَمْ يَبْلُغْكَ
مَا قِيلَ ، أَلَسْتُ الَّذِي عَارَضَ أَبَاهُ ، فِيمَا قَالَ وَمَا حَابَاهُ !

قوله : اكفهر ، اشتدَّ هبوسه ، ووجه مكفهر : منقبض كالح ، لا يرى فيه أثر بشر ولا فرح . اندرأ : اندفع على ابنه بالشتم . مر : كثر وجهه وحبسه . صه : اسكت . يا عقق : يا كثير العقوق ، ويقال : عقق أباه بعبقه عقوقا ، فهو عاق ، و يُعَدَّل إلى عقق للمبالغة ، كما صر وعمر : وعقق أباه : لم يطمعه وقطع رحمه . ولما قُتِلَ حمزة عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عن عمه ، مرَّ به أبو سفيان ، فطمنه بالرمح في شدقه ، وقال : ذق عقق ، أى ذق جزاء قتلِكَ يا عقق ، والعق : القطع والشق .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والدَّيُّوثُ ، وَرَجُلُهُ ^(١) النساء » .

قوله : الشَّجَا : الاختناق بالطعام ، الشَّرَق بالماء والطعام والشراب ، بهما قوام العيش ، فإذا عرض فيهما ذلك فقد عرضت مشقة وأذية في موضع الالتذاذ ، وكذلك الولد العاق ، وهو أذية في موضع راحة ، وما أحسن قول القائل :

قَرَايَةُ السُّوءِ دَاءٌ سُوءٌ فَاحِلٌ أَذَاهُمْ تَعِيشُ حَمِيدًا
فَن تَكُنْ قَرَحَةً بِفِيهِ يَصْنِيزُ عَلَى مَصَّةِ الصَّدِيدِ

المُضَاع : الفكاح والجماع . ظنرك : مرضعتك . تحككت : لصقت بها وحلقت حوا اليها . استنَّت : جَرَتْ متتابعة في سنٍّ ، وهو الطربق والمذهب ، ومنه فلان بسنٍّ ، أى يجرى على أى أمر شاء ، لا يزجره عنه زاجر . وقيل : استنَّت ، أى سميت ، من قولهم : سنّ الراعى لبله ؛ إذا أحسن رعيها فأسمنها ، فكأنه أسمنها وصقلها . القرعى ^(٢) : التى يصيبها الفزع في رأسها ، والقرعى : جمع قريع ، مثل مَرَضَى ومربض ، وهذه أمثال تغرب لمن يقشبه بغيره ، ولا يقوى قوته .

(١) الرجل (بالضم) من النساء المترجلة ابن الأثير .

(٢) لفظ المثل : استنَّت الفصال حتى القرعى ، ذكره الميداني في ١ : ٣٣٣ ، وقال : « يضرب »

لفظي يتكلم مع من لا ينبغي أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره » .

فَرَط : سبق . حدثه : ساقته . المَقَّة : الحبة . تلافية : تداركه بالعطف عليه .
 رنا : نظر : عاطف : راحم . ملاطف ، أى رفيق به ، أى حسن كلامه وأمنه .
 وخفض الجناح ؛ يكتفى به من لبن الجانب ويك : عجباً لك ! زجر : نهى .
 الضَّرَاعَة : النَّذال ، وضرع ضراعة فهو ضارع ، تضرع : تذل وتخشع . البضاعة :
 التجارة . المحظورات : المنوعات ، وأراد بالاستثناء ما أحل الله من المحرمات
 لأهل الضرائر ، ويروى : سوغوا فى المحظورات ، أى رخصوا لهم فيها . هبك :
 أحسبك . التأويل : التفسير . ولم ييلفك ما قبل ، يعنى فى إباحة السؤال للمضطر ،
 وهو قول الناس : الضرورات تبيح المحظورات ، ويصدق قوله تعالى : ﴿ قَدْ قُنْ
 اضْطُرُّ فِى غَمٍّ ﴾ ^(١) الآية ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا الْمَسْأَلَةُ كُدُوحٌ يَكْدَحُ
 بِهَا أَحَدُكُمْ وَجَهًا إِلَّا مَسْأَلَةً مِنْ ذِي سُلْطَانٍ أَوْفَى أَمْرٌ لَا بَدَّ مِنْهُ » . عارضه :
 قابله بنقيض ما قاله . حابه : اختصه بهذه الوصية ، أى جعل هذا الشعر وصية
 لمن سمعه ، ويقال : حابى فلان فلاناً ، إذا مال إليه واتصل به ، أخذ من حَبَى
 السحاب ، وهو السحاب الذى يدنو بفضه من بعض وقيل . حَبَاه : خصه
 باليل ، أخذه من الحَبْوَةِ ، وهى العطية يحبوها الرجل صاحبه ، ويخصه بها ،
 قال اليزيدى : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : ابنك ، وزوجك ، وخادمك .

لَا تَقْمَدَنَّ عَلَى ضُرٍّ وَمَسْغَبَةٍ لِكَيْ يَقَالَ عَزِيزُ النَّفْسِ مُصْطَبِرٌ
 وَانْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ أَرْضٌ مُعْطَلَةٌ مِنْ النَّبَاتِ كَأَرْضِ حَقْفِ الشَّجَرِ
 قَعْدٌ عَمَّا تُشِيرُ الْأَغْنِيَاءُ بِهِ فَأَيُّ فَضْلِ لِعُودٍ مَالُهُ تَمَرٌ
 وَارْحَلْ رِكَابَكَ عَنْ رَنْجٍ ظَمِئَتْ بِهِ
 إِلَى الْجَنَابِ الَّذِى يَهْنِي بِهِ الْمَطَرُ

وَاسْتَنْزَلَ الرَّيَّ مِنْ دَرِّ السَّحَابِ فَإِنْ
 بُلَّتْ يَدَاكَ بِهِ فَلْيَمِيزْكَ الظَّفَرُ
 وَإِنْ رُدِدْتَ فَمَا فِي الرَّدِّ مَنَقَصَةٌ
 عَلَيْكَ ، قَدْ رُدَّ مُوسَى قَبْلُ وَالْخَضِرُ

* * *

مَسْغَبَةٌ : جوع . حَفَّاءُ : حَلَقَهَا ، يَرِيدُ أَنْ الْأَرْضُ فَاتِ الْخَصْبِ تُقَصِّدُ
 لَهَا فِيهَا مِنَ الْأَرْزَاقِ ، وَالْأَرْضُ الْمُعْطَلَةُ مِنَ الذِّبَاتِ - وَهِيَ الْجَدْبَةُ - يَفْرَقُ عَنْهَا ،
 وَكَذَلِكَ الْغَنَى يُكْرِمُ لِلَّهِ ، وَالْفَقِيرُ يَهْجُرُ وَيَهَانُ .

[فضل المال]

وَمَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْمَالِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَجَاشِعِيِّ : « إِنْ
 كَانَ لَكَ مَالٌ فَلَكَ حَسَبٌ ، وَإِنْ كَانَ لَكَ خُلُقٌ فَلَكَ مَرُوءَةٌ ، وَإِنْ كَانَ لَكَ
 دِينٌ فَلَكَ كَرَمٌ » .

وَقَالَ حَكِيمُ لَابَنِهِ : يَا بُنَى أَوْصِيكَ ، عَلَيْكَ بِطَابِ الْمَالِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا
 أَنَّهُ عَزَى قَلْبِكَ ، وَذُلٌّ فِي قَلْبِ عَدُوِّكَ ^(١) .

وَقَالَ آخِرُ لَابَنِهِ : يَا بُنَى أَوْصِيكَ بِأَنْتَ تَنْتَهِينَ لَنْ تَزَالَ بِخَيْرٍ مَا تَمَسَّكَتَ بِهِمَا :
 دَرَمَكَ لِمَعَاشِكَ ، وَدِينَكَ لِمَعَادِكَ .

وَكَانَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حِمْدًا وَمَجْدًا ، فَإِنَّهُ لَا مَجْدَ إِلَّا
 بِفَعَالٍ ، وَلَا فَعَالٍ إِلَّا بِمَالٍ .

وَقَالُوا : الْمَالُ آتَى لِلسَّكَارِمِ ، وَعَمُونَ عَلَى الزَّمَانِ ، وَمَتَأَلَّفَ لِلْإِخْوَانِ ، وَمَنْ
 قَعْدَهُ قَالَتْ الرِّغْبَةُ إِلَيْهِ وَالرَّهْبَةُ مِنْهُ .

قَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ : الْمَالُ سِلَاحٌ لِلْأُمْنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ .

(١) مَا شِط : « قَوْلُهُ : « فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّهُ » جَوَابٌ لَوْ عَذُوفٌ ، أَيْ لِكَمَا أَكَّأَوْنَحْرَهُ ،
 (١٦ - مَرْجِعُ مَقَامَاتِ الْحَبْرِيِّ ج ٤)

وكان لأحيحة بن الجلاح بالزَّوراء ثمانمائة ناضح ، فدخل بسقائمه ، فمَرَّ بتمرة فلقطها ، فليَمَ على ذلك ، فقال : تمرة إلى تمرة تمرات ، وَجَلَّ إلى جَل دَوْد .
ثم أنشد يقول :

إني مقيمٌ على الزَّوراء أُعمرُها إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال^(١)
استغن أومت ولا يفرُّك ذو نسبٍ من ابن عمٍّ ومن عمٍّ ومن خال^(٢)
كلَّ الفداء إذا ناديتُ بِخَذُلِي إلَّا الفداء إذا ناديتُ يا مالى

وقال مروة بن الورد :

ذري لي لِفَنَى أَسْتَعِي فَإِنِّي رأيتُ الذَّنسَ ثمرُهمُ الفقيرُ^(٣)
وأدنام وأهونهم عليهم وإن أُمسى له حَسَبٌ وخيرُ
يُساعدُه القريب وتزِدْ به حابِلُته ويقهره الصغير
وباقى ذو الدنى وله جلال يكاد فؤادُ لاقِيهِ بطيرُ
قليل ذنبه والذنب جمٌ ولكنَّ لِفَنَى ربُّ غفور

ومن أمثال بغداد : المال المال ، وما سواه محال .

قوله : الأغنياء : الجهاال ، وأراد بهم الذين يأمرُون بالبخل . ظلمت : عطشت . والركاب : الإبل . والجناوب : الجناوب والناحية . يهيج : يسهل . والرئى : الشَّيخ من النساء ، والصَّوْب وقع الماء . والظفر : الفوز بالحاجة ، يقول : فارق أرضك واغترِب في طلب المال ، واسأل الكرماء يعطوك .

وقال الشاعر :

سأعيل نصَّ العيس يوماً ليكني غنى المال يوماً أو غنى الخلدانِ
فَلَمُوتٌ خيرٌ من حياة يُرى بها على المرء بالإقلالِ وَسَمُ هوانِ

(٢) الأغاني : « ولاهم »

(١) الأغاني ١٥ : ٣٧ ، وفيه : « على الإخوان »

(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٣٤ ، ولم ترد الأبيات في ديوانه .

إذا قال لم يُسَمَّعَ لحسن مقاله وإن لم يقل قالوا عديمُ بيان
 كَانَتِ الفِى فِي أَهْلِهِ يَجْعَلُ الْفِى بِفِيِرِ إِنْشَانٍ نَاطِقًا بِلِسَانٍ
 وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ : « قَدْ رَدَّ مُوسَى قَبْلَ وَالْخَضِرَ ، إِلَى قَوْلِهِ نَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا
 أَنْتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾ ^(١) .

وَفِي نَسَبِ الْخَضِرِ اخْتِلَافٌ ، مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ قَابِيلَ بْنِ آدَمَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ
 يَجْعَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَامِ بْنِ نُوحٍ خَمْسَةَ آبَاءَ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ سَامَ ، وَقَالَ عَلَيْهِ
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فُرْوَةٍ بَهِيضَةٍ ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ
 خَضِرَةً » . وَلِلْفُرْوَةِ : الْأَرْضُ الْبَيْضَاءُ ، وَقَصَّتْهُ مَعَ مُوسَى مَشْهُورَةٌ . وَقِيلَ إِنَّ
 مُوسَى صَاحِبَهُ غَيْرَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ . وَقَالَ مُوسَى لِلْخَضِرِ حِينَ فَارَقَهُ : عَظَمَى
 فَقَالَ : لَا يَرَاكَ اللَّهُ حَيْثُ تَهَاكُ ، وَلَا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمْرُكَ ، فَكَمَا تَذْهَبُ بِأَمَلٍ
 صَادِقٍ فَتُخَيَّبُ ، قَدْ تَذْهَبُ بِأَمَلٍ كَاذِبٍ فَتُصِيبُ ، وَتَذْهَبُ لِحَقِيرَةٍ ، وَتَدْرِكُ
 الْجَائِلَ . وَقَدْ ذَهَبَ مُوسَى لِيُقْقِيسَ نَارًا ، فَكَلَّمَهُ رَبُّهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا .

قَالَ ابْنُ عَبَّادٍ رَبُّهُ : مِمَّا جُبِلَ ^(٢) عَلَيْهِ الْحَزَنُ الْكَرِيمُ ، إِلَّا يَقْنَعُ مِنْ شَرَفِ
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَشَاءٌ مِمَّا انْبَسَطَ لَهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ، بَلْ يَكُونُ أَهْلُهُ فِيهَا هُوَ أَسْفَى
 دَرَجَةٍ وَأَرْفَعُ مَرْتَبَةٍ ، وَلِلَّذَلِكَ قَالَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ عَامِلٌ
 بِالْمَدِينَةِ لِدُكَيْنِ ^(٣) الرَّاجِزُ : إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً ، فَإِذَا بَلَغْتُكَ أَنِّي صَرْتُ إِلَى أَشْرَفِ
 مِنْ مَنَزَلَتِي فَأَنْتَى . فَلَمَّا صَارَ خَلِيفَةً أَتَاهُ ، فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمْتُكَ أَنَّ لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً ،
 وَأَنَّ نَفْسِي تَأْتَتْ إِلَى أَشْرَفِ مَنَازِلِ الدُّنْيَا مَنَزَلَةً ، فَلَمَّا بَلَغْتُهَا وَجَدْتُهَا تَقُوقُ إِلَى
 أَشْرَفِ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ مَنَزَلَةً .

وَمَنْ الشَّاهِدُ لِهَذَا الْمَعْنَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَلَّمَ رَبُّهُ نَسَّكَلَهُمَا سَأَلَهُ ،

(١) سُورَةُ الْكَهْفِ ٧٧ (٢) ط : « الرَّعْبِ » تَحْرِيفٌ (٣) الْقَدَمُ ٣ : ٢٠ ، ٢١

النظر إليه إذ كان ذلك - لو وصل إليه - أشرف من المنزلة التي نالها ؛ فالحرّ
الكريم لا يقنع بمنزلة إلا رجا أشرف منها قال : ومن قولنا في هذا المعنى :

والحرّ لا يكتفى أبداً من نيل منزلةٍ حتى ينال ألقى من دونها العطبُ
يسعى به أملٌ من دونه أجلٌ إن كَفَّه رهبٌ يدعو به رغبُ
لذلك ما سال موسى ربه : أرني أنظرُ إليك وفي تسأله عجبُ
يبغى التزيد فيما نال من كرم وهو النجى لديه الوحي والكتبُ
وقال حبيب :

ذري وأهوال الزمان أقاسها فأهواله العظمى تليها رغائبه^(١)

• • •

قال : فلمّا أن رأى القاضى تناهى قول الفتى وفعله ، وتحلّيه
بما ليس من أهله ، نظر إليه بعين غَضَبِي ، وقال : أتميميامرةً وقيسيًا
أخرى ! أف لمن ينقض ما يقول ، ويتلوّن كما تتلوّن الغول .
فقال الغلام : والذي جمّلك مفتاحاً للحق ، وفتحاً بين الخلق ؛ لقد
أنسيّت مذآسيت ، وصديّ ذهني مذ صديت ؛ على أنّه أين البابُ
الفتح ، والمطاء الشرح ! وهل بين من يتبرع باللها ، وإذا استطعم
بقول : ها !

قال له القاضى : منه فع الخواطي سَهْم صائب ، وما كل برقي
حالب ، فيز البروق إذا شئت ، ولا تشهد إلا بما علمت .

قوله تحليه : تزينه ، وقوله : أنميئاً مرة وقيسياً أخرى ، مثل يضرب لمن
 يتناقض فيما يقول ، تقديره : أنتسب مرة لقيم وتنسب مرة لقيس ! وتميم وقيس
 قبلتان عظيمتان ، وبينهما أبداً مكائحات ومقاتل ، وتميم هذا ابن مرة ابن أدين
 طابخة بن إلياس بن مضر ، وقيس ابن إلياس ، قال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدرداء ، إذا فاخت ففاخرة بقريش ،
 وإذا كانت ففكار بتميم ، وإذا حاربت فحارب بقيس ، إلا أن وجهها
 ككفانة ، ولسانها أسد ، وفرسانها قيس ، ألا إن لله فرساناً في سمائه وهم الملائكة ،
 وفرساناً في الأرض وهم قيس ، وإن آخر من يقاتل على الإسلام حين لا يبقى
 إلا ذكره ، ومن القرآن إلا رسمه ، رجل من قيس » ، قلت : يا رسول الله ،
 من أى قيس ؟ قال : من سليم . وفي البدعية :

إنّ حال مع الزما ن كحالى مع "نَسَب"^(١)
 أنا أصحى مع النّبيط وأمنى مع العرب
 نسى في يد الزما ن إذا سامه اقلب

وقال زفر بن الحارث لعمران بن حِطّان : أزيدياً مرة ، وأوزاعياً أخرى !
 وقال عمران بن حِطّان :

- فاعذر أخاك ابن زنباع فإن له في النّائبات خطوباً ذات ألوان^(٢)
 يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعديانى
 وقال آخر :

أفى الولائد أولادٌ لواحدةٍ وفى العياده أولادٌ لثلاث
 قوله : يتلون ، أى يتغير ويقتنع . والنّول : ساحرة الجن ، وهو يتصوّر

(١) مقامات الحمفاني ١٠٥

(٢) الكامل ٣ : ١٧٠

في صور شقي . وأخذه من قول كعب بن زهير :
 فما تدوم على حالٍ تسكونُ بها إلا كما تلونُ في أنوابها الغول^(١)
 وتزعج العرب أنه إذا انفرد رجل في الصحراء ظهرت له في خِلْفَةِ إنسان ،
 ولا يزال يقبعا حتى يصل الطريق ، فتدنو منه ، وتمثل في صور مخافة فتهاكبه
 رَوْعاً . وإذا أرادت أن تضلّ الناس أوقدت نارا فيُبصرها السارى فمقصدها ،
 فتفعل ذلك وتروّعه ، فإن كان الذي يأنبها شجاعاً مقدّماً تحامل وتبعها ، فإذا
 رأت ذلك لم تغرّه ، وجلس يصطلي بفارها وهي معه . وقال تأبط شرا :

وأدمم قد جئتُ جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعة^(٢)
 إلى ضوء نارٍ تنورثها^(٣) فبت لها مدبراً مُقبلاً
 فأمسيتُ والغول لي جارةً فيا جارنا أنت ما أهولا
 فمن يك عن جارتي سائلاً فإن لها باللوى منزلا

قال أبو عمرو رحمه الله بات تأبط شرا لهلة ذات خلفه ورعد وبرق بواد
 يقال له : رَحَى بطن ، فلقية الغول - وهو سبعٌ من سباع الجن - فما زال يقاثلها
 حتى قتلها ، فقال :

ألا مَنْ مبلغٌ فتيان فتم- بما لا قيمتُ عند رَحَى بطن^(٤)
 فإنني قد رأيت الغول نهوى بسمه كالصحيفة صخمان^(٥)
 فشددت شدةً نهوى فأهوى لها كفي بمصقولٍ يماني
 كراس الهر مشقوق اللسان وساقا مخدج وشواة كلب
 وثوبٌ من عباء أو شنان^(٦)

(١) ديوانه ٨ (٢) الشعر والعمراء ٣١٣ . والمجمل : الفرو ، واجتابة : أبعته .

(٣) العمراء : « على شيم نار » (٤) مختار الأغاني ٢ : ١٥١ .

(٥) السهب : الفلاة . والصحمان : ما استوى من الأرض .

(٦) المخدج : الناقص الخلق . والمواة : كعب الرأس . والشنان : القرية الخلق .

قالوا : وَخَلَقْتُمَهَا خَلْقًا إِنْسَانٍ وَرَجُلًا هَارِجًا ، فَإِذَا صَاحَ بِهَا الرَّجُلُ :
رَجُلِي هَارِجٌ أَنْهَيْتَ نَهْيًا لَا تَحِلُّهُ السَّبَبُ وَالطَّرِيقُ ، وَفَرَّغْتَ مِنْهُ .

وَانْظُرْ فِي الثَّامَةِ وَالْأَرْبَعِينَ ذَكَرَ الْقَطْرَ وَفِيهِ شَيْءٌ مُسْتَعَارَفٌ .

قوله : فَتَّاحًا ، أَيْ حَاكِمًا . وَافْتَحَ بَيْنَنَا ، أَيْ أَحْكَمَ بَيْنَنَا ، وَالْفَتْحُ : النَّاصِرُ ،
وَالْفَتْحُ : النَّصْرُ . وَالْحَاكِمُ بِنَصْرِ الْمَظْلُومِ . أُسَيْتَ : حَزَنْتَ صَدَى ذَهَبِي ، أَيْ
تَغَطَّى بِالْفُغْلَةِ ، مِنَ الصَّدَأِ ، وَهُوَ مَا يَلْوُهُ مِنَ الدَّرَنِ . وَصَدَيْتُ ، غَيْرُ مَهْمُوزٍ
أَصْدَى صَدَى ، وَأَرَادَ مَذْ أَنْفَقْتَ عَلَانِيِ الْوَسْخِ ، وَصَحْبِيِ الذَّيْنِ . الْفُتْحُ :
السَّكْنُ الْفَتْحُ الْوَاسِعُ الَّذِي لَا يَفْلُقُ فِي وَجْهِ قَاصِدِهِ . الشَّرْجُ : السَّكْنُ الْقَدِيمُ
يَسْرَحُ صَاحِبُهُ فِي أَنْوَاعِ الْجُودِ ، وَالسَّرْحُ : السَّهْلُ السَّرِيعُ ، وَنَاقَةُ سَرُوحٍ : مَسْرُوعَةٌ
فِي سِيرَتِهَا . يَتَبَرَّعُ : يُفَضِّلُ بِجُودِهِ مَطْلُوعًا ، وَتَبَرَّعَ : تَطَوَّعَ . الْهَاءُ : الْعَطَايَا .
هَا . مَعْنَاهَا : خَذْ وَتَنَاوَلْ . وَذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي الدَّرَةِ^(١) فَقَالَ : وَيَقُولُونَ
لِمَنْ يُتَنَاوَلُ شَبَثَاهَا ، بِقَصْرِ الْأَلْفِ ، فَيَلْعَنُونَ فِيهَا ، لِأَنَّ الْأَلْفَ مَمْدُودَةٌ كَمَا جَاءَ فِي
الْحَدِيثِ : « الْذَهَبُ بِالذَّهَبِ رَبًّا إِلَّا هَاءُ وَهَاءُ » . وَبِجُودِ فِيهِ فَتَحَ الْهَمْزَةَ وَكَسَرَهَا
مَعَ الْمَدِّ وَلَا تَقْصُرُ إِلَّا إِذَا انْصَلَتْ بِهَا كَافُ الْخَطَابِ ، فَيَقَالُ : هَاكَ ؛ كَمَا يَرُوى
أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آبَ إِلَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ بَعْضِ مَوَاطِنِ الْحَرْبِ ،
وَسُوفَهُ يَقَطُرُ دَمًا ، فَقَالَ :

• أَفَاطَمَ هَاكَ السِّيفَ غَيْرَ مَذْمُومٍ •

وَعِنْدَ النُّجُوبِينَ أَنَّ الْمَدَّ فِيهَا بَدَلَ مِنْ كَافِ الْخَطَابِ ، لِأَنَّ أَصْلَ وَضْعِهَا أَنَّ
تَقْتَرَنُ كَافُ الْخَطَابِ بِهَا . فَسَاقَهَا أَبُو مُحَمَّدٍ هُنَا مَقْصُورَةً بِغَيْرِ كَافٍ ، وَوَقَعَ فَيَاجِزُ
أَنَّهُ لَحْنٌ . فَإِنْ قِيلَ : لَعَلَّمَا لَهَا وَقَمْتُ فِي فُقْرَةٍ مَوْقُوفٍ عَلَيْهَا ، يَحْتَمِلُ فِيهَا ذَلِكَ ،
فَنَقُولُ : إِنَّهُ قَدْ أَرَدَهَا عَلَى فُقْرَةٍ قَبْلَهَا مَقْصُورَةً بِإِجْمَاعٍ ، وَهِيَ الْهَاءُ نَسَوَاهَا مَعَهَا ؛
عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْفَنِّ حَكَمُوا فِي اللَّفْظَةِ أَرْبَعَ لَفَاتٍ : هَاءُ مَقْصُورَةً كَمَا فِي الْقَامَةِ ، وَهَاءُ

بالمدمع فنع الهمة وكسرها . وسمع رجل أبا العتاهية ينشد :
فانظر بطرفك حيث شئت فان ترى إلا بخيلا

فقال : قد بخلت الناس كلهم ، فقال : كذبى أنت بواحد منهم سخى .
قوله : مه : ا كفف . الخواطر : الأسهم تخطى الفرض ، وهذا مثل يضرب
لن يكثر الخطأ ويأتى أحيانا بالصواب . خالب : خادع شئت اللبرق : نظرت
سحابه أين يطر . أعظم : جعله عظيما .

* * *

فلما تبين للشيخ أن القاضى قد غضب للكرام ، وأعظم تبخيل
جميع الأنام ؛ علم أنه سينصرف كلمته ، ويظهر أكرؤمته ، فاكذب
أن نصب شبكته ، وشوى فى الحريق سمكته ، وأنشأ يقول :
يأيها القاضى الذى علمه وحلمه أرسخ من رضوى
قد ادعى هذا على جهله أن ليس فى الدنيا أخوجذوى
وما درى أنك من مشر عطاؤهم كالمس والسوى
فجذ بما يثنيه مستخزيا مما افتري من كذب الدعوى
وأنشئ جذلان أنشئ بما
أوليت من جذوى ومن عدوى

* * *

والحريق : ما تحرقه النار من الحشيش والعهدان ، وناره ضعيفة لا تدوم .
السمك : كبش الماء ، فلا يستوى إلا على نار قوية فربما شوى سمكه ما دام
لهب النار موجودا ، فإذا سكن الهم لم يتمكن من شيئا لعدم الجمر فى الحريق ،
فهو يد أنه حرّض القاضى بالشمر على الكرم ، حين اهتز للكرام ، وغضب

من تبخيلهم . فهزه بهذا الشعر ليجود عليه قبل أن يسكن ، فربما يبدو له ألا
يجود . أرسخ : أثبت . رضوى : جبل بالمدينة سهل مشتق من الرضوان ، كان
الذي يصعده راض عنه لقلة المشقة في صعوده . أخو جدوى : صاحب عطية وكرم .
المن والسلوى : طعام كان ينزل على بني إسرائيل ، وقيل : المن الترنجيبين والسلوى
السماني ، وهو طائر . بثنيه : بره . مستخزبا : صاغرا خاضعا . وروى
« مستخدبا » ، والخديبة : الاستحياء ، أو يكون بمعنى مهانا ، والخزى : الهوان
افتري : كذب واستبعد . أنشئ جذلان : أرجع فرحا . أوليت : أعطيت .
جدوى : إمانة ، أي أرجع بالجودى ، وإمانتك لى عليه حتى يتوب من عقوقه .

* * *

قال : فهش القاضى لقوله ، وأجزل له من طوله ، ثم لفت
وجهه إلى الغلام ، وقد نصل له أسهم الملام ، وقال له : أرايت
بطل زعمك ، وخطأ وهمك ! فلا تمجل بعدها بدم ، ولا تنعت
عوداً قبل عجم ، وإياك وتأيتك ، عن مطاوعة أريك ، فإنك إن
غدت تمقه ، حاق بك منى ما تستحقه ، فسقط الفتى في يده ،
ولاذ بحقوق والده ، ثم نهض يحفد ، وتبعه الشئ يمشد :

من ضامه أو ضاره دهره فليتمرد القاضى فى صغره
سماحه أزرى بمن قبله وعدله أتعب من بعده

* * *

هش : فرح . أجزل : أكثر . طوله : إفضاله وهباته . وافت : رد .
نصل : جعل له نصلا ، وأنصلها : نزع نصلها ، والنصل : حديدة السهم . بطل
زعمك ، أى بطلان قولك . وهمك : ظنك . تنعت : تنجس . عجم : اختصار ،

أى حتى تعلم : هل هو قوى أو ضعيف ، يقول : لا نعتب أحداً حتى تجرب به . قوله : وإياك وتأييدك من مطاوعة أبيك ، أى احذر أن تمتنع عن مطاوعة والدك ، فإنك ومالك لأبيك .

جابر رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إن أبى أخذ مالى ، فقال له : اذهب ، فأنتني به ، فأوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الشيخ عن شيء في نفسه ، قاله في شأن ابنه . فلما جاء الشيخ ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ! فقال : سله يا رسول الله ، هل أفقته إلا على نفسى أو على إحدى عمامته أو خالاته ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : دعى من هذا ، أخبرنى عن شيء قلته في نفسك ، ما سمعته أذنك ، فقال : يا رسول الله ، ما زال الله يزيدنا بك يقيناً ، لقد قلت في نفسى شيئاً ، ما سمعته أذنائى ، وأنشد يقول :

غذوتك مولوداً وعلمتك يافماً	تعل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لسمك إلا ساهراً أتمل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرت به دونى فعمسائ تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها	لنعم أن الموت وقت مؤجل
فلما باغت السن والغاية التى	إليها مدى ما كنت فيك أو مل
جملت جزائ غلظة وفضاظة	كأنك أنت المنعم المتفصل
فليعلم إذ لم ترع حق أبوتى	فعلت كما الجار المجاور بفعل

قال : حينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلايب ابنه ، وقال : « أنت ومالك لأبيك » .

قوله : حاق ، أى نزل ، تقول : حاق به المكروه والشؤم يَحِيقُ حَيْقًا ،
نَزَلَا بِهِ .

ابن عرفة: وجبا عليه وألزمه ، قال الأزهري رحمه الله: الحق ما يحيط بالإنسان
من سوء عمله ومكروه فعله ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَسْكُرُ السَّبِيءُ ﴾
إِلَّا بِأَهْنِهِ ، أى لا ترجع عاقبة مكرم إلا عليهم . سَقَطَ فى يده ، يقال ذلك
للنادم المتحير ، ويقال : سَقَطَ فى يده وأسَقَطَ فى يده ، إذا دُم على فعله ، وتحسّر
عليه ، واليَد هنا : الندم ، وقوله : سَقَطَ الذئب فى يده ، قل جماعة من أهل اللغة :
صوابه : سَقَطَ فى يده من غير تسمية الفاعل ، لأن الفعل يستند إلى المجرور .
وقال الأزهري رحمه الله : إِنَّمَا حَسَنَ سَقَطَ فى يده بضم السين ، غير مسمى فاعله
الصلة ، وهى فى يده ، ومثله قول امرئ القيس :

* دَع عَنْكَ نَهْهَا صِيحٌ فى حَجَرَاتِهِ *

أى صاح المتعجب فى نواحيه ، وكذلك المراد سقط الندم فى يده . وقال
أبو القاسم الزجاجي : سَقَطَ فى أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ،
فيوجد فى أشعارها وخفى على الإسلاميين قال أبو نواس :

* ونشوة سقطت منها فى يدي *

وأخطأ فى استعمالها ، لأن فعلت لا يُبنى إلا ما يعمدنى ، لا يقال : رغبت
ولا غضبت ، إنما يقال رغبت فى وغضب على . لاذ : لجأ وتستر ، ولاذ فلان
بفلان : تستر به ودار حوله ، وبعضهم يقول : أَلَاذ ، والأولى هى الغالبة ، والأوْاد
مصدر لاوْذ ، ولذا أثبتت الواو ، ولو كان مصدر «لاذ ، لقات لياذا ، كقمت قياماً .

بحقو : مخفّر ، وجمه أحماء وحقاء . وحفد يحفد أسرع . ضامه : أذله .

ضارّه : ضرّه : أزرى : فَعَّرَ . وتقدم معنى البيت في الرسالة السادسة والعشرين

قال الزاوي : فَعَّرْتُ بين تعريف الشيخ وتنكيره ، إلى أن احرورف لاسيره . فَنَاجَيْتُ النَّفْسَ بِاتِّبَاعِهِ ، وَلَوُاْ إِلَى رِبَاعِهِ ، لَعَلِّي أَظْهَرُ عَلَى أَسْرَارِهِ ، وَأَعْرِفُ شَجَرَةَ نَارِهِ ، فَمَدَّتْ أَلْمَلَقُ ، وَأَنْطَلَقْتُ حَيْثُ انْطَلَقَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَخْطُو وَأُعْتَقِبُ ، وَيُبْعِدُ وَأَقْتَرِبُ ، إِلَى أَنْ تَرَأَى الشَّخْصَانَ ، وَحَقَّ التَّعَارُفُ عَلَى الْخُلُصَانِ ، فَأَبْدَى حَيْثُ نَشِئُ الْاهْتِشَاشِ ، وَرَفَعَ الْارْتِمَاشِ ، وَقَالَ : مَنْ كَذَبَ أَخَاهُ فَلَا عَاشَ . فَعَرَفْتُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ السَّرُوجِيُّ بِالْإِمْحَالَةِ ، وَلَا حُتُولَ حَالَةٍ . فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ لِأَصَافِحَهُ ، وَأَسْتَعْرِفُ سَانِحَهُ وَبَارِحَهُ ؛ فَقَالَ : دُونَكَ ابْنُ أَخِيكَ الْبَرِّ ، وَتَرَكَنِي وَمَرَّ . فَلَمْ يَعُدُّ الْفَتَى أَنْ أَنْ أَفْتَرَّ ، ثُمَّ فَرَّ كَا فَرَّ ، فَمَدَّتْ وَقَدْ اسْتَنْبَتُ عَيْنُهُمَا ، وَالْكُنَّ أَيْنَ هُمَا !

احرورف : مال وانحرف . ناجوت : حدثت . رباعه : دياره . شجرة ناره ، يريد أصل جبلته . اعتقب : أمشي خلفه واتبع عقبه . تراعى : ظهر ، وخُلُصَانُ الرَّجُلِ : صديقه الذي خلصت له مودته . الالهة شاش : الطرب والبشر . الارتعاش : الرعدة ، يريد أن داه كذب لاحقيقة له محاله : حيله . حثول : تغير . أصافحه : أعانقه وأسلم عليه . أستعريف سَانِحَهُ وَبَارِحَهُ ، أى أطلب منه

أن يعرفني بخيره وشره . والسائح من الطير والوحش ما مرّ على ناحية يمينك ،
والبارح ما مرّ على ناحية يسارك . وقيل : السائح ما أولاك ميامنه ، والبارح :
ما أولاك مهامره ، وأكثر العرب تتبرك بالسائح وتتشام بالبارح ، وبعضهم
يتبرك بالبارح ، ويتشام بالسائح ، والسائح : الذي يمر عليك عن مهامك إلى
مهامك ، فيمكن لقطاع طعنه ، ولراى رموه ، فالذى يطمئن به يرى أنه رزق
حاصل ، والذي يُتشام به يرى أنه عاطب وهالك ، والبارح بالضدّ ، فالأول
يرى أنه فائت ، ورأيه خاسر فيتشام به ، والثانى يرى أنه سالم غير عاطب ،
فوثمّين به ، والذين يقيمون بالبارح ويتشامون بالسائح أهل نجد ، والذين
يضادّونهم أهل العالية .

قوله : دونك ، أى خذه واقصده . البرّ : والبار : الكثير الإكرام لأبويه .
افترّ : ضحك . استنبذت : عرفت . عنيهما : شخصهما ، وجعله آخر المقامة برّاً
له لموافقه له فى الحيل ، وجرت العادة بأن الأب إذا كان نجيباً ، فالابن بالضدّ
ولهذا قال الشاعر :

إذا أطاع الدهر حرّاً نجيباً فسكن فى ابنه سبب الإعتماد
فلست ترى من نجيب نجيباً وهل تترك النّار إلا الرماد



المقامة الثامنة والثلاثون وهي المروية

حكى الحارث بن همة أم قال: حُبِّبَ إِلَى مَذْ سَمَتِ قَدِيحِي ، وَنَفَثَ قَلَمِي ، أَنْ أَتَّخِذَ الْأَدَبَ شِرْعةً ، وَالْأَقْتِبَاسَ مِنْهُ نُجْمَةً ؛ فَكُنْتُ أَنْقَبُ عَنْ أَخْبَارِهِ ، وَخَزَنَةَ أَسْرَارِهِ ؛ فَإِذَا أَلَفْتُ مِنْهُمْ بُيُوتَ الْمُتَمَسِّسِ ، وَجَذْوَةَ الْمُقْتَبِسِ ، سَدَدْتُ يَدِي بِغَزْزِهِ ، وَاسْتَنْزَلْتُ مِنْهُ زَكَاةَ كَنْزِهِ ؛ عَلَى أَنِّي لَمْ أَلْقَ كَالسَّرُوجِيِّ فِي غَزَاةِ الشُّخْبِ ، وَوَضَعَ الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَسِيرَ مِنَ الْمَثَلِ ، وَأُسْرَعَ مِنَ الْقَمَرِ فِي النُّقْلِ ، وَكُنْتُ لِهَوَى مُلَاقَاتِهِ ، وَاسْتِحْسَانِ مَقَامَاتِهِ ، أَرْغَبُ فِي الْإِعْتِرَابِ ، وَأُسْتَعَذِبِ السَّفَرِ الَّذِي هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ .



قوله : نفث ، أى كتب ، والنقث ما تلقى من فيك من البصاق الغليظ ، فحبه ما يلقى القلم من المداد بالنقث ، هذا ظاهر اللفظ ، وإنما أراد في المعنى بالقلم ذكره ، ونفثه مدته ، فكفى عن البلوغ بذلك ، فهو يريد وقت الحلم ، وهو الوقت يقوى فيه على المشى في الأسفار ، والتصرف ؛ كذا فسرنا لنا بعض حذائق أشياخنا ، وفسره الفنجديهي على ظاهره ، فقال : معنى مذ سعت قدمي نفث قلمي ، مذ قدرت على المشى والكتابة والعظم والنثر . شريعة : طريقة وشرعة وعادة ، ومعناه : أصرفتي إلى علم اللغة والعربية . قال الشافعي رضي الله عنه : مَنْ نَعِمَ الْقُرْآنَ عَظُمَتِ قِيَمَتُهُ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْفَقْهِ أَنْبَلَ مَقْدَارَهُ ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْلُغَةَ رَقِيَ طَبْعُهُ ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْحِسَابَ جَزُلَ رَأْيُهُ ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ قَوَّيَتْ حُجَّتُهُ

ومن لم يسنّ نفسه ، لم ينفعه عمله .

الافتباس : الاكتساب وهو افتعال ، من القَبَس . نجمة : طلب المرعى ، أى جمعت طلب الأدب لى غذاء ورزقا . أنقَب : أبحث . أحبارُه : علمائه . الفيت : وجَدَت . بغية : حاجة . الملتَمِس : الطالب لشيء . جَذْوَة : جرة عظيمة . والمُتَقَبِّس : الطالب للنار ، والغَرَز : للرجل ، كالتَّكَبُّس كالبسرج ، ومضى شددت بغرزه ، أى تمسكت بركابه وبالفيت فى خدمته ، روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَخَذَ بِرَكَابِ رَجُلٍ لَا يَرْجُوهُ وَلَا يَخَافُهُ غَفَر لَهُ » .

غزارة : كثرة ، والسَّعْب : جمع سحابة ، كفى بها عن كثرة العلم . الهناء : القَطْران . الثُّقْب : جمع ثُقْبَة وهو أوّل ما يبدو من الجَرْب ، وهو مثلّ لمن وضع الشيء فى موضعه ، أراد أنه ماهر ، أى حاذق يعطى كلّ طاب ما يستحقه ويشفيه من سؤاله ، لأن الجهل فى القلب بمنزلة الداء ، فهذا يوقع بهانه بموضع الجهل ، فيبرأ صاحب ذلك من دائه ، ووضع الهناء مواضع الثقب ، عَجَزُ يَت لدريد بن الصنّة ، وكان خرج فرأى الخنساء الشاعرة تهناً ذوداً لها ، ثم نَصَّت ثيابها واغتسلت وهو يراها ولا تراه فقال :

حَيُّوا تُمَاضِرَ وَارْبَعُوا صَحْبِي وَقِفُّوا فَنَ وَقُوفُكُمْ حَسْبِي ^(١)
 مَا لِمَنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِهِ كَالْيَوْمِ طَالَى أَبْنُقٍ جُرْبُ
 مُتَبَدِّلًا تَبَدُّوْ مُحَاسِنُهُ بَضْعُ الْهِنَاءِ مَوَاضِعِ الثُّقْبِ
 وتُمَاضِر اسم الخنساء . قوله : أَسِيرَ مِنَ الْمَثَلِ ، أى أنه لا يستقرّ ببلد .

(١) الشعر والشعراء ٣٠٢ والأغانى ١٥ : ٧٦ وبعد هذا البيت هناك :

أَخْنَأَسَ قَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِكُمْ وَأَحَابَهُ تَبَيَّلَ مِنَ الْحَبِّ

النقل ، يريد انتقاله في المنازل فلا يقيم بمنزلة سوى ليلة ، وينتقل في الثانية إلى أخرى ، فأراد أن أبا زيد لا يستقرّ ببلد إلا ما يستقرّ القمر بمنزله وهي ليلة واحدة ، بل هو أسرع من القمر في ذلك ، وإنما خصّ القمر به لأنه أسرع الكواكب نقلةً من رُج إلى رُج ، إذ لا يمكث في البرج إلا يومين أو ثلاثاً ، والبرج منزلتان وثلاث ، والشمس تمكث في البرج ثلاثين يوماً ، وعطارد يمكث فيه سبعة عشر يوماً ، والمشتري اثني عشر شهراً وزحل ثلاثين شهراً ، والمريخ شهراً ونصفاً ، والزهرة ستة وعشرين يوماً ، والرأس والذنب ثمانية عشر شهراً ، ذلك تقدير العزيز العليم .

قوله : وأستعذب السفر الذي هو قطعة من العذاب : هو حديث صحيح ، رواه مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدهم نومه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نَهْمَتَهُ من وجهته فليجمل الرجوع إلى أهله . » . النَهْمَةُ . بلوغ الهمة والشهوة والحاجة ، ورجل منهوم بكذا مواع به .

• • •

فلمّا تطوّحتُ إلى مَرَوْ ، ولا غَرَو ، بشرّني بملقاه زَجْرُ الطَّيْرِ ، والفأل الذي هو بريء الخير ؛ فلم أزل أنشدّه في المحافل ، وعند تلقّي القوافل . فلا أجِدُ عنه مُخْبِراً ، ولا أَرى له أثراً ولا عَمِيْراً ، حتى بلغ اليأسُ الطمعَ وانزوى التأميلُ وانقطع ، فإني لذات يوم بحضرة والى مَرَوْ ، وكان ممن جمَعَ الفضلَ والسَّرو ، إذ طلَعَ أبو زَيْدٍ في خلقٍ مِمْلَاق ، وخلق مِمْلَاق . فحيّا الوائِيَّ تَحِيّةَ المُحْتَاجِ ، إذ أَلِني ربُّ التاج ، ثم قال له :

اعلم وقيتَ الذم ، وكفيتَ الهم ؛ أن من عُدِقتَ به الأعمال ،
أعلقتَ به الآمال ، ومن رُفِعتَ له الدرجات ، رُفِعتَ إليه الحاجات .
وَأَنَّ السعيدَ مَنْ إِذَا قَدَرَ ، وَوَاتَاهُ الْقَدَرُ ، أَدَّى زَكَاةَ النِّعَمِ ، كَمَا يُؤَدِّي
زَكَاةَ النَّعَمِ ، وَالتَّزَمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ ، مَا يُتَزَمُ لِلْأَهْلِ وَالْحَرَمِ . وَقَدْ
أَصْبَحْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ عَمِيدَ مِصْرِكَ ، وَعِمَادَ عَصْرِكَ ، تَرْجَى الرَّكَابِ
إِلَى حَرَمِكَ ، وَتَرْجَى الرِّغَائِبَ مِنْ كَرَمِكَ ، وَتُنْزِلُ الْمَطَالِبَ بِسَاحَتِكَ ،
وَتُسْتَنْزِلُ الرَّاحَةَ مِنْ رَاحَتِكَ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ قَظِيمًا ،
وَإِحْسَانُهُ لَدَيْكَ عَمِيمًا .

• • •

قوله : تطوّحت ، يقال : تطوّح في البلاد : ذهب به هاهنا وهاهنا ، فأراد
بقوله : تطوّحت : رميت بنفسي إليها .

[ذكر مرو]

مَرَوْ : بلدةٌ بِخُرَّاسَانَ^(١) ، جَلِيلَةٌ لَهَا قُرَى وَحِلَالَتٌ ، وَتُسَمَّى أُمَّ خُرَّاسَانَ ،
وَهِيَ دَارُ خُلَافَةِ الْمَأْمُونِ ، وَمِنْهَا خَرَجَ أَبُو مُسْلِمٍ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ ، يُنْسَبُ إِلَيْهَا .
الْقَتُوبُ مَرَوِيُّ وَالرَّجُلُ مَرَوِزِيٌّ ، وَهُوَ شَاذُ النِّسَبِ ، وَمَنْ مَرَوْ إِلَى مَرَوْ^(٢)
خَمْسَ مَرَاحِلَ ، وَعَلَى مَرَوْ نَهْرٌ قَوَّهَتْهُ بِالسَّابِيَانِ ، وَهُوَ جَبَلٌ عَظِيمٌ الِارْتِفَاعِ ،
تَسِيلُ مِنْهُ أَنْهَارٌ تَخْتَرِقُ بِلَادَ خُرَّاسَانَ ، مِنْهَا وَادِي خُورَزْمٍ ، مَسِيرَتُهُ أَرْبَعُونَ
يَوْمًا ، وَوَادِي الْقَنْدَهَارِ مَسَافَتُهُ شَهْرٌ ، وَنَهْرُ سَجِسْتَانَ ، مَسَافَتُهُ شَهْرٌ ، وَنَهْرُ مَرَوْ ،
مَسَافَتُهُ شَهْرٌ ، وَنَهْرُ هَرَاةَ مَسَافَتُهُ عَشْرُونَ يَوْمًا ، وَنَهْرُ بَلْخٍ مَسَافَتُهُ اثْنَا عَشَرَ

(١) يريد مرو الشامجان ، ولصبتها نيسابور .

(٢) يريد من مرو الروذ إلى مرو الشامجان ؛ ذكرهما بالقوت .

(١٧ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

يوما ، وبلغ هي متوسطة خراسان ، منها إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مغربا ، وإلى سجستان مما يلي القبلة كذلك وإلى كابول وقندهار كذلك ، وإلى خوارزم كذلك . وأهل مَرَوْأطبع الناس على البُخْل ثم أهل خراسان ، قال نمامة : ما رأيت الهَيْكَ يأكل في بلد قط إلا وهو يدعو الدجاجة إلى الحب ، ويلفظ الحب إليها ، لِأَتَمَرُو ، فإني رأيته يأكل وحده ، فعلت أن لؤمهم كثير جدا ، وهو فيهم طبع ، ورأيت بها طفلا صفها ، بيده بيضة ، فقلت له أعطنيها ، فقال لي : ليست نسما في يدك ، فعلت أن النع طبع مركب فيهم .

لا غرو : لا محجب . زَجَر الطير . النفاؤل بها ، وفتر الشافعي رضى الله عنه قوله النبي صلى الله عليه وسلم « أَقْرُوا الطيرَ على مَكِنَاتِهَا ^(١) » . لأن الرجل كان في الجاهلية ، إذا أراد الحاجة أتى الطائر في وَكْرِهِ فنفره ، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته ، وإن أخذ ذات الشمال رجع . فهي النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك وقال : « لا عَدْوَى ولا طَيْرَة ، ويعجبني الغال » قيل : وما الغال ؟ قال : « كلمة طيبة » .

[العيافة والزجر]

وزجر الطير القيام بها ، والتشاؤم . وكان عند العرب قوة زائدة وإدراك ، فينظر الزاجر منهم للطائر ، ولما يفعل ، فيستقري من ذلك ما يتيأمن به وينشام منه ، مثل ما يحكى عن أمية بن أبي الصلت أنه كان يشرب مع إخوان له في قصر خَيْلان بالطائف ؛ إذ سقط غراب على شرف القصر ، فتمب نعمة ، فقال له أمية : بغيك الكشكش - وهو التراب ، فقال له إخوانه ما يقول ؟ قال : يقول : إذا شربت الكأس الذي في يدك ميت . ثم نمب نعمة ، فقال أمية نحو ذلك ، فقالوا له :

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية ٤ : ٢٥٠ ، وقال في شرحه : « أي لا تزجروها وأفروها على مواضعها التي جعلها الله لها » .

وما يقول ؟ قال : زعم أن علامة ذلك أن يقع على هذه المذبة تحت القصر ، فيستنير عظاما ، فيشجى به فيموت . فبينما هم يتكلمون ، إذ وقع الغراب على هذه المذبة ليلتقط ، فاستنار عظاما ، فأراد أن يبتلعها ، فشجى به فأت ، فانكسر أمية ، ووقع الكأس من يده ، وتغير لونه ، فعملوا يميرونه عليه ، ويقولون : ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا ، وكان باطلا ! فأنحوا عليه ، حتى شرب الكأس ، فقال ^(١) في شق فاعفى عليه ، ثم أفاق ، وقال : لا برى فاعتذر ، ولا قوى فاعتصر ، ثم زهقت نفسه ^(٢) .

وحكى الداني قال ^(٣) : خرج كثير من الحجاز يريد مصر ، ليزور عزة ، فلما قرب منها رأى غرابا على شجرة يفتف ريشه ، فتطير من ذلك ، فلقته رجل من بني لُحَب ^(٤) فقال : يا أخا الحجاز ، مالك كاسف اللون ؟ فذكر له ما رأى ، فقال : إنك تطلب حاجة لا تدرى كمها . فقدم مهر ، والناس منصرفون من جنازة عزة فقال :

(١) كذا في الأغاني ، وفي ط : « فبال » .

(٢) الخبر في مختار الأغاني ١ : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) ورد الخبر في ديوان كثير ٤٦١ هكذا : « قيل : وفدت عزة كثير على مبدانك بن مروان فلما دخلت سلمت ، فرد عليها السلام ، ورحب بها وقال : ما أقدملك يا عزة ؟ قالت : شدة الزمان وكثرة الألوان واحتباس القطر وقلة المطر » قال : هل تروين لكثير :

وقَدْ زَعَمْتُ أَنِّي تَغَيَّرْتُ بِهَا وَمَنْ ذَا الَّذِي يَاعِزُّ لَا يَغْفِرُ
قالت لا ، واسكني أوري له :

كأني أنادي صخرة حين أعرضت من العزم لو تمسني بها العزم زلت

فقال : ما كنت لتصبري إلى حاجة أو تهني نفسك لي فأزوجك منه . قالت : الأمر إليك ، يا أمير المؤمنين ؛ ما كنت لأزهد في هذا العرف الباقي لي مادامت الدنيا ؛ أن يكون أمير المؤمنين ولي . فظلم بذلك قدرها منه ، وأمر لها بال ، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة أن اركب البريد وعجل فأني مزوجك عزة ، فأناه لك كتاب وهو مضي من الفوق إليها ؛ فرحل فأقبل نحوها ، فلما كان في بعض الطريق . . . وساق بقية الخبر كما هنا .

(٤) بنو لُحَب ، من قبائل العرب الذين اشتهروا بالعبادة والزجر . وفي الديوان : « بنو نهدي » تصحيف .

رَأَيْتُ غُرَابًا سَاقِطًا فَوْقَ بَانِيَةٍ يَنْتَفِ أَعْلَى رِيشِهِ وَيُطَايِرُهُ
فَقُلْتُ وَلَوْ أَنِّي أَشَاهُ زَجْرَتَهُ بِنَفْسِي لِلَّهِجِّي فَهَلْ أَنْتَ زَاجِرُهُ
قَالَ غُرَابٌ لَا غُرَابَ مِنَ النَّوَى وَفِي الْبَانِ بَيْنَ مَنْ حَبِيبٌ تَجَاوِرُهُ
فَا أَعْيَفَ اللَّهُجِّي لَادَرَ دَرَهُ وَأَزْجَرَهُ لِلطَّيْرِ ، لَا طَارَ طَائِرُهُ^(١)
وَمَنْ زَجَرَ لِنَفْسِهِ بَشَرْدُو الرُّمَةِ فَقَالَ :

رَأَيْتُ غُرَابًا سَاقِطًا فَوْقَ قَضِيَّةٍ مِنَ الْقُضْبِ لَمْ يَنْبُتْ لِمَا وَرَقَ خَضِرُ^(٢)
فَقُلْتُ غُرَابٌ لَا غُرَابَ وَقَضِيَّةٌ لِقَضْبِ النَّوَى ، تِلْكَ الْمِيَاقَةُ وَالزَّجْرُ
وَمَنْ زَجَرَ بِخَيْرِ أَبُو حَتِيَّةَ ، حِينَ قَالَ^(٣) :

وَقَالَ صِغَابِي هُدُودٌ فَوْقَ بَانِيَةٍ هَدَى وَبَيَانٌ بِالنَّجَاحِ يُلَوِّحُ
وَقَالُوا دَمٌ ، دَامَتْ مَوَائِقُ بَيْنَنَا وَدَامَ لَنَا حُلُو الصَّفَاءِ صَرِيحُ
وَقَالُوا حَامَاتٌ ، فَخَمَ لِقَاؤُهَا وَطَلَحَ فَزِيرَتْ وَالْمَطَى طُلُوحُ

وَمَنْ مَاتَ الزَّجْرُ زَجَرَ أَبِي نَوَاسٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ اسْتَخْفَى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَكَانَ
لَا يَفَارِقُهُمْ ، وَوَجَّهُوا رَسُولًا إِلَيْهِ ، فَرَمَى لَهُ ظَهْرَ قِرْطَاسٍ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ ، غَيْرِ
مَكْتُوبٍ ، وَخَرَمُوهُ بِزِيرٍ ، وَخَتَمُوهُ بِقَارٍ ، وَأَمَرُوا الرَّسُولَ أَنْ يَرْمِيَ إِلَيْهِ
الْكِتَابَ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ ، فَاسْتَعْلَمَ مَوْضِعَهُمْ ، وَتَعَرَّفَ حَالَهُمْ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ :

زَجَرْتُ كِتَابَكُمْ لَمَّا أَنَا نِي بِمَرِّ سَوَانِحِ الطَّيْرِ الْجَوَارِي
نَظَرْتُ إِلَيْهِ مَخْرُومًا بِزِيرٍ عَلَى ظَهْرٍ وَمَخْتُومًا بِقَارٍ
فَنِفَتِ الظَّهْرُ أَهْيَفَ قُرْطُفِيًّا بِحَارِ الطَّرْفِ مِنْهُ بَاخُورَارٍ
وَكَانَ الزَّيْرُ ذَا شَدْوٍ مُصِيبٍ وَقَارُ الْحَتَمِ مِنْ قَارِ الْعُقَارِ

(١) ديوانه : د لاهر ناصره .

(٢) ملحق ديوانه ٦٦٧

(٣) من أسيدة له في الأمل ١ : ٧٠ والآل ١ : ٢٤٣ ، وأبيات منها في المحاسن

والساوي ٢ : ١٧ .

فَطَرْتُ إِلَهُكُمْ يَا أَهْلَ وَدْيَ بَقْلَبُ مِنْ هَوَاكُمُ مُسْتَطَارِ
فَكَيْفَ تَزُونَنِي وَتَزُونُ زَجْرِي أَلَسْتُ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ الْكِبَارِ !
وما أحسن قول ابن قاضي ميلة^(١) وجمع الوصفين :

وَلَمَّا التَّقِينَا مُحَرِّمِينَ وَسِيرُنَا	بَلَّيْبِكَ يَطْوِي وَالرَّكَائِبُ تَسْتَفِ
فَقُلْتُ لِيَرْبِّيَهَا أَبْلَغَاهَا بِأَنِّي	بِهَا مُسْتَهَامٌ قَالَتَا : نَتَلَطَّفُ
تَقَالَتْ لِي أَنَّ يَطْوِي طَارِقُ الْهَوَى	بَأَنَّ عَنْ لِي مِنْهَا الْبَيَانُ الْمَطْرَفُ
وَأَمَّا دِمَاءُ الْهَدْيِ فَهُوَ تَوَاضَعُ	يَدُومُ وَرَأَى فِي الْهَوَى يَقَالَفُ
وَفِي عَرَافَاتٍ مَا يَحْتَبِرُ أَنِّي	بِعَارِفَةٍ مِنْ نَيْلِ وَصْلِكَ أَسْعَفُ
وَتَقْبِيلِ رَكْنِ الْبَيْتِ إِقْبَالُ دَوْلَةٍ	لَنَا وَزَمَانٌ بِالْمَوْدَةِ يَعْطِفُ
وَأَبَاقُهَا مَا قُلْتُهُ فَتَقَهَّدَتْ	وَقَالَتْ أَحَادِيثُ الْعِيَاةِ زُخْرَفُ
لَنَنْ كُنْتُ تَرْجُو فِي مَنَى الْفُوزِ بِالْمَنَى	فَبِالْخَلِيفِ مِنْ أَعْرَاضِنَا تَتَخَوَّفُ
وَقَدْ أَنْذَرُ الْإِحْرَامَ أَنَّ وَصَالَنَا	حَرَامٌ وَأَنَا عَنْ مَرَادِكَ نُعْرَفُ
فَهَذَا وَقَدْ ذُقْتُ بِالْخِلَاصِ مَنْذَرُ	بَأَنَّ النَّوَى لِي عَنْ دِبَارِكَ تَقْذَفُ
فَهَادِرُ نَفَارِي لَيْلَةَ الْفَرِّ إِلَى	سَرِيعٌ وَقُلْ مَنْ بِالْعَهَادَةِ أَعْرِفُ

قوله : أَنَشُدْهُ ، أى أطلبه . والحافل : الجموع . والقوافل : الرفاق الرواجع .
عشيرا : غبارا . الهأس : قطع الرجاء . ازوى : انقبض . التأميل : الترحى ، وهو
مصدر أمّل الخير ، أى ترجاه . انقمع : انكف . السرو : السيادة . ملاقى : فقير .
ملاقى : متلطّف فى كلامه . عُدِقت : عُلِّقَتْ وشَدِّدتْ به ، وعذق شاته بعذقها ، إذا
ربط فى صوفها خرقه تخالف لونها . الدرجات : المغازل الشريفة .

ومن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى إفريقيا ، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . ياقوت

«خُلِقَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ ، وهما السَّخَاءُ والسَّامَةِ ، وخُلِقَانِ يُبْفِضُهُمَا اللَّهُ ، وهما البُخْلُ وسوء الخلق . وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس .»

وقال خالد بن صفوان : لا تسأل الحوائج ثلاثة لا تُسألها : كذوباً ، فيقترب بعيداً ويبعد قريباً ، ولا أحق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا رجلاً له إلى صاحبك حاجة ، فإنه يصبر حاجتك بطانة لحاجته .
واتاه : واثقه وطاوعه . أدّى : أعطى . زكاة النعم : الإبل والشاة ، أى أعطى الصنائع والمعروف .

الحَرَم : جمع حرمة ، أراد بذلك أهل الصِّيانة والصفاء .

الفنجدية : الحَرَم أقوام محترمون ، والحَرَم الثانى : الأهل والقرابة ، ومن يحرم على الإنسان نكاحه أو أتركه لضياعه . محمد : سيد .

معرك : بلدك ، والمِصر : الحدّ ، ويكتب أهل نجد : اشترى فلان من فلان الدار بمُصورها ، أى بمحدودها .

قطرب : هو مأخوذ من مَصَرَت الناقة أمصُرُها مَصراً ، إذا حَلَبْتَهَا ، وجعلتَ صَرْعَهَا بين إصبعين ، فخرج من اللبن شيء قليل ، فيسمى مِصراً ، لأن الناس يجهشون إليه ثم يثبتون ، أولَ فأولَ وقيل : المِصر العلامة .
العماد : ما يقوم عليه الخِباء ، شبهه في قيامه بالأمور بالعماد .

تُرْجَى : تساق . الرَّكَّاب : الإبل . حرمك : بلدك وموضعك الذى تحببه . الرغائب : المطالب . ساحتك : فناء دارك . راحتك : كنتك .

ونذكر من الأحاديث ما يوافق هذا الفصل الذى قدّمنا تفسيره .

قال النبى صلى الله عليه وسلم «مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظُمَتْ مَثْوَنَةُ النَّاسِ

إليه ، فإن لم يَقُمْ بِتلك للثبوتة مَرَضُ النِّعْمَةِ للزوال .

عمرو بن العاص : والله أَرَجُلٌ ذَكَرَنِي ، بنام على شِقَّةَ مَرَّةً ، وعلى الأخرى أخرى ، يرانى موصفاً لحاجته لَهُوَ أوجب على حقا ؛ إذا سألتُ ما أن أفضيها له .
وقف العتّاب بباب المأمون ، فجاء يحيى بن أكرم ، فقال له : إن رأيت أن تُعَلِّمَ أُميرَ المؤمنين بموضي ا قال : لست بمحاجب قال : لقد علمتُ ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوَان ، قال : سلكت بي غير طريق ، قال : إن الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة فهما مقيان عليك بالزيادة إن شكرت ، وبالتفكير إن كفرت ، وأنا اليوم لك خير منك لنفسك ، أدعوك إلى ما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبى ذلك ، ولكل شيء زكاة ، وزكاة الجاه بذله للمستعين .

[من غرر المدائح]

وأما قوله : تزجى الركائب إلى حرملك ، فهو كثير في الشعر ، ونذكر منه شيئاً يبين حالة القصده لهذا الاسم ، وقال الحسن يمدح الأمين^(١) :

أقولُ والعيس تمرورى الفلاة بنا	صغر الأزيمة من مَنَى وَوُحْدَان ^(٢)
يا ناقُ لاتسأى أو تبلى مِلْكَاً	تقبيلُ راحته والركن سِيَانِ
محمدٌ خير مَنْ يمشى على قدمٍ	يَمْنِ برا الله من أنسى ومن جانِ
محمد بين أملاكٍ تفضله	ولادَتَانِ من المنصور ثنتانِ
تنازع الأعدان الشُّبُه فاشتبها	خَلْقًا وَخَلْقًا كما قُدَّ الشُّرَا كانِ
سَيَان لا فرق في المقول بينهما	معتابها واحدٌ والدة اثنتانِ

وقال حبيب :

إلى أحمد المدوح أمتُ بنا الشرى نواصبُ في عرضِ القلا ورواسم^(٣)

(١) هو الحسن بن هاني المعروف بأبي نواس ، والأبيات في ديوانه ٦٥ .

(٢) المرورى : سار في الأرض وحده . والصمر : جمع أصمر وصمراء ، من الصمر وهو الميل .

(٣) ديوانه ٢٨٦ ، وأمت : قصدت . نواصب : مسرعات . رواسم : ترسم الأرض بأخفافها .

إلى سالم الأخلاق من كل مائبٍ وليس له مال من الجود سالمٌ
جدير بالآل يصبح المال عنده جديراً بأن يبقى وفي الأرض غارم^(١)
وقال آخر^(٢) :

سأجهد عزيمى والمطايا فإنتى أرى العفو لا يمتاح إلا من الجهد
مربى بنا رهواً ووخذاً وإنما يظل ويؤسى النجع في كنف الوخذ^(٣)
قواصد بالسير الحثيث إلى أبى السمعت فما تنفك ترقل أو تُخدى^(٤)
إلى مُشرق الأخلاق للجود ماحوى ويحوى وما يخفى من الأمر أو يُبدى
فنى لم يزل تُقضى به طاعة الندى إلى العيشة الفراء والشؤود والرغد^(٥)
وقال فيها معتذراً :

أناى مع الركبان غنّ ظننقه لفتت له رأسى حياء من المجد^(٦)
ومن زمن أبعثنيه كأنه إذا ذكرت أيامه زمن الورى
أمريل هجر القول منى لو هجرته إذا لهجاني عنه معروفه عندى
كريم متى أمدحه أمدحه والورى ميم ومقى مالمعه لمعه وخدى^(٧)
وقال أبو الطيب :

فلم تلق ابن إبراهيم عنى وفيها قوت يوم للقراد^(٨)

(١) غارم : خاسر . (٢) هو أبو تمام والأبيات في ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩

(٣) ق ط : « زهوا » تصحيف . والزهو : السير السهل . والوخد للسير السريع .

(٤) الحثيث : السريع . وترقل : تسرع .

(٥) في الديوان : « الموهبة العسراء » .

(٦) ط : « رأساً » .

(٧) هذا البيت من شواهد البلاغة ، وانظر معاهد التصديس ١ : ٢٥ .

(٨) ديوانه ١ : ٣٥٧ . وفي ط . « عيسى » والمضى : الناقة الصلبة .

فلما جثته أعلى محلى وأجلسنى على السَّبع الشداد^(١)
 تهمل قبل تسليمى عليه وألقى ماله قبل الوساد
 كأنَّ الهامَّ فى الهيجا عيون وقد طُبعت سيوفك من رقاد
 وقد صنت الأُسقة من هموم فما يَخْطِرُنْ إلَّا فى فؤادى

وقال أبو الهندي :

سألناه الجزيلَ فما تأنَّى وأعطى فوق مُنْقِيتنا وزادا
 وأحسن ثم أحسن ثم عُدنا فأحسن ثم عدتْ له فعادا
 سراراً ما قصدتْ إليه إلَّا تبسم ضاحكا وَفَى الوسادا

وقال أبو الطيب :

ولما قلت الإبلُ أمتطينا إلى ابن أبي سليمان الخطوب^(٢)
 مطايا لا تَذِلْ لِمَنْ عليها ولا يَبْنِي لها أَحَدٌ رُكوباً
 وترتع دُونَ بَيْتِ الأرضِ فينا فما فارتقها إلَّا جدياً^(٣)
 إذا مَسَكَيْتْ كِفَانَتَهُ اسْتَبْنَا بأنصُلها لأنصُلها نُدُوباً^(٤)
 يُصِيبُ ببعضها أفواق بعض فلول الكسْرِ لا تَصِلُ قَضِيْباً^(٥)

(١) قال شارحه: السبع القداد، يريد السنوات السبع، والقدامعنا: المتقنة الصنع، قال تعالى: (ولينا فؤادكم سبأً هداة)

(٢) ديوانه ١ : ١٤٠ .

(٣) الديوان : « حريباً » .

(٤) تكبت : قلبت على راحها . والكنانة : الجمبة . قال الفارح « المعنى : إذا ألقى ما فى كنفاته رأينا نصوله آثاراً فى فصوله لأنه يرميها على طريقة واحدة ، فتصيب النصول بعضها بعضاً » .

(٥) الفوق من السهم : موضع الوتر والجمع أفواق . قال شارحه : « المعنى يريد أنه حسن الرمي ، وأنه يصيب بعض نصوله أفواق السهام التى رماها ، وأنه لولا كسر السهام لانصلت حتى تصير قضيباً متوياً ، أى غصناً » .

أَلَسْتَ ابْنَ الْأَوَّلَى سَمِدُوا وَسَادُوا
وَلَمْ يَلِدُوا امْرَأً إِلَّا نَجِيباً^(١)
وَنَالُوا مَا اشْتَهَوْا بِالْحَزْمِ هَوْنًا وَصَادَ الْوَحْشَ نَمْلَهُمْ دَيْبًا
وَمَا رِبْعُ رِيَاضٍ لَهَا وَلَسْكَنٌ كَمَا هَادَفْنَهُمْ فِي الْقُرْبِ طَيْبًا

ومن المدح قول السري في أبي الحصين القاضى :

لَقَدْ أَضَعْتُ خِلَالَ أَبِي حُصَيْنٍ حِصُونًا فِي الْمَلَأَاتِ الصَّعَابِ^(٢)
كَسَانِي ذَيْلَ^(٣) نَائِلِهِ وَأَوَى غَرَائِبَ مِنْطَقِي بَعْدَ اغْتَرَبِ
فَكُنْتُ كَرُوضَةٍ سَقَمْتُ سَحَابًا فَأَنْتَ بِالذِّسِيمِ عَلَى السَّحَابِ

وقال بديع الزمان وشاعر الأوان :

بِاسْتِدِّ الْأَمْرَا فَنُغْرًا فَمَا مِلَكٌ إِلَّا تَمَنَّاكَ مَوْلَى وَاشْتَهَاكَ أَبَا^(٤)
وَكَادَ يَحْكُمُكَ صَوْبُ الْفَهْمِ مِنْسَكِبَا لَوْ كَانَ طَلَقَ الْحَيَا يُنْطَرُ الذَّهْبَا
وَالدَّهْرُ لَوْلَمْ يَخُنْ وَالشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ وَاللَّيْلُ لَوْلَمْ يَصُدْ^(٥) وَالْبَحْرُ لَوْ عَذَّبَا

هذه الجملة كافية وكأنها تفسير ما أجمل من ذكر ممدوحه .

• • •

ثم إننى شيخ تَرَبَّ بَعْدَ الْإِتْرَابِ، وَعَدِمَ الْإِعْشَابِ، حِينَ شَابِ.
فَصَدُّتُكَ مِنْ مَحَلَّةٍ نَازِحَةٍ ؛ وَحَالَةٍ رَازِحَةٍ ، آمَلْتُ مِنْ بَحْرِكَ دُفْعَةً ، وَمِنْ
جَاهِكَ رَفْعَةً . وَالتَّامِيلُ أَفْضَلُ وَمَسَائِلِ السَّائِلِ ، وَنَائِلِ النَّائِلِ ؛ فَأَوْجِبُ
لِي مَا يَجِبُ عَلَيْكَ ، وَأُحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَلْوِي

(٢) ديوانه ٧٣

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٧٦

(١) ط : « وجادوا » .

(٣) الديوان : « ظل نائله »

(٥) ط : « يصل » تحريف .

هَذَا رَكْ، نَحْنُ اِذَا دَارَكَ، وَأَمَّ دَارَكَ، أَوْ تَقْبِضَ رَاكْ؛ عَمَّنْ اِمْتَا حَكَ،
وَامْتَارَ سَمَا حَكَ؛ فَوَاللَّهِ مَا مَجِدُ مِنْ يَجِدُ، وَلَا رَشْدُ مِنْ حَشْدُ؛ بِلِ
الْلِبِّبِ مَنْ إِذَا وَجَدَ جَادَ، وَإِنْ بَدَأَ بِمَائِدَةٍ عَادَ؛ وَالْكَرِيمُ مَنْ إِذَا
اسْتَوْهَبَ الذَّهَبَ، لَمْ يَهَبْ أَنْ يَهَبَ.

ثُمَّ أَمْسَكَ يَرْقُبُ أَكْلَ غَرْسِيهِ، وَيَرْصُدُ مَطْيِبَةَ نَفْسِهِ وَأَحْبَبَ
الْوَالِي أَنْ يَعْلَمَ: هَلْ تُنْفِثُهُ ثَمَدٌ، أَمْ اقْرِيحْتَهُ مَدَدُ افْطَرَقَ يَرْوِي
فِي اسْتِيرَاءِ زَنْدِهِ، وَاسْتِشْفَافِ فِرْنَدِهِ، وَالتَّبَسُّ عَلَى أَبِي زَيْدٍ سِرُّ
صَمْتِهِ، وَإِزْجَاءِ صِلَتِهِ، فَتَوَغَّرَ غَضْبًا، وَأَنْشَدَ مَقْتَضِبًا:

* * *

قَوْلُهُ: تَرَبُّ، اِفْتَقَرَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَا يَقْعُدُ عَلَيْهِ غَيْرَ التَّرَابِ. وَالْإِتْرَابُ:
الْإِسْقَفَاءُ، وَأَتْرَبَ: صَارَ لَهُ مِنَ الْمَالِ بَكْثَرَةٌ التَّرَابِ. وَالْإِعْشَابُ: إِصَابَةُ
الْعُشْبِ، وَأَرَادَ بِهِ لِلْمَالِ. تَحَلَّةٌ: مَنْزِلٌ يَحُلُّ فِيهِ.

نَازِحَةٌ: بِمِثْلِهِ. رَازِحَةٌ: كَالَهُ مِنَ الْمُزَالِ، وَرَزَحَ رُزْحًا: كُلٌّ مِنَ الْعَمَلِ.

ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: رَزَحَ فُلَانٌ: ضَعُفَ، وَذَهَبَ مَا فِي يَدِهِ، وَأَصْلُهُ مِنَ
رَزَحَتِ إِبِلُ فُلَانٍ وَكَلَابُهُ، إِذَا ضَعُفَتْ، وَلَزَقَتْ بِالْأَرْضِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ
الرَّزْحِ، وَهُوَ الطَّمْنُ مِنَ الْأَرْضِ، فَكَأَنَّ الرُّزْحَ قَدْ لَزَمَهُ، وَضَعُفَ عَنْ الِارْتِقَاءِ
إِلَى الْعُلُوِّ. آمَلٌ: أَرْجُو. جَاهَكَ: عَزَّكَ. وَالْوَسَائِلُ: جَمْعُ وَسِيلَةٍ، وَهِيَ
الشَّفِيعَةُ، فَجَمَلُ نَاصِيَةٍ أَوْ أَمْلَةٍ أَوْ سَيْلَةٍ. نَائِلٌ: هَظَاءٌ، وَالْفَائِلُ: الْمَعْلِيُّ، وَنَلْتُ

له بالمطاء أنول وأنت أنول ، ورجل نال^(١) ورجلان نالان ، ورجال أنوال ،
ونالته أنوله نولا أعطيته ، قال الأعشى :

ينولُ العشيّة ما عنده ويغفر ما قال جُهاًلها^(٢)

تلوي مذارك : تعرض بوجهك . ازدارك ، بمعنى زارك ، واستعمل
قصداً . راحك : جمع راحة ، وهي باطن الكف . امتاحك : استسقاك وأراد
طلب معروفك ، قال الزّاجز :

أفلح ساق يوديك امتاحاً وقرّ ههنا ورجا الفسلاحا

قوله : امتار : استعجب منك الرزق . سماحك : جودك . مجّد : كرم ،
وصار ماجداً ، أي شريفاً ، ومجّد يمجد ، مجداً فهو ماجد ، ومجد مجادة فهو مجيد .
وقيل : الحمد تسكرّم الآباء خاصة ، وقيل : الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي .
وقيل كرم للفعل . جمد : بخل . حشد : جمع المال . اللبيب : العاقل . وجد :
استغنى . جاد : تسكرّم . عاد : فعلها مرة بعد أخرى ، وقد تقدم منظوماً ،
لم يهب : لم يخف . أن يهب : أن يعطى ، وهذا كله قصد فيه التعجيب من نجاح
منه بكل بديع .

قوله : نطقته نمد ، أي قليل .

الأزهري : النطفة يقال للماء القليل والكثير ، ورأيت أعرابياً شرب من
ركبة غزيرة الماء فقال : والله إنها لنطفة باردة ، والحمد : للماء القليل الذي لا مدد
له . قريحته : ذهنه . أطرق : أي أمال رأسه للفكرة . في استيواء زنده : في
استخراج ناره ، وأراد طلب ما عنده من العلم والاستشفاف : الاستقصاء في

(١) في القاموس : رجل نال ؛ أي جواد كثير النائل .

(٢) ديوانه ١٦٩ .

النظر والتأمل فيما يبصره ، واستشف الثوب : جملة طاقا واحدا ، أو رفعه في ظل
حتى ينظر : أ كثيف هو أم رقيق ، واستشفه : رأى ما وراءه ، والاستشفاف :
للنظر إلى كل شيء صفيلا . الفِرْنَد : جوهر السيف ، وأراد أن الوالى أعجب
بكلامه ، فأراد أن يعلم هل كان في حفظه لذيرة أو ارتجله لنفسه . صَمَتَتْه :
صكتته . إرجاء : تأخير . توغّر : توقّد . مقفّضا : مرتجلا .

• • •

لَا تَحْقِرَنَّ أَيْبَتَ الْأَعْنِ ذَا أَدَبٍ لِأَنَّ بَدَا خَلَقَ السَّرْبَالَ سُبُرَوْتَا
وَلَا تُضِغْ لِأَخِي التَّامِيلَ حُرْمَتُهُ أَمْ كَانَ ذَا لَسَنِ أَمْ كَانَ سِكِّيتَا
وَانْفَحْ بِعُرْفِكَ مَنْ وَاكَ مُخْتَبَطَا
وَانْعَشْ بِغَوْثِكَ مَنْ أَلْفَيْتَ مَنْكُوتَا
غَيْرُ مَالٍ الْفَتَى مَالٌ أَشَادَ لَهُ ذَكَرَ اتَّقَالَهُ الرُّكْبَانُ أَوْصِيَتَا
وَمَا عَلَى الْمُشْتَرَى حَدًّا بِمُوهَبَةٍ غَبْنٌ وَلَوْ كَانَ مَا أَعْطَاهُ يَأْفُوتَا
لَوْلَا الْمَرْوَةُ ضَاقَ الْعُذْرُ عَنْ فِطَانِ
إِذَا اشْرَابَ إِلَى مَا جَاوَزَ الْقُوتَا
لَيْكُنَّهُ لَا بِنَاءَ الْمَجْدِ جَدٌّ وَمِنْ حُبِّ السَّمَاحِ ثَنَى نَحْوِ الْعَلَا لَيْتَا

• • •

قوله : أَيْبَتَ الْأَعْن ، تحية ملوك الجاهلية ، قال ابن الأبارى رحمه الله في
تفسيرها قولان : أحدهما أَيْبَتُ أَنْ تَأْتِيَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا تَسْعَقُ الْأَعْنَ عَلَيْهِ ،
فَالْأَعْنَ مَنْصُوبٌ ، وَالْآخِرُ - وَهُوَ أَرَادَ الْقَوْلَيْنِ - أَنْ تَكُونَ الْأَلْفُ بِمَعْنَى «يَا» ،

وبيت من البيوت مضاف إلى اللعن ، لأن بعضهم يخفض اللعن ، وتقديره :
 يا بيت اللعن : سمة للملك ، نقل من الوجه الأول لكثرة الاستعمال ، ألا ترى أنها
 تعطى معنى النداء في البيت ، وتقديره : يا ملك أو يا أمير ، وبضمّن معناه
 الدعاء ، أي جعلك الله تَمَن يكره اللعن ؛ ولذا وقع اعتراضا بين اللفظين ؛ الأول
 طالب للثاني ، كما قال ابن محمّل :

إِنَّ الثَّانِينَ - وَبُلِّغَتْهَا - قَدْ أَحْوَجَتْ سَمِي إِلَى تَرْجَان^(١)

سَبَرُونَا : فقيرا محتاجا ، والسَّبَرُوت : الفقير الذي لا ثياب له . ذَا لَسَنٍ ،
 أي فصيحًا . سَكَيْتَا : عَيِيًّا كثير السكوت . انْفَحَ بَعْرُفَكَ ، أي ارم بعرفك .
 انمَشْ بِعَوْفِكَ ، أي ارفع بعطيتك ، والفَوْث الإغاثة ، وهي المبادرة بالنعرة
 لمن جاء يستغيثك . وَالْإِنْمَاشُ أَنْ تَرَى رَجُلًا قَدْ أَهْوَى لِسُقُوطِ فَرْعِهِ ، أو افقر
 فجبره . مَنْكُونَا : مَلَقَى عَلَى رَأْسِهِ ، وَنُكِّتَ الرَّجُلُ فَهُوَ مَنْكُوتٌ ، إِذَا
 خَرِبَ فَأَسْقَطَ عَلَى رَأْسِهِ . قَوْلُهُ أَشَادُ : أي رفع .

[الذكر الحسن]

صَيْدَا : ذكرا حسنا . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا أُرِدْتُمْ أَنْ
 تَعْمَلُوا مَا لِلْعَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ فَانظُرُوا مَا يَتَّبِعُهُ مِنْ حَسَنِ الثَّنَاءِ » .

وقيل لبعض الحكماء : ما أحمَدُ الأشياء ؟ قال : أن يبقى للإنسان
 أحدوثة حسنة .

أَكْثَمُ بْنُ صَيْفٍ : إِنَّمَا أَتَمَّ خَيْرٌ ، فَطَيَّبُوا أَخْبَارَكُمْ ، أَخَذَهُ حَبِيبٌ فَقَالَ :
 وَمَا ابْنُ آدَمَ إِلَّا ذَكَرُ صَالِحَةٍ أَوْ ذَكَرُ صَيِّئَةٍ يَسْرِى بِهَا الْكَلِمُ

(١) من نصيدة له في أمالي القائل : . .

أما سمعتَ بدهرٍ باد أمته جاءت بأخبارها من بعدها أمُّ
الأحف : ما أدخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل
من اصطناع المعروف عند ذوى الأحساب .

وقيل لمعاوية : أى الناس أحب إليك ؟ قال : مَنْ كانت له عندى يد
صالحة ، قيل : فإن لم تكن ؟ قال : فَمَنْ كانت لى عنده يد صالحة .

قال بُرْزُ جُمَهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تبقى ، وإذا
أدبرت عنك فأنفق منها ، فإنها لا تبقى . أخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

لا تبخلن بدنياً وهى مقبلةٌ فليس ينقصها التبذير والسرفُ
فإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلفُ

وقال آخر :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طراً قبل أن تنفقتِ
فلا الجودُ يُغيثها إذا هي أقبلت ولا الشحُّ يُيقظها إذا هي ولَّت

وكان سميد بن الماص يقول على المنبر : مَنْ رزقه الله رزقاً حسناً ، فلينفقْ
منه سرّاً وجهراً ، حتى يكون أسعد الناس به ؛ فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين ؛
إما لمصلحة فلا يمل عنده شيء ، وإما لمفسد فلا يبقى له شيء . أخذ هذا الشاعر فقال :

احصدْ بمالكِ فى الحياة فإنما يبقى خلافاك مصلحٌ أو مفسدُ
فإذا جمعتَ لمفسدٍ لم تُغنِــهِ وأخو الصلاح قليله يزيــدُ

[بما قيل فى الرودة]

قوله : لولا الرودة ، الرودة هى الأفعال الشريفة ، التى يجب أن يقال

لرجل بها سرء ، مثل الرجولة للأفعال التي يستحق الرجل أن يقال له بها رجل .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا دين إلا بمروءة » .

وقال عمر رضي الله عنه : المروءة مروءتان : ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة الرياش والباطنة للعفاف .

قدم وفد على معاوية رضي الله عنه ، فقال لهم : ما تعدون المروءة ؟ قالوا : العفاف وإصلاح العيشة ، قال : اسمع يا يزيد !

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تجاوزوا قذوى المروءات عثراتهم ، فوالله إن أحدم ليعثر وإن يده بيد الله » .

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إننا معشر قريش ، نمدد الحلم والجود سؤدداً ، ونمدد العفاف وإصلاح المال مروءة .

أنوشيروان : المروءة ألا تعمل عملاً في السر تستحي منه في العلانية .
غيره : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .

وقالوا : للمروءة العفة والحرفة .

قوله : اشرب : تشوف ، والتشوف أن تسمع بالشيء وتطلع أن تراه ، وتمتد أن تنظر إليه ، يقول : لولا الأفعال الجميلة كان عذر الفطن الحاذق بضيق عليه إذا سئل وقيل له : قد جاوز مالك قوتك ، وفضل عن مؤنتك ، فلم تجهد في طلب المال ، وترغب في الزيادة منه . قال : فالمروءة توسع عليه عذره ، فهو قول ذو المروءة . إنما اكتسبه لأنفقه في البر ، وبين هذا بقوله : « نبي نحمو الغني لينا » والليت : صفقة العنق فيقول : إنما نبي عنقه ، وأما لهأ حبابي السباح .

وقد سبته إلى هذا التهامي بقوله :

ولولا المطايا أنها سُنَّةٌ هـ لما قال للدنيا إذا عثرت: لما^(١)
 فإن بائس الدنيا فلجود نالها^(٢) وإن هجر الدنيا فنعها ترفها
 فزاد بقوله: « وإن هجر الدنيا » معنى حسنا .
 وقالوا : نعم المون على المروءة المال .

وقال الأحنف بن قيس :

فلو مدَّ تَرْوِي بِمالٍ كثيرٍ لجدتُ وكنتُ له باذلاً^(٣)
 فإن المروءة لا تُسْطاعُ إذا لم يكن مالها فاضلاً
 وقال آخر :

ولا شماتة أعداء ذوى حسدٍ أو أن أنال بنفع من يرْجُو^(٤)
 لما خطبتُ إلى الدنيا مطالبها ولا بذلتُ لها عرضي ولا ديني

* * *

وما تنشقَّ نَشَرَ الشُّكْرِ ذو كَرَمٍ
 إلّا وَأَزْرَى بِنَشْرِ الْمِسْكِ مَفْتَوْتَا
 والحمدُ والبُخلُ لم يُقْضِ اجْتَماعُهما
 حتى لقد خِيلَ ذا ضَبًّا وذا حُوتًا

(١) ديوانه ١٧٣ ، ولما : صوت معناه الدعاء للعائر بأن يرتفع من عثرته .

(٢) ديوانه

• فإن بائس الدنيا فلجود نالها •

(٣) البهتان في البيان والتبيين ٣ : ٢٩٢ .

(٤) البهتان في المثل لابن جبريه ٣ : ١٤٠ ، وفيه : « وأن أنال » وبمدها :

لكن منافسة الأكفاء تحملي على أمور أراها سوف تُرديني
 وقد خشيتُ بأن أبقى بمنزلة لادين عندي ولادنيا توافيني

(١٨ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

وَالسَّمْحُ فِي النَّاسِ مَحْبُوبٌ خَلَاتُهُ
 وَالْجَامِدُ الْكَفَّةُ مَا يَنْفَكُ تَمَقُّوتَا
 وَالشَّيْخُ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ يَوْمَئِذٍ أَبَدًا ذِمًّا وَتَبْكِيَتَا
 فَجَعَدَ بِمَا جَمَعْتَ كَفَّالَكَ مِنْ نَسَبٍ
 حَتَّى يُرَى مُجْتَدِي جَزَاكَ مَبْهُوتَا
 وَخُذْ نَصِيْبَكَ مِنْهُ قَبْلَ رَائِقَةٍ
 مِنَ الزَّمَانِ تَرِيكَ الْعُودَ مَنَحُوتَا
 فَالْهَرُ أَنْكَدَ مِنْ أَنْ تَسْتَمِرَّ بِهِ
 حَالٌ، تَكَرَّرْتَ تِلْكَ الْحَالِ أَمْ شَيْتَا
 فَقَالَ لَهُ الْوَالِي: تَاللَّهِ لَقَدْ أَحْسَنْتَ، فَأَيَّ وَلَدِ الرَّجُلِ أَنْتَ؟ فَظَنَرَ
 إِلَيْهِ عَنْ عُرْضٍ، وَأَنْشَدَ وَهُوَ مُنْغَضٍ:
 لَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ مَنْ أَبُوهُ وَرُزُّ خَلَا لَهُ ثُمَّ صَلِّهُ أَوْ فَاضِرِمِ
 غَايَسِينَ السَّلَافَ حِينَ خَلَا مَذَاقَهَا كَوْنَهَا ابْنَةَ الْحِضْرِمِ.

* * *

قوله: تَنْشَقُّ، أي شم. نشر: رائحة. أزرى: هاب. مفتوتا: مدقوقا،
 يقول: لشكر المعروف عند أهل الجود أعطر من ريح المسك إذا فت فانشرت
 رائحته.

وقال إبراهيم الشيباني: كنت أرى رجلا من وجوه أهل الكوفة، لا ينفك
 لِبْدُهُ، ولا يستريح قلبه في طلب حوائج الناس، وإدخال المرافق على الضعيف،
 فقلت له: أخبرني عن الحال التي هَوَّنت عليك هذا التعمب في القيام بحوائج

الناس ، ما هي ؟ قال : قد والله سمعت تغريدَ الأطيارِ بالأسعارِ في فروع الأشجار ، وسمعتُ خُفوفَ أوتارِ الميدانِ وترَ جميعِ أصواتِ التِّمَيَّانِ ، فما طربت من صوتٍ قطَّ طَرَبِي من ثناءِ حسن ، بلسانٍ حسن ، على رجلٍ قد أحسن ، وما سمعتُ أحسنَ من شكرِ حرٍّ لرجلٍ حرٍّ ، ومن شفاعةٍ محنَّسٍ لطالبٍ شاكر ، فقلت له : **لله أبوك ! لقد حُشيتَ كرمًا ، فلذة السمع هنا بمنزلة الشم في البيت .**
 خَيْل : حسب ، والضبّ والحوت قد تقدّما في الثامنة عشر .

قوله : الجامد الكفت : هو البخیل ، وهو ضدّ السَّمَح . ممقوتًا : مبغوضًا .
 هَلَل : أهدار . يُوسِعَنه ذمًا ، أى يكثرن ذمه ، التَّبَكُّيت : الموان والتوبيخ .
 جَدَّ : تكبرتم . نَشَب : مال . مجتدى جدواك : طالب عطاياك . مبهوتًا : متعجّرًا ، يريد أنه يعجب من كثرة مانعطيه فيتعجّر وما يدرى كيف يشكره !

[مدح الكرم وذم البخل]

ومن مدح الكرم وذم البخل قالوا :
 لو لم يكن في الكرم إلا أنه من صفات الله عز وجل .
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويؤدّم سَفْسَافها** » .

وقيل لقوم من العرب : مَنْ سَيِّدُكُمْ ؟ فقالوا : فلانٌ على بخلٍ فيه ، قال عليه الصلاة والسلام : « **وأى داءٍ أذوَى من البخل** »^(١) .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾^(٢) .
 وقال المأمون لمحمد بن عباد : أنت متلاف ، فقال : منَعَ الجود سوء ظن بالعبود ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَمَا أَفْقَرُكُمْ مِنْ شَيْءٍ هُمْ وَنُحْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾^(٣)

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٣

(٢) سورة المؤمن ٩

(٣) سورة سبأ ٣٩

وقال كسرى : علمكم بأهل السخاء والشجاعة ؛ فإنهم أهلُ حسن الظنِّ بالله ، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرةٍ بخلمهم ومذمة الناس لهم وإطباقُ القلوب على بنفسهم ، إلا سوء ظنهم بربهم في الخلف لكان عقاباً ، أخذه محمود الوارق فقال :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خِيراً جَادَ مَبْعُوثاً والبخل مِنْ سَوْءِ ظَنِّ لِلَّهِ بِاللَّهِ
وْخَوْفِ مَخِيلٍ سَخِيّاً إِيمَلاًقٍ وَالْفَقْرَ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّخَى ، يَقُولُ : (الشَّيْطَانُ
يَمِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَبْعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) ^(١) .
وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفتَ في بذل المال ،
فقال : بأبي أنتما وأمي إن الله عودني أن يتفضلَّ عليّ ، وعودته أن أتفضلَّ
على عبيده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني عادته .

قوله : وخذ نصيبك منه قبل رائحة . الرائحة الشيبة ، لأنها ترزع الإنسان
أى تنزعها ، وتعلمه أنها تأتيه بالكبر والحرم . والعود المنعوت ، أراد به الجسم
الهابس لأنَّ الهرم يُذهب نعمة الجسم ، وأصل المنعوت المنجور .
وأراد بقوله : خذ نصيبك قوله عليه الصلاة والسلام : «يقول ابن آدم : مالي
مالي ، وماله من مالي إلا ما أكل فأنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى» .

[مما قبل في الشيب]

وقال الشاعر في الرائحة :

أهلاً برائحةٍ للشيب واحدةٍ تفنى الشباب وتنهانا عن الغزل ^(٢)

وقال أبو الطيب المتنبى :

راعتك رائحةُ الشيب بعارِضٍ وكو أنها الأولى راعِ الأسعم ^(٣)

(١) سورة البقرة ٢٦٨ .

(٢) شرح المكبرى ٤ : ١٢٣ .

(٣) ديوانه ٤ ، ١٢٣ . العارض ، مايل الحد والأسعم : الأسود .

لو كان يُمكنني سَفَرْتُ عن الصِّبا فالشَّيب من قَبْلِ الأوان يُكْتَمُ^(١)
وفي رواية ابن جني: «رائحة البياض»، وقال: هي أول شعرة تطلع من الشَّيب.
وأشد ابن الأعرابي «أهلاً برائحة للشَّيب» وأنشد غيره «برائحة بيضاء» أي
شعرة تطلع من الشَّيب بيضاء تروى الناظر، وهذا أصوب من الوجه الآخر،
وقال كثير:

كَذَبَ العواذِلُ بل أُرِدْنَ خِيَانَتِي وبتُّ روائعَ رَيْتِي وقَتُومُ^(٢)
وقال الألبيري:

بَعُرْتُ بِشَيْبَةٍ وَخَطْتُ بِلَيْلِي قُلْتُ لَهَا نَأَقِي لَارْحَمِلِ^(٣)
وَلَا يَهْنُ القليلُ عَلَيْكَ مِنْهَا فَالشَّيبُ وَيَحْكُ مِنْ قَلِيلِ
فَكَمْ قَدْ أَبَعُرْتُ هَيْنَاكَ مُزْنًا أَصَابَكَ طَلَهَا قَبْلَ النِّزُولِ^(٤)
فَلَا تَحْقِرْ بِنُورِ الشَّيبِ واعْلَمْ^(٥) بَأَنَّ القَطَرُ يَبْعَثُ بِالشَّيْبِ

وقال أبو بكر البلوي:

نَسِيتُ في شِعْرِي وشِعْرِي وَمَا نَفْسِي في صَبْرِي بِمَكُوبَةٍ
إِذَا دَنَتْ بِيَضَاءَ مَكْرُوهَةٍ مَنِي فَأَتَ سَوْدَاءَ مَحْبُوبَةٍ

وقال كشاجم فأحسن:

نَظَرْتُ إِلَى الرِّاءِ فَرَوَّعَتْنِي طَلَاتُ شَيْبَتَيْنِ لَدَى القَابِ^(٦)
فَأَمَّا شَيْبَةٌ فَفَزَعَتْ مِنْهَا إِلَى المَقْرَاضِ مِنْ حَبِّ التَّصَابِي
وَأَمَّا شَيْبَةٌ فَصَفَحَتْ عَنْهَا لِنَشْهِدَ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ خِضَابِي

(٢) ديوانه ٢٠٦، والقَتوم: المصوب والتفيم.

(٤) الديوان: «الهمول»

(٦) ديوانه ١٠

(١) الديوان: «تَلُثُّم»

(٣) ديوانه ١٤٧، ١٤٨

(٥) ديوانه: «نَزَرَ الشَّيب»

فوالك من مشيب قد تسدى أقمت به الدليل على شبابي^(١)
وقال البحتري :

وأبت تركي القديات والآ حال حتى قضين بالقراض^(٢)
شمرات أقضهن ويرجن ن رجوع السهام في الأغراض^(٣)
وقال ابن المعتز :

ألت ترى شيئا برأيتي شاملاً ونبت حيلتي عنه وضاق به ذرعى
كأن القاريض التي يعقورته مناقير طير تلتقي سنبيل الزرع
وقال رجل من الأزد :

ولقد أقول لشيبة أبصرتها في مفرق ففتحها إعراضى
عنى إليك فلتت منها لقد عمت منك مفارقي ببهاض
هل سوى مشربن عاماً قد مضت مع سقة في إثرهن مواضى
ولقد أرتاع منك ولأنى فيها هويت وإن وزعت لماضى
فعلك ما استطعت الظهور يلقى وعلى أن ألك بالقراض
وقال أبو نواس :

ولذا أعددت السن كم هي لم أجد للشيب هدراً أن يلم براسى
وقال أبو داف :

في كل يوم أرى بيضاء قد طلعت كأنما نبقت في ناظر البصر^(٤)
لئن قرضتك بالقراض عن بصرى لما قرضتك عن هوى وعن فكري

(١) الديوان :

فيما عجباً لك من مشيب أقمت به الدليل على الذهاب

(٢) ديوانه ١٢٠٩ ، وفيه « خضبت بالقراض » (٣) الأغراض : الأهداف .

(٤) أمالي المرتضى ١ : ٦٠٨ ، وفيه : « كأنما طلعت في أسود البصر »

وقال كشاجم :

أخى قم فعاوني على شعبة بفت
إذا مامضى النقاش يأتي بها أنت
كعانٍ على السلطان يجزى بذنبه

ولأبي الفضل الدارمي :

شعبةٌ نَقَصْتُ على شبابي
قلتُ ماذا كذا العمرُ التقصابي
فأجابت جَزَى من الرِّسم للسل
فإن ازددت في الجفاء فلا تند

وهذا مثل قول الآخر :

وزائرة للشيب لاحت بمارضى
فقلت على ضعفي استطات ووحدتي
فلم يك إلا عن قريب فأقبلت
فوا أسفا لو كان يُغْنِي تأسفتي

وقال الرمانى :

وثلاث شيبات طَلَعْنَ بِمِفرق
طلعت ثلاث في طلوع ثلاثة
فزلزلتني عن صهوة فائن ذلا

وفي معنى قول أبي نواس : « وإذا عدت السن كم هي » قال المعري :

مجت هند من سرع شيب
عوضتني بد السفاسف من ميس
قلت هذا عقيب فظام الشرور
لك عذارى ريشا من الكافور

كَانَ لِي فِي انْتِظَارِ شَيْءٍ حَسَابٌ غَالِطِي فِيهِ صُرُوفُ الدُّهُورِ
وَقَالَ ابْنُ الْمَلْحِ الشَّيْلِيُّ :

طَلَعَ الْمَشِيبُ بَلَمَتِي فَتَعَجَّبُوا مِنْ كَدِّهِ وَتَعَجَّبُوا مِنْ مُهْلَتِهِ
مَا شَبَّتَ مِنْ كَبَرٍ وَلَكِنْ مَنْ يَتُ دَنَقًا وَمَشَقًّا يَشِبُّ مِنْ لِبَلَتِهِ
وَقَالَ أَبُو عُمَانَ الْخَالِدِيُّ :

فَدَيْتُكَ مَا شَبَّتُ مِنْ كَبَرَةٍ وَهَذِي سِنِّي وَهَذَا الْحَسَابُ^(١)
وَلَكِنْ هَجَرْتُ خُلَّ الْمَشِيبِ وَلَوْ قَدْ وَصَلَتْ لِحْلُ الشَّبَابِ^(٢)
وَهَذَا الْقَدَرُ كَافٌ .

قوله : فالدهر أنكد ... البيت يقول : إن كنت غنياً أو فقيراً فذاك حال
لاندوم ، كرهت أو رضيتها .

وقوله : أى ولد الرجل أنت ، هذا الكلام إنما يقع في باب النفي ، قال
بمقبوب : تقول العرب : لا أدري أى ولد الرجل هو ؟ يمتنون بالرجل آدم وولده
للناس ، فكأنه قال : ما أدري أى الناس هو .

عُرِضَ : جانب . مغمض : مغمض عينه ، يريد أنه لم يجعبه سؤاله ، فلم يقبل
عليه بنظره ، ولا بإنشاده . ورُزَّ ، بالراء قبل الزاي ، معناه اختبر واطلب . قال
ابن الأنباري : رزت ما عنده ، أى طلبته وأردته ، قال الزبيدي : الروز قريب
من التحقيق ، والروز أن تأخذ الصنجة بيدك ، فترفعها لتختبر ثقلها ، قال الشاعر :

وإن الله راز حلوم قيسٍ فلما ذاق خِفَتَهَا قَلَاها

وقال الأعشى :

فَنَشَى وَلَمْ يَخْشِ الْأَنْدِ سِ فَرَاها وَخَلَا بها
أَضْرِمَ : أقطع الصنجة . الشلاف : الحمر الخالصة . الحصرم : الحامض ، لأنَّ

عود الغنّب حامض ، ويقولُ عنه شيءٌ لذيذ ، وتقدّم معنى البيتين .
وأما وجود الأشياء مع أصدادها مثل الخلاوة مع ما أصله مرّ فله نظائر ،
قال حبيب :
• والنفار قد تُفتَقَضَى من ناضِرِ السَّلَمِ •^(١)

وقال المتنبّي :
فإن الماء يَجْرِي من جهادٍ وإن النار تخرج من زفاد^(٢)
وقد يجري أيضاً خلاف العادة في الأشياء ، فقد يقشّاه الشيطان من جهة ،
ويقهاعدان من أخرى .
قال المعري :

قد يَبْعُدُ الشيءُ من شيءٍ يُشَابِهُهُ إنَّ السماءَ نظيرُ الماءِ في اللُّزْزَقِ^(٣)
قال المتنبّي وقد سبقه إليه :
وقد يتقارب الوصفان جدّاً وموصوفاً هما مُبْهَاجُعدان^(٤)
وما أحسن قول ابن صارة :
يا مَنْ بَعْدَ بِي لَمَّا تَمَلَّكَ بِي ماذا تريد بعذبتي وإضراري
تروقُ حسناً وفيك الموتُ أجمعُ كالصَّقلِ في السَّيفِ أو كالنورِ في النارِ
وقال ابن عبدون أستاذ بلنسية :
يا مَنْ مَحْيَاهُ جَمَاتٌ مَفْتَحَةٌ وهجره لي ذنبٌ غيرُ مغفورِ
لقد تَنَاقَضَتْ في خُلُقٍ وفي خُلُقٍ تَنَاقَضَ النَّارُ بالمتدخين والنُّورِ

• • •

قال : فقرّبه الوالي لبياينه الفاتن ؛ حتى أحلّه مَقْعَدَ الخاتن . ثم
فَرَضَ له من سُيُوبِ نَيْلِهِ ، ما آذن بطولِ ذَيْلِهِ ، وقَصَرَ لَيْلِهِ . فَتَهَضَّ

(١) ديوانه ٢٦٩ . تنقي : تستخرج ، وصدرة :

• أخرجتموه بكره من سَجِيحِهِ •

(٢) ديوانه ٢ : ٣٦٥ (٣) سقط الزند ٦٨٨ (٤) ديوانه ٤ : ٢٥٥ .

عنه برُذُن مَلَّان ، وفلبِ جذلان ، وتبعته حاذياً حذوه ، وقافياً
خطوه ، حتى إذا خرج من بابِه ، وفصل عن غايِه ، قلت له :
هئنئت بما أوتيت ، ومُلِّيت بما أوتيت . فأسفروجهُ وتللاً ، ووالى
شكراً لله تعالى ، ثم خطر اختيالا ، وأنشد ارتجالاً :

مَنْ يَكُنْ نال بالحافاة حَظًّا أَوْ سَمَّا قَدْرُهُ لَطِيبِ الْأَصُولِ
فبِفَضْلِي اتَّفَعْتُ لَا بِفُضُولِي وَبِقَوْلِي ارْتَفَعْتُ لَا بِقُبُولِي
ثم قال : تمسأ لمن جذب الأدب ، وطوبى لمن جد فيه ودأب ،
ثم ودعني وذهب ، وأودعني اللهب .



قوله : مقعد الخائن : كناية عن القرب ، كما أن مزجَرَ السكب كناية عن
الهمد . سيوب : عطايا ، وأصلها الكنوز والمعادن . نَيْلُه : ماله الموهوب ، وفي
كتاب المئين : أفلت المعروف ونلته ونولعه واسم مانهب للنوال والنيل . آذن : أعلم .
طول ذيله : كثرة ماله . قصر ليله : يريد قلة همه ، لأن المهموم لا ينم فطول ليله ،
ووصف الليل بالطول والقصر ، وله باب مشهور في كتب الأدب تركنا ذكره
لشهرته وكثرته ، وعلمته راجعة لما ذكر من أن ليل السرور قصير ، وليل
الهم طویل .

[مما قبل في طول الاول]

وحدث إسحاق الموصلي قال : دخلت على الرهيد وهو مُسْتَلْقٍ على قفاه .
وهو يقول : أحسن والله فتي قریش وظريفها وشاعرها ، قلت : فبِمَ ذلك يا أحمـ
المؤمنين ؟ قال في قوله :

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتُ نامت وقد أثمرتُ عينيَّ عيناها
فالليل أطولُ شيءٍ حينَ أفقدُها والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها

ثم قال : أنتعرفه ؟ قلت بصوت ضعيف : لا ، قال : بحقٍ عليك ؟ قلت : نعم
هو الوليد بن يزيد ، فقال استر ماسمعتَه مني ، وإنه ليستحقُّ أكثرَ مما وصفته به^(١)

ولبعضهم وأجاد :

إنَّ اللَّيْلَ لِلْأَنَامِ مَطِيَّةٌ تُطَوَّى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الْأَهْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الْمَمُومِ طَوِيلَةٌ وَطَوَاهُنَّ مَعَ الْمُرُورِ قِصَارُ

وأنشد الفنجديهي للمطرافي :

أخو الهوى يستطيلُ الليلَ من سمرٍ والليلُ في طولِهِ جارٍ على قَدَرٍ
لَيْلُ الْهَوَى سَفَةٌ فِي الْمَجَرِ مَدَّتْهُ لَكِنَّهُ سَفَةٌ فِي الْوَصْلِ مِنْ قِصَرٍ

وأنشد السَّلامى رحمه الله :

لَيْلِي وَلَيْلَى سَوَاءٌ فِي اخْتِلَافِهِمَا قَدْ صَيَّرَانِي جِهَمًا فِي الْهَوَى مِثْلًا^(٢)
يَجُودُ بِالطَّوْلِ لَيْلَى كُلَّمَا بَخَّاتُ بِالطَّوْلِ لَيْلَى وَإِنْ جَادَتْ بِهِ بِخِلًا

وقال ابن أبي دباكل :

بطولُ اليومِ لا أَلْقَاكَ فِيهِ وَحَوْلُ نَلَقَى فِيهِ قَصِيرُ

وتبَّه بشار ، فقال وأحسن :

(١) الخبر والشعر في شرح المختار من شعر بشار ٢١ ، والشعر أيضاً في زهر الآداب ٧٤٩

لا أَظْلَمَ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي أَنْ نَجُومَ الْإِهْلِ لَيْسَتْ تَفُورُ^(١)
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَزُرْ طَالَ وَإِنْ زَارَتْ فَلَيْلِي قَصِيرُ
تَعْرِفَ الْإِهْلَ عَلَى حَكْمِهَا فَهُوَ عَلَى مَا صَرَّفَتْهُ يَدُورُ

وزاد ابن العريف الزاهد على هذا المعنى ، فقال وأحسن :

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا كَيْفَ يَدْرِي بِذَاكَ مَنْ يَتَقَلَّى
لَوْ تَفَرَّغْتَ لَاسْتِطَاعَةَ لَيْلِي وَلَوْ عَنِيَ التَّجُومُ كُنْتُ مُخَيَّلًا
إِنْ لَمَّا شَقِيتُ عَنْ قَصْرِ اللَّيْلِ لَوْ عَنْ طَوْلِهِ مِنَ الْهَمِّ شُقْلًا

قوله : ردن ، أى كم . جذلان : مسرور . حاذباً حذوه ، أى متبعا له
جاءه لاقدى موضع قدمه ، فيتنسج فيه ، فيقال : حذوت حذوه ، أى قملت مثل
فعله ، وأصله فى حَذَوِ النمل بالنمل ، وقد تقدم .

قافيا : متعباً . فَصَّلَ : زال وخرج . غابه : موضعه ، والغاب للشجر اللثف
يَتَخَذُ الأسد فيه بَيْتًا . مُلِيتُ : أطيل لك ومُتَّعت به ، من الملاوة ، وهو الحين .
أوليت : أعطيت . أسفر : أضاء ، ومثله تَلَأْلَأَ ، إِلَّا أَنْ مَعْنَاهُ أَبْلَغَ ، وَأَصْلُ
تَلَأْلَأَ : ابْهُضَ ، فَأَشْبَهَ بِيَاضِ الْوَلْوُؤِ ، وَصَفَاءِهِ ، يَرِيدُ أَنَّهُ انْبَسَطَ وَجْهَهُ وَحَسَنَتْ
خَلْقَتُهُ لِمَا دَعَاهُ . وَالْيَ : كَرَّرَ . خَطَرَ اخْتِيَالًا : جَرَّ أَثْوَابَهُ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ . سَمَا قَدْرَهُ :
ارْتَفَعَتْ مَنَزَلَتُهُ . طَيْبَ الْأَصُولُ : شَرَفَ الْجُدُودُ . الْفُضُولُ : الْحَقُّوq وَالْدُخُولُ
فِيهَا لَا يَمْنَى . وَالْقُيُولُ : مَنْ دُونَكَ ، وَاحِدُهُ قَيْلٌ ، وَأَرَادَ بِهِمُ الْأَجْدَادُ
الْأَشْرَافَ ، وَطَائِقَ بَيْنِ الْحَاقَّةِ وَالْفُضُولِ ، وَبَيْنَ طَيْبِ الْأَصُولِ وَالْقِيُولِ ، وَسَلَخَهُ
مِنْ قَوْلِ الْمُتَنَبِّى :

(١) لسبب القائل في الأمالي ١ : ١٠٠ هذا الشعر لعلي بن بسام وكذلك في زهر الآداب ٨٤٩
والتنويرى ١ : ١٣٥ ، وثمار الأزهار ٢٣ ، وديوان المعاني ١ : ٣٤٩

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبفمي ارتفعت لا يجذودي^(١)
أشار إلى نسبه من ملوك كنده .
قال آخر :

أبها الفاخر جهلاً بالحسب إنما للناس لأم ولأب
إنما النخسر بمقل راجع وبأخلاق حسان وأدب
ذاك من قد فاخر الناس به فاق من فاخر منهم وغلب
وقال الحكيم بن قنبر :

لاخير فبين له أصل بلا أدب حتى يكون على مانابه حدباً
كم من حبيب أخى عيى وطلمة قد يملى القوم معروفاً إذا انتسباً
في بيت مكرمة أباه نجب كانوا الروس فأضحى بدم ذنباً
وقد تقدمت نظائره .

قوله : تمسا ، أى هلاكاً . جذب : عاب ، وفي الحديث : «جذب ابن الأثير
بالسمر بعد العشاء»^(٢) أى عابه ، وقال ذو الرمة .

إذا نازعتك لقول مية أو بدا لك الوجه منها أفضاً الدرع سائبة^(٣)
فمالك من خلد أسيل ومنطق رخيم ومن خلق تمل جادبه^(٤)
قوله : دأب ، أى دام عليه . أودعى : ضمنى ، وجعله فى قلبى . ألهم :
بجر النار .

ومما يتعلق بما قدمناه من الشعر قول جعظلة .

(١) ديوانه ١ : ٣٧٢ . (٢) النهاية لابن الأثير ، وقال : «أى ذمه وعابه»

(٣) ديوانه ٤٢

(٤) أسيل : سهل . رخيم : فيه لينة . جادبه : عاتبه .

أرى الأعياد تتركى وتمغى وأوشك أنها تبقى وأمضى
 علامة ذاك شيب قد علاني وضعي عند إرامي ونفسي
 وما كذب الذي قد قال قبل إذا مامرت يوم مرت بعضي
 أرى الأيام قد ختمت كتابي وأحسبها ستبقه بعضي

وعلى قوله : « إذا مامرت يوم مرت بعضي » قال بعض بني حمدان :

المسر وقت له تنامٍ مقدّرٌ طوله وعرضه
 فكلما مرت منه يوم فإننا مرّا منه بعضه

وجعلة مطبوع الشعر ، هو القائل في أبي بكر بن دريد :

فقدتُ بابن دريد كلَّ قائدةٍ لما غدا ناك الأحجار والثرَبُ^(١)
 وكنت أبكي لنقد الجود مجتهداً فصرت أبكي لنقد الجود والأدب
 أين هذا من قول الفرزدق يرثي سائسا ، أنشده أبو محمد في الدرة :

ليبك أبا الخنساء بخلٌ وبغلةٌ ومخلّةٌ سوء قد أضيع شعيرها^(٢)
 ونجرفة مطروحةٌ وبحسةٌ ومقرعة صفراء بال سهوها
 أخذه من قول زيد الخليل يرثي عبداً له :

أما تعاورنك الزماح فلا أبكيك إلا لادلو والمرس
 وقد قدّمتا فصلا في التشاؤم بالأدب في قوله ، فقد دهاني شؤمه وأنى عليه
 هنا بقوله : تمسا لمن جَدَب الأدب ، وطوبى لمن جدّ فيه وأدب .

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٩٧

(٢) درة الفراس ٩٧ .

[فصل في مدح الأدب]

ونذكر هنا فصلاً مقنعاً في مدحه ، حسب ما شرطنا من الجري معه على أغراضه .
قال العلاء بن أيوب كان يقال : مثلُ الأدب ذى القريحة ، مثلُ دائرة تُدَار من خارجها ، فهمى في كلِّ دائرة تُدار تنسع وتزداد عِظْماً ، ومثلُ الأديب غير ذى القريحة مثلُ دائرة تُدار من داخلها ، فهمى عن قلول تبلغ إلى باطنها .
أوصى بعض الحكماء بنيه ، فقال لهم : الأدب أكرمُ الجواهر طبيعةً ، وأنفسُها قهمةً ، يرفع الأحساب الوضيعة ، ويفيد الرغائب الجاهلة ، ويُبْنِي من غيره عشيرةً ، ويكثر الأنصارَ من غير رزية ، فالبسوه حُلَّةً ، وتزيّنوا به حِلْيَةً ، يؤنسكم في الوحشة ، ويجمع القلوب المختلفة .

وقال شبيب بن شبة : اطلبوا الأدب فإنه مادةٌ للعقل ، دليل على الروعة صاحب في الغربة ، مؤنن في الوحشة ، حلية في المجلس .
وقال الخليل : مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جلالاً .

وأشد الأسمى رحمه الله :

إِنْ بِكَ لَعَلٌّ مَوْلُودٌ فَلَسْتُ أَرَى ذَا لَعَلٍّ مُسْتَوْحِشًا مِنْ حَادِثِ الْأَدَبِ
إِنِّي وَأَبْنَاهُ كَالْمَاءِ مُخْتَلَطًا بِالتَّرْبِ تَظْهَرُ عَنْهُ زَهْرَةُ الْمُشْبِ
وقال مبدل لك لبنيه : عليكم بالأدب ، فإنكم إذا اجمعتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جلالاً .

ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لئالٍ أو دنيا ، فلا يعجبك ، فإن تلك كرامةٌ تزول بزوالها ، ولكن لمعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب .
وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كفاك من علم الدين أن تعرف مالا يسمع جهه ، ومن علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل .

وقال بُزْرُجْمَهْر : ما ورثت الآباء الأبناء خيراً من الأدب ، لأن به يكسبون المال ، وبالجهل يتلفونه .

وقال : حسن الخلق خير قرين ، والأدب خير ميراث ، والتقوى خير زاد . وقالوا : ثلاث لا غربة معهن . مجاورة للرب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى . وقال بُزْرُجْمَهْر : من كثر أدبه كثر شرفه ، وإن كان قبل وضهماً ، وبعد صيته ، وإن كان خاملاً ، وسادوا إن كان غريباً ، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً .

وقال عمر رضى الله عنه : من أفضل ما أعطيت العرب الأبيات ، يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم .

وقالوا : الأدب أدبان . أدب الغريزة ، وهو الأصل وأدب الرواية وهو الفرع ، ولا يتفرع الشيء إلا عن أصله ، ولا ينمو الأصل إلا بانصال المادة . وقال حبيب فأحسن :

وما السيفُ إلا زَبْرَةٌ إن تركته على الخليفة الأولى لما كان يقطعُ^(١)
وقال آخر :

ما وهب الله لأمري هبةً أفضلَ من عقله ومن أدبه
مهما كمال الفتي فإن فقداً فقدته للعيادة أحسنُ به

وقالوا : إذا كان الرجل طاهر الأدب ، طاهر المذهب ، تأدب بأدبه ، وصلاح بصلاح أهله وولده .

وقال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يُصلحُ أهله ويُعدِّهم عند الفساد إذا فسَدَ
يعظُم في الدنيا لأجل صلاحه ويُحفظُ بعد الموت في الأهل والولد

المقامة التاسعة والثلاثون وهي العمانية

حدث الحارث بن همام، قال: لهجتُ منذ اخضرَ إزارى، وبَقَلْ
 عذارى، بأن أجوبَ البرارى، على ظهورِ المَهَارَى، أنجدُ طوراً،
 وأسلكُ تارةً غوراً؛ حتّى فليتُ المَعَالِمَ والمَجاهِلَ، وبَلوتُ المَنَازِلَ
 والمَنَاهِلَ، وأدَمِيتُ السَّنَابِكَ والمناسِمَ، وأنصِيتُ السَّوَابِقَ
 والرَّوَاسِمَ فلما ملكتُ الإصْحَارَ، وقد سَنَحَ لِي أَرَبٌ بِصُحَارٍ، مِلَّتُ
 إلى اجتيازِ السَّيَّارِ، واختيارِ الفُلكِ السَّيَّارِ، فنَقَلْتُ إِلَيْهِ أَسَاوِدِي،
 واستصحبْتُ زَادِي ومَزَاوِدِي، ثم رَكِبْتُ إِلَيْهِ رُكُوبَ حَازِرٍ نَازِرٍ،
 عَازِلٍ لِنَفْسِهِ عَازِرٍ. فلما شَرَعْنَا فِي القُلَمَةِ، وَرَفَعْنَا الشَّرْعَ لِلشَّرْعَةِ،
 سَمِعْنَا مِنْ شَاطِئِ الْمَرْسَى، حِينَ دَجَا اللَّيْلُ وَأَغْشَى، هَاتِفًا يَقُولُ:
 يَا أَهْلَ ذَا الْفُلْكِ الْقَوِيمِ، الْمَرْجَى فِي الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ، هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَى تِجَارَةِ تُنْجِيَكُمُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ أَفَقَلْنَا:
 أَقْبَسْنَا نَارَكَ أَيُّهَا الدَّلِيلُ وَأَرْشَدْنَا كَمَا يُرْشِدُ الْخَلِيلُ الْخَلِيلُ.

لهجتُ، أى اشتدحتي، وأصله في التفصيل إذا رضع أمه، يقال: لَمَجَ بَضْرَعُ
 أمه، إذا لَمَعَهُ لِرُضْعِهِ. اخضرَ إزارى، كنى به عن الشباب، وكانت العرب
 إذا بلغ منها الغلام الحلم، وأشعر لبس الإزار لِيَسْتُرَ عَوْرَتَهُ. بقل عذارى: اخضرَ
 شارى، وبدا الشعر في وجهي أخضر مثل البقل.

[مما قيل في العذار]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل في العذار ، قال أبو نؤاس :

مِنْ أَيْنَ لَرِشَا الْأَغْنِ الْأَحْوَرِ فِي الْخَدِّ مِثْلَ عِذَارِهِ الْمُتَعَبِرِ
قَرَّ كَانَ بِمَارِضِيهِ كُلِّهِمَا مِسْكًا نَسَاقُطُ فَوْقَ وَرْدٍ أَحْمَرِ
وقال أيضاً :

قَدْ كَانَ بَدَرَ السَّمَاءِ حَسَنًا فَالْنَّاسُ فِي حُبِّهِ سَوَاءُ
فَزَادَهُ رَبُّهُ عِذَارًا نَمَّ بِهِ الْحَسَنُ وَالْبِهَاءُ
لَا تَعْجَبُوا ، رَبَّنَا قَدِيرٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
وقال ابن رشيقي :

حَمَّتْ عِذَارَاهُ بِتَقْبِيلِهِ فَاسْتَلَّ مِنْ عَمَلِهِ سَيِّفَيْنِ^(١)
نَظَرَ الْحَمْرُ مِنْ خَدِّهِ دَمٌ جَرَى بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
وقال غيره :

قَرَّ كَانَ قَوَامَهُ مِنْ قَدْ غَصَنٍ مَسْفَرٍ
وَكَاثِمًا قَلَمَ الزَّمَرِ دَفَى عَوَارِضِهِ مَشَقِّ
ولأبي الفضل الدارمي :

إِذَا الَّذِي خَطَّ الْجَمَالَ بِوَجْهِهِ خَطَّيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلَابِلًا
مَا صَحَّ عِنْدِي أَنَّ لِحَظَكَ صَارَمٌ حَتَّى رَأَيْتُ بِمَارِضِيكَ تَحَايِلًا
وقال أيضاً :

قُلْتُ لِلْمَلِيقِ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِنْ وَرْدٍ مُخَارَا
أَسْبَلَ الصَّدْغُ عَلَى خَدِّكَ مِنْ مِسْكِ عِذَارَا

أَمْ أَمَانُ اللَّيْلِ حَتَّى غَلَبَ اللَّيْلُ النَّهَارَا
قَالَ مِيدَانُ جَرَى الْحَسَنِ عَلَيْهِ فَاسْتَدَارَا
رَكَضَتْ فِيهِ عِوَنٌ فَأَمَارَتُهُ غُبَارَا

قوله : أجوب ، أى أقطع . البرارى : الصحارى . المهارى : إبل كرام .
أنجد : أطلع ، والنجد : المرتفع . والفور : ضده ، وقد أنجد وغار . أسلك :
أدخل وأمشى . فليت : قطعت . المعالم : المواضع المألوفة ، والمجاهل ، ضدها .
بلوت : جربت . المناهل : مواضع المياه . السفابك : أطراف الخوافر . المنام :
جمع منسىم ، وهو مقدم خوف البعير . أنضيت : أهزأت . السوابق : الخيل .
الرواسم : الإبل السريعة ، ورسمت الناقة فهى راسمة ، إذا أثرت فى الأرض
من شدة وطئها ، قال أبو عبيد رحمه الله : إذا ارتفع السير عن العنق قليلا ، فهو
التزبد ، فإذا ارتفع عن ذلك ، فهو الذميل ، ثم الرسيم . الإصغار : الدخول
للمصحراء ، يريد مالت من سفر الليل . صنع : ظهر وعرض . أرب : حاجة .

[ذكر صحار]

صحار : سوق عُمان ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مُرسأها فرسخ
فى فرسخ ، وبلاد عُمان ثلاثون فرسخا ، مولى البحر سهول ورمال ، وماتواعد
عنه حزون وجبال ، وهى مدن ، منها مدينة عمان وهى حصينة على الساحل ،
ومن الجانب الآخر مياه تجرى إلى المدينة ، وفيها دكا كين التُّجار مفروشة
بالتُّحاس مكان الآجر ، وهى كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة
والشعر والأرز وقصب السكر ، وفى الأمثال : مَنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فَعَلَهُ بَعْمَانُ ،
وفى أحوازها مفاص القلوز . وعُمان من أحواز اليمن تُسمَّى بهمان بن سها .
الفنجديهي : صحار اسم بلدة بكورة عُمان وهى قصبتها تَمَّا بلى الجبل .

• • •

التيار : البحر . الفُلك : السفينة . التستار : الكثير للنش ، والفُلك يكون
واحدا وجمعا ، ويذكر ويؤنث .

أساودي : أمتاعى، لأنها تسود الأرض بظلمها ، وهى جمع أسودة ، وأسودة جمع سواد ، وسواد الأمير نَقْلُهُ . أبو عبيد : كُلَّ شخص سواد ، من متاع أو إنسان أو غيره . الحاذِر : الخائف . ناذر : حالف ، وأراد به الذى ينذر بخير إن سلمه الله تعالى من هَوْلِ البحر . عاذل وعاذر ، يريد أنه يمدل نفسه عن التفرير بدخول البحر ومقاساة أهواله ، ويعذِرُها لكثرة المفاجر . شَرَحْنَا فى القُلمة : أخذنا فى قَلْع المراسى ، ورفع القلع وهى الشُرْع . قوله : أغشى ، أى أظلم هائِفاً ، أى صامحاً . القويم : السقيم . المَرْجَى : السوق المسير ، قال الله تعالى : ﴿ رُبُّكُمْ الَّذِى يَرْجِى لَكُمْ الْفُلْكَ فى الْبَحْرِ ﴾ أى يسيرها ، وأزجاء : إذا ساقه . أقبِشْنَا : أعطنا أرشدْنَا : دُلْنَا ، قاله الأزهري رحمه الله .



فقال : أَلَسْتُمْ حَبِيبُونَ ابْنَ سَبِيلٍ ، زَادَهُ فى زَيْلٍ ، وَظَلُّهُ غَيْرُ ثَقِيلٍ ، وَمَا يَبْقَى سِوَى مَقِيلٍ . فَأَجْمَعْنَا عَلَى الْجُنُوحِ إِلَيْهِ وَأَلَّا نَبْخَلَ بِالْمَاعُونِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى الْفُلْكِ ، قَالَ : أَعُوذُ بِمَالِكِ الْمَلِكِ ، مِنْ مَسَالِكِ الْهَلَكِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّا رَوَيْنَا فى الْأَخْبَارِ ، الْمَنْقُولَةَ عَنْ الْأَخْبَارِ ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَخَذَ عَلَى الْجُهَالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا ، حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يُعَلَّمُوا ، وَإِنْ مَرَى لَعُودَةً ، عَنْ الْأَنْبِيَاءِ مَاخُودَةً ، وَعِنْدِي لَكُمْ نَصِيحَةٌ ، بَرَاهِينُهَا صَحِيحَةٌ ، وَمَا وَسِعَتْنِي الْكِتَابُ ، وَلَا مِنْ خِيَمِي

الْحَرَمَانِ فَتَذَبُّوا الْقَـلْبَ—وَلِ وَتَفْهَمُوا ، وَاعْمَلُوا بِمَا تُعَلَّمُونَ
وَعَلُّوا .

ثمَّ صَاحَ صَيِّحَةُ الْمَبَاهِي ، وَقَالَ : أَتَذَرُونَ مَا هِيَ ا هِيَ وَاللَّهِ
حِرْزُ السَّفَرِ ، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فِي الْبَحْرِ ، وَالْجَنَّةُ مِنَ النَّعْمِ ، إِذَا جَاشَ
مَوْجُ الْيَمِّ ، وَبِهَا اسْتَعَصَمَ نُوْحٌ مِنَ الطُّوفَانِ ، وَنَجَا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ
الْحَيَوَانِ ؛ عَلَى مَا صَدَّعَتْ بِهِ آيُ الْقُرْآنِ . ثُمَّ قَرَأَ بَعْدَ أُسَاطِيرِ
تِلَاوَتِهَا ، وَزَخَارِفِ جَلَالِهَا ، وَقَالَ : اذْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا
وَمُرْسَاهَا . ثُمَّ تَنَفَّسَ تَنَفُّسَ الْمُغْرَمِينَ ، أَوْ عِبَادِ اللَّهِ الْمَكْرَمِينَ .

وَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَقَدْ قُتِلْتُ فِيكُمْ مَقَامَ الْمُبْلَغِينَ ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ
نُصْحَ الْمُبَالِغِينَ ، وَسَلَكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الرَّاشِدِينَ ، فَاشْهَدِ اللَّهُمَّ
وَأَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ .

ابن سبيل : هو المسافر الذي انقطع به ، وهو يريد الرجوع إلى بلده ،
ولا يجد ما يبلِّغ به ، فله سهم في الصدقات . زَبِيل : قُفَّةٌ مِنْ جُلُودٍ ، وَالْفَزُّ بِهِ
بمضمهم فقال :

وَذِي أُذُنَيْنِ لَا يَبْتَنَاتُ قُوْنَا وَجُوفٍ لِلْعَوَاجِ وَاحْتِمَالٍ
يَكْتَلِفُ شَغْلَ أَهْلِ الْبَيْتِ طُرًّا وَنُحْمَلُ فِيهِ أَقْوَاتُ الْعِيَالِ
نُسِيرُهُ إِلَيْهِ فِي الْأَسْوَاقِ سِيرًّا فَلَا يُفْشِيهِ إِلَّا فِي الرَّحَالِ
ظَلَهُ غَيْرَ ثَقِيلٍ ، أَيْ هُوَ خَفِيفُ الرُّوحِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى اسْتِثْنَاءِ ظَلِهِ فِي

الثانية والعشرين ، ويريد بظله شخصه ، كما يسمى الشخص سواداً ، لأنه يسود الأرض بظله .

قال زياد بن عبد الله : قيل للشافعي رضي الله عنه : هل تمرض الروح ؟ قال : نعم من ظل الثقلاء ، قال : فررت به يوماً وهو بين قهقين ، فقلت كيف الروح ؟ قال : في النزاع .

وقال الميهني بن عدي : انظر إلى الثقل حُمى الروح . مقول : موضع جلوس في القائلة . الجنوح : الميل ، والماعون اسم للمطر . وأنشد أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه :

يَجَّ صَبِيرُهُ الْمَاعُونُ نَجًّا إِذَا نَسَمَ مِنْ الْهَيْفِ اعْتَرَا
وَالْمَاعُونُ الزَّكَاةُ ، قَالَ الزَّامِيُّ :

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا مَاعُونَهُمْ وَبَضَعُوا الْقَهْلِيلَا

مسالك : طرق ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، الآية ﴿ بسم الله نَجْرَاهَا وَمَرْسَاها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقوله : إن الله تعالى ما أخذ على الجمل - قال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا ، قيل : معنى أخذ : أوجب ، وأراد قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ ﴾ أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما آتى الله تعالى عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق ألا يكتمه » . قال الحسن بن عمر : أنبت الزهري بعد أن ترك الحديث ، فألقيته على بابي ، فقلت : إنما أن نحدثني وإما

أن أحدثك ، قال : حَدَّثَنِي ، قُلْتُ : حَدَّثَنِي الْحَكَمُ بْنُ مِهْنَةَ ، مِنْ يَحْيَى بْنِ
الْجَزَارِ ، قَالَ : سَمِعْتُ هَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
الْجَهَالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَقَّ أَخْذِ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا ، قَالَ : حَدَّثَنِي بَارِبَعِينَ حَدِيثًا .
قوله : عُرُودٌ ، أى ما يمتدّ به الإنسان من الحِرْز وشبهه . براهنها : حُجَّجَها .
خِيَمِي : طَبِي . الحرمان : منع الفوائد . اللَّبَاقِي : المتأخّر الكثير الإعجاب .
السَّفَرُ : المسافرين . الخِطَّة ، السَّيْر . جاش : تحرّك وهاج . الهمم : البحر . استعصم :
امنع . الطوفان : الماء العام . صدّعت : نطقت . آى : جمع آية ، وتقدّمت .
الأساطير ، هى الأباطيل . زخارف : أشياء مُزَيَّنة . المفرمين : المذنبين ، والمُفْرَم
المولع بالحب وغيره . الراشدين : الهادين للطريق .



قال الحارث بن همام : فَأَعْجَبَنَا بَيَّانُهُ الْبَادِي الطَّلَاوَةُ ، وَعَجَبْتُ لَهُ
أَصْوَاتُنَا بِالتَّلَاوَةِ ، وَأَنْسَ قَلْبِي مِنْ جَرَسِهِ ، مَعْرِفَةً عَيْنِ شَمْسِهِ ،
فَقُلْتُ لَهُ : بِالَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ اللَّجْجَى ؛ أَلَسْتَ السَّرُوجَى ؟ فَقَالَ لِي :
بلى ، وَهَلْ يَنْخَفَى ابْنُ جَلَا ؟ فَأَحْذَتْ حِينَئِذٍ السَّفَرُ ، وَسَفَرْتُ عَنْ
نَفْسِي إِذْ سَفَر ، وَلَمْ تَزَلْ نَسِيرُ وَالْبَحْرُ رَهْوٌ ، وَالْجَوُّ صَخَوٌ ،
وَالْمِيشُ صَفَوٌ ، وَالزَّمَانُ لَهْوٌ ، وَأَنَا أَجِدُ لِلْقِيَانَةِ ، وَجَدَ الْمُنْزَى بِعَقْيَانِهِ ،
وَأَفْرَحُ بِمَنَاجَاتِهِ ، فَرَحَ الْفَرِيقِ بِمَنَاجَاتِهِ ، إِلَى أَنْ عَصَفَتْ الْجَنُوبُ ،
وَعَصَفَتْ الْخُثُوبُ ، وَنَسِيَ السَّفَرُ مَا كَانَ . وَجَاءَهُمُ الْبُوجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ ؛ فَمِلْنَا لِهَذَا الْحَدَثِ السَّائِرِ ، إِلَى إِحْدَى الْجَزَائِرِ ؛ لِلرَّيْحِ وَنَسْتَرِيحُ
رَيْثَمَا تَوَاتَى الرِّيحُ .

فَمَا دَىٰ عَيْتَاصُ الْمَسِيرِ ؛ حَتَّى نَفِدَ الزَّادُ غَيْرَ الْبَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي
أَبُو زَيْدٍ : إِنَّهُ لَنْ يُحَرِّزَ جَنَى الْعُودِ بِالْقَعُودِ ، فَهَلْ لَكَ فِي اسْتِثَارَةِ
السُّمُودِ بِالصُّمُودِ أَفَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي لَا تَبْعُ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ ، وَأَطْوَعُ مِنْ
تَعْلِكَ .

الطَّلَاةُ : الحسن والقبول . عُجْتُ : ارتفعت . آتَسَ : أحسّ وأدرك .
جرسه : صوته الخفيّ . عين شمسه : حقيقة نفسه ومعرفة اللهجي : العظيم الجبة
وهي معظم الماء .

[ذكر الطوفان]

ونذكر هنا بعض ما حدث من طوفان نوح عليه السلام :

ذكر أهل الأخبار أن نوحاً عليه السلام أول نبى بُعِثَ ، وأن قومه
كانوا أهل أونان ، يهودونها من دون الله ، فَبُعِثَ لَهُم نوح فدهام إلى الله ،
فكانوا يبطشون به ، ويستخفون به ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم
لا يعلمون . فلما كثرت استخفافهم به ، قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك لإنهم مفرقون . فأقبل
على قطع الخشب وضرب الحديد وتهيئة العود بالنار وغيره ، فصنعه من خشب
التساج ، وجعل طوله ثمانين ذراعاً ومرضه خمسين ذراعاً ، وطوله في السماء ثلاثين
ذراعاً . وكان قومه في خلال صنعة السفينة يأثرونه أفواجا ، يستخفون عقله ،
ويعمدون قلبه من جنونه ، ويقولون له : حملت سفينة في البر ، فيقول لهم : سوف
تطمون . فلما اطمأنوا في الفلك فار التَّنُور من الهند ، وقال الشعبي رحمه الله

عن الكوفة . وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وتنجرت الأرض عيوناً ،
فكان بين إرسال الماء وارتفاعه أربعون يوماً ، فلما بلغ الماء إليهم أووا إلى
الجبال ، فكانت الجبال تستقبلهم بالحجارة ، وتغرقهم في الماء ، فانوا غرق ،
وارفع الأفلك ، وجعل يجرى في موج كالجبال ، ودار الأرض كلها في ستة أشهر
وعشر ليال . ويقال : إنهم ركبوها لعشر ليال مَضِينَ من رجب ، ونزلوا يوم
عاشوراء من الحرم ، فلذلك صام الناس يوم عاشوراء ، وأنت السفينة الحرم
فدارت به أسبوعاً ، ولم يبق شيء من الخلائق ولا من الشجر إلا هلك ، إلا نوح
ومن معه ، وإلا عرج بن عتق - فما يزعم أهل الكتاب - وانتهت آخرها إلى
الجودي ، وهو جبل بالحصنين من أرض الموصل فنزلت عليه .

* * *

قوله : ابن جلا ، أى المشهور المعروف ، يقال للرجل إذا كان على الشرف
واضح الأمر لا يخفى مكانه : هو ابن جلا ، أى هو الذى الأمود بنفسه ،
وأوضحها ، قال سحيم بن وثيل :

أنا ابن جلا وطلائع الثنايا متى أضع العصاة تعرفونى

وكان صاحب غارات ، يطلع فيها من ثنية الجبل على قومه ؛ قال ثعلب :
المامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم ؛ قال ابن الأعرابي : يقال للتيد : ابن جلا ،
قال سيبويه رحمه الله : جلا فعل ماض ، كأنه يعنى الذى جلا ، أى أوضح وكشف .

قوله : أهدت ، أى وجدته محمودا . سقرت : كشفت وأزلت المم .
سقر : هرقنا بنفسه ، ويقال : سقرت من نفسى كما سقر ، أى هرقته شخصى
كما هرقى هو شخصه ونفسه . رهو : ساكن ، ويقال : فعل ذلك رهوا ، أى
ساكناً من غم تشدد ، قال تعالى : (راترك البحر رهوا) . والرهو عند العرب
الساكن ، يقال : جاءت الريح رهوا ، أى ساكنة ، ويجوز أن يكون رهوا من

نفت موسى عليه السلام، أى اتركه على هَيْئَتِكَ ، أو يكون من نفت البحر ، أى دَعَا بِمُوسَى سَاكِنًا وَاقْنًا مَاؤُهُ وَاعْبَرَهُ . الْجَوُّ : نَاحِيَةُ . السَّمَاءُ مَحْصُورَةٌ : نَقَتْ مِنَ السَّحَابِ الْمَثْرَى : الْغَفَى . وَالْعَقِيَّانِ : الْقَهْبُ يَنْبِتُ نَبَاتًا . عَصَفَتِ الرِّيحُ : اشْتَدَّتْ . الْجُنُوبُ : الرِّيحُ الْقَبْلِيَّةُ . عَسَفَتْ : جَاءَتْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَالْعَسْفُ رُكُوبُ الْأَسْرِ عَلَى جِهَاتِهِ . وَالْخُبُوبُ ، بِنَاءٍ مَعْجَمَةٍ ، جَمْعُ خَبٍّ ، وَهِيَ الرِّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ ابْنِ جَهْمٍ وَغَيْرِهِ ، وَهُوَ هَيْجُ الْبَحْرِ وَاضْطِرَابُ الْمَاءِ ، وَهُوَ الَّذِي صَحَّحَهُ الْفَجْدِيَّةُ . كَأَنَّ أَبَا غُرَيْرٍ الْقَسَطَلِيَّ شَاهَدَ هَذِهِ الْحَالَةَ مِنْ هَوْلِ الْبَحْرِ فَوَصَفَهُ بِقَوْلِهِ (١) :

إِلَيْكَ شَعْنَا الْفُلُكُ تَهْوِي كَأَنَّهَا	وَقَدْ ذُعِرْتُ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غُرْبَانُ
عَلَى لُجَجٍ خَضِرٍ إِذَا هَبَّتِ الْعُصْبَا	تَرَامِي بِنَا فِيهَا تَبِيرٌ وَتَهْلَانُ
مَوَائِلَ يَرْمِي فِي ذُرَاهَا مَوَائِلُ (٢)	كَمَا عُبِدَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْثَانُ
تَقَاتِلُ مَوْجُ الْبَحْرِ وَاللِّيمُ وَالذُّجَى (٣)	تَمُوجُ بِنَا فِيهَا عَيُونٌ وَأَذَانُ
أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا	سِوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الْمَاءِ كِفَانُ

وقال آخر :

وَسَمَاءٌ فِي السَّمَاءِ مَخْضَلَةٌ	لَا زَوْرَدِيَّةٌ مَا فِيهَا صَفَا
غَطَّتِ (٤) الْأَرْضَ فَلَمْ تَدْرِكْ لَنَا	مِنْ فِضَاءِ الْأَرْضِ إِلَّا طَرَفَا
فَكَانَ الْأَرْضُ فِيهَا عَائِمٌ	غَابَ إِلَّا هَامَةٌ أَوْ كَتَمْنَا

(١) هو ابن دراج القسطل ، واسمه : أحمد بن محمد بن العباس بن أحمد بن سليمان بن محمد ابن دراج ، وفي كنيته خلاف ، ذكره الدكتور محمد طي مكي حواشي ديوانه ص ٢٩ ، والأبيات في ديوانه ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) الديوان :

• مَوَائِلُ تَرْمِي فِي ذُرَاهَا مَوَائِلًا •

(٣) الديوان : « يَقَاتِلُ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَاللِّيمُ وَالذُّجَى » .

(٤) ط : « غَطَّتْ » .

وَكَانَ الْمَوْجُ فِيهَا مَسْكَرٌ كَبِدُوا لَأَمَّا وَغَالُوا حُجُفًا
خَافِقٌ رَاجِفَةٌ أَحْشَاؤُهُ كَحَشَا الْمَجُورِ يَهْوُ أَصْفَا

قوله : نسي السفر ما كان، أي نسوا ما كان من طيب العيش بصفو الصحو.
قوله : الحدث الثائر ، أي الأمر الطارئ . لنريح ، أي لنريح أنفسنا من نصب
المول والظوف ، وأراح الرجل : استراح وأراح غيره ، وأراح الريح وأروحها
واسترّوحها : وجدها . ربث : قدر ، والربث اللبث والبطء . تواتي : توافق .
امعياص : التواء ونصب . نفد : فنى . استنارة : استخراج ، يقول : هل
لك في إدراك الحظ بالخروج من السفينة إلى البرية .

• • •

فَنَهَدْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ ، عَلَى ضَعْفٍ مِنَ الْمَرِيرَةِ ؛ لَنَرُكُضَ فِي امْتِرَاءِ
الْمِيرَةِ ؛ وَكِلَانَا لَا يَمْلِكُ فَتِيلًا ، وَلَا يَهْتَدِي فِيهَا سَبِيلًا ؛ فَأَقْبَلْنَا
نَجُوسَ خِلَالَهَا ، وَتَفِيئًا ظِلَالَهَا ، حَتَّى أَفْضَيْنَا إِلَى قَصْرِ مَشِيدٍ ، لَهُ
بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ ، وَدُونَهُ زُمَرَةٌ مِنْ عَبِيدٍ . فَنَاسَمْنَاكُمْ لِنَتَّخِذْكُمْ سُلَمًا
إِلَى الِازْتِقَاءِ ، وَأَرْشِيَةً لِلِاسْتِقَاءِ ؛ فَأَلْفَيْنَا كُلًّا مِنْهُمْ كَثِيبًا حَسِيرًا ؛
حَتَّى خِلْنَاهُ كَسِيرًا أَوْ أُسِيرًا . فَقُلْنَا : أَيُّهَا الْعِلْمَةُ ، مَا هَذِهِ النُّعْمَةُ ؟ فَلَمْ
يُجِيبُوا النَّدَاءَ ، وَلَا فَأَهُوا بَيَضَاءَ وَلَا سَوْدَاءَ ، فَلَمَّا رَأَيْنَا نَارَهُمْ نَارَ
الْجَلَابِيبِ ، وَخُبُرَهُمْ كَسْرَابِ السَّبَاسِبِ ، قُلْنَا : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، وَرَفَحَ
الْأَلْسُنُ وَمَنْ يَرْجُوهُ فَايْتَدَرَ خَادِمٌ قَدْ عَلِمَتْهُ كِبَرَةٌ ، وَعَرَتْهُ عُبْرَةٌ ،
وَقَالَ : يَا قَوْمَ ، لَا تَوْسِعُونَا سَبَا ، وَلَا تَوْجِعُونَا عَتَا ؛ فَإِنَا إِنِّي حَزَنٌ
شَامِلٌ ، وَشُغْلٌ عَنِ الْحَدِيثِ شَاغِلٌ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو زَيْدٍ : نَفْسُ خِنَاقٍ

الْبَثِّ ، وَانْفِثْ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى النَّفْثِ ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ مِنِّي مَرَّافًا
كَافِيًا ، وَوَصَافًا شَافِيًا .

* * *

هَذَا : نَقْدٌ مِنَّا . الْمِرِيرَةُ : قُوَّةُ النَّفْسِ . تَرْكُضٌ ، بَفَتْحِ أَوَّلِهَا ، وَأَصْلُ
التَّرْكَضِ ، تَحْرِيكُ الْقِرَائِمِ ، وَمِنْهُ ﴿ وَارْكَضْ رِجْلَكَ ﴾ ، وَلِهَذَا قِيلَ لِلْجَنَنِ إِذَا
اضْطَرَبَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ : قَدْ ارْتَكَضَ ، وَمِنْ مُشْكَلِ آيَاتِ الْمَعَانِي :

قَدْ سَبَقَ الْحَلِيبَةُ وَهُوَ رَاكِضٌ فَكَيْفَ لَا يَسْبِقُ وَهُوَ رَابِضٌ

الْمُرَادُ : أَنَّ أُمَّهُ سَبَقَتْ الْجِمَادَ وَهِيَ حَامِلٌ بِهِ ، نَاضِجٌ السَّبْقَ إِلَيْهِ لِاتِّصَالِهِ
بِهَا ، وَأَرَادَ بِرَاكِضٍ تَحْرِيكُهُ قَوَائِمَهُ فِي مَقَرِّهِ ، وَالتَّرْكَضُ يَسْتَعْمَلُ فِي الْحَمَلِ وَغَيْرِهَا
فَيُقَالُ : رَكَضَ الْبَعِيرُ رَجْلَهُ ، وَالطَّائِرُ بِجَنَاحِهِ .

قَوْلُهُ : امْتَرَأْ ، أَيْ اسْتَخْرَاجُ . الْمِرِيرَةُ : جَلْبُ الرِّزْقِ ، وَمَارُ الرَّجُلِ عَلَى
أَمَلِهِ مَتِيرًا : جَلْبُ لَهْمِ الْقَوْتِ .

نَجُوسٌ خِلَافُهَا ؛ نَطُوفٌ فِي طَرَفِهَا ، قَالَ الْإِيثُ وَابْنُ سَيِّدِهِ : الْجَوْسُ وَالْجَوْسَانُ :
الْقَرْدُ فِي خِلَالِ الدَّوَرِ وَالْبَيُوتِ ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَالْأَزْهَرِيُّ وَأَبُو هَبِيدَةَ :
جَاسُوا الْمَوْضِعَ : وَطَنُوهُ ، وَفُلَانٌ يَجُوسُ بَنِي فُلَانٍ ، أَيْ يَطْرُقُهُمْ بِطَلَبِ فِيهِمْ .
وَقَالَ الْقَطْرِيُّ وَالنَّفَّاسُ وَالزَّجَاجُ وَالثَّمَالِيُّ : ﴿ جَاسُوا^(٢) خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ ، أَيْ طَافُوا
بَيْنَ بَيْتِهِمْ ، بِقُلُوبِهِمْ وَيَطْلُبُونَهُمْ ، ذَاهِبِينَ وَجَائِئِينَ . وَالْخُلَلُ : الْفَرْجَةُ بَيْنَ
الشَّيْئَيْنِ ، وَالْجَمْعُ خِلَالٌ . كَتَبْتُ : نَسْتُظِلُّ ، وَتَفْتِيًا بِهِ : اسْتَظَلَّ بِهِ ، وَتَفْتِيًا : تَقَلَّبَ

أفضينا : وصلنا . مَشِيد : مرتفع البناء ، والشَّيد : الحص . زمرة : جماعة . ناسمناهم :
 قربنا منهم ، وناسمه : سارّه وشامّه ، وناسمت الرجل : قربت نسمةًك من نسمة ،
 وتحدثت معه سرّاً . أرشية : حبّالا . الارتقاء : الصعود . المسك : الجلد ، يريد
 أنه شديد التوجّع ، وهذا كما تقول : لقيت فلاناً في ثوب نمر ، أو في جلد أسد ،
 أى لقيته بادی الشرّ ، قال الشاعر :

فطوراً ترانا في مُسوكٍ جيكادنا وطوراً ترانا في مُسوكِ الثعالبِ

قال البكري : الخيل توصف بالإقدام والثعالب بالزّوغان ، فيريد أنهم
 مُقدّمون على أعدائهم يوماً ، ورائعون عنهم يوماً . وقال الأستاذ : أى أميروا
 فسكتنوا بجلود خيلهم المقفورة وفي جلود الثعالب ، كناية عن خُبث الأسير .
 فاهوا : نطقوا . سوداء : كلمة رديئة . نار الحبّاب : ما تطاير من الشرّ في
 الهواء بتصادم حجرين أو بضرب حافر في حجر ، وتلك نارٌ لا منفعة فيها ، وقيل :
 الحبّاب رجل يحوّل كان يؤقّد ناراً ضعيفة لثلاثيّة صد ، فإن أحسن إنسان أطفأها
 لثلاثيّة تقيس أحد من ناره ، وقيل : نار الحبّاب نار سراج ، ولعله كان إذا
 جاء أحد يؤقّد منه أطفأها ، وقال مبد الصمد بن المذل في أخيه :

ليت لي منك يا أخى جارةً من محاربٍ
 نارها كلُّ شتوةٍ مثلُ نارِ الحبّابِ

يريد جارة القطامي التي يقول فيها :

إلى حيزبونٍ تؤقّد النارَ بمد ما تَلَفَّتِ الظّلماء من كلِّ جانبٍ

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ سَأَلْتُهَا عَنْ الْحَيِّ قَالَتْ: مَعَشَرٌ مِنْ مُحَارِبٍ
أَلَا إِنَّمَا نِيرَانٌ قَوْمِي إِذَا شَتَّوْا لَطَارِقٍ لَيْلٍ مِثْلُ نَارِ الْحُلَابِيبِ

وقيل : الحُلابِيبُ ذباب يطير بالليل ، له شمع كالسراج . قوله : خبرهم ،
الخبر بضم الخاء ، مصدر خبرت أَخْبُرَ إِذَا امْتَحَنَتْ ، والسباسب والبسابس :
الأرض المستوية ، واحدها سَبَسَبٌ وَبَسَبَسٌ . شَاهَتِ الْوُجُوهُ : قَبِضَتْ الْوُجُوهُ .
وفى الحديث : « أَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ قُبْضَةً مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ بَدَرَفَعْنَاهَا فِي
وُجُوهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ » ، ويقال شَاةُ رَجُلٍ يَشُوهُ شَوْهًا
وَشَوْهَةً ، قَبَحٌ ، وَوَجْهٌ مَشْوَةٌ ، أَيْ مَتَبَّحٌ ، وَرَجُلٌ أَشْرَهُ وَامْرَأَةٌ شَوْهَاءٌ . وَاللَّكْعُ
الْفَتْمُ ، وَقَدْ لَكِعَ لِكَمًا فَهُوَ الْكَعُ ، وَلُكِعَ وَلَكِعَ ، إِذَا لَزِمَ وَتَحَقَّقَ وَامْرَأَةٌ لَكَاعٌ
وَلَكِيعَةٌ . قوله : حَلَقَتْ كَثْبَةً ، أَيْ أَسَنَ وَكَبِرَ . وَعَرْنَتُهُ عَيْنَةٌ ، أَيْ غَشِيَتُهُ دُمْعَةٌ .
وَالْخَادِمُ : الْخَمِي ، موصوف بطول العمر وسُرعة العبث ، قال الهيثم بن عدي :
فِي الْخَلَصِ عَشْرُ خِصَالٍ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ : الْتَهْمَةُ ، وَالنَّمِيْمَةُ ، وَالشَّرُّ ، وَسُرْعَةُ
الدَّمْعَةِ ، وَطُولُ الْعُمُرِ ، وَكِبَرُ الْقَدَمِ ، وَالتَّبَرُّؤُ مِنَ الصِّلَعِ ، وَالْإِجَارَةُ فِي الصَّفَرِ ،
وَالْفَهَادَةُ فِي الْكِبَرِ ، وَالِاسْتِرْخَاءُ فِي الْمَقْعَدَةِ وَسَمَةُ الْحَجَرِ . لَا تَوْسَعُونَ سَبِيًّا ، أَيْ
لَا تَكْثُرُوا شَقًّا عَتَبًا لَوْ مَا وَمَوْجِدَةٌ ، وَعَتَبْتُ عَلَيْهِ أَعْتَبَ عَتَبًا وَعَتَابًا ، وَأَعْقَبَهُ :
أَرْضَاهُ ، وَالْمُعْتَبَى الرِّضَا ، وَاسْتَعْمَقْتُهُ طَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَمُقِبَ ، وَقَالَ لِلنَّائِبَةِ :

* وَإِنْ تَكِذَا خَتَمْتُ فَنُلُوكَ يُفَقِّبُ *^(١)

وقال حبيب :

سَرَّتْ تَحْمِلُ الْعُقْبَى إِلَى الْقَتَبِ وَالرِّضَا إِلَى السَّخَطِ وَالْمَعْدِرُ الْجَمِيلُ إِلَى الْحَقْدِ^(٢)

(١) ديوانه ١٤ ، وصدده :

* فَإِنْ أَكُ مَظْلُومًا فَعَهْدُ ظَلَمَتِهِ *

(٢) ديوانه ٢١٥

الحنان : الحبل يُخَفَّق به كالعقال للجمل يُعَقَّل به . نفس : روح وحل
عن المهنوق . والبث : الحزن . انفت : تسكلم ، وأصله ابصق ، عرافا : كثير
المعرفة ، والعراف : العالم بالشيء ، وأصله الكاهن .

• • •

فقال له : اعلم أن رب هذا القصر هو قطب هذه البقعة ،
وشاه هذه الرقعة ؛ إلا أنه لم يخل من كمد ، لخلوه من ولد ؛ ولم
يزل يستكرم المنارس ، ويتخير من المفارش التفائس ؛ إلى أن
بشر بحمل قبيلة ، وأذنت رقلته بفسيلة ، فنذرت له النذور ،
وأخصبت الأيام والشهور . ولما حان التاج ، وصيغ الطوق والتاج .
هسر نحاض الوضع ، حتى خيف على الأصل والفرع ؛ فما فينا من
يعرف قراراً ، ولا يطمع النوم إلا غراراً . ثم أجش بالبكاء
وأهول ، وردد الاسترجاع وطول . فقال له أبو زيد : اسكن
يا هذا واستبشر ، وأبشر بالفرج وبشر ؛ فعندى عزيزة الطلق ،
التي انتشر سمعها في الخلق . فتبادرت الغلظة إلى مولاهم ، متباشرين
بانكشاف بلوائهم ، فلم يكن إلا كلاً ولا ، حتى برز من هلم بنا
إليه . فلما دخلنا عليه ، ومثلنا بين يديه ، قال أبو زيد : إيهيك
منالك ، إن صدق مقالك ، ولم يفك فالك .

• • •

تُطَبُّ هذه البقعة ، أى رئيس هذه الأرض ، وقطب القوم : سيدهم الذمى بلجئون إليه .

وشاء هذه الرقعة : مَلِك هذه الجزيرة ، وأراد بالرقعة سُفْرة الشطرنج ، وشاهها : مَلِك جيشها الذى يتصرف فى بيوتها كيف شاء ، وقد أحسن مَنْ قال فيها :

أَرْضٌ مَرَبَعَةٌ سَحَرَاءُ مِنْ أَدَمَ مَا بَيْنَ خِلَائِنِ مَوْصُوفَيْنِ بِالكَرَمِ
تَذَاكَرَّا الْحَرْبَ فَاحْتَالَ لَهَا شَبَّهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعِيَا فِيهَا لِسْفَكِ دَمِ
هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى هَذَا يُغَيِّرُ وَعَيْنُ الْحَرْبِ لَمْ تَقَمْ
فَانْظُرْ إِلَى فِطَانٍ جَاشَتْ بِمَعْرِفَةٍ فِي عَسْكَرَيْنِ بِلَا حَبِيلٍ وَلَا عِلْمِ

قوله : كَمَد ، أى حزن . المغارس والمغارش : النساء ، كأنَّ التُّطَفَ تَفْرَسُ فِهِنَّ فيكثر الولد منها الفئاس : الكرائم . عَقِيلَةٌ : خَيْرَةٌ ، والعقيلة دُرَّةُ الْبَحْرِ ، وبه سُمِّيَتْ الْمَرْأَةُ لِكْرَمِهَا وَشَرَفِهَا ، وكل كريمة من النساء والإبل والخيول فهى عَقِيلَةٌ . الرَّقْلَةُ : التَّخْضَلَةُ الطَّوِيلَةُ . الْفَسِيلَةُ : نُخَيْلَةٌ تَسْكُبُ فِي أَصْلِ النَخْلِ ، أَرَادَ أَنَّ الْمَرْأَةَ حَمَلَتْ بَوْلَدٍ . نَذَرْتُ النَّدْوَرَ ، أى وَعَدْتُ بِفَعْلٍ خَيْرٍ إِنْ سَلِمَ الْحَمْلُ . أَحْصَيْتُ : حُدِدَتْ ، وعلم ما بقى منها . حَانَ الْفَتَاجُ : قَرِبَ وَقْتُ الْوَلَادَةِ صَبِيغٌ : صُبُغٌ . الْطَوُوقُ : الثَّوْبُ يَلْبَسُهُ الْمَوْلُودُ بِغَيْرِ جِيبٍ ، وَلَمَّا سَبَقَ إِلَى جَذْبَةِ ابْنِ أُخْتِهِ حَمْرُو ، وَكَانَ لَهُ طَوُوقٌ يَلْبَسُهُ فِي الصَّبَرِ ، فَقَالَ لَهُ : الْبَسْهُ فَلَمْ يَسْمَعْهُ ، فَقَالَ : شَبَّ حَمْرُو عَنِ الطَّوُوقِ ، فَذَهَبَتْ مِثْلًا ، قَالَ ابْنُ الْقَبْطَرُونَةِ ^(١) فِي الْحَكَمِ بْنِ حَزْمٍ ، وَكَتَفَهُ ذَلِكَ ابْنُ سِرَاجٍ :

(١) ط : « القبطرية » تصحيف ، صوابه من نفع الطيب ، قال « وكان بنو القبطرية بالأندلس أشهر من نار على علم ، وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة والفضائل المذكورة » .

رأى صاحبي غمراً فكلف وصفه وحلّني من ذاك ما ليس في الطوق^(١)
 قلت له : عمرو كمرو فقال لي صدّقت ولكن شبّه هذا من الطوقِ
 عَسْر : صعب . مخاض : تحرّك الولد عند الولادة ، وقيل : وجع الولادة .
 القَرار : السكون . الفِرار : النوم القليل ؛ وهو من غرّ الطائر فرخه بفِرّه ، إذا
 أطعمه شيئاً بدمه ، وأخذ من قول الشاعر :

لا أذوقُ النَّومَ إلّا غِرَّاراً مثل حَسو الطَّير ماء الشَّمارِ^(٢)

ولا يُطعمُ النَّومُ ، أي لا يذوقه ، ويقال : طعمه وتطعمه : ذاقه ، وفي المثل :
 تطعمُ نطعم ، أي ذُقْ تشته . أجهش : أي تهيجاً بالبكاء ، والإجهاش : تغير الوجه
 عند إرادة البكاء . أعول : رفع صوته بالبكاء . الاسترجاع ، قد تقدّم . التلق :
 وجع الولادة ، سُمّيَ طلقاً على التناؤل للمرأة بالانطلاق بالولّد . سمعها : ذكرها
 الجليل . تبادرت : تسابقت .

وجمع غلام غِلْمَةً وغلّمان . البَلوى : البلاء . كَلّا ولّا ، أي كاللفظ بها ، وهي
 كناية عن قلة الألبث وسرعة الأمر ، ويضرب بلا المثل ، فيقال : أخف من
 لا على اللسان ، وأقل من لا في اللفظ ، وقال جرير :

يكون نزول القوم فيها كَلّا ولّا غِشاشاً ولا يدُنُون رجلاً إلى رجل^(٣)

غِشاشاً ، أي قليلاً . ويقال : لقوه على غِشاش ، أي على عجلة ، وقال الكُمَيْت :

(١) فتح الطيب ١ : ٦٣٦ ، فرائد البقيان ١٧٦ . قال في النفع : « وركب أبو الحسن بن
 البطرنة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسن بن سراج فنظر إلى أبي الحسن بن حزم
 غلاماً كما في قمّته ؛ وهو يروق كأنه زهر طارق كأنه ، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول
 فأرتج عليه ؛ فثنى عنان القول إليه ، فقال « وذكر البيهقي .

(٢) الكامل ١ : ١٥١ - بفرح الرصني ، من أربعة أبيات نسبها إلى بعض الأعراب ،
 ولي ط « الثمار » تحريف .

(٣) ديوانه ١٦١ ، وفيه « رجلاً إلى رجل » بالحاء .

(٢٠ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

كَلَّا وَكَذَا تَفْمِيضُهُمْ ثُمَّ هَجُّهُمْ لَدَى حِينَ أَنْ كَانُوا إِلَى النَّوْمِ أَفْقَرًا^(١)

يقول : كان نومهم في القلة والسرعة ، كقول القائل : لا وذا .

وقال الحسن^(٢) رحمه الله :

يَا عَائِدَ الْقَلْبِ مِثِّي هَلَّا تَذَكَّرْتُ خِلَاءَ
تَرَكْتُ مِثِّي قَلِيلًا مِنْ الْقَلْبِ أَقْلًا
يَكَادُ لَا يَتَجَزَّى أَقْلَ فِي الْفِظِ مِنْ لَا

وفي أبيات البديع :

وَأَرْوَعَ أَهْدَاهُ لِيَ اللَّيْلِ وَالْفَلَا وَخَسَّ تَمَسَّ الْأَرْضَ لَسَكَنَ كَلَّا وَلَا

جمل قوائيم فرسه وهي الخمس تمس الأرض في المشي كلاً ولا على اللسان .
قوله : برز ، أي خرج . هلم : دعا ، وقال لنا هلم مثَلنا : وقفنا ، ومثّل بين
يديه : انقصب قائماً . منالك : عطاؤك . ولم يفل قالك : لم يخطئ . رأيك ، وقال
رأيه فيؤلة : ضُفّ وأخطأ .

فَامْتَحَضَرَ قَلَمًا مَبْرِيًّا ، وَزَبَدًا بِحْرِيًّا ، وَزَعَفَرَانًا قَدْ دِيفَ ، فِي
مَاءٍ وَرْدٍ نَظِيفٍ ؛ فَمَا إِنْ رَجَعَ النَّفْسَ ، حَتَّى أَخْضَرَ مَا التَّمَسَّ ، فَسَجَدَ
أَبُو زَيْدٍ وَعَفَّرَ ، وَسَبَّحَ وَاسْتَغْفَرَ ، وَأَبْعَدَ الْحَاضِرِينَ وَنَفَرَ . ثُمَّ أَخَذَ
الْقَلَمَ وَاسْتَحَفَّرَ ، وَكَتَبَ عَلَى الزَّبَدِ بِالْمُزَعَفَرِ :

(١) اللسان (لا) ، وفيه « تفيضة » .

(٢) هو الحسن بن هاني ، أبو نواس

أَيْهَا الْجَنِينِ إِنِّي نَصِيحٌ لَّكَ ، وَالنُّصْحُ مِنْ شُرُوطِ الدِّينِ
 أَنْتَ مُسْتَعِمْ بِكَ كَثِيرٍ وَقَرَارٍ مِنَ السُّكُونِ مَكِينٍ
 مَا تَرَى فِيهِ مَا يَرُوعُكَ مِنْ أَلْفِ مَدَاجِرٍ وَلَا عَدُوٍّ مُبِينٍ
 فَتَمَى مَا بَرَزْتَ مِنْهُ تَحَوَّلْتَ إِلَى مَنْزِلِ الْأَذَى وَالْهُونِ
 وَتَرَأَى لَكَ الشَّقَاءَ الَّذِي تَذُقُ قِيَّ قَتْبِكَ لَهُ بَدَمٌ هَتُونٍ
 فَاسْتَدِمَ هَيْشَكَ الرِّغِيدَ وَحَازِرَ أَنْ تَبِيعَ الْمَحْقُوقَ بِالْمُظَنُّونِ
 وَاحْتَرَسَ مِنْ مُخَادَعِ لَكَ يَرْقِيكَ لِيُلْقِيكَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ
 وَلَعَمْرِي لَقَدْ نَصَحْتُ وَلَكِنْ كَمْ نَصِيحٍ مُشَبَّهِ بَظُنِينِ

• • •

وَالزَّبْدُ : حَجَرٌ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ شَدِيدُ الْبَهَاضِ دَقِيقُ الثَّقَبِ جَدًّا ، يَوْجَدُ
 حَائِمًا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ يَصْرِفُ فِي الْأَكْحَالِ . وَقَالَتِ الْحَكَمَاءُ : مِنْ خِصَائِصِ
 الزَّبْدِ الْبَحْرِيُّ أَنَّهُ إِذَا حَاقَّ عَلَى امْرَأَةٍ مَاخُضَ سَهْلٌ هَلْهَا الْوَلَادَةُ ، وَيَكُونُ
 فِي بَحْرِ الْبَحْرِ . دَيْفٌ : خَلِيطٌ . التَّمَسُّ : طَلَبُ عَفْرِ : جَمَلٌ وَجْهَهُ عَلَى الْأَرْضِ ،
 وَالْعَفَرُ التَّرَابُ . اسْتَحْفَرُ : جَدٌّ وَشَعْرٌ لِلْكِتَابَةِ ، وَيُقَالُ : اسْتَحْفَرُ فِي الْأَمْرِ ، إِذَا
 نَحَفَزَ فِيهِ . وَقَالَتْ جَارِيَةٌ مِنَ الْعَرَبِ :

يَا أَمَّا أَبْصَرَنِي رَاكِبٌ مُسْتَحْفَرٌ فِي مَسَرِّبٍ لَا حَيْبٍ^(١)
 مَازَلْتُ أَحْمُو لَتَرَبِّي وَجْهَهُ هَذَا وَأَحْيَ حَوَازَةَ النَّاسِ

(١) تنسب هذه الأبيات للبحرئى ، وانظر الديوان وخواصه ص ٣٠١ .

فاجابتها أمها^(١):

الْخُضْنُ أَوَّلَى لَوْ تَأَيَّيْتَهُ مِنْ خَشْيِكَ الْتَرَبَّ عَلَى الرَّاكِبِ
 مَسْرَبٍ : طريق لاجب بَيْنَ . الْغَائِبِ : زَوْجِهَا . الْحَصْنُ : الْعَفَّةُ . تَأَيَّيْتَهُ :
 تَعَمَّدْتَهُ وَقَصَدْتَهُ . لِلزُّعْفَرِ : اللِّدَادُ مِنَ الزُّعْفَرَانِ . الْجَنِينِ : الْوَلَدُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ .
 النَّصِصُ : خِذَّةُ النَّشْءِ ؛ قَالَ الْخَطَّابِيُّ : النَّصِصَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ مَعْنَاهَا حَيَازَةُ الْخَطِّ
 لِلْمَنْصُوحِ ، وَقِيلَ : أَصْلُهَا مِنْ نَصَحَ الرَّجُلُ نَوْبَهُ ، أَيْ خَاطَلَهُ ، وَالنَّصَاحُ : الْخَلِيطُ ،
 شَبَّهُوا فِعْلَ النَّصَاحِ بِالْخَطِّ الَّذِي يَلَامُ الْخَلَلَ وَالْفَتْوَقَ ، وَالْقَوْبَةُ الْمَنْصُوحُ ،
 كَأَنَّهَا تَرْقَعُ مَا خَرَقَتْهُ الْمَعْصِيَةُ . مَسْمَعٌ : مَسْمُوكٌ مَمْنَعٌ ، وَاسْتَمَعَمَ^(٢) فِي ذِكْرِ
 يُوسُفَ : اِمْتَنَعَ وَتَأَنَّى . كَنَّ : مَوْضِعَ يَكْنَى فِيهِ . كَنِينٌ : سَاتِرٌ ، وَالسَّكِينُ :
 الْمُسْتَوْدَعُ . وَالْإِقْرَارُ : لِلْمَكَانِ الْمَطْمَئِنِّ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ الْمَاءُ ، وَأَرَادَ بِهِ الرَّجِيمَ .
 بُرُوعُكَ : يَفْرَعُكَ . إِلْفٌ : صَاحِبٌ . مَدَاحٌ : يَظْهَرُ الْحُبُّ ، وَيَضْمُرُ خِلَافُهُ ،
 وَدَاجَاهُ : سَاتَرَهُ بِالْمَدَاوَةِ . بَرَزَتْ : خَرَجَتْ . الْأَذَى : الضَّرَرُ . الْهُونُ : الْهَوَانُ .
 تَرَامَى : تَظَاهَرَ . هَتُونٌ : كَثِيرُ السَّيْلَانِ . وَهَتَفَتِ السَّمَاءُ : صَبَّتْ . الرَّفِيدُ :
 الْوَاسِعُ . الْخَفَوُ : الَّذِي لَا يُشَكُّ فِيهِ . الْغُلَّانُ : الشُّكُوكُ فِيهِ ؛ فَهُوَ يُشِيرُ عَلَى
 الْعَصِيِّ أَنْ يُقِيمَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَلَا يَخْرُجُ لِلدُّنْيَا . ظَلَيْنِ : مَتَّهِمِ .

• • •

ثُمَّ إِنَّهُ طَمَسَ الْمَكْتُوبَ عَلَى غَفْلَةٍ ، وَتَفَلَّ عَلَيْهِ مَائَةٌ تَفْلَةٍ ، وَشَدَّ
 الزُّبْدَ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ ، بَعْدَ مَا ضَمَّنَهَا بِعَبِيرٍ ، وَأَمَرَ بِتَعْلِيلِهَا عَلَى فَنَخِذِ

(١) فِي الدِّبْوَانِ :

قَالَتْ لَهَا ضَاحِكَةً أَتُهَا أَنْتِ كَتَلِ الْأَمَلَ الْخَائِبِ

(٢) هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ ٣٢ ﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾

الماخِضِ ، وألّا تملَقَ بِهَا يَدُ حائِضٍ ، فلم يَكُنْ إِلَّا كَذَوَاقٍ
شَارِبٍ ، أو فَوَاقٍ حَالِبٍ ، حَتَّى انْدَلَقَ شَخْصُ الْوَلَدِ ، لِخِصْمَيْهِ
الزَّيْدِ ، بِقُدْرَةِ الْوَاحِدِ الصِّدِّ .

فامتلاً الْقَصْرُ جُبُوراً ، وَاسْتُطِيرَ عَمِيدُهُ وَعَبِيدُهُ سُرُوراً ،
وَأَحَاطَتِ الْجَمَاعَةُ بِأَبِي زَيْدٍ تُثْنِي عَلَيْهِ ، وَتُقَبِّلُ يَدَيْهِ ، وَتَتَبَرَّكُ بِمَسَاسِ
حِلْمَرِيهِ ؛ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ الْقَرْنِيُّ أَوْيسُ ، أَوِ الْأَسَدِيُّ دُونِسَ .

• • •

طَمَسَ : غَطَى ، وَطَمَسَتِ الدَّارُ إِذَا غَطَى الْقِرَابُ آثَارَهَا وَمَحَاَهَا . وَالتَّقَلُّ :
نَفَعَ بِمَخْرَجٍ مَعَهُ بَصَاقٌ مَفْتَرَقٌ ، وَأَوَّلُهُ الْبَرْقُ نَمُ التَّقَلُّ ، نَمُ الْتَفْتُ ، نَمُ النِّفْعُ .

ضَمَّخَهَا : لَطَخَهَا . عَيَّرَ : أَخْلَطَ مِنَ الطُّلُوبِ . الْمَاخِضُ : الْحَامِلُ . وَلَا تَمْلَقُ
بِهَا يَدُ حَائِضٍ ، تَمْوِيهِ بِأَن مَكْتُوبَهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَائِضُ لَا تَمْسُهُ . الذَّوَاقُ : مَنْ
الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ بِلِسَانِكَ . الْفَوَاقِ : مَا بَيْنَ الْحُلْبَعَيْنِ مِنَ الْوَقْتِ ، لِأَنَّ النَّاقَةَ
تَحْلُبُ نَمُ تَفْرُكُ سَاعَةً يَرْضَعُهَا فَصِيلُهَا لَقَدْرَ نَمُ تَحْلُبُ . انْدَلَقَ : خَرَجَ بِسْرَمَةٍ ،
وَكُلُّ شَيْءٍ يَدْرُ خَارِجاً بِسْرَمَةٍ فَقَدْ انْدَلَقَ ، وَانْدَلَقَ التَّيْفُ مِنْ غَمْدِهِ إِذَا
صَفَقَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْلُ . خِصْمَيْ الزَّيْدِ ، أَيْ خَاصِمَتَهُ الَّتِي يَفْرِدُ بِهَا مِنَ الْأَحْبَارِ ،
وَاخْتَصَمْتُ بِالشَّيْءِ : انْفَرَدَتْ بِهِ ، وَجَاءَنِي خِصْمِي الْقَوْمِ ، مَقْصُوراً ، أَيْ
خَاصِمَتِهِمْ ، وَخِصْمَتُهُ بِالشَّيْءِ خُصُوصاً وَخُصُوصِيَّةً وَخِصْمِيَّةً .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا وَلَدَنِي
أَهْلُ بَيْتِ غُلَامٍ إِلَّا أَصْبَحَ فِيهِمْ عِزٌّ لَمْ يَكُنْ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَلَدَهُ مَوْلُودٌ فَاذْنُ فِي أُذُنِهِ الْيَمْنَى وَأَقَامَ فِي
الْيَمَنِ ، دَعَمَتْ عَنْهُ أُمُّ الْعَبْيَانِ » .

حُبُورًا : سرورًا . واشتُطِرَ : داخله السرور . عَمِيدُهُ : سيده . طَمَرِيه : ثوبيه .
 وذكر ابن قتيبة بسند متصل بابن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : مرَّ
 عيسى بن مريم عليه السلام على بقرةٍ قد اعترض ولدها في بطنها ، قالت :
 يا كلمة الله ، ادعُ الله أن يخلصني ، فقال : يا خالقَ النفس من النفس ، ويا مُخرجَ
 النفس من النفس ، ويا مُخلصَ النفس من النفس خُصِّصها ، فألقت ما في بطنها ،
 فإذا عسرت على المرأة ولادتها فهكُتْ على مكيال ، ثم تعطاه المرأة .

وذكر الفنجدي بسند متصل بأبي هريرة رضى الله عنه ، قال : بينا
 عيسى ويحيى عليهما السلام في البرية إذ رأيا وحشيّةً ماخضاً^(١) ، فقال عيسى
 ليحيى : قل تلك الكلمات : جنة ولدت مريم ، مريم ولدت عيسى ، الأرض
 تدموك يا ولد ، اخرج يا ولد ، اخرج .

قال حماد بن زيد : فما يكون في الحى امرأة ماخض ، فيقال هذا عندها
 إلّا ولدت ، حتى الشاة التي يمسّر وضعها ، فيقال هذا عندها ، فلا تبرح
 حتى تضع .

يونس بن عبيد الله : اللهم أنت عُدَّتْ عند شدّتي ، وأنت صاحبي عند
 كربتي ، وأنت وليّ نعمتي ، مَنْ قالها عند الغفساء إذا عسر عليها ولدها ، أو
 على بهيمة ، أذن الله تعالى في خروجه .

وذكر من ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إذا عسر على المرأة ولادتها ،
 فهكُتْ لها بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سُبْحَانَ الله ربّ العرش
 العظيم ، الحمد لله ربّ العالمين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا مَشْيَةً
 أَوْصَحًا ﴾^(٢) ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ . لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ
 بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٣) .

(٢) سورة النازعات ٤٦ .

(١) الماخض : الحامل .

(٣) سورة الأحقاف ٣٥ .

قال سفهان : يكتب هذا في جام وتسقاء .

وذكر من أبي الزناد قال : كنت مثنأنا ، فقبل لي استغفر الله إذا جامع ، فقلت فوضع لي بضعة عشر ذكرا .
قوله خيل : أي شبه .

[ذكر أويس القرني]

وأويس القرني بَشَّرَ به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو من التابعين .

وفي صحيح مسلم : إن أهل الكوفة وفدوا على عمر رضي الله عنه ، وفيهم رجل يَمْنُ كان يسخر بأويس ، فقال عمر رضي الله عنه : هل هاهنا أحد من قرن ؟ فجاء ذلك الرجل ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس ، لا يدع باليمن غير أمِّ له ، وقد كان فيه بهاض ، فدعا الله ، فأذهب الله عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم ، فمن ألقته منكم فليستغفر لكم .

وفيه عن أسيد بن جابر ، قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتاه أمداد أهل اليمن سأل : أنتم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس ، فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : من مُرادٍ ، ثم من قرن ؟ قال : نعم ، قال : فكان بك برصٌ فبرئت منه إلا موضع الدرهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتي إليكم أويس بن عامر ، مع أمداد أهل اليمن ، من مُرادٍ ثم من قرن ، وكان به بهاض فبري منه إلا موضع الدرهم ، له والدة هو بها بارٌّ لو أقسم على الله لأبره ، فلئن استطعت أن يستغفر لك فافعل ، فاستغفرت فاستغفر له ، فقال عمر رضي الله عنه ابن تريد ؟ فقال : الكوفة ، قال ألا أكعب لك إل عاملها ؟ قال : أكون في غير الناس أحبُّ إلي . قال : فلما كان في العام القابل حجَّ رجل من أنسرافهم ،

عوفى عمر رضى الله عنه ، فسأله عن أُويس ، فقال : تركته رث البيت ، قليل المتاع . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي عليكم أويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قَرْن ، وكان به بَرَص فبرئ منه إلا موضع درم ، له والدة هو بها بار ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استعطت أن يستغفر لك فافعل . فأتى أويسا فقال : استغفر لى ، فقال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح ؟ قال : نعم ، قال له : لعمرك عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفر له ، فقطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أسيد : وكسوته بُرْدَة ، فكان كلما رآه إنسان قال : من أين لأويس هذه البرْدَة !

وفى كتاب الإحياء : أنه لما ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : أيها الناس ، مَنْ كان من أهل العراق فليقم ، قداموا ، فقال : اجلسوا إلا مَنْ كان من قَرْن ؟ فجلسوا إلا رجلا واحدا ، فقال له عمر رضى الله عنه قَرْنى ؟ أنت ؟ قال : نعم ، قال : أنعرف أويسا ؟ قال : نعم ، وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟ والله ما نينا أحق ولا أجن ولا أحوج منه ! فبكى عمر رضى الله عنه ، ثم قال : ما قلت ، إلا أَنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر » . ولما كان عند أهل كالجَنون بَنُوا له بيتا على باب دارهم ، فكان تأتي عليهم السَّنة لا يرون وجهه ، كان يخرج أول الأذان وبأتى بعد العشاء الآخرة ، وكان طامأه أن يلقط النوى ، فكأما أصاب حَشَفَة خبأها لإفطاره ، فإن أصاب ما بقوته باع النوى ، ونصديق به ، وإلا اشترى منه ما بقوته . وكان لباسه قطع الأكسية من المزابل ، يلفق بمضها إلى بعض ، ثم يلبسها ، وإذا مرَّ بالصبيان رجوه ، يظنون أنه مجنون ، ولهذا أعظم النبي صلى الله عليه وسلم حرمة ، فقال : « إني لأجد نفس الرحمة من قبل اليمن » إشارة إليه .

[ذكر الأمير ديبس]

وأما ديبس فهو الأمير سيف الدولة بن مزيد الأسدي ، وقيل : ديبس بن صدقة بن مزيد ، وذكر أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي طالب الباهرزي للأمير أبا الأعر ديبس بن علي فقال : خدمته ببغداد ، وعبرتُ إليه أختُ يده الجراد - يعنى دجلة - وهي زاخرة الأمداد ، فإذا باحة للطارقين مباحة ، وراحة في كنفها للمفاتيح راحة ، وقباب التفت بها غاب القفا ، واشترك مع أسودها الناس في فرائس النوى .

قال الفنجديي : سمعت بعض أهل الفضل يقول ببغداد : لما سمع الأمير ديبس ، أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكره في مقاماته ، وأورد فيها بعض صفاته ، أخذ إليه من الخلع السنية ، والجوائز الهنيئة ومزية العطية ، ما عجز عنه الوصف ، وكل عنه الطرف ، واقتضاه علو همة ، وسمو قدرته . ثم عصى ديبس على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله ، وسمى في إراقة دمه ، وجمع العساكر وحشد ، وقصد بغداد في عسكر عظيم ، وعاث في أطرافها ، وأفسد في أكنافها ، فخرج المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة ، واجتمعت إليه الأجناد ، وظهر إليه وحمل عليه ، فهزم ديبس وعسكره ، وانتهى إلى الحلة الزيدية ، فانتبهما ، وذلك في الحرم في سنة سبع عشرة وخمسمائة . وانهمزم ديبس في خواص من أصحابه وغلمانة خوفاً من الخليفة ، ومرت نحو الشام ثم قتل الأمير ديبس بن صدقة بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين ، قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأموار أنكرها وأسباب امععض لها ، نسبت إليه^(١) .

ثم انشال عليه من جوائز المجازاة ، ووصائل الصلات ، ما قيض له

الغنى، ويبيض وجهه المني، ولم يزل ينتأبه الدخْل، مذ تُتَبَّج السُّخْل؛
إلى أن أُعْطِيَ الْبَحْرُ الْأَمَانُ، وتَسَنَّى الإِغَامُ إلى عُثْمَانَ؛ فَاكْتَنَى
أَبُو زَيْدٍ بِالنَّحْلَةِ، وتَأَمَّبَ لِلرَّحَلَةِ؛ فلم يَسْمَحِ الْوَالِي بِمَحْرَكَتِهِ، بعد
تَعَجُّبِهِ بِرَكَتِهِ، بل أَوْعَزَ بَعْضُهُ إِلَى خُزَاتِهِ. وَأَنْ تُطْلَقَ يَدُهُ فِي
خُزَاتِهِ.

قال الحارث بن همام: فلما رأيتُه قد مال، إلى حيث يُكْتَسَبُ
المال، أَنَعَيْتُ عَلَيْهِ بِالْتَّعْنِيفِ، وَهَجَّيْتُ لَهُ مَفَارِقَةَ الْمَالِفِ وَالْأَلِيفِ،
فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاسْمَعْ مِنِّي.

* * *

قوله: انثال، أى انصب. جوائز: عطايا. وصائل: متصلات غير منقطعة،
والوصائل: ثياب حر محططة نُصْنَعُ بِالْيَمَنِ بلبسها الفساء، قال الشاعر:
* لَهَا حُبُّكَ كَمَا هِيَ مِنْ وَصَائِلِ *

فَوْض: قُدِّرَ وَسَاقٌ يَنْقَابُهُ، أَيْ يَقْصِدُهُ وَيَأْتِيهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

الدخْل: العطايا التي تدخل إليه من قبل الأمير وغيره، ورجل كثير
الدخْل: إذا كثُرَ دَخُولُ الرِّزْقِ عَلَيْهِ. وَالسُّخْل: الولد.

ومما يستحسن في التهنئة بمولود قول الخلواني:

نَجْمٌ تَوَلَّدَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ وَأَيْنَ مَنْ أَبَوَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
شَمْسُ الْعَفَافِ وَجَدَّ الْبَدْرِ بَيْنَهُمَا تَوَلَّدَ النُّورُ إِلَّا أَنَّهُ بَشَرُ

أخذه من قول ابن الرومي :

شمس وبدرٌ ولداً كوكباً أقسمت بالله لقد أنجبا

وجاء القرطبي في الفقيه ابن المطار بمولود ، فقال :

يَهْنِيكَ مَازَادَتِ الْأَيَّامِ فِي عَدَدِكَ مِنْ فَلَذَةٍ بَرَزَتْ بِالسُّعْدِ مِنْ كِبَدِكَ^(١)
كَأَنَّكَ الدَّهْرُ دَهْرٌ كَانَ مَكْتَنِبًا مِنْ انْفِرَادِكَ حَقٌّ زَادَ فِي عَدَدِكَ
لَا خَلْقَكَ إلهَالِي تَحْتَ ظِلِّ رَدَى حَتَّى تَرَى وَلَدًا قَدْ شَبَّ مِنْ وَلَدِكَ

قوله : نَسَى الْإِنَّمَاءَ ، أى تيسر لإتمام المشى والإفلاخ . اكنفى : اقتنع .
الفحلة : العطية . أَوْعَزَ وَوَعَزَ ، تقدم ، يعقوب : لا يقال . وَعَزَ بالتخفيف . حُرَانَتُهُ :
جماعته ، وعياله الذين يتحرّون لذكبيته ولفقده ، ويمحزن هو لِضَيْعَتِهِمْ .
أنحيت : ملت عليه وقصدته به . التعتيف : اللوم والأخذ باللسان . المؤلف : البهجة
وموضع الألفة . الأليف : الصّاحب . إليك عنى : نهاعد هنى .

* * *

لَا تَصُبُّونَ إِلَى وَطَنٍ فِيهِ تَضَامٌ وَتُمْتَهَنُ
وَارْحَلْ عَنِ الدَّارِ الَّتِي تُغْلِي الْوِهَادَ عَلَى الْقُنَنِ
وَاهْرَبْ إِلَى كَنْ يَبْقَى وَلَوْ أَنَّهُ حِضْنًا حَضَنَ
وَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَقِيَمَ بِمَحِثٍ يَنْفَشَاكَ الدَّرَنَ
وَجِبِ الْبِلَادِ فَأَيُّهَا أَرْضَاكَ فَاخْتَرَهُ وَطَنُ
وَدَعِ التَّذَكُّرَ لِلْعَا

هِدِ وَالْحَيْنِ إِلَى السَّكَنِ

واعلم بأن الحُرَّ في أوطانه يلقى الغبن
كالدرّ في الأصداق يسرّ ترى ويُخسّ في الثمن

• • •

تصيّبون : تميلن ، وصبوت إليه ملّت بالحبّة . تضام : تذل . تمتهن :
تحتقر ، وقال محمد بن بشر في هذا المعنى :

إنما أزرى بقدرى أنى لست من بآبِ أهْلِ الْبَلَدِ
ليس منهم غير ذى مقلية قدوى الألباب أو ذى حسدٍ
يتعامون لقائى مثل ما يتعامون لقاء الأسدِ
مطلبي أثقل في أعينهم وعلى أنفسهم من أحدٍ
لوراؤنى وسط بحر لم يكن أحدٌ يأخذ منهم يدي

وقال البحتري :

أشترق أم أغرب ياسعيدُ وأنقص من زَماعِي أم أزيدُ^(١)
عدّني عن نصيبين القوادي فبختي أبله فيها بليدُ
وأخلفي الزمان على رجال وجوههم وأيديهم حديدُ
لهم حللٌ حسنٌ فمن يبيضُ وأخلاقٌ سمجنٌ فمن سود

ومن نبا به بلده للقاضي أبو محمد عبد الوهاب ، خرج من بغداد يريد مصر ،
فشيّعه أكابرها ، ومن أصحاب محاربا جملة موفورة ، فقال لهم : والله لو وجدت
بين أظهركم رغيفين كل يوم ، ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنيّة ، والخبز عندهم يومئذ
ثلاثة رطل بدينار ، وقال :

سلامٌ على بغدادٍ مِنِّي تحيةٌ وحقٌ لها مني السلامُ المضافُ^(١)
 لعمرُك ما فارقَها قالها لها وإني بشأني جانيبها لمارفُ
 ولكها ضاقت عليَّ برُحبتها ولم تكن الأقدار تمن يسأفُ
 فكانت كخيلٍ كنت أهوى دنوهُ وتأنى به أخلاقه فهو خالفُ
 وقال أيضاً :

بغدادُ دار لأهلٍ المالِ واسعةٌ وللغالبِ دار الضنكِ والاضيقِ^(٢)
 قد صرتُ أمني مهانكا في أزقيها كأنني مصعبٌ في كفِّ زنديقِ

قوله: الوهاد والفتن: الانخفاض والارتفاع ، والفتنة: أعلى الجبل ، والوهدة
 القعدة من الأرض تجري إليها مياه جهاتها . حصناً : جانباً حصيناً مانعاً . أرباً ،
 أي ارتفع . يمشاك : يُعْطِيكَ . الدرن: الوسخ . المعاهد: منازل سكناه . الحنن:
 الشوق . السكَن : الأهل . الأصداف : محالّ الجواهر . يستزرى : يستحقّر .
 يبخس : ينقص ، ومعنى هذه الأبيات يقول : أرحل من بلد يملو فيه قدر أصاغر
 الناس قدر أكابرهم ، ولا تُقيم فيه على الهوان ، وارفع قدر نفسك من أن تقيم
 بموضع توسّخك فيه الإهانة ، فإن المرء حيث يضع نفسه ، وطُف بالبلاد ، واختر
 وطناً ما أرضاك ، فإن الحرّ يضع في وطنه ، ولا يعرف قدره .

الأصمعيّ : سمعتُ بعضَ العرب يقول : الفقر في الوطن غربة ، والغنى في
 الغربة وطن .

ونظر أبو الحسن إلى برذونٍ يُستَقى عليه ، فقال : المرء حيث يضع نفسه ،
 لو هُلج هذا لم يُبيلَ بما ترون .

الزبير رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العباد عباد الله ، والبلاد بلاد الله ، فحينما وجدتَ خيراً فأقم ، واحمد الله » .

وقال هلال بن العلاء الرقى :

لا تجزمنَ وإن نأتَ أرضٌ تُقالُ بها الحجةُ
وطنُ الغريبِ يسارُهُ والفقرُ في الأوطانِ غربةُ

وقال آخر :

أشدَّ من فاقدةِ الزَّمانِ مقامُ حرٍّ على الهوانِ
فاسترزقِ الله واستغنِه فإنه خيرُ مستعانِ
فإن نبا منزلٌ بحمرٍ فن مكانٍ إلى مكانِ

وقال آخر :

شرقي وغرب تجدد من غادرٍ بدلاً فالأرض من تربة والناس من رجلٍ

وقال آخر :

من ضاق عنك فأرض الله واسمه عن وجه كل مضيق وجه منفرج
خيرُ المذاهب في الحاجات أنجحها وأضيق الأسر أدناه من الفرج

* * *

ثم قال : حسبتُك ما استمعتَ ، وحببتُك إذ أنتَ لَوِ اثبتتَ .
فأوضحتُ له معاذيرى ، وقلتُ له : كُنْ عَذِيرِي . فَعَذَرَ واعتَذَرَ ،
وزوَّدحتي لم يَذَرْ ، ثم شيعني تشيع الأقارب ، إلى أن ركبْتُ
في القارب . فودَّعته وأنا أشكرُ الفراقَ وأذمه ، وأودُّ لو كان
هلكَ الجنين وأمه

* * *

حسبك : يكفيك . أوضحت : بيّنت . معاذبري : أهداري ، والمُذِيرَةُ :
 المفسر ، ويقال : هذيرك من كذا ، بمعنى هلمّ معذرتك منه ، وقيل : العذير بمعنى
 عاذر ، فَعُول بمعنى فاعل ، أي هلمّ لمن يعذرك منه .

تطلب : العذير ، مصدر بمعنى التّكبير ، ومعنى عذيري منه ، أي مَنْ
 يعذّرني منه !

وعذّر : قَبِلَ العذر . والله أعلم .

المقامة الأربعون وهي التبريزية

أخبر الحارث بن همام ، قال : أزمعتُ التبريز من تبريز ، حين
نبتت بالدليل والعزير ، وخلصت من المجير والمجيز ؛ فبينما أنا في
إعداد الأهبة ، وارتداد المشجة ، ألفيت بها أبا زيد السروجي ملتقاً
بكيساء ، ومحتقاً بنساء ، فسألته عن خطبه ، وإلى أين يسرب مع
ميربه ، فأولمأ إلى امرأة منهن باهرة السفور ؛ ظاهرة النفور ، وقال :
تزوجت هذه لتؤنسني في الغربة ، وترخص عني قشف الغربة ،
فلقيت منها عرق القربة ، تمطلني بحقي ، وتكلفني فوق طوق ،
فأنام منها نضو وجي ، وحلف شجور وشجي . وهما نحن قد تساعمتنا
إلى الحكيم ، ليضرب على يد الظالم ؛ فإن انتظم بيننا الوفاق ، وإلا
فاطلاق والانطلاق .

قال : فأت إلى أن أخبر لمن القلب ، وكيف يكون المنقلب ؛
فجملت شغلي دبر أذني ، وصحبتهم وإن كنت لا أغني .

* * *

أزمعت : عزمت ، والزماع العزم ، والتبريز : الخروج إلى البراري ، وهي
الأرض الفضاء بلا شجر . تبريز : قرية من كور أذربيجان من أهل خراسان ،
بينها وبين المراغة عشرون فرسخاً .

نبتت : قلمت وارتفعت . المجير : الذي يجيرك من الناس ويكفيك شرهم ،
والمجيز : الواهب الجائزة وهي الصلة . ارتداد : طلب . محتقاً : خطبه ؛

أمره . يسرّب : يذهب . ويمرّبه : جماعة نسائه . أوماً : أشار . باهرة : ظاهرة .
والشفور : كشف الثياب عن الوجه . ترخص : تفسل ، ورخص الثوب برخصه
غسله . قشّف : تغيّر ، ورجل متقشّف : لا يعتمد الفصل والنظافة . والقشّف :
سوء العيش . ومطلّ حقه ، كناية عن جماعه لها ، والمطلّ في الأصل : الدّ ، يقال :
مطلّ القين الحديد يطلّ مطلاً إذا ، مدّه وطوّله ، فمعى يمتطلي : تطول على .
والطّوق : الطّاقة . نضو وجي : هزبل من الجفاء ، وأراد به شرّها وما يلقاه
منها . حلف شجّو : صاحب حزن . والشّجا : الاختناق بالعظم وهو نوى
صعب : يضرب على يده : لهكفه ويمنّه

• • •

فلما حضرا القاضي ؛ وكان يمين يرمى فضل الإمساك ، ويضنّ
بنفائته السّواك ، جثا أبو زيد بين يديه ، وقال : أيّد الله القاضي
وأحسن إليه ، إن مطّيتي هذه أئبة القياد ، كثيرة الشّراد ؛ مع أنّي
أطوع لها من بنائها ، وأخني عليّها من جنائها . فقال لها القاضي :
ونحك ! أما علمت أن النّشور يفضّب الرّب ، ويوجب الضرب !
فقالت : إنّه يمين يدور خلف الدّار ، يأخذ الجارّ بالجار ، فقال له
القاضي : تبّا لك ! أتبدّري السّباخ ، وتستفريخ حيث لا إفراخ !
اعزّب عني ، لا نعيم عوفك ، ولا أمن خوفك ، فقال أبو زيد : إنّها
ومرسل الرّياح ، لا كذب من سجّاح !
فقالت : بل هو ومن طوق الحامة ، وجنّح النّعام ، لا كذب
من أبي ثامة ، حين تخرق باليامة !

• • •

لا أنفي ، أي لا أنزع ، الإمساك : الشح ، بضن : يبخل ، والثفانة :
مانطرحة من فوك من السواك بعد الانتفاع به ، وهذا وإن كان في غاية البخل
مُتَزَعٍّ من قول الشاعر :

لقد بخلتُ حق لو أتى سألتها قدَى العين من ضاحي القراب لَضَنْتِ
وقال آخر في معناه :

يبخل بالماء ولو أنه منغمس في وسط القيل
شجاً فلا تطعم في خيرِه ولو نوسلت بجهيل

وقال آخر :

ما كنتُ أحسب أن الخبز فأكبه حق نزلت على أوفى بن منصور
يا حابس الروث في أعقاب بفلقه خوفاً على الحب من أقط المصافير

وهذا الباب مستوفى في الرابعة والأربعين :

وما يستعارف من لفظ السواك ، قول بعض الظرفاء :

قد هجرتُ السواك من أجل أني إن ذكرتُ السواك قلتُ سواكا
وأحب الأراك من أجل أني إن ذكرتُ الأراك قلتُ أراكاً

جنا : برك ، أيد : قوى مطيقي : زواجتي ، أيتية : حشبة ممقعة على قائدها .
الشمراد : الثفور ، أخنى : أعطف وأرحم . جنانها : قلبها .

النشوز : عصيان الزوج ومخالفته ، والنشوز أصله الارتفاع . ووبع ،
ممنها التوبيخ والتقيح ، وتمتلأ أيضاً للرحم ، وقوله : ويوجب الضرب
من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّائِي تَغَاوَتَ نَشُوزَهُنَّ فَمَطَّوهُنَّ وَأَهْجَرُوهُنَّ فِي
الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ ^(١) فنشوزهن : عصيانهن . الأزهرى : النشوز : كراهة
كل واحد من الزوجين صاحبه ، ونشزت تنشز فهي ناشز

ابن عمر رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لَا تُسْكِنُوا
النِّسَاءَ الْغُرَفَ فَيُشْرَفْنَ ، وَلَا تَمْلُوهُنَّ الْكِتَابَةَ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِنَّ بِالضَّرْبِ » .
ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَلَقُوا
السُّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَمَلُ الْبَيْتِ » .

وروى بعض أهلہ قال : « أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِكَ مِنْ طَوِّكَ ، وَلَا تَرْفَعُ عَصَاكَ
عَنْهُمْ ، وَأَخِفْهُمْ فِي اللَّهِ » ؛ فعنى لا ترفع عصاك ، أى لا تنترك تأديبهم فى الله تعالى .
قوله : وَيَأْخُذُ الْجَارُ بِالْجَارِ ، العرب تسمى فَرْجَ المرأة بالجار ، ودُبُرَها جَارُ الْجَارِ ،
وأخذه الحريرى من قول أعرابى جاء لامرأته وقد اغتلم واشتدَّتْ شهوته ،
فأنظ ، فلما قرب منها وهجم عليها قالت له : إِنْى حَائِضٌ ، قال لها : فَأَيْنَ الْحَمَّةُ
الْأُخْرَى ؟ ثم حل عليها وهى تدافعه وتسبّه ، وهو ماض فى شغله بنفسهدها :

كَلَّا وَرَبُّ الْبَيْتِ ذَى الْأَسْتَارِ لَأَهْتَكَنَّ حَلَقَ الْحَقَّارِ
• قد يؤخذ الجارُ بذنب الجارِ •

قال الخليل : الحَقَّارُ : ما استدار من طَوِّكَ الجفن ، وكذلك حَقَّارُ الظَّفَرِ
والدبر ، وما يبين هذا المعنى قول الشاعر^(١) :

جَارُكَ قَدْ يَجْنِيْ عِلْمَكَ وَقَدْ تَعْدِي الصُّحَاخَ مَهَارِكَ الْجُرْنِيبِ^(٢)
وَلَرَبِّ مَاخُوذٍ بِذَنْبِ قَرِينِهِ وَنَجَا الْمَقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ^(٣)

(١) البستان فى المقدمه : ١٥٠ و ٢٣٧ ، ونسبهما لذنوب بن عمرو ، بقولهما لأبيه ، وذكر اباهما :

يَا كَسْبُ إِنْ أَخَاكَ مَنْعَقٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ مَرَّةً كَسْبُ

(٢) فى المقدمه : جَانِيكَ مِنْ يَحْيَى عَلَيْكَ .

(٣) المقاريف : للتركيب ؛ وموضع هذا البيت فى المقدمه : ٢٣٧

وَالْحَرْبُ قَدْ تَضَطَّرَّ صَاحِبُهَا نَحْوُ الْمَضْيُوقِ وَدُونَهُ الرَّحْبُ

أنهذر : أنزرع ، والبذر الحبوب تزرع : السهاخ : الأرض ذات الملح
والترشح ، وهي لا تنبت شيئاً لموحتها وقلة جفافها ، وأراد : أنزرع نطفتك في موضع
لا يقبل الولد ، تستفرخ : تلهس عمل الفرخ . اعزب : غب
ملق الحامة : جعل لها طوقاً ، والحمام عند العرب ذوات الأطواق نحو
الفواخيت والوراشين والقمارى ، ودخلت الهاء على أنه واحد للجنس لا للتأنيث ،
البيت : تقول العرب : حمامة ذكر ، وحمامة أنثى ، والجهم الحمام .
الشافى : كل ما عبّ وهدر فهو حمام ، يدخل فيه القمارى والوراشين ؛
سواء كانت مطوقة أو غير مطوقة ، آفة أو وحشية ، وهذا القول كأنه الأكثر
لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأخذ الحمام التي تستفرخ في البيوت ،
وليست ذوات أطواق ، وكان يسميها حماما ، وكان في منزله حمام أحمر ، اسمه
وردان ، وقد قدمنا فصلا في الحمام في الصدر
تخرق الرجل : أوم أنه على حق وصواب ، وهو على خلافه

[قصة زواج مسيلة بسجاح]

وأورد هنا في شرح تزويج مسيلة بسجاح ما يبين سخف نبوتها ، وإن
كان الحبري قد أشار إلى ذلك في هذه المقامة .
(١) كان مسيلة بن حبيب الحنفي ، ثم أحد بني الدليل ، قد نسي بالرحمن
في الجاهلية ، وكان من المعمرين .

ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلة تسمى بالرحمن قبل أن يؤلف عبد الله
أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
كانت قريش تقول : إنما يعلم محمدًا رجلٌ يقال له الرحمن ، فزلت لهم ويكفرون
بالرحمن (٢) وكانت بنو تميم قد تناحزات في أمر الردة بعد موت النبي صلى الله

عليه وسلم واختلفوا في ذلك اخلافاً شديداً ، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتهم
سجاح بنت الحارث مقبلةً من الجزيرة ، تقود بنى ربيعة . فأنام أسراً كان أعظم
تألمٍ فيه من الاختلاف ، وكانت سجاح تميمية وبنو أبيها في تغلب ، وأدعت
النبوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في الجزيرة ، فاجتمعت عليها بنو تميم
ورؤساء تغلب ، فأدعت أنها أنزل عليها . « يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ ، لَنَا نَصَفُ الْأَرْضِ
وَلْقُرَيْشُ نَصْفُهَا ، وَلَسَكُنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَبْغُونَ » . فاجتمعت تميم كلها تنصرها ،
فكان فيهم الأحنف وحارثة بن بدر ووجوه بنى تميم ، وكان مؤذنها شبيب
ابن ربيع الرياحي ، قالت : « أَعِدُّوا الرِّكَابَ ، وَاسْتَعِدُّوا لِلنَّهَابِ ، ثُمَّ اغْدُوا عَلَى
الرَّيَّابِ ، فَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابٌ » . فصعدت إليهم ، وقتلت فيهم قتلاً كثيراً ،
ثم قالت لأجنادها : اقصدوا اليمامة ، نقيلاً لها إن شوكة أهل اليمامة قوية شديدة
وقد غلظ أمر مسيلة ، قالت : « يامعاشر تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل
هامة ، واضربوا ناراً ملهامة ، حتى تتركوها سوداء كالحمأة » ، وإن الله تعالى
لم يجعل هذا الأمر في ربيعة - تعني نبوة مسيلة - وإنما جعلها في مضر ،
واقصدوا هذا الجمع ، فإذا قصدتموه عكزتم على قريش .

فسارت في قومها ، وهم عدد لا يحصى ، وبلغ مسيلة الخبر ، فضاق به ذرعاً ،
وتحصن في جبر حصن اليمامة ، وأحاطت به جيوشها ، فأرسل في وجوه قومه ،
وقال : ماترون ؟ قالوا : نسلم هذا الأمر لها ، فإن لم نفعل فهو البوار . فقال لهم
بدهائه : سننظر . ثم بعث إليها ، وقال : إن الله قد أنزل عليك وحياً وعلى ،
فهلمنى مجتمع فتدريس ما أنزل الله ، فمن عرف الحق تبعه ، واجتمعنا ، فأكلنا
المرء أكلًا بقوى وقومك . فأنعمت له ، فأمر بضرب قبة من آدم ، فضربت
وأمر بالموذني فبخرت به ، وقال : أكلوا من الطيب ، فإن المرأة إذا
شمّت رائحته ذكرت الهباء . وأتته إلى القبة ، وقالت : هات ما أنزل عليك ربك ،

قَالَ : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِالْحَبْلِيِّ ، أَخْرَجَ مِنْهَا نَسْمَةً تَسْعَى ، وَمِنْ بَيْنِ صِفَاقٍ ^(١) وَحَشَى ، مِنْ بَيْنِ ذِكْرٍ وَأُنْثَى ، وَأَمَاتَ وَأَحْيَا ، إِلَى رَبِّكُمْ يَكُونُ لِلْفَنَى » . قَالَتْ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا أَفْرَاجًا ، وَجَعَلَ لَنَا النِّسَاءَ أَزْوَاجًا ، فَتَوَالَجُ فَيَمُوتُ قَعْسًا إِبِلَاجًا ، وَمُخْرَجُهُ مِنْهُنَّ إِذَا شِئْنَا إِخْرَاجًا » ، قَالَتْ : فَبَأَيَّ شَيْءٍ أَمْرُ رَبِّكَ ؟ قَالَ :

أَلَهُبِّي إِلَى الْخَدْعِ فَقَدْ هُبِّي لَكَ الْمَضْجِعِ
فَإِنْ شِئْتَ فِي الْبَيْتِ وَإِنْ شِئْتَ فِي الْخَدْعِ
وَإِنْ شِئْتَ سَلَقْنَاكَ ^(٢) وَإِنْ شِئْتَ عَلَى أَرْبَعِ
وَإِنْ شِئْتَ بِثَلَاثِهِ وَإِنْ شِئْتَ بِهِ أَجْمَعِ

قَالَتْ : بَلْ بِهِ أَجْمَعُ . قَالَ : كَذَلِكَ أَوْحَى إِلَيَّ . فَوَاقِعُهَا فَلَمَّا قَامَ عَنْهَا قَالَتْ : إِنَّ مِثْلِي لَا يُنْكَحُ هَكَذَا ، فَيَكُونُ وَضْعَةً عَلَى قَوْمٍ ، وَلَكِنِّي مُسَلَّمَةٌ لَكَ النَّبُوءَةِ ، فَأَخْطَبُنِي إِلَى أَوْلِيَائِي يَزْوَاجُوكَ ، ثُمَّ أَقُودُ مَعَكَ تَمِيمًا . فَخَرَجَ وَخَرَجَتْ مَعَهُ ، وَاجْتَمَعَ الْحَيَّانُ : حَنُوفَةٌ وَتَمِيمٌ ، فَقَالَتْ سَجَّاحُ : إِنَّهُ قَرَأَ عَلَى مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَتْهُ حَقًّا ، فَحَبَلَتْهُ ، ثُمَّ خَطَبَهَا فَزَوَّجُوهُ مِنْهَا .

وَقَالَ الْأَغْلَبُ الْعَجَلِي فِي ذَلِكَ :

قَدْ لَقِمْتَ سَجَّاحُ مِنْ بَعْدِ الْعَمَى مَلُوحًا فِي الْعَيْنِ مَشْدُودَ الْقُوَى
كَأَنَّ هِرْقَ أَبْرَهَ إِذَا بَدَا حَبْلٌ عَجُوزٌ ضَفَرَتْ سَبْعًا قُوَى
مَازَالَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ وَالْمَنَى وَالْخُلُقِ السَّفْسَافِ يَرْدَى فِي الرَّدَى ^(٣)
قَالَ : أَلَا أَدْخِلُهُ ؟ قَالَتْ : بَلَى فَشَامَ فِيهَا مِثْلَ مَحْرَابِ الْعَصَا

(١) الصفاق : الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه الشعر .

(٢) سلقه : ألقاه على قفاه .

(٣) السفساف : الردي . ويردى مثل يرضى : هلك .

قول لما غاب فيها واستوى لئلا هذا كنت أحسبك الحسى
والهامة بلد الزرقاء . وسبأى ذكرها فى الحسين ، فعلى نحو ما ذكرنا من
أمر سجاح ، ذكرها أكثر أهل الأخبار .

وقال الفجديسي : سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقيان ، من بنى يربوع ،
كفيتها أم صادر ، أدعت النبوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة فى
بنى تغلب ، فاستجابوا لها ، وتبعها قوم من تميم ، وظهر أمرها حتى هابتها العرب
وصالحتها ، لتجوز فى بلادهم حيث شاءت . فسمعت بمسيلة فى اليمامة ، فقالت
قومها « عليكم باليمامة ، دُفوا إليها دنيف الحامة ^(١) ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلاحقكم
بعدها ملامة » .

وبلغ مسيلة خبرها فهابها ، وخاف إن هو شغل بها غلبه ثمة بن أمثال
وشرحبيل على حُجر اليمامة إذ هما من قبل أبى بكر رضى الله عنه ، فأرسل إليها
بسماعنها على نفسه ، فأمنعه فجاءها فى أربعين من بنى حنيفة ، فقال لها : نصف
الأرض لى ، والنصف الذى كان لفريش صار لك ، فقالت : لا يرد النصف إلا من
جَنَف ، فأحل النصف . فصالحها على أن يحمل إليها نصف غلات اليمامة من
تلك السنة ، وعلى أن يُسلفها ثمن غلات السنة للاقبلة . فقبلت منه ، وقدم لها مقل
تلك السنة ، ورجعت إلى الجزيرة ، فلم تزل فى بنى تغلب حتى نقلهم معاوية عام
انفراذه بالملك إلى السكوفة ، فاعتقلت معهم ، وحسن إسلامها .

[قصة تخاصم أبى الأسود مع امرأته]

وأظن أن الحريرى صور تخاصم زوجة أبى زيد معه على تخاصم أبى الأسود
الدولى مع زوجته عند معاوية .

(١) ط : « الجماعة » تحريف ، والصواب ما أثبتته من تاريخ الطبرى .

حدث أهل الأخبار قالوا : كان أبو الأسود كبيراً عند معاوية ، وكان معاوية يجالسه ويُدنيه ، ويسأله فيجيبه فيما يعلم ، فبينما هو ذات يوم عند معاوية وقد قدم المدينة إذ دخلت عليه امرأة بَرَزَةٌ^(١) فقالت : أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقبياً على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطر ، وَيُسْتَنْتَبِ بك الشجر ، وَيُؤْمَن بك الخائف ، وَيُرَدَّع بك الجانف^(٢) . أنت الخليفة المصطفى ، والأمير المرتضى ؛ فسأل الله لك الذمة في غير تغيير ، والبركة من غير تغيير ؛ فقد أَلْجَأَنِي إِلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ ضَاقَ بِي مِنْهُ الْخُرْجُ ، مِنْ أَمْرٍ كَرِهْتُ عَارَهُ ، إِنَّمَا أَرَدْتُ إِظْهَارَهُ ، فَلْيَكْشِفْ عَنِّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلْيَصِفْنِي مِنَ الْخِصَمِ ، وَلْيَكُنْ ذَلِكَ عَلَيَّ يَدِيهِ ، فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ وَبِحَقْوَلِكَ مِنَ الْعَارِ الْوَبِيلِ ، وَالْأَمْرِ الْجَلِيلِ ؛ الَّذِي يَشْتَدُّ عَلَى الْحَرَارِ ، ذَوَاتِ الْبُيُوتِ الْأَخْيَارِ .

فقال لها معاوية : مَنْ هَذَا الَّذِي أَشْرَكَ شِعَارَهُ ؟ قالت : أُمْرٌ طَلَّقَ جَانِبَهُ ، مِنْ بَنِي غَادِرٍ ، لَا تَأْخُذْهُ مِنْ اللَّهِ خِيفَةٌ ، وَلَا يَجِدُ بِأَحَدٍ رَافَةً ، قَالَ : وَمَنْ بِكَ ؟ قالت : هُوَ أَبُو الْأَسْوَدِ . فَالْتَفَتَ مَعَاوِيَةُ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَحَقُّ مَا تَقُولُ هَذِهِ لِلرَّأَةِ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا تَقُولُ مِنَ الْحَقِّ بَعْضًا ، وَلَيْسَ أَحَدٌ بِطِيقَ عَلَيْهَا نَقْضًا . أَمَا مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ طَلَّاقِهَا فَحَقٌّ ، وَسَأُخْبِرُكَ مِنْ ذَلِكَ بِصَدَقٍ ، أَنَا وَاللَّهُ مَا طَلَّقَتْهُا الرِّبِّيَّةُ ظَهَرْتُ ، وَلَا مِنْ هَفْوَةٍ حَضَرْتُ ؛ وَلَكِنْ كَرِهْتُ شِمَائِلَهَا ، فَقَطَعْتُ حَبَائِلَهَا . قَالَ : فَأَيُّ شِمَائِلِهَا كَرِهْتَ ؟ قَالَ : إِنَّكَ تَهَيَّجُهَا عَلَى جَوَابِ عَقِيدَةٍ ، وَلِسَانٍ شَدِيدٍ . قَالَ : لَا بَدَّ مِنْ جَوَابِهَا ، قَالَ : هِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَثِيرَةُ الصَّخَبِ ، دَائِمَةُ الدَّرَبِ ، مُهِيجَةٌ لِلْأَهْلِ ، وَمُؤْذِيَةٌ لِلْبَعْلِ ؛ إِنْ ذَكَرَ خَيْرًا دَفَنْتَهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ شَرًّا أَذَاعَتْهُ ، تَخْبِرُ بِالْهَاطِلِ ، وَتَطْغِيرُ مَعَ الْمَازِلِ ، لَا تَنْكِيلُ عَنْ عَقَبٍ ، وَلَا يَزَالُ زَوْجُهَا مَعَهَا فِي تَعَبٍ ؛ فَقَالَتْ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ لَا حَضُورُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ حَضَرَ مِنَ السُّلَاطِينِ ،

(١) امرأة بَرَزَةٌ ، أي بارزة الحسن . أو المرأة الجليلة التي تبرز لقوم يجلسون إليها

(٢) الجانف : المائل .

ويصعدون .

ترددت عليك بوادر كلامك بنوادر تردع كل سهاك. فقال معاوية : عزمت عليك لما أجبتك ! فقالت : هو والله يا أمير المؤمنين سنول جهول ، ملحاح بخل ، إن قال فشر قائل ، وإن سكت فقدّم غائل ، لئث حين يأمن ، ثعلب حين يخاف ، شحيح حين يُسْعَف ، إن التمس الجود عنده انقمع ، لما يعلم من لؤم أهانه ، وقصر رشانه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحمي ذماراً ، ولا يُغفر ناراً ، ولا يرعى جواراً ، أهون الناس عليه من أكرمه ، وأكرمهم عليه من أهانه .

فقال معاوية : ما رأيت أعجب منها . انصرفي رواحاً^(١) ، فلما كان العشي جاءت ، فلما رآها أبو الأسود قال : اللهم اكفني شرّها ، فقالت : كفاك الله شرّي ، وأرجو ألا يهذك من شرّ نفسك . قال : ناويني هذا العشي حتى أحله ، قالت : ما جعلك الله بأحق من يحمل ابني . فوثب فانزعه منها ، فقال معاوية : مهلاً يا أبا الأسود . قال : يا أمير المؤمنين حمّله قبل أن تحمله ، ووضعه قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وانظر في أوده ، أمنحه على ، وألممه حلى ؛ حتى يكمل عقله ، ويستحكم قلبه ، قالت : كلاً أصلحك الله أحله خفاً ، وحلته ثقلًا ، ووضعه شهوة ، ووضعه كرهاً . حجري فتاؤه ، وبطني وعاهه ، وندي سفاؤه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام .

فقال معاوية : ما رأيت أعجب من هذه المرأة ! فقال أبو الأسود : يا أمير المؤمنين ، إنما تقول من الشعر أبياناً فتجيدها ، قال : فكلف أنت لها أبياناً لعلك أن تهرها بالشعر ، فقال أبو الأسود :

مَرْحَباً بِاتِّى نَجُورَ عَلِيّاً نَمَّ أَهْلًا بِالْحَامِلِ الْحَمُولِ
أَغْلَقْتُ بِأَبِهَا عَلَى وَقَالَتِ إِنَّ خَيْرَ نَسَا ذَوَاتِ الْبِعُولِ
شَفَلْتُ قَلْبَهَا عَلَى فَرَاغَا هَلْ سَمِعْتُمْ بِفَارِغٍ مَشْفُولِ !

قالت :

ليس مَنْ قَالَ بالصواب وبالْحَقِّ كَمَنْ حَادَ مِنْ مَفَارِ السَّبِيلِ
كَانَ حَجَرِي فَنَاءَهُ حِينَ يُضْحَى ثم تَدْبِي سَقَاؤُهُ بِالْأَصْبَلِ
لَسْتُ أَبْنَى بِوَاحِدِي بِابْنِ حَرْبٍ بَدَلًا مَا رَأَيْتُهُ وَالْجَاهِلِ

فقال معاوية رضى الله عنه :

ليس مَنْ قَدْ غَذَاهُ طِفْلاً صَغِيراً وسَقَاهُ مِنْ تَدْبِيهِ بِالْجُدُولِ
هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رَحِمًا مِنْ أَبِيهِ وَفِي قَضَاءِ الرَّسُولِ
ثم دفعه معاوية إليها .

• • •

فَزَفَرَ أَبُو زَيْدٍ زَفِيرَ الشَّوَاظِ ، وَاسْتَشَاطَ اسْتِشَاطَةَ الْمُقْتَاطِ ،
وَقَالَ لَهَا : وَيْلَكَ يَا دَرْفَارٍ يَا فَجَارَ ، يَا غُصَّةَ الْبَقْلِ وَالْجَارِ ، أَتَقْمَدِينَ
فِي الْخَلْوَةِ لِتَمْذِيبِي ، وَتُبْدِينَ فِي الْحَفْلَةِ تَكْذِيبِي ؟

وقد علمتِ أَنَّ حِينَ بَنَيْتُ قَلَمِيكَ ، وَرَنَوْتُ إِلَيْكَ ، أَلْفَيْتُكَ
أَقْبَحَ مِنْ قِرْدَةٍ ، وَأَيْسَرَ مِنْ قِدَّةٍ ، وَأَخْشَنَ مِنْ لَيْفَةٍ ، وَأَتَنَ
مِنْ جَيْفَةٍ ، وَأَثْقَلَ مِنْ هَيْضَةٍ ، وَأَقْدَرَ مِنْ حَيْضَةٍ ، وَأَبْرَزَ مِنْ قِشْرَةٍ ،
وَأَبْرَدَ مِنْ قِرَّةٍ ، وَأَنْحَقَ مِنْ رِجْلَةٍ ، وَأَوْسَعَ مِنْ دِجْلَةٍ ؛ فَسَتَرْتُ
عَوَارِكَ ، وَلَمْ أَبْدِ عَارِكَ . عَلَى أَنَّهُ لَوْ حَبَبْتُكَ شَتِيرِينَ بِجَمَاهَا ، وَزَيْبَدَةً
بِمَالِهَا ، وَبِلَقَيْسٍ بِعَرَشِهَا ، وَبُورَانَ بِفَرْشِهَا ، وَالزُّبَاءَ بِمَلِكِهَا ،

وَرَابِعَةٌ يُنْسِكُهَا ، وَخَنْدَفٌ يَفْخِرُهَا ، وَالْخَنَسَاءُ بِشْمُهَا فِي
صَخْرِهَا ، لِأَنْفَتُ أَنْ تَكُونِي قَعِيدَةً رَحْلِي ، وَطَرُوقَةً فَخْلِي .

• • •

قوله : زفر : أى تنفس غيظ ، والزفر والزفير رد النفس في جوفه حتى تنفخ
عروقه . قال ابن عرفة : الزفير من الصدر والشهيق من الحلق . الشواظ : النار
بغير دخان وزفيره : صوت انقاده . استشاط : اشتد غيظه وانتشر في جسده .

يا فجآر : ابن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَذَفَ
أَمْرَانَهُ جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةَ جَلْدَةٍ بِسِيَّاطٍ مِنْ نَارٍ » .

والغصة : ما يختنق به . والبعل : الزوج ، وأراد أنها مؤذبة يشق بها
زوجها وجارها ، كما يشق صاحب الغصة . نعيمدين : نعيمدين . الخلوة . الافراد .
والحفلة : الاجتماع . بنيت عليك ، أى تزوجتك ، وكانت العرب إذا تزوج
الرجل بقى على أهله قبة ، فيسمى دخول الزوج بقاء لذلك . رنوت : نظرت .
ألفيتك : وجدتتك . قدة : شراكة . فقد من من جلد غير مدبوغ . والألفة ،
واحدة ليف النخل ، وهى التى تكون بين الجرائد . هيضة : هى الغصنة تنول
إلى القى والإسهال وقشرة الشئ : ما علا عليه

ودجلة : نهر العراق ، وعليه بغداد والبصرة ، وراسط على جرفها ، ويجرى
على وجه الأرض أربمانه فرسخ . ولم يحمل الحريرى مهالة السعة هل هذه ؟
ولما أراد دجلة الموراء ؟ وهى التى انتشر ماؤها في البطاح ، حتى صارت سعتها
هنالك ثلاثين فرسخا فى مثلها .

وقال ابن سُكْرَةَ يهجو امرأة بالسَّعة :

لَا تَعْدُلُونِى عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَلٍّ مَنْ ذَا يَرَاكِ وَلَا يَصُوبُ إِلَى الْمَلِّ (١)

إن كنت أبصرتُ أشقى منك في بصرى فلا بلغتُ الذى أهواه من أُملى
 الهجر أنت ، وأبزى ليس من تَمَكِّ وليس يدي و بين البحر من هملو
 قال هشام بن عبد الملك للأبرش السكبي : زوّجنى امرأة من كلب ،
 فزوّجه ، فقال له ذات يوم يهزل معه : تزوّجنا إلى كلب ، فوجدنا فى نساءهم سعة ،
 فقال الأبرش : يا أمير المؤمنين ، إن نساء كلب خُلِقْنَ لرجال كلب .

وسمع رجل من كِنْدَةَ رجلاً يقول : وجدنا فى نساء كندة سعة ، فقال :
 إن نساء كندة مكاحل فَقَدَتْ مَرَاودها .

قيل : لامرأة تُنْطَلِقُ كثيراً : ما بالكَ تُنْطَلِقِينَ أبداً ؟ قالت : يريدون الضيق :
 حَتِيقُ الله عليهم .

قوله : فسُتِرَتْ عَوَارِكُ ، ابن عباس ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ
 مُسْلِمٍ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَةِ مُسْلِمٍ فَأَذَاعَهَا عَلَيْهِ شِمَانَةٌ وَعَدَوَانَا إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ
 أَنْ يَقْضِيَهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً ، وَمَنْ سَتَرَهَا عَلَيْهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ فِي
 سِتْرِهِ وَحِجَابِهِ يَوْمَ تُنْبِئُ السَّرَائِرُ وَتُخْرِجُ الْخَبَائِرَ » . حَبِيتُكَ : أى حَصَتُكَ .

وشيرين هى بنت أبرويز بن هرمز ، وكانت آية فى الجمال ، وغاية فى الحسن
 والكمال ، فافت نساء زمانها صباة وظرفاء ، وبهرشهن ملاحاة ولطفاء ، وخلقت فى
 العراق آثاراً منها قصر شيرين ، ولها قصة منظومة مشهورة بالمعجمية .

[زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد]

وزبيدة : هى بنت جعفر بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور ، زوجها هارون
 الرشيد ، وجدّها المنصور ، وعمّها المهدي ، وابنها الأمين ؛ فكانت الخلافة
 قد اكتنفتها ، وليس فى بنى هاشم عباسية وَلَدَتْ خليفة إلا هى . ولدت فى حياة
 المنصور ، فسُمِّيت أمة الميز .

وكان المنصور يرقصها ويقول: لَأَزِيدُ أَنْتَ زَيْدَةً ! فطَلَبَ ذَلِكَ عَلَى اسْمِهَا ،
وكانت أموالها لا تنقص ، وأنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والقناطر
ما لم يتفقه أحد قبلها ؛ فمن ذلك ما أنفقت في حفرها لعمين المعروفة بعين المشاش
بالحجاز ، فإنها حفرتها ، وهدمت الطريق لها في كلِّ رفع وخفض ، حتى أجرتها
من مسافة اثني عشر ميلاً ، فأحصى ما أنفقت فيها فوجد ألف وسبعمائة ألف
دينار ، دون ما كان في وقت الشغل بها في البذل ، وما عمَّ أهل الفاقة ، ولها في
طريق مكة من العراق آثار كثيرة في مصانع حفرتها ، وبركٍ أحدثتها ، تنزل
وفود الحج عليها ، فلا نجد ماء إلا فيها ، فيشربون ويسقون بآبارهم ، ويتزودون
وهم في الكثرة أعداد لا يحصيهم إلا خالقهم ، والكل داعون لزيدة إلى زماننا هذا .
وأما آثارها الملوكية ، فإنها أولُ من اتخذت الآلات من الذهب والفضة
المكحلة بالجوهر . وبلغ ثوب وشى اتخذت لباسها خمسين ألف دينار .

وهي أول من اتخذت القباب من الفضة والأبنوس ، وكلاهما من الذهب ،
ملبسة بالونى والذهب ، وأنواع الحرير الملون ، وهي أول من اتخذت الخفاف
المرصعة بالجوهر ، وشماع العنبر . ولما أفضى الأمر إلى ابنها الأمين رفع منازل
الخدم ككوتر وغيره ، فلما رأت حُبَّه فيهم اتخذت له الجوارى القودودات
الحسان الوجوه ، وعمت رءوسهنَّ ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقنعة ،
والبسمن الأقبية والقراطن والمناطق ، فباتت قودودهنَّ ، وبرزت خصورهنَّ .
وبعثت بهنَّ إليه ، فاستعصهنَّ وأبرزهنَّ للناس ، فسئوهنَّ الفلاميات .

وأخبارها كثيرة ، وعندما قُتل الأمين دخل عليها بعضُ خدمها ، فقال لها :
ما يجلسك وقد قُتل أمير المؤمنين ؟ فقالت : وبلك وما أصنع ؟ قال : تخرجين
وتأخذين بدمه ، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت : اخسأ لأمِّ لك !
ما للنساء وطلب الدماء ! ثم أمرت بلباسها فسودت ودعت بدواة ، فكتبت إلى المأمون :

أخيرَ إمام قام من خيرِ عنصرٍ وأفضل راقٍ فوق أعوادِ منبرٍ
ووارثَ علمِ الأولينَ وفخرهم إلى الملكِ المأمونِ من أمِّ جعفرٍ
كعبتُ وعضي تسهيلُ دموعها إليك ابن عمي من جنوني ومحجري
أصبتُ بأذى الناسِ منك قرابةً ومن زال عن عبي قتلَ نصبري
أني طاهرٌ، لا طهر الله طاهرًا،^(١) فسا طاهر في فعله بمطهرٍ
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالى وخرق أدوري
يمز على هارون ما قد لقيته وما نالني من ناقص الخلق أمورٍ
تذكرُ أميرَ المؤمنينِ قرابتي فديتك من ذى قربي مذكورٍ
فإن كان ما أبدى لأمرٍ أمرته صبرتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقدّرٍ
ولأن كان ما قد كان منه تدبياً على أمير المؤمنين فقيرٍ

فلما قرأها المأمون ، بكى بكاء شديداً ، ثم قال : إني لأقول كما قال علي
أمير المؤمنين حين بلغه قتل عثمان رضي الله عنهما : والله ما أمرت ، ولا رخصيت ،
اللهم جَلِّ قلب طاهر حزناً .

قال إبراهيم الحربي : رأيتها في المنام ، فقلت لها : ما فعل الله بك ؟ فقالت :
غفرت لي ، فقلت : بما أُنقذت في طريق مكة ؟ فقالت : أما النفقات فرجعت أجورها
إلى أربابها ، وغفرت لي بنيتي .

[بوران بنت الحسن بن سهل وزوجها بالمأمون]

وأما بوران فهي خديجة بنت الحسن بن الحسن بن سهل ، تزوجها المأمون
على يد إسحاق الموصلي ، وفي هذا التزويج قصة الزَّيْبِل وهي طويلة ظريفة ،
نذكرها على جهة الاختصار ، حدث إسحاق الموصلي قال :

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون ، قتل الأبين بتدبيره سنة ١٩٨ .

بيناً أنا ذات يوم عند الأمون ، وقد خلا وجهه ، وطابت نفسه ، فقال :
 يا إسحاق ، هذا يوم خلوة وطيب ، فقلت : طيب الله عيش أمير المؤمنين ،
 وأدام سروره وفرحه . فأخذ بيدي ، وأدخلني في مجالس فهد التي كُتِبَ فيها ،
 فأخذنا من لَدَانِنَا وشرابنا حتى غَرَبَت الشمس ، فقال : قد عَزَمْتُ على دخلي
 إلى دار الحرم ، فلا تَرِمْ حتى آتِيكَ ، فنهض وبقيتُ إلى عامة الليل ، وكان
 للأمون أخف خلق الله بالنساء ، وأشدَّهم ميلاً إليهن ، فقلت في نفسي : هو في
 لذة وأنا في غير شيء ، وتذكرتُ صبيحةً اشتريتها ، وكنت عزمْتُ على اقتضاها
 فنهضتُ إلى الباب ، فقال الحاجب : أين تريد ؟ فقلت : الانصراف ، قال فإن
 حلتبك ، قلت هو من لذة السرور في شغلٍ عن طهي ، فقيل لي : إن غلمانك
 استمطونوك وانصرفوا . فجئ بـدابة ، فركبتها ومشيت ، فأحسست بالبول ،
 فصدتُ إلى زقاق لأبول ، فنبئتُ وقت لا أتمسح بالحيطان إذا أنا بشيء معلق من
 تلك الدور ، فنهضتُ فإذا بزَيْيل^(١) كبير بأربع آذان ، ملبس ديباجا ، فقلت :
 إن لهذا سببا ، وبقيتُ أروى في أمره ، ثم قلت : والله لأجلسن فيه كأننا
 ما كان ، فجلست ، فلما أحسن بي الدين يرقبونه ، جذبوه إلي رأس الحائط ، فإذا
 أربع جوار يقُلن لي : انزل بالزحب والسم ، فشت بين يدي جارية بشمة ،
 حتى نزلتُ إلى دار نظيفة إلى مجالس مفروشة ، لم أر مثلاً إلا في دار ملك ،
 فجلست فاشعرتُ إلا بعد ساعة ، حتى أزيأت ستور كانت في ناحية المار ،
 وإذا وصائف يناشين ، في أيديهن الشمع ، وبمضن بمجامر يحرق فيها العود ،
 وبينهن جارية تنهذى كأنها البدر الطالع ، فنهضتُ قائماً ، فقالت : مرحبا بك
 من زائرا وجلست . ثم استطردتُ إلى سؤال أبداع استطراد ، فقلت : انصرف
 من عند بعض إخواني ، وغرتني الوقت ، وحركني البول ، فمدتُ إلى هذا الزقاق ،

(١) الزيل : القلة أو الرماء .

فوجدت زبيلاً معلقاً ، فحملني النبيذ أن جلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ
أكسبني ، قالت : لا خير ، أرجو أن محمد عاقبة أمرك ، قالت : فما صناعتك ؟
قلت : بزّاز من بغداد ، قالت : فهل رويت من الأضمار شيئاً ؟ قلت : شيئاً ضعيفاً ،
قالت : فذا كِرْنَا ، قلت : إن الداخل حشمة ولكن تهدين ، قالت : صدقت ،
فأنشدتني لجماعة من القدماء والهدّئين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدري
مِمَّ أعجب ! أمينٌ حسنٌ ، أم من حُسن روايتها وجودة ضبطها للغريب ،
أم من اقتدارها على النحو ومعرفة أوزان الشعر ! ثم قالت : أذهب ما كان
عندك من الخصر ؟ قلت : إى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا ، فأنشدتها
لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنّت ذلك ثم قالت : والله ما ظننت أن
يوجد في أبناء الحوقة هذا !

ثم أمرت بالعلماء فأخضِر ، وقالت : المماثلة^(١) أول الرضاع ، فدونك .
وجماتُ تقطع وتضع بين يدي ، وفي المجلس من صفوف الرياحين وغرائب
الفواكه ما لا يكون إلا عند سلطان ، ودعت بالشراب ، فشربتُ قدحاً ، ثم
سكبتُ لى قدحاً ، فشربت ، ثم قالت : هذا أوان المذاكرة بالأخمار وأيام الناس ،
فاندفعتُ قلت : بلغنى أنه كان كذا ، وكان رجل يقال له كذا ، حتى أتيت
على عدة أخبار حسان ، فسُرتُ بذلك ، وقالت : كُتِرَ تعجبي أن يكون أحدٌ
من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنما هذه أحاديث ملوك ، فقلت : كان لى جار
يُنَادِمُ للملوك ، فإذا تعطلَ حضرتُ معه ، فربما حدث بما سمعت ، فأخذتها عنه .
فقلت : لعمري لقد أحسنتَ الحفظ ، وما هذا إلا لتريحه جيّدة ، وأخذنا فى
للذاكرة إذا سكّت ابتدأتُ هى ، وإذا سككتُ ابتدأتُ أنا ، حتى قطعنا عامة

(١) يقال : ملج الصبي أمه ، أى تناول مديها بأدنى فقه ، والسلام على النفس .

الليل ، وبخور العود يتبع ، وأنا في حالة لو توهمها المأمون لطار فرحاً . فقالت : إنك من الرجال وضى الوجه ، بارع الأدب ، وما بقي عليك إلا شيء واحد . قلت : وما هو ؟ فقالت : لو كنت تترنم ببعض الأسماء ! قلت : والله لقد دينا . كلِّفْتُ به ولم أرزقه ، فأعرضت عنه ، وفي قلبي منه حزازة ، وكنت أحب أن أسمع في مجلس هذا منه شيئاً لتكمل ليلتي ، قالت : كأنك عرضت بنا ! قلت : والله ما هو تعريض ، قد بدأت بالفضل وأنتِ جديرة باستقامته . فأخضر هود بأسرها ، ففتت بصوت ما سمعت كعنه ، مع حسن أدائه ، وجودة الضرب . قلت : والله لقد أكل الله فيك خلال الفضل وحباك بالكمال الراجح ، والعقل الوافر ، والأخلاق الرضية والأفعال السنية . قالت : هل تعرف هذا الصوت ومن غنى فيه ؟ قلت : لا والله ، قالت الشمر : لفلان ، وكان سببه كذا والفناء لإسحاق ، قلت : وإسحاق هذا جُمِلْتُ فذاك في هذا الحال ! قالت : بخر بخر ! إسحاق بارع هذا الشأن ، قلت : سبحان الله ! لقد أعطى هذا ما لم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه ! فلم نزل كذلك حتى إذا انشق الفجر أقبلت عجوز كأنها دابة لها ، قالت : أي بنية ، إن الوقت قد حضر ، فنهضت عند قولها ، فقالت : مصاحباً ، لتستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانات ، فقالت : جُمِيت فذاك ، فأحتاج إلى وصية في ذلك ! وودعتها وجارية بين يدي إلى باب الدار ، ففتحت لي ، وخرجت إلى داري فصلبت الصبح ، ونمت .

فأنبهي رسول المأمون فسيرتُ إليه ، فلما رآني ، قال : يا إسحاق ، نشاغلتا هنك ، فما كان حالك ؟ قلت : اشتريت صبيّة وكنت معلق القلب بها ، فضيتُ لها ، وشربت معها ونمت ، قال : ينهيأ مثل هذا ، فهل لك فيما كنا فيه أمس ! قلت : وما يمنع من ذلك ؟ فنهضتُ إلى مجلس أمس ؛ فلما كان المقاء قال : لا تيم ، فإني أجيتك ونهض ، فقامت ما كنت فوه الهارحة ، فإذا هو شيء .

لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ . فقال الغلمان : الله الله ، فإنه أنكر علينا تخليقتك ، فوعدهم أن آتى قبل أن يمىء ، وأن أخرجى لعذر ، وفي الحين أرجع .

فتمضت إلى الزَّيْبِل فجلست فيه ، فُرفع بى إلى موضع البارحة ، فإذا هى قد طلعت ، فقالت : لقد عاودت ، فقلت : ولا أظنّ إلا أنى قد ثَقَلْتُ ، فقالت : ماحد نفسه بقرئك السلام ، قلت : فمفوة فنى بالفضل . قالت : قد فعلنا ، ولا تعد ، فأخذنا فى مثل الآية السالمة من المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر .

فانصرفتُ إلى منزلى وصليت ونمت ، فأنبهنى رسولُ المأمون ، فلما رآنى قال : أيت إلا مكافأة لنا ! فقلت : والله لأمر المؤمنين ما ذهبت إلى ذلك ، واسكن ظننت أن أمير المؤمنين قد تشاغل هى بلذته ، وأغفل أمرى ، وجاء الشيطان ، فذكرنى أمرتك للمعونة ، فبادرت . قال : فما كان منك ؟ قلت : قضيت الحاجة منها ، قال : فقد انتضى ما كان بقلبك منها ، وواحدةً بواحدة ، والهادى أظلم . قلت : بل أنا أظلم ، وإليك للمذرة ، قال : لا تريب عليك ، فهل لنا فى مثل حالنا أمس ؟ قلت : إى والله ، فتمنا إلى موضعنا إلى الوقت ، فقال : يا إسحاق ما مرّمك ؟ قلت : لا عذر لى ، قال : فمرمت عليك لتجلس حتى أجمىء ، فإنى عازم على الصُّبوح ، وقد نعتت على منذ يومين ، قلت : فالليلة إن شاء الله ، فما هو إلا أن غاب وجاءت وساوسى ، فلما تذكرت ما كنت فيه البارحة هان على ما يلحقى من سَخَطِهِ ؛ فوثبت مبادراً ، فوثب إلى جند الدار ، وحُبست ، فقلت : الله الله ! إنى معلق البال بهمض ما فى منزلى ، فقالوا : ما لى تركك من سبيل ، فلم أزل أرغب هذا وأقبل يدهذا ، ووهبت خاتمى لهذا ، وردائى لهذا ، وخرجت أهدو حامراً حتى وافيت الزَّيْبِل ، فتمعدت فيه ، فُرفعتُ إلى موضعى ، وأقبلت ، فقالت : صديقنا ! قلت : إى والله ، قالت : أ جعلتها دار مقام ؟ قلت : جعلت فذاك ! حق الضيافة ثلاث ، فإن رجعتُ فأنتم فى حل من دى . قالت :

واﷲ لقد أنبتَ بحُجَّةٍ ، ثم جلسنا في مثل تلك الحال ، فلما قُرب الوقت علمت أن المأمون لا بُدَّ أن يسألني ، ولا ينع مني إلا بشرح القصة ، فقلت لها : أراك تمنى يعجب بالفناء ، ولي ابن عمّ أحسن مني وجهاً ، وأظرف قدّاً ، وأكثر أدباً ، وأنا حسنة من حسناته ، وهو أعرف خلق الله بفناء إسحاق الموصلي ، قالت : طفلي وتقترح ؟ قلت لها : أنت المحكّمة ، قالت : إن كان ابنُ حمك على ما تصف فما نكره معرفته ، ثم جاء الوقت فنهضت فلم أصل إلى دارى إلّا ورسل المأمون قد هجموا علىّ ، وحملوني حملاً عنيقاً ، فوجدته على كرمىّ وهو مفتاظ ، قال : يا إسحاق أخرو جأ من الطاعة ا قلت : لا والله قال : فما قصّتك وما هذا الانحراف ؟ فأصديقتى ، قلت : في خلوة ، فأوماً إلى من بين يديه فتحدّثوا لحدثته الحديث وقلت له : قد وعدتها في أمرك ، قال : قد أحسنت ، ولولا ذلك لست كنت بك ، فقلت : قد سلم الله ، فأخذنا في لذتنا في ذلك اليوم ، وهو لا يسمع مني غير حديثها ، فلم يتمّ النهار إلّا والمأمون معلق القاب ، فلما جاء الوقت سِرنا وأنا أوصيه وأقول : بحسب أن تظهرني بمحضرتها ، ودعوى من نخوة الملوك ، وكن لى تبعاً ، وهو يقول : نعم ويحك ! وإن قالت : غنّ كيف أصنع ؟ قلت : أنا أدمعها عنك .

ثم سرنا إلى زيبيلين فقمعدنا فيهما ، فرُفَعنا إلى الموضع ، فأقبلت فسلمت ، فما تمالك إذ رآها أن بُهِت في حسننها ، وقالت لى : والله ما أنصفت ابن حمك إذ لم ترفع منزله ، وكان قد قعد دونى ، فقالت : ارتفع فديتكَ ، أنت جديد ، وهذا قد صار من أهل البيت ، فنهض إلى صدر البيت ، وأقبلت نذاكره وتناشده وتمازحه ، وهو يَظهر عليها في كل فن . ثم أحضِر القُبْهْذ فشرَبنا ، روى مقبلة عليه ومسرورة به ، وهو أكثر ، وأخذت العود ففَنّت صوتاً ، وقالت : وابن حمك هذا من التجار ؟ قلت : نعم ، قالت : إنكها لفربيان . فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب ، ثم رأيتُه ينظر إلى نظر الأسد إلى فريسته ، فصاح : يا إسحاق ، فنهضت وقلت : لبيك يا أمير المؤمنين !

قال : غنّ هذا الصوت ، فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى كِأمة مضروبة ، فدخلتها ، فلما فرغت من الصوت ، قال : انظر من ربّ هذه الدار ؟ فسألت عبّوزاً ، فقالت : هو الحسن بن سهل ، قال : على به ، فقابت العبّوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له : ألك ابنة ؟ قال : نعم بوران ، قال : فزوّجتها ؟ قال : لا والله ، قال : فأنى أخطبها إليك ، قال : هي أمّك ، وأمرها إليك ، قال : قد تزوّجتها على نقد ثلاثين ألفاً نعملها إليك صبيحة يومنا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا ، قال : نعم ، ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا يقف على ما وقفت عليه أحد ، فسترت الحديث إلى أن مات المأمون ، فاجتمع لأحداً اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام مجالسة المأمون بالنهار ، ومجالسة بُوران بالليل ، وواقفه ما رأيت أحداً من الرجال في ملوكهم مثل المأمون ، ولا شاهدت امرأة تقارب بُوران فهما وعقلا ، وما أظن أحداً وقف من العلوم على ما وقفت عليه .

وفي السعدي : انحدر المأمون إلى فم الصلح في شعبان سنة تسع ومائتين ، وأمّك^(١) بمخديجة بنت الحسن بن سهل ، ونثر الحسن في ذلك الإملاك ما لم ينثره قطّ ملك في جاهلية ولا إسلام ، نثر على الهاشميين والقواد والسكراب بنادق مسك ، فيهارقاع بأسماء ضياع ، وجوار وأسماء ديار ودواب وغير ذلك ، فإذا وقعت البندقة بيد الرجل ، فتحتها فوجدتها على قدر سمده ، ثم ينثر بعد ذلك الدنانير والدرهم ونوافج المسك على عامة الناس ، وأنفق على المأمون وعلى جميع قواده ، فلما أراد المأمون الانصراف إلى مدينة السلام قال له : يا أبا محمد ، سل حوائجك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ على مكاني من قبلك ، فأمر المأمون أن يحمل له خراج فارس والأموال لسنة^(٢) .

وذكر الحريري في القرة أن المأمون لمّا بي على بُوران ، فرش له حصير منسوج بالذهب مأمّته أحد ، وعليه در منثور ، فوجه الحسن إلى المأمون أن

هذا نثار يجب أن يُلتَقَط ، فقال المأمون لن حوله من بنات الخلفاء : شرّفن أبا محمد ،
فدّت كل واحدة منهنّ يدها ، فأخذت دُرّةً وبقّ باقي الدرّ بلوح على الحصيد
المذهب ، فقال : قاتل الله أبا نُوَاس ، لقد شَبّه بشيءٍ مارآه قط ، فأحسن في
وصف الخمره والعجّاب الذي فوقها فقال !

كَأَن صُنْرى وكُبرى من فواقِها حصّاء درّ على أرض من الذهب^(١)
فكيف لو رأى هذا معاينة !

ويقال : إن الحسن بن سهل نثر في ذلك العرس على المأمون ألف حبة جوهره
وأشمل بين يديه شحنة عنبر ، وزنها مائة رطل ، فأمره المأمون بمائة ألف ألف درهم ،
وأقطعه مدينة قم الصّليح ، وهي قريبة من واسط ، وكان العرس بها .

وذكر المبرّد أن الملاحين الذين نصرّفوا في هذا العرس تيقفوا على السهمين
ألفاً ، وكانت جراية السلطان عليهم ، ولما بنى المأمون على بُوران وأراد غشيانها
حاضت ، فقالت : أتى أمر الله فلا تستمجلوه ! فنام في فراش آخر ، فلما أصبح
دخل عليه أفاضل ندائه يهنئونه ويدعون له فأشدهم بديها :

فارس في الحرب منغمِسٌ عارف بالطّمن في الظّلْمِ
رامٌ أن يُدْمِيَ فويسقَه فأنقتهُ من دم بدم

وأكثر الشعراء في ذلك الإملاك ، وأسقطرف منها قول ابن أبي حازم الباهلي :

بارك الله لحسنٌ ولُبوران في الخَلَنِ^(٢)
يابن هارون قد ظفّر تَ ولكنّ بنت منّا

(١) ديوانه ٢٤٣

(٢) البيهقي في معجمه التنقيص ٣: ١٣٩ ، من شواهد التوجيه ، وهو إيراد للكلام

بوجهين مختلفين ، وهنا لم يعلم ما أراد بقوله : « بنت من » .

فلما وصلت إلى المأمون قال : لا والله ما نذري أخيراً أراد أم شراً .
ويشبه هذا أن رجلاً أتى رجلاً خياطاً بثوب ليقطع له منه قميصاً ، فقال :
والله لأنصلته لك تفصيلاً ، لا يُدري أقبض هو أم قبّاه ؟ فعمل ذلك ، فقال له صاحب
الثوب : وأنا والله لأدعوك لك دعاء لا يُدري ألك هو أم عليك ؟ وكان الخياط
يسمى بشراً ، وكان أمور ، فقال :

خاط لي بشرٌ قَبَّاهُ كَيْت ههنيه سواء^(١)

وأنت المأمون بهماز لم يُسمع بمثله قطّ كان فيه القُرْشُ منسوجةً بالذهب .
وقال إبراهيم بن العباس الصّولي يهني الحسن بمصاهرة المأمون :
هَنَعَكَ أَكْرَوْمَةٌ جَلَّتْ نَعْمَتُهَا أَعْلَتْ وَلِيكَ واجتَنَّتْ أُعَادِيكَ^(٢)
ما كان يُنجَبِي بها إلا الإمام ولا كانت إِذَا قُرِئَتْ بِالْخَلْقِ تَعْدُو كَا
ومانت بُورَان في سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وقد بلغت ثمانين سنة .
وثم بُورَان أخرى وهي بنت كسرى ، وأمها مريم بنت قيسر ، ملكة
سدة ونصفاً ، وليست المعنوية في المقامة .

• • •

[ذكر بلقيس وعرشها]

وأما بلقيس فهي ابنة شراحبيل بن أبي سرح بن الحارث بن قيس بن صئف
ابن سبأ ، وكان سبب مراسلة سليمان إليها أنه فقد الهدد ، وبه يُعرف قُرب
الماء من بعده ، فنزل سليمان عليه السلام بمقازة ، فدعا بالهدد فلم يُوجَد ، فقال .
وهو غاضب ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ ... ﴾^(٣) الآيات . وكان الهدد قد مرّ بعرش

(١) معاهد التنصيص ١٣٨:٣ ، ونسبه إلى بشار ، وذكر بعده :

فقلتُ شعراً ليس يُدري أمديح أم هجاء

(٣) سورة النمل ٢٠ وما بعدها .

(٢) ديوانه ١٣٥ ، ١٣٦

بَلْقِيسَ وَبِسَاتِنَهَا ، فَلَمَّا رَجَعَ تَلَقَّاهُ الطَّيْرُ ، فَقَالُوا : تَوَعَّدَكَ رَسُولُ اللَّهِ بِنُفْثِ رَيْشِكَ أَوْ بِذُبْحِكَ ، فَيَنْقَطِعُ نَسْلُكَ ، فَقَالَ : وَمَا اسْتَنْتَى ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : ﴿ أَوْلَيْتَانِيَّيْنِ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ، أَيْ بَعْدَ مَبِينٍ فَأَتَى سُلَيْمَانَ فَقَالَ : مَا غَيَّبَكَ عَنِّي ؟ قَالَ : ﴿ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ فَاَنْظُرْ مَاذَا يَرْتَجِعُونَ . قَالَ سَتَنْظُرُ أَصْدَقْتَ .. ﴾ الْآيَاتِ فَوَجَّهَهُ بِالْكِتَابِ ، فَوَافَقَهُ فِي قَصْرِهَا ، فَسَدَّ عَلَيْهِمَا بِالْكِتَابِ ضَوْءَ طَائِقٍ ، فَالْتَفَتَ فَالْتَمَى إِلَيْهَا الْكِتَابَ ، فَأَخَذَتْهُ وَغَطَّتْهُ بِثَوْبٍ ، وَنَادَتْ فِي قَوْمِهَا فَقَالَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ ... ﴾ الْآيَاتِ ، فَقَالُوا لَهَا : ﴿ نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ ... ﴾ الْآيَاتِ . ثُمَّ قَالَتْ : إِنْ قَبِلَ الْهَدِيَّةُ فَهُوَ مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ الدُّنْيَا وَأَنَا أَعَزُّ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

فَلَمَّا رَجَعَ بِالْهَدِيَّةِ قَالَ سُلَيْمَانَ : ﴿ أَتِمِدُّوْنِي بِمَالٍ ﴾ إِلَى ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهَا رَسَلَهَا بِالْخَبَرِ ، خَرَجَتْ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهَا - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : وَمَعَهَا أَلْفٌ قَيْلٍ ، وَأَهْلُ الْيَمَنِ بِسْمُونِ الْقَائِدِ الْقَيْلِ - مَعَ كُلِّ قَيْلٍ عَشْرَةُ آلَافٍ . وَكَانَ سُلَيْمَانَ مَهْمِبًا لَا يَبْدُوهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْهُ ، فَخَرَجَ فَرَأَى رَهْجًا قَرِيبًا مِنْهُ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : بَلْقِيسُ ، قَالَ : وَقَدْ نَزَلَتْ مِنَّا بِهَذَا الْمَكَانِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَبُكُّكُمْ يَا نَبِيَّيَ بِعَرَشِيهَا ﴾ فَأَتَاهُ بِهِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمَ الْكِتَابِ قَبْلَ مَا تَطْعَمُ كَلَامَهُ ، وَصَرَفَ بَصَرَهُ ، فَرَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ، فَقَالَ : هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . ثُمَّ جَاءَتْ بَلْقِيسُ وَقَعَدَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ ، فَقِيلَ لَهَا : ﴿ أَهْمُكَذَا عَرَشُكَ ﴾ فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ثُمَّ قَالَتْ : تَرَكْتُهُ فِي قَصْرِى وَالْجَنُودِ مُحِيطَةً بِهِ ، فَكَيْفَ جِئْتُ بِهِ ! وَكَانَتْ شِعْرَاءُ السَّاقِينَ ، فَقَالَتِ الْجَنُّ : إِنْ نَسَكَحْنَا سُلَيْمَانَ فَوَلَدَتْ لَهُ غُلَامًا مَا نَنْفَكُ مِنَ الْعِبُودِيَّةِ أَبَدًا ، فَهَلُمَّ نَبِيَّ لَهُ بَنِيَانَا ، فَيَرَى شَعْرَهَا فِيهِ فَلَا يَتَزَوَّجُهَا ، فَبَنُوا لَهُ صَرْحًا أَخْضَرَ مِنْ قَوَارِيرِ كَأَنَّهُ الْمَاءُ ، وَجَمَلُوا فِي بَاطِنِ طَرَائِقِهِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الدُّوَابِّ وَالسَّمَكِ وَغَيْرِهِ ، وَأَلْقَى لِسُلَيْمَانَ كَرْسِيًا فِي أَنْصَاءِ : فَلَمَّا رَأَى مِنْهُ مَا رَأَى قَعَدَ عَلَيْهِ ، وَدَعَا بِهَا ، فَلَمَّا رَأَتْ صُورَ السَّمَكِ فِيهِ حَسِبَتْهُ لَجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا . فَأَبْصَرَ شَعْرَهَا سُلَيْمَانَ ،

فصرف بصره عنها ، وقال إنه صرح بمرد من قوارير ، فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ۖ ﴾ الآية . فقال سليمان للجن : ما يذهب الشعر ؟ فقالوا : له الخوذة ، فاسفكحها سليمان عليه السلام .

وذكر ابن إسحاق أنها لما أسلمت ، قال لها سليمان : اختاري رجلاً من قومك أزوجه ، فقالت : ومثلي يُسكح ، وقد كان لي من الملك والسلطان ما كان ! فقال لها : ما ينبغي أن نحرمتي ما أحل الله لك ، فزوجها ذاتبج ملك همدان ، وملكه اليمن ، وردّها معه ، فلم يزل ملك اليمن حتى مات سليمان . وكانت بلقيس من بيت الملكة ، قيل : إنها ولدها أربعون ملكاً ، واختلف في أمها فقيل : إنسيّة وقيل جنيّة .

وأما عرشها ، وهو سريرها ، فقيل : كان طوله ثمانين ذراعاً ، وعرضه كذلك . وكان عرشها صفاً من ذهب وفضة قد ركبت فيه فُصوصُ الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والدرّ واللؤلؤ ، وكان له قائمتان من باقوت وقائمقان من زبرجد ، ولللك قنطرة وحده ، الذي سخر لسليمان هذا الملك العظيم ومن أحضر له هذا العرش العظيم قبل رجوع الطرف .

وذكر الحريري في الدرّة : أن صواب لفظ « بلقيس » أن تكسر باؤه لأن كل أعجمي يُعرب بقياسه أن يلحق بأمثلة كلام العرب ، قال : وعلى ذلك بلقيس .^(١)

وقرأت في أخبار سيف الدولة أن الخالدين مدحاه ، فبعث إليهما وصيفاً ووصيفة ، مع كل واحد منها بذرة وتخت من ثياب مصر والشام ، فسكها إليه :

لم يَبْدُ شُكْرُكَ فِي الْخِلَاقِ مَظْلُومًا إِلَّا وَمَالُكَ فِي النُّوَالِ حَبِيسٌ^(١)
 خَوَّلْتَنِي شَمْسًا وَبَدْرًا أَشْرَقَتْ بِهِمَا لَدَيْنَا الظُّلُمَةُ الْخَذِيسُ
 رَشَاءً أَنَا وَهُوَ حُسْنًا «يُوسُفُ» وَغَزَالَةً هِيَ بِهِجَةً «بَلْقِيسُ»
 هَذَا وَلَمْ تَقْنَعْ بِذَاكَ وَهَذِهِ حَتَّى بَعَثْتَ الْمَالَ وَهُوَ نَقِيسُ
 أَنْتِ الْوَصِيفَةُ وَهِيَ تَحْمِلُ بَدْرَةً وَأَتَى عَلَى ظَهْرِ الْوَصِيفِ السَّكِيسُ
 وَكَسَوْنَنَا مِمَّا أَجَادَتْ حَوَاكُهُ مَصْرٌ وَزَادَتْ حُسْنُهُ نَقِيسُ
 فَقَدَلْنَا مِنْ جُودِكَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَنْكُوحِ وَالْمَلْبُوسِ

فلما قرأها سيف الدولة قال: أحسن، إلا في لفظ «المنكوح»، إذ ليست مما
 يخاطب بها الملوك.

وهذا من بديع نقده المليح وشواهد ذكائه العريح.
 وأما الزّباء: فقد تقدّم ملكها في الرابعة والعشرين.



[ذكر رابعة المدوبة]

وأما رابعة فهي^(٢) بنت إسماعيل المدوبة، وكانت قد بلغت من الذّسك
 والفضل والزهد منزلة شريفة، وكانت منورة البصيرة، مطهرة السريرة،
 حظيت بالكاشفات الربانية. وكان سفيان الثوري يذهب إليها ويسألها عن
 مسائل دينية، ويعتمد عليها، وخطبها عبد الواحد بن زيد، فقالت له بعد أن

(٢) انظر ترجمتها في ابن خلكان ١: ١٨٢

(١) ديوان الخالدين ١٦٢.

حبيبته أيمانا ثم أذنت له: يا شهوان، أي شيء رأيته في من آية الشهوة؟ ألا خطبت
شهوة نانية مثلك!

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة العدوية، فقامت إلى محراب
لها، ووقت إلى ناحية من البيت فلم تنزل قائمة إلى السحرة، فقلت: ما جزاء من قوانا
على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غدا.

وزارها أصحابها، فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن
ذمها، فلو لا موضعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها! ألا من أحب شيئا
أكثر من ذكره.

واحتاجت رابعة إلى شيء فقيل لها: لو بمنيت إلى فلان؟ قريب لها، فقالت:
والله لا أطلب الدنيا ممن يملكها، فكيف بمن لا يملكها!

وحدث جعفر بن سليمان قال: أخذ بيدي سفيان الثوري فقال لي: سربي
إلى المؤذنة التي لا أجدي أستريح إذا فارقتها - يعني رابعة - قال: فلما دخلت
عليها، رفع سفيان يديه، وقال: اللهم إني أسألك السلامة! فبكت رابعة،
فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أنت عرضتني للبكاء، فقال لها وكيف ذلك؟
قالت: أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها، فكيف وأنت
مقاطع بها!

وقال سفيان الثوري لرابعة راحة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك؟ قالت:
ما عبده خوف النار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبده حبا له
وشوقا إليه، وقالت في معنى ذلك:

أحبك حُبَيْن: حبَّ الهوى وحُبًّا لأنك أهلٌ لذلك

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حَبَّ الْهَوَىٰ فَشَغَلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشَفَكَ لِي الْحِجَبَ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَدَّ فِي ذَا وَلَا ذَا لِيَا وَلَكِنْ لَكَ الْحَدُّ فِي ذَا وَذَاكَ

وقيل لها : كيف حبّك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : شغلتني
حبّ الخالق عن حبّ المخلوقين .

ودخل سفيان عليها وهي قائمة تصلي ، فلم تعرّج عليه ، ودخل جعفر - وكان
يخدمها - فقال لسفيان : أي شيء دار بينك وبينها ؟ قال : ما كلمتني . فقال لها :
يا سبحان الله ! الشيخ جاء إليك فما كلمته ، فقالت : إن العبد إذا كان مقبلاً على
الله عز وجل كان الله مقبلاً عليه ، وقد كنت مقبلة على الله عز وجل ، ولست
أشكّ في إقباله عليّ ، فأبما أحبّ إليك أن أكون مقبلة على الله ويكون
مقبلاً عليّ ، أو أقبل على هذا ؟ ثم قالت : الله أكبر .

وقال لها رجل : إني أحبك في الله ، فقالت : فلا تنعمي الذي أحببتني له
وأنشدت :

أَتَضْمَنُ بِأَنِّي تَرَكْتُ الْمَعَاصِيَ وَأَرْهَنُهُ بِالْكَفَالَةِ بِاتِّخْلَاصٍ
أَطَاعَ اللَّهُ قَوْمٌ فَاسْتَفْرَحُوا وَلَمْ يَتَجَرَّعُوا غُصَصَ الْمَعَاصِيَ

[ذَكَرَ خَنْدَف]

وأما خندف ، فهي ليلى بنت حُلَوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ،
وهي امرأة إلهاس بن مضر ، ولدت منه محرراً وهو مدركة ، وعامراً وهو طابخة ،

وعميراً وهو قَمْعَة ، فندت لهم إبل ، فخرجوا في طلبها فأدركها عمرو ، فسُمِّيَ مدركة ، واقطنص حاسر أرنبا فطبخها ، فسُمِّيَ طابخة ، وانقمع عمير في بيته فسُمِّيَ قَمْعَة ، فلما أبطنوا عليها خرجت في إثرهم ، فقالت : ما زلت أخندف في إثركم ؟ فلَقَّبَتْ خندف ، والخندفة بالهرولة ، وهي أمّ عرب الحجاز ، وجميع ولد إلياس من خندف ، وخندف يُفسَّبون ، وجميع ولد مضر من إلياس وخندف ، فن مدركة كنانة وأسد ابنا خُزَيْمَة ، ومن طابخة ضَبَّة بن طابخة ، ومزينة والرَّباب ، وهم عدى وتميم بن مرّ بن أد بن طابخة ، وتور وعُكْل بن مدركة ، وقُرَيْش وهو في كنانة .

ومنها سيد ولد آدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى ما في كنانة من الشجعان المشاهير في الجاهلية .

ومن طابخة تميم ، وهي أكبر قبيلة في العرب وأشجعها ، وهي عدد لا يحصى ، وهزّ لا يدرك .

وقال المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود قبائل العرب ودّها بئزهرن فقال : ليليس هذين البرذنين أكرم العرب وأشرفهم حسبا وأعزهم قبيلة ، فأحجم الناس ، فقام الأحمر بن خلف بن بهذلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم ، فلبس أحدهما وارtedy الآخر ، فقال له المنذر : ما جئتكم فيما ادعيت ؟ قال : الشرف من تزار في مضر ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في بهذلة ، قال : هذا أنت في أصلك ، فكيف أنت في عشيرتك ؟ قال : أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة قال : هذا أنت في عشيرتك ، فكيف أنت في نفسك ؟ فقال : شاهد العين شاهدي ، ثم قام فوضع قدمه في الأرض ، وقال : من أزالها فله مائة من الإبل ، فلم يبق إليه أحد ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

فما نمت في سعاد ولا آل مالك غلام إذا ما قيل لم يقبهدل^(١)
 لهم وهب التمام بُردى محرق بعبد معد والعديد المحصل
 فلخندف هذا الفخر في الجاهلية ثم النبوة ، ثم الملك إلى يوم القيامة وفيها
 يقول الراجز :

• وخندف هامة هذا العالم •

* * *

[ذكر الخنساء]

وأما الخنساء فهي ثماضر بنت عمرو بن الشريد ، من سراة قهائل سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بني سليم ، ولسليم في الإسلام سابقة حسنة ، حضر منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وحرب حنين ألف رجل .

وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الخنساء ويمجبه شعرها ، فكانت تنشده وهو يقول : هيه يا خنساء ! ونظرتها عائشة رضي الله عنها ، وعليها صيذار من شعر ، فقالت : يا خنساء ، أتلبسين الصيذار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : لم أعلم بنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان للصيذار سبب ، كان زوجي رجلاً معلقاً فأماق ، وأراد أن يسافر ، فقلت له : أقم حتى آتي أخى صخر ، فأنيته فشاطرني ، ماله فأتلفه زوجي ، فمدت إليه فماد بمثل ذلك ، فأتلفه زوجي ، فمدت إليه في الثالثة والرابعة ، فقالت له زوجته : إن هذا المال معلق ، فامنعها شرار مالك ، فقال :

والله لا أَمْنَحُهَا شَرَارَهَا وهي حَصَانٌ وقد كَفَنَتِي عَارَهَا^(١)
ولو هَلَكْتُ خَرَقْتُ خَارَهَا واتَّخَذْتُ مِنْ شَعْرِهَا صِدَارَهَا
فلما هَلَكَ اتَّخَذْتُ هَذَا الصِّدَارَ .

وقيل لجريـر : مَنْ أَسْعَرَ النَّاسَ ؟ قال : أنا ، لولا هذه الفاعلة - يعني الخنساء -
قوله له : فَيَمَّ فَضْلَتُكَ ؟ قال بقولها :

إِنَّ الزَّمَانَ وَمَا تَفَنَّى عَجَائِبُهُ أَبَقِيَ لَنَا ذَنْبًا وَاسْتَوْصِلَ الرِّاسُ^(٢)
أَبَقِيَ لَنَا كُلَّ مَجْهُولٍ وَفَجَعْنَا بِالْحَالِمِينَ فَهَمَّ هَامٌ وَأَرْمَاسُ^(٣)
إِنَّ الْجَدِيدِينَ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ^(٤)
فَاجْمَعِ عِلْمَاءَ الشَّعْرِ أَنَّهُ لَمْ تَسْكُنْ قَطَّ امْرَأَةً قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا أَشْعَرَ مِنْهَا .

وكان النابغة الذبياني يجلسُ لشعراء العرب يُعَكِّظُ على كرمي ، يَنشُدُونَهُ
فيُفَضِّلُ مَنْ يَرَى تَفْضِيلَهُ ، فَأَنشَدَتْهُ فِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ فَأَعْجَبَ بِشَعْرِهَا ، وَقَالَ لَهَا :
وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْأَعْمَى أَنشَدَنِي قَبْلَكَ - يَعْنِي الْأَعْمَى - لَفَضَّلْتُكَ عَلَى شِعْرَاءِ .
هَذَا الْمَوْسِمِ .

وكان بشار يقول : لَمْ تَقُلْ امْرَأَةً شِعْرًا إِلَّا ظَهَرَ الضَّمْفُ فِيهِ ، فَقِيلَ لَهُ :
أَوْ كَذَلِكَ الْخَنَسَاءُ ؟ فَقَالَ : تِلْكَ كَانَتْ لَهَا أَرْبَعُ خُمَى .

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رَثَتْ بِهِ صَخْرًا قَوْلُهَا :

(١) شرح ديوان الخنساء ٢١ ، الأغاني .

(٢) ديوانها ١٥٥ ، وروايته : د وما يَفَنِّي لَهُ عَجَبٌ .

(٣) جَمَعْنَا : أَحْزَنَّا ، وَالْهَامُ : جَمْعُ هَامَةٍ ، أَرَادَ بِهِ مَا عَنَّا الْجَثَّ وَالرَّفَاتِ . وَالْأَرْمَاسُ :
اللبور ، جَمْعُ رَمْسٍ .

أَلَا يَا صَخْرُ إِن أَبْكَيْتَ عَيْنِي لَقَدْ أَضْحَكْتَنِي دَهْرًا طَوِيلًا^(١)
 بِكَيْفَتِكَ فِي نِسَاءِ مَمْلُوكَاتِ وَكُنْتَ أَحَقُّ مِنْ أَبْدَى الْعَوِيلَا
 دَفَعْتُ بِكَ الْجَلِيلَ وَأَنْتَ حَيٌّ فَنَ ذَا يَدْفَعُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَا
 إِذَا قَبَّحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَمِيْلٍ رَأَيْتَ بِسْكَاءِكَ الْحَسْنَ الْجَلِيلَا

ومنه :

يُؤْزِفُنِي التَّذَكُّرُ حِينَ أُمِسِي وَبِرَدْعُنِي عَنِ الْأَحْزَانِ نُكْسِي^(٢)
 عَلَى صَخْرٍ وَأَيَّ نَفْتَى كَهْخَرٍ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَطِمَآنٍ خَلْسِي
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ رُزْءًا لِحَنٍّ وَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ رُزْءًا لِلْإِنْسِي
 يَذْكُرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرَا وَأَبْكِيهِ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِي
 وَلَوْلَا كَثْرَةُ اللَّبَاكِينِ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
 وَمَا يَسْكَوْنَ مِثْلَ أَخِي وَلَا يَكُنْ أَعَزَى لِنَفْسٍ عَنْهُ بِالتَّامِي

ومنه أيضًا :

أَبْدَى ابْنِ عَمْرٍو مِنْ آلِ الشَّرِيدِ حَلَّتْ بِهِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا^(٣)
 لَقَعْتُ أَيْيَهُ لِنَفْعِ الْفَتَى إِذَا النَّفْسُ أَعْجَبَهَا مَالَهَا
 فَإِنْ تَكَ مُرَّةً أَوْدَتْ بِهِ فَقَدْ كَانَ يَكْثُرُ تَفْغَالَهَا
 فَخَرَّ الشَّوَاهِخُ مِنْ قَدَرِهِ وَزُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا

(١) ديوانها ٢٢٥ .

(٢) ديوانها ١٥٠ ، وفيه : « مع الأحزان » .

(٣) ديوانها ٢٠١ ، وقوله :

أَلَا مَالِيكَ أَمْ مَالَهَا وَقَدْ أَخْضَلَ الدَّمْعُ بَيْرَ مَالَهَا

ومنه أيضاً :

أعيق جوداً ولا نجمداً ألا تبكيان لصخر القدي^(١)
ألا تبكيان الجريء الجمول^(٢) ألا تبكيان الفتي السودا
طويل الدجادر فيع المصا د ساد مشيرته أمردا

ومنه أيضاً :

تمرقني الدهر نهشا وحزاً وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً^(٣)
وأفنى رجالي فبادوا معاً فأصبحتُ من بينهم مستفزاً^(٤)
كان لم يسكنوا حتى يتقى إذ الناس إذ ذك من عزباً
وكانوا سراة بني مالك ونغر العشرة مجدأ وعزاً
جززنا نواصي فرسانها وكانوا يظنون ألا تجزاً
ومن ظن بمن يلقى الحرو ب ألا يصاب فقد ظن عجزاً

ومنه أيضاً :

يا صخر وراذ ماء قد تبادره^(٥) أهل للوارد وما في ورده عار
منى السبئني إلى هوجاء معضلة له سلاحان أنياب وأظفار^(٦)

(٢) الديوان : « الجيم » .
(٤) الديوان :

(١) ديوانها ٤١ .

(٣) ديوانها ١٤٣ .

• فأصبح قلبي لهم مستفزاً •

(٦) الديني : النمر .

(٥) ديوانها ٧٥ .

وما جُولَ عَلَى بَوَى نَحْنُ لَهُ لَهَا حِينَانِ إِعْلَانِ وَإِسْرَارُ
تَرْتَعِ مَارْتَعَتْ^(١) حَقٌّ إِذَا ذَكَّرْتُ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَإِدْبَارُ
يَوْمًا بِأَوْجَعِ مِنِّي حِينَ قَارِقِي صَخْرًا فَلَدَهْرٍ إِحْلَاءُ وَإِمْرَارُ
وَأِنْ صَخْرًا لَوَالِهِنَا وَسَيِّدُنَا وَإِنْ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارُ
وَأِنْ صَخْرًا لَتَأْنُمُ الْمَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ
وحدث المفضل قال : كنت جالساً يوماً على باب منزلي ، أحتاج إلى درهمٍ واحد ، وعلى دين عشرة آلاف درهم ، إذ جاءني رسول المهدي ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقلت في نفسي : وما بعثته إلي ! لعل ساعياً سعى بي عنده . ثم دخلت منزلي ، ولبست ثيابي ، وسرتُ إليه ، فلما مثلت بين يديه أومأ إليّ بالجلوس ، فلما سكن جأسي ، قال لي : يا مفضل ، ما أفغرك بيت قاله العرب ؟ فأرتجعتُ على ساعه ، ثم قلت : يا أمير المؤمنين قولُ الخنساء ، فاستوى جالساً وكان معكنا ، فقال : أي ، [بيت هو ؟]^(٢) فقلت قولها :

وَأِنْ صَخْرًا لَتَأْنُمُ الْمَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

فقال : قد قلت له فأبى عليّ - وأومأ إليّ إسحاق^(٣) بن بزيع - قلت : الصواب مع أمير المؤمنين ، ثم قال : يا مفضل ، حدثني خذنته حتى انقصف النهار ، قال : أنشدني ، فأنشدته قول الحسين بن مطهر الأسدي :

وَقَدْ تَقَدَّرُ الدُّنْيَا فِيضْحَى غَنِيَّتُهَا قَتِيرًا وَيَتَرَى بِمَدِّ بَوَى قَتِيرُهَا
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ تَقْيِيرٍ هَيْشَةٍ وَأُخْرَى صَفَا بِمَدِّ كَدِّ غَدِيرُهَا
فَلَا تَقْرَبِ الْأَسْرَ الْحَرَامَ فَلَانَهُ حَلَاوَتُهُ تَنْفَى وَيَبْقَى مَرِيرُهَا

(١) ط : « غفلت » . (٢) من الأغاني .

(٣) في الأغاني : فأومأ إلى إسحاق بن بزيع ، ثم قال : قد قلت له ذلك فأباه .

(٢٣ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

وكان المهدي رقيقاً فبكى ، وقال : يا مفضل ، كيف حالك ؟ قلت : كيف يكون حال مَنْ عليه عشرة آلاف درهم ، وليس معه منها درهم واحد ، قال : يا إسحاق ، أعطه عشرة آلاف درهم قضاء لدينه ، وعشرة آلاف درهم يستعين بها على حاله ، وعشرة آلاف درهم يصلح بها من شأنه ^(١).

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الخنساء تطوفُ بالبيت محلوقة الرأس ، نهكى وتلطم خدّها ، وقد علقت نملَ صَخِرٍ في خمارها ، فوعظها فقالت : إني رُزيت فارساً لم يُرْزَأ أحدٌ مثله ، فقال : إن في الناس مَنْ هو أعظم مرزاةً منك ، وإن الإسلام قد غطّى ما كان قبله ، وإنه لا يحلّ لك لطمُ وجهك ، ولا كشف رأسك ، فسكّفت من ذلك وقالت :

هَرَبْتُ مِنْ دُمُوعِكَ وَاسْتَفْتَيْتُ وَصَبْرًا إِنْ أَطَقْتُ وَلَنْ تُطْلِقِي ^(٢)
وَقُولِي إِنَّ خَيْرَ بَنِي سُلَيْمٍ وَأَكْرَمَهُمْ بِصَحْرَاءِ الْعَفِيقِ
أَلْأَهْلَ تَرَجِمَنَّ لَنَا إِلَهًا إِلَى وَأَيَّامٌ لَنَا يَلْوِي الشَّقِيقِ
وَإِذَا فِينَا مَعَاوِيَةَ بْنَ عَمْرِو عَلَى أَدْمَاءٍ كَالْجُلُجْلِ الْفَنِيقِ ^(٣)
فَنَبْكِيهِ فَقَدْ أَوْدَى حَمُولًا أَمِينَ الرَّأْيِ عَمُودَ الصَّدِيقِ ^(٤)
فَلَا وَاللَّهِ لَا تَسْلُوكِ نَفْسِي ^(٥) لِفَاحِشَةٍ أَنْبَتُ وَلَا عُمُوقِ ^(٦)
وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ خَيْرًا ^(٧) مِنَ الْفُتُلَيْنِ وَالرَّأْسِ الْخَلِيقِ

وأما أبو العباس المبرد فقال : وقالت الخنساء ترى أخاها معاوية بن عمرو ، وكان أخاها لأبيها [وأُمها ، وكان صخر أخاها لأبيها] ^(٨) وكان أحبهما إليها ،

(١) الخبر والهمز في الألفاظ ١٦ : ٢١ ، ٢٢ . (٢) ديوانها ١٧٣ .

(٣) أدماء : ناقة بيضاء . والفنيق : الفحل من الإبل .

(٤) الديوان : « فبكيه » (٥) الديوان : « ماسليت نفسي » .

(٦) الديوان : « بفاحشة علمت » .

(٧) الديوان : « بمعاوية فإن الصبر خير » . (٨) من الكامل .

واستحق ذلك لأمر : منها أنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجلود ، معروفاً بالتقدم والشجاعة ، محظوظاً في المشيرة ، ثم أنشد الأبيات المتقدمة ^(١) .

وكان صخر أحمل رجل في العرب ، وكان سبب قتله أنه جمع جمعاً ، وأغار على بني أسدين خزيمه ، فنذرُوا به والقوا ، واقتلوا قتلاً شديداً ، فرفض أصحاب صخر عنه ، فطمعه ربيعة بن نور الأسدي ، فأدخل جوفه حلقة من الدرع ، فاستقل ^(٢) منها ، وسار إلى أهله فاندمل عليه الجرح ، وتأنى منه مثل الهدى ، فأضناه ذلك حولاً ، فسمع سائلاً يقول لامرأته : كيف صخر اليوم ؟ فقالت : لحي فبرجى ، ولا ميت فينقى ، ولقد لقينا منه الأمرين - وامرأته بديلة الأسدية وكان سبأها من بني أسد ، وانخذها لنفسه - فلما سمع قولها علم أنها برمت منه ، ورأى نحر ^(٣) أمه عليه ، فقال :

أَرَى أُمَّ صَخْرٍ لَا تَجِفُّ دُمُوعُهَا وَمَلَّتْ سُلُوبِي مُضْجِعِي وَمَكَانِي
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَكُونَ جِنَازَةً عَلَيْكَ ، وَمَنْ يَفْتَرُّ بِالْخُدَّائِنِ
أُمِّ بَأْسِ الْحَزْمِ لَوْ أَسْطَظِمُهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعِيدِ وَالنَّزْوَانِ
لَمَرِي قَدْ نَبَّهْتَ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَسْمَعْتَ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
فَأَيُّ امْرِئٍ سَاوَى بَأَمِّ حَلِيلَةٍ فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي شَقَى وَهَوَانِ

ثم عزم على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعه يئس من نفسه ، فقال :

أَجَارَتْنَا إِنْ الْخَطُوبُ قَرِيبُ عَلَى النَّاسِ ، كُلِّ الْخَطُوبَيْنِ نَصِيبُ
أَجَارَتْنَا إِنْ غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلِّ غَرِيبٍ لِقَرِيبٍ نَسِيبُ

(١) الكامل : ٤ : ٥١ .

(٢) ط : « فاستقل » تحريف . وفي الكامل : « استقل بها » .

(٣) الكامل : « حزن أمه » .

فلما مات دفن في أرض بني سليم بقرب عَسِيب^(١).

وحضرت الخنساء القادسية مع بنيتها وم أربعة رجال ، فقالت لهم من أولي الأهل : يا بني إنكم أصلتم طائفتين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو ؛ إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خفت أباكم ، ولا فضحت خالككم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعملون ما أعد الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الدنانية ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَوَزَّاءُطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغذوا لقتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت من ساقها ، وجلت نارا على أوراقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالوا ريسها ، نظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة . فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ، يُنشدون أراجيزاً يذكرون فيها وصية المجوز لهم ، حتى قتلوا من آخرهم ، فبأنها الخليل ، فقالت : الحمد لله الذي شرّفتني بعلمهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مسقط الرحمة .

وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيتها الأربعة ، وكان لكلّ منهم مائتا درهم ، حتى قبض رضي الله تعالى عنه .

قوله : فعمدة رحل ، أي امرأة يتي . وناقّة طروقة : بلغت أن يطرقها الفحل . وأخت . استنكفت وكرهت .

قال : فتذمرت المرأة وتذمرت ، عن ساعدها وشمرت ، وقالت له : يا ألام من مادر ، وأشام من قشير ، وأجبت من صافر ، وأطيش .

(١) الحجة والشعر في الكامل ٤ : ٦٠ ، ٦١ مع اختلاف في العبارة وتغيير في الأبيات .

من طامر؛ أترميني بشنارك، وتفرى عري بشفارك، وأنت تعلم
أنك أحقر من قلامة، وأعيب من بنة أبي دلامة، وأفزع من
حبة، في حلقة، وأحير من بقة، في حقة.

وهبك الحسن في وعظه وآفته، والشعبي في علمه وحفظه،
والخليل في مروضه ونحوه، وجريراً في غزله ومجوه، وقسافي
فصاحته وخطابته، وعبد الحميد في بلاغته وكتابته، وأبا عمرو في
قراءته وإغرابه، وابن قريظ في روايته عن أعرابه؛ أتظنني
أرضاك إماماً لحجراي، وحساماً لقراي، لا والله ولا بواباً لبابي،
ولا حصاً لجراي.

• • •

تذمرت: غضبت، وتذمر الرجل، إذا رأى ما يكره فنضب وتهدد، والتذمر:
اللوم والحض، وتذمر قائد الجيش أصحابه يذمرهم، إذا لامهم وأهمهم ما يكرهون
ليجذوا في القتال. تنمرت: تغيرت وتشبهت بالنمر، ولا يوجد النمر إلا مستكراً
فضبان، ونمر الرجل وتنمر: تفكر وتغير. حسرت عن ساعدها: شمرت عن
ذراعها. أطيش: أخف، والطيش: خفة العقل.

والطامر: البرغوث، يقال له طامر ابن طامر. قال الأحمسي: كنت بالبادية
فرايت أعرابياً قد بسط كساءه ليقليه في الشمس، فوقفت أنظر إليه، فجعل
يأخذ البراغوث، ويدع القمل، فقلت له: لم تأخذ بعضاً وتدع بعضاً؟ فقال:
أبدأ بالفرسان ثم أعكر^(١) على الرجال.

(١) مكر على الشيء: كره وانصرف إليه.

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يسب برغوثاً ، فقال : « لا تسبه فإنه
نبيه نبياً من الأنبياء لصلاة الفجر » .

أبو الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أذاك
البراغيث ، فخذ قَدْحاً من ماء ، واقرأ عليه سبع مرات ، ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَّقَ كُلَّ
عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ التَّوَكَّلُونَ ﴾ ^(١) . فكفوا شرهم وإذا هم
هنا ، ثم ترش الماء حول فراشك ، فإنك تبيت الليلة آمناً من شرها » .
شمارك : عيبك وعارك . تفرى : تقطع ، وفرى ، يستعمل فى القطع على
جهة الإصلاح ، وقد جاء هنا فى الإفساد ، ومنه قول الشاعر :

فَرَى نَائِبَاتُ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَصَرَفَ الْيَالَى مِثْلَ مَا فَرَى الْجِلْدُ
ابن سيده : فَرَى الشيء يفرىه فرياً وفَرَاهُ تفريةً ، كلاهما شقٌّ وأفسده .
وأفراه أصلحه ، والمتقنون من أهل اللغة ، يقولون : فرى : شقٌّ للإفساد وأفرى
لِلإصلاح . وقيل : أفراه أفسده ، وفراه : قطعه للإصلاح . قال الأصمعي رحمه الله :
أفرى الجلد مَزَقَهُ وأفسده ، يُفرىه لإفراه ، وفرى المَزَادَةَ يفرىها فرياً : خرزها .
القَلَامَةُ : ما يقص من الظفر ، وبها يتعلق وسخه ، فهمى مع حقارتها مستفدرة .

[ذكر أبى دلامة]

وأما أبودُلَامَة ، فاسمه زَنْد - بالنون - بن الجون ، وهو كوفى أسود ، مولى
لهى أسد ، أدرك آخر أيام بنى أمية ، ونبع فى أيام بنى العباس ، ومدح السَّفَاح
والمَنصور والمهدى ، وكان صاحب نوادر ومُلَحِّع ، وكان خليعاً فاسد الدين ،
ودىء المذهب ، وقد تقدّم له شيء من ذلك فى الصَّلَاة والحج ، ونذكر له هاهنا
شيئاً فى الصيام ، ونضيف له فنوناً من سائر مَلَحِهِ .

وأما بغلته فكانت جامعة لميوس الدواب كلها ، وكانت أشوه الدواب .

خِلْقَةً فِي مَنْظَرِ الْعَيْنِ، وَأَسْوَأَهَا خَلْقًا فِي مَخْبَرِهَا، فَكَانَ إِذَا رَكِبَهَا تَبِعَهُ الصَّبِيانُ
يَقْضَا حَكْمَهُ بِهِ، وَكَانَ يَقْصِدُ رُكُوبَهَا فِي مَوَاقِبِ الْخُلَفَاءِ وَالْكِبَرَاءِ، لِيَضْحَكَهُمْ
يَسْخَاسَهَا؛ حَتَّى نَظَّمَ فِيهَا قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ^(١) وَهِيَ:

أَبْعَدَ الْخَمَلِ أَرْكَبُهَا كَرَامًا وَبَعْدَ الْفَرَسِ مِنْ حُضْرِ الْبَغَالِ^(٢)
رُزِقْتُ بُغْيَةً فِيهَا وَكَالٌ وَلَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ الْوِكَالِ^(٣)
رَأَيْتُ عِيُونَهَا كَثُرَتْ وَغَالَتْ^(٤) وَإِنْ أَكْثُرْتُ نَمَّ مِنَ الْقَتَالِ^(٥)
لِيُحِصِيَ^(٦) مَنْطِقِي وَكَلَامَ غَيْرِي عُسَيْزَ خَصَالِهَا، شَرُّ الْخِصَالِ^(٧)
فَأَهْوَنُ عَيْنِيهَا أَنِّي إِذَا مَا نَزَلْتُ وَقُلْتُ: إِمْسِي لِاتَّبَاعِي
تَقُومُ فَمَا تَبَّتْ^(٨) هُنَاكَ شِبْرًا وَتَرْتَحْنِي وَتَأْخُذُنِي قِتَالِي
وَحِينَ رَكُوبَهَا أَذَيْتُ نَفْسِي^(٩) بِضَرْبِ بَالِيَيْنِ وَبِالشَّمَالِ^(١٠)

(١) وردت هذه القصيدة في ثمار القلوب للشماخي ٣٦١-٣٦٤، وكتاب القول في البغال لبحار، وأبيات منها في الأغانى ١٠: ٢٦٥، ونهاية الأرب ١٠: ٨٩.

(٢) ثمار القلوب: «بعد الفر» والبيت في كتاب البغال ونهاية الأرب:

أَبْعَدَ الْخَمَلِ أَرْكَبُهَا وَرَادًا وَشُقْرًا فِي الرَّعِيلِ إِلَى الْقَتَالِ

(٣) الوكال: الحكيل والبطء.

(٤) كذا في كتاب البغال: وفي ثمار القلوب: «وميت فيها». وفي نهاية الأرب.

«وعالت» وفي ط: «وليت»

(٥) كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب: «ولو أفنيت مجتهدا» قال.

(٦) ثمار القلوب: «ليحصي».

(٧) ثمار القلوب: «فغير خصالها شرح الخصال»، ولم يرد هذا البيت في نهاية الأرب.

(٨) ثمار القلوب: «فما تسير هناك سيرا». وفي كتاب البغال: «تقوم فما تريم إذا»

استنحت.

(٩) ثمار القلوب: «وحين ركبها أذيت نفسي».

(١٠) ثمار القلوب: «أركبها».

وبالرجلين أركضها جمعاً
أناي خائبٌ يستأتم^(٣) مني
وقال تبئعها ؟ قلت أرتبطنها
فأقبل ضاحكاً نحوى سرورا
هلم إلى يخلو بي خداعاً^(٤)
فقلت بأربعين فقال أحسن
فأنزك خمسة منها لعلني
فلما ابتاعها مني وبنت
أخذت بشوبه وبرئت مما
برئت إليك من مَشَشٍ^(٥) قديم

فها لك في الشتاء وفي الكلال^(٦)
عريق^(٧) في الخسارة والضلال
بمحكك إن بهي غير غال
وقال أراك سهلاً ذا جمال
وما بدري الشقي بمن يُخالي
إلى فإن مثلك ذو سِجَالٍ^(٨)
بما فيه يصير من الخبال
له في البيع غير المُستَقَالِ
أعدت عليه من سوء الخلال
ومن جرّد^(٩) ومن بلّالٍ الخالي^(١٠)

(١) بعده في كتاب القول في البغال ونهاية الأرب :

رياضة جاهلٍ وعُلَيجُ سوء
شتم الوجهِ هِلْباجٍ هِدَانٍ
فأذهبها بأخلاق سماجٍ
فلما هدّني ونفّ رُقادي
أنيتُ بها الكفاسةَ مستغفينا
بمُهْدَةٍ سِلْعَةٍ رَدّت قديماً
فبينما فِكْرَتني في السّوم تُنْمرى

من الأكراد أحبّني ذى سُعالٍ
تُغْمِسُ يوم حلّ واريحَالٍ
جزاء الله شراً عن عوالي
وطالَ لِدَاكَ مَمًى واشتِغالي
أفكرَ دائباً كيف احْتِغالي
أطمئنتُ بها على الداء المُضَالِ
إذا ما تُنْمِتُ أرخصُ أم أغالي

(٢) كتاب البغال وثمار القلوب ونهاية الأرب : « حق شقي » .

(٣) فيما عدا الفريسي : « قديم » .

(٤) كتاب البغال ونهاية الأرب : « وراوغني ليخلو بي خداعاً » .

(٥) السجال هنا : المباراة والساجلة ، يريد أنه لا يماكس في الثمن .

(٦) المشش : ورم يأخذ في مؤخر عظم الوظف أو باطن الساق .

(٧) الجرد في الدواب : ورم في مؤخر هرقلوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشي .

(٨) في كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « وتخربق الجلال » وبهذه فيها :

ومن فرط الحرّان ومن جهاجٍ ومن ضَعَفِ الأسافل والأعالي

ومن فَنَقَى بها في البطن ضخم
ومن قطع اللسان ومن بياض
ومن عض الغلام ومن خراط^(٣)
وأفطى من فريخ الذر مشها
ونكسر سرجها أبدا شماسا
ويذبر ظهرها من مس كف
تظل ركة منها وقمدا
ومشفا^(٧) تقدم كل سرج
وتنقى لونسير على الحشايا
إذا استعملتها عتت وبالت
وتشرط أربعين إذا وقفنا
فقطع منطقي ونحول بيني
وتذعر للدجاجة إذ تراها
ومن عقالها^(١) ومن انفتال
بعينها ومن قرص الحبالي^(٢)
إذا مام صعبك بارتحال
بها عرن ودا من سلال^(٤)
وتقص للإكاف على اغتيال^(٥)
وتهزم في الجمام وفي الجلال^(٦)
يخاف عليك من ورم الطحال
تصير دقيده على القذال
ولو تمشي على دمي الرمال
وقامت ساعة عند المبال
على أهل الجالس للحوال
وبين حديثهم فيما توالى
وتنفّر للصغير وللخمال

(١) العقال : داء يأخذ في قوائم الدابة .

(٢) كتاب البغال : « بناظرها ومن حل الحبال » ، وبعده :

وعقال يلازمها شديد ومن هدّم العالف والمر كال
تقطع جلدها جربا وحكا إذا هزأت وفي غير الخزال

(٣) كتاب البغال ونهاية الأرب : « ومن عض العضاض ومن عباب » .

(٤) العرن : داء يأخذ الدابة في آخر رجلها ، وفي غير العريشي : « وألطف »

(٥) في كتاب البغال :

وتلقي سرجها أبدا شماسا وتنفط في الوحول وفي الرمال
(٦) في نهاية الأرب :

ويهرز لها الجمام إذا خصيننا ويذبر ظهرها من الجلال

(٧) ط : « ومشفا » ، والصواب ما أتبعه من نهاية الأرب .

فأما الاختلاف فأذن منها من الأتبان أمثال الجبال
وأما القَتَّ فأتِ بألفٍ وقرِ بأعظم حملٍ أحمال الجبال
فلستُ بعالفٍ منها ثلاثا وعندك منه عودٌ للخلال
وإن عطشت فأوردها دُجَيْلًا إذا أوردتَ أونهرى بلال^(١)
فذاك لريِّها سُميتُ حميا وإن مدَّ الفرات فلتهال
وكانت قارحًا أيام كسرى^(٢) وتذكُرُ نُبعا عند الفعّال
وقد دَبرتُ ونُعمانٌ صبي^(٣) وقبل فِصاله تلك الأوالي^(٤)
وتذكُرُ إذ نشأ بهرامٌ جور^(٥) وعاملُه على خَرَجِ الجوالي
وقد مرّت بقرنٍ بعد قرن وآخرُ عهدِها لهلاك مالي
فأبدلني بها باربٌ طرفًا^(٦) بزين جمالٍ مشيتُه بجالي

وأشدها المهديّ ، قال : لقد أقلتَ من بلاءٍ عظيمٍ ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرًا أتوقع صاحبها أن يردّها . فقال المهديّ لصاحب دوابه : خيّرهُ بين مركبين في الإصطبل ، فقال : إن كان الاختيار إلى فقد وقعت في شرٍّ من البفلة ، وإن مره يخر لي ، ففعل .

وفي القصيدة ألفاظ من الغريب أبينها ، فمنها يقال : وأكلت الدابة وكالا : أساءت السير . ورحمت ترمح : ضربت برجلها . والمشش : داء في قوائمها . والجرد : استرخاء العصب ، والعقال : أن تنقبض القوائم ولا تنهض ، والخراط :

(١) يشير إلى النهر الذي حفره بلال بن أبي بردة بالبصرة .

(٢) القارح من ذى الحافر : الذي شق نابه وطلم .

(٣) كتاب البغال : « ونعمان فطيم » .

(٤) كتاب البغال : « وذو الأكتاف في الحجج الخوالي » .

(٥) بهرام جور ، من ملوك ساسان .

(٦) الطرف : القوس الجواد .

الجاح ، والكرن : حكمة وشقاق في القوائم ، وقد عرن عرنا ، وقص يقص ويقص : قصا وقصا : رفع يديه مما ، وطرحهما مما ، وعجن يديه ، وقطا يقطو : قارب الخطو .

وكان لأبي دلامة يرذون أعجف محطم هريم ، فدخل على المهدي يوما وبين يديه سلمة الوصيف ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني جلبتُ لهابك مهرأ ليس لأحدٍ مثله ، وأحببت أن أهديه لك ، فإن أحببت أن تُشرّفي بقبوله فأمر بإدخاله ، فخرج وأدخل برذونه ، فقال له المهدي : أي شيء هذا وبلك الم تزعم أنه مُهر ، فقال له أبو دلامة : أو ليس هذا سلمة الوصيف قائما بين يديك تسميه الوصيف وله ثمانون سنة ؟ فإن كان سلمة وصيفاً فهذا مُهر ، فجعل المهدي يضحك وسأله يشعه ، فقال له المهدي : وبلك إنا لهذه أخوات ، والله ليضعكن بك في الحافل . فقال : والله يا أمير المؤمنين لأنصحنه ، فليس في مواليك أحد إلا وقد وصلني غيره ، فاشربت الماء له قط . فحكم عليه المهدي أن يشتري نفسه بثلاثة آلاف درهم ، فقال له سلمة . هل ألا تماود ، فقال أبو دلامة : أفعل ، فحملها إليه .

ومما ينظم بهذا النمط أن محمد بن عبيد الله بن خاقان حمل أبا العيفاء على فرس ، فركب إلى أبيه : أعلم الأمير أعزه الله أن أبا محمد أراد أن يبرني فمقني ، وأن يركبني فأرجلي ، أمر لي بدابة تقف للنبرة ، وتمثر بالنبرة ، كالفضيب اللباس عبيفاء ، وكالمهجور البائس دنفاء ، قد أذكر الرواة عروة المذرى والجنون المامرى ، مباعداً أعلاه لأسفله ، حباقة مقرون بسماه ، فلو أمسك للرجبت ، ولو أفرد لتعزبت ، ولكنه يجمعها في الطريق الممور ، والجلس للشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منفرد ، يضحك من فله النسوان ، وينتاهي من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل

يقول : نَقَّ له الشعر ، قد حفظ الأخبار وروى الأشعار ، ولحق العلماء في الأمصار ، فلم أعين بنطق لروى بحق وصدق ، من جابر الجعفي وعامر الشعبي . ولم أوتَ من أمر الأمير أمره الله ، وإنما أُزيتُ من كاتبه الأعور ؛ الذي إذا اختار لنفسه أصاب وأكثر ، وإذا اختار لغيره أخبت وأنزr ، فإن رأى الأمير أن يبدلني وبريحي بمركوب بضحكى كما أضحك منى ، يحمر بحسنه وفراجه ، ما سطره العيب بقبحه ودنائه ، ولست أذكر سرجه وجامه ، لأن الأمير أكرم من أن يساب ما يهديه ، وينقص ما يمضيه . فوجهه إليه بيرذون بسرجه وجامه ، ثم اجتمع بابنه محمد عنده ، فقال له عبيد الله : شكوت دابة محمد ، وقد أخبرني أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار ، وهذا ثمنه لا يؤخر عنك ، فقال : أمر الله الوزير ! لو لم أكذب مستريدا ، لم أذهب مستفيدا ، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز : ﴿ أَنَا وَآوَدْتُهِ مِنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وقال ابن رشيقي في بغل :

أوصيكَ بالهفل شراً	فإنه ابن الحمار ^(١)
لا يصُحُّ الهفل إلا	لكدِّ والأسفار
كالعبدان لم تُهنه	جَفَى على الأحرار
ما اعماض بغلاً بطرف	إلا أخو إدبار ^(٢)

وله أيضاً فيه :

فأوصيكو بالهفل شراً فإنه	من العنبر في سوء الطباع قريب ^(٣)
وكيف يحمي الهفل يوماً بحاجه	تسرّ وفيه لعمار نصيب

(١) فله الميمى في التنف ٣٦ .

(٢) الطرف بالكسر : الفرس الجواد ؛ والياء دخلت على المتروك .

(٣) فله الميمى في التنف ٦ .

وله من قصيدة :

أَوْ بَفَلَةٍ سَفَوَاءَ تَعْرِضُ لِفَقِي فَتُخَالِ نَحْتِ السَّرَجِ أُمَّ غَزَالٍ^(١)
سَأَلْتُ إِلَى الْأُمِّ الدَّجَابَةِ مِنْ أَبِي وَزَهَتْ عَلَى الْأَحْمَامِ وَالْأُخْوَالِ
وَكُنْهَاقٌ قَدْ أَفْرِغَتْ فِي قَالِبٍ لَا أَنْهَاقٌ خُلِقَتْ عَلَى نِمْتَالِ
وله من قصيدة أيضاً :

كَأَنِّي بِمَضُ نُجُومِ السَّمَاءِ تَصْعَدُ فِي الْجَوِّ ثُمَّ انْخَدِرُ
عَلَى رَسَلَةٍ مِنْ هَيْبَاتِ الْمَلِكِ لِكِ سَفَوَاءٍ مَلُومَةٍ كَالْحَجَرِ
تَعَاوَنَ فِي جَدَلٍ أَعْضَانُهَا بَنُو أَخْدَرٍ وَبَنَاتُ الْأَفْرِ
ولحمد بن يسير^(٢) الخارحى في بئلة :

تَزَعَّتْ مِنْ الْخَلِيلِ الْعِثَاقُ نَجَاهَا مِنْهَا وَعِثَقَ سَوَالِفٍ وَلِبَاقٍ^(٣)
وَلَهَا مِنَ الْأَعْيَارِ عِنْدَ مَسِيرِهَا قِيَّةٌ^(٤) وَطُولُ صَبَارَةٍ وَمِرَانٍ
رجعنا إلى أخبار أبي دلالة .

يحكى أن المهديّ أو المنصور - أنشده ما أعجبه ، فكساه طيلساناً وأمر له
بمال ، وعاهدته ألاّ يشرب الخمر ، فعلف له وخرج إلى بني داود بن عليّ
فضحكوا به . وقصّ عليهم خبره فسقوه حتى أسكروه وأخرجوه ، فأعلم
المهديّ الخبر ، فأرسل فيه ، وأمر الرسول بسجته وتخريق ساجه ، وألاّ يمكن

(١) نقله في المتن ٦٣ .

(٢) ط : « بشر » تحريف ، وهو محمد بن يسير ، عامر ظريف من المهديين . وله ترجمة في
العمر والشراء ٨٧٩ - ٨٨٠ والأغانى ١٢ : ١٣٩ - ١٣١ .

(٣) القول في البغال ٧٥ من مقطوعة طلب فيها من عويس بن عمران بئلة لرحله . وفيه :
« فجاهدا » .

(٤) القول في البغال « جد » ، وفيه « قال ذلك لأن حافر الأمير أوقف الحوافر » .

حين قرطاس ولا مداد ، ففعل به الرسول ذلك ، فأنقذه في جوف الليل فنأدى
جاريته فقال له السجّان: طمّنة في كبديك فقال له : ويلك ! مَنْ أنت ، وأين أنا ؟
فقال له : سَلْ نفسك أين كنت عشاء أمس ؟ فاستحلفه مَنْ أنت؟ فقال :
أنا السّجّان ، بعث بك أمير المؤمنين وأنت سَكْران ، فأمرني أن أحبسك مع
الدجاج ، فقال : أحبّ أن تُسَرِّج لي سراجا ، وتأتيني بدواة وقرطاس ، ولك
عندى صِلَة ، فقال له . أما السّراج فنعم ، وأما القرطاس والدواة ، فقد أمرت ألاّ
أمكنك منهما . فلما أتاه بالسّراج وجد ساجه مخرّفا مطلقا بإزال الدجاج ،
ورأى نفسه جالسا بينهما ، فقال له : ادع لي ابني دلامة ، فدعاه ، فأمره أن يجيّد
حلاقة رأسه ، وأن يأتيه بفخمة ، ففعل ، فكتب على رأس ابنه :

أَمِنْ صِهَاءٍ صَافِيَةٍ لِلزَّجْرِ	كَانَ شُعَاعَهَا لَهْبُ السَّرَاجِ ^(١)
تَهَشَّنَ لَهَا الْقُلُوبُ وَتَشْتَبِهَا	إِذَا بَرَزَتْ تَرْتَفِقُ فِي الزُّجَاجِ
أَقَادَ إِلَى السَّجُونِ بَغِيرِ جُرْمٍ	كَأَنِّي بَعْضُ عَمَالِ الْخِرَاجِ
وَلَوْ مَعَهُمْ حَبَسْتُ لَكَانَ خَيْرًا	وَلَكِنِّي حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ ^(٢)
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَدَنِكَ نَفْسِي	فَقِيمَ حَبْسَتِي وَخَرَقْتَ سَاجِي
عَلَى أُنَى وَإِنْ لَاقَيْتُ شَرًّا	تَلْجِئُكَ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ رَاحِي

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذه أمانة ، فإذا قرأتها فزق الرقعة . ثم أمر دلامة
أن يدخل على أمير المؤمنين ويقرئه ما في رأسه ، فأتى الباب وصاح : دموع

(١) وبعده في الأغاني :

وَقَدْ طُبِخَتْ بِنَارِ اللَّهِ حَقِّي لَقَدْ صَارَتْ مِنَ النُّطْفِ الْفُضَاجِ

(٢) بعده في الأغاني :

وَقَدْ كَانَتْ تَخْبِرُنِي ذُنُوبِي بِأَنِّي مِنْ عِقَابِكَ غَيْرُ نَاجِي

الظلم ، فعلم أمير المؤمنين بمكانه فأمر بإدخاله ، فكشف رأسه ، وقال : إن غلامتي
مكتوبة في رأسي ، فأذني منه حتى قرأها فاشتدّ ضحكك ، وعجب من حياته
وأمر بإخراجه ، وقال : ما كان أحوج هذه الرقعة أن تمزق ، ثم وصله بصلته ،
ونهاه أن يوجد سكران^(١) .

وخرج المهدي يتصيد ومعه علي بن سليمان ، فسنح له قطيع من الظباء ، فأرسلت
الكلاب وأجريت الخيل ، فرمى المهدي سهماً فصرع ظبياً ، ورمى علي بن
سليمان سهماً فصرع كلباً ، فقال أبو دلالة :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ ظَبِيًّا شَقَّ بِالسَّهْمِ فُؤَادَهُ

وَعَلَى بْنِ سُلَيْمَانَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ

فَهَبْنِيئًا لَهَا كُلُّ أَمْرٍ بِأَكْلِ زَادِهِ

فضحك المهدي حتى كاد يسقط .

ومن ملحه ، أنه دخل على المهدي ، وعنده وجوه بني هاشم ، فقال : أنا
أعطى الله عهداً لئن لم تهبْ واحداً ممن في البيت لأقطعن لسانك ، فنظر إلى
القوم ، فكلمنا نظر إلى واحد غمزه بأن عليه رضاه ، قال : فملت أُنَى وقعتُ ،
وأنها عزمة من عزماته لا بدّ منها ، فلم أر أدعى إلى السلامة من هجاء
نفسى ، فقلت :

أَلَا أُبْلِغُ لَدَيْكَ أبا دُلَامَةَ فَلَيْسَ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا كِرَامَتِهِ

إِذَا لَبِسَ الْعِمَامَةَ كَانَ قَرْدًا وَخَنْزِيرًا يَكُونُ بِلا عِمَامَتِهِ

جَعَلَ دِمَامَةً وَجَعَلَ لَوْماً كَذَلِكَ الْقَوْمُ تَقِيهِمُ الدِّمَامَةَ

فَإِنْ تَكُ قَدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنْيَا فَلَا تَفْرَحْ قَدْ دَنَتْ الْقِيَامَةُ

(١) الخبر في الاغانى ١٠ : ٢٥٢ مع اختلاف في رواية الخبر والعمير .

فضحكوا ، ولم يبق أحد إلا أجازَه^(١) .

وخرجت^(٢) له صبيّة فأخذها على كتفه ، فبالت عليه فرمى بها ، وقال :

بَلَّلتِ على - لاحت - ثوبِي فبَالَ عليك شيطان رجيمُ
فما ولدتك مريمُ أم عيسى ولا زبأك لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد نضمتُك أم سوء إلى لبائِها وأبٍ لثيمُ

ولما خرجت الخيزران إلى الحج تلقاها ، فصاح : الله الله في أمري ! فسأله عن أمره فقال : إني شيخ كبير ، وأجرك في عظيم ، تهبين لي جارية تونسي وترفق بي ، وتربحني من عبوز عندي ، قد أكلت رِفدي ، وأطالت كدّي ، وقد عزف^(٣) جلدًا جلدي ، وتمنيت بُعْدَها ، ونشوقت قَعْدَها ، فوعده بها ، فلما جاءت من الحج دخل على أم عُبَيْدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رقعة ، فدفعتها إلى الخيزران وفيها :

(١) الخبر في الأغاني ١٠ : ٢٥٨ .

(٢) الخبر في الأغاني ١٠ : ٢٤٠ : « دخل أبو عطاء السندي يوما إلى أبي دلامة ، فاحتبسه عنده ، ودعا بطعام فأكلوا وشبعا ، وخرجت إلى أبي دلامة صبيّة فعلمها على كتفه ، فبالت عليه ، فنبذها عن كتفه ، ثم قال : بللت على ... البيتين ، ثم التفت إلى أبي عطاء ، فقال له : أجز ، فقال :

صدقت أبا دُلَامَةَ لم تلدها مطهرةٌ ولا فحلٌّ كريمُ
ولكن قد حوَّستها أم سوء إلى لبائِها وأبٍ لثيمُ

فقال له أبو دلامة : عليك لعنة الله ! ما حلك من أن بلغت بي هذا كله ! واه لا أنازلك بيت شعر أبدا . فقال أبو عطاء : لأن يكونك الحرب من جهتك أحب إلي .

(٣) الأغاني : « عاف » .

وفيها :

أبْلِغِي سَيِّدَتِي إِنَّ شَتَّ لَأُمِّ عَبِيدَةٍ
أَنهَا أَرْشَدَهَا اللَّهُ وَإِنْ كَانَتْ رَشِيدَةً
وَعَدْتَنِي قَبْلَ أَنْ تَحْزُرُ جَ لَلْحَيِّ وَرَبِّدَةٍ
إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَيْسَ فِي يَدَيَّ قَبِيدَةٍ
غَيْرَ عَجْفَاءٍ مَجُوزٍ سَاقِيَا مِثْلَ الْقَبِيدَةِ
وَجْهَهَا أَقْبَحَ مِنْ حَوْ ثِي طَرِيٍّ فِي عَصِيدَةٍ
مَا حَيَاتِي - مَعَ أَتْنِي مِثْلَ عَرْمَى - بِحَمِيدَةٍ (١)

فضحكت واستعادت « حوتاً في عصيدة » وهي تضعك ، ثم قالت لجارية :
خذي ما عندك في قصري وامشي إليه . فلما بلغها الرسول منزله لم يجدته ،
فدفنها إلى امرأته ، ودخل دُلَامَةٌ وأمة تبكي ، فسألها فأخبرته وقالت : إن أردتَ
يرتئ يوماً من الدهر ، فالיום . قال لها : قولي ما شئتِ أفعلهُ ، قالت : تدخل
إليها ، وتعلمها أنك مالكتها ، فتطوؤها فتحرّم عليه ، وإلا شغلته فجفاني وجفاك .
فقفل ، وجاء أبو دُلَامَةٍ فسألها عنها ، فقالت : هي في ذلك البيت ، فدخل ومدَّ
يده إليها ، وذهب ليقتلها ، فرأت شراً عظيماً فبيع الوجه ، فقالت : تنج
وإلا لطمتُك لطمَةً دَقَقْتُ بِهَا أَنْفَكَ . فقال : وبهذا أوصتُك سيدتك ؟
قالت : إنها بعثتني إلى فتى من صفته كذا وكذا ، وقد نال حاجته مني آنفاً .
فلم أنه دعاء من دُلَامَةٍ وأمة (٢) ، فخرج ولطمه وكتبه (٣) . وحلف ألا يفارقه
إلا إلى المهدي ، ففضى على تلك الحالة حتى دخل إلى المهدي ، فقال له : ما بالك

(١) الأغاني : « بسيدة » .

(٢) الأغاني : « فلم أنه دعوى من أم دُلَامَةٍ وابنها » .

(٣) ليبة : أخف بظليبه ، أي جم ثيابه عند صدر ونحره في المصومة ثم جره .

(٢٤) — شرح مقامات الحريري ج ١)

وَنَحَكَ اِفْقَالَ لَهُ : حَلَّ بِي هَذَا ابْنُ الْخَلْبِثَةِ مَا لَمْ يَعْمَلْهُ أَحَدٌ بَابِيهِ ، وَلَا يَرْضِيهِ إِلَّا أَنْ تَقْتُلَهُ ، وَأَخْبِرَهُ الْخَبِيرَ . فَضَحَكَ لِلْمَهْدِيِّ حَتَّى اسْتَطَاقَ ، وَأَبْرَدَ دِلَامَةً يَقُولُ : يَسْجُوكَ فَعَلَهُ ، فَضَحَكَ مِنْهُ ! قَالَ : عَلَى السَّيْفِ وَالْتَمَعَ ، قَالَ دِلَامَةً : اسْمِعْ حَبِيقِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا سَمِعْتَ حُجَّتَهُ ، قَالَ : هَاتِي ، قَالَ : هَذَا الشَّيْخُ أَصْفَقُ النَّاسَ وَجْهًا ، وَهُوَ بَيْنَكَ أُمِّي مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَمَا غَضِبْتَ ، وَنِكَتُ جَارِيَتَهُ سَرَةً وَاحِدَةً فَغَضِبَ . فَضَحَكَ الْمَهْدِيُّ أَشَدَّ مِنْ ضَحْكَه الْأَوَّلِ ، قَالَ : دَعِهَا لَهُ [يَا أَبَا^(١) دِلَامَةَ] ، وَأَنَا أَعْطِيكَ خَيْرًا مِنْهَا ، فَقَالَ : عَلَى أَنْ تَخْطَأَهَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَّا نَاكِهَا كَأَنَّكَ هَذِهِ ، وَحَلَفَ دِلَامَةً إِنْ عَادَ لِيَقْتُلَنَّهُ^(٢) .

وَجَاءَ دِلَامَةُ لِأَبِيهِ فِي مَحْفَلٍ ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِلْجَمَاعَةِ : إِنْ شَرَحْنِي كَأَنْتَرُونَ قَدْ كَبَّرَ سَنَتَهُ ، وَرَقَّ جِلْدُهُ وَدَقَّ عَظْمُهُ ، وَبَنَّا إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةً ، وَأَنَا لَا أَزَالُ أَشِيرُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ يَمْسُكُ رِمَقَهُ ، وَيَبْقَى قُوَّتُهُ ؛ فَيُخَالَفُنِي . وَأَرْغَبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَسْأَلُوهُ قَضَاءَ حَاجَةٍ فِيهَا صَلَاحٌ لِحَسَمِهِ ، فَقَالُوا : حُبًّا وَكِرَامَةً ، فَأَخَذُوا أَبَا دِلَامَةَ بِالْمَنْتَمِ ، فَقَالَ : قُولُوا لَهُ الْخَلْبِثُ فَلْيَقُلْ مَا يَرِيدُ ، فَسَتَعْمَلُونَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ إِلَّا بِهَيْلَةٍ . فَقَالَ : إِنَّمَا يَقْتُلُهُ كَثَرَةُ النَّيْكِ ، وَلَا يَدْفَعُهُ مِنْهُ إِلَّا الْخِلَاصُ ، فَتَعَاوَنُونِي عَلَيْهِ حَتَّى أَخْصِيَهُ ، فَضَحَكُوا مِنْهُ كَثِيرًا ، وَقَالُوا لِأَبِيهِ : قَدْ سَمِعْتَ فَمَا عِنْدَكَ ؟ فَقَالَ : قَدْ حَرَفْتُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِخَيْرٍ ، وَقَدْ جُمِلْتُ أُمِّي حَكَمًا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَقَوْمُوا إِلَيْهَا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهَا وَقَصَّوْا الْقِصَّةَ عَلَيْهَا ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَقَالَتْ : إِنْ أَبَى أَبِقَاءُ اللَّهِ ، قَدْ نَصَحَ أَبَاهُ وَبَرَّهَ ، وَأَنَا إِلَى بَقَاءِ أَبِيهِ أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَيْهِ ؛ إِلَّا أَنْ هَذَا الْأَمْرُ لَمْ يَقَعْ فِيهِ تَجَرِبَةٌ عَلَيْنَا ، وَلَا جَرَتْ بِهِ عَادَةٌ ، وَهُوَ قَدْ آدَمَى مَعْرِفَةَ ذَلِكَ ،

(١) مِنَ الْإِثْمَانِ .

(٢) الْخَبِيرُ فِي الْأَفْغَانِ : ١٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤

فلهبدا بنفسه فليخصبها، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أبقي عليه أثرأ محموداً، استعمله أبوه على علم، فحمل القوم بضحكون ويَعْجَبُونَ من اتفاقهم في الخُبث.

وأمره المهدي أن يلزم المسجد في رمضان، وقال له: إن تأخرت فلتشرب الخمر، ولئن علمتُ ذلك لأقتلَكَ، فشق عليه ذلك، وتشفع إليه بكل إنسان، فلم يشفعه، فأدخل إلى رِبطة رقعة - وكان المهدي لا يخالقها - وفيها:

أبلغنا رِبطة أني كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه الله وأوصى بي إليها^(١)
جاء شهرُ الصوم بشي مشية لا أشتيها
قائداً القلة ليذُر كائى أبقنيها
تنطح القِبلة شهراً جَبَنِي لا تأنليها^(٢)
فاطلبي لي فرجاً مِنْهَا وأجرى لك فيها

فضحكت، وقالت: بصبر حتى تمضي ليلة القَدَر، فقال: إذا مضت ليلة القَدَر ففي الشهر. وكعب إليها:

(١) بعده في الأغانى:

وأراها نَسَيْتَنِي مثل نِسْهان أخيها

(٢) بعده في الأغانى:

ولقد عِشْتُ زماناً في فَيَاقٍ وجيهاً
في ليلٍ من شتاء كفتُ شَيْخاً أصطليها
قاهداً أوقدُ ناراً لضبابٍ أشقويها
وصَبَّوحٍ وغَبُوقٍ في هِلابٍ أختسيها
ما أبالي ليلة القَدَر ولا تُسَمِّئُنيها

خَافِي إِيْلَهُكَ فِي نَفْسٍ قَدْ اخْتَضِرَتْ قَامَتْ قِيَامَتُهَا بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ
 مَالِيَةُ الْقَدَرِ مِنْ هَمِّي فَأُطْلِبَهَا إِيْ أَخَافُ الْمُنَايَا قَبْلَ هِشْرِينَا
 لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي خَيْرٍ أَوْ مُلَهُ فِي لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا قُنَا ثَلَاثَيْنَا
 بِأَلْوَةِ الْقَدَرِ قَدْ كَثُرَتْ أَرْجُلُنَا بِأَلْوَةِ الْقَدَرِ حَقًّا مَا تُدِينُنَا
 فَلَمَّا قَرَأْتَهَا ضَحِكْتَ ، وَدَخَلْتَ إِلَى الْمَهْدَى فَشَعْنَهَا^(١) فِيهِ . وَأَخْبَارُهُ كَثِيرَةٌ

• • •

وعلى قوله : جاء شهر الصوم قال أبو القاسم النعماني : أنشدني الفقيه
 أبو الحسن بن زرقون :

أَشْهَرَ الصَّوْمِ مَا مَثَلَكَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ شَهْرٍ
 عَلَى أَنَّكَ حَرَمْتَ عَلَيْنَا لَذَّةَ الشُّكْرِ
 وَقَرَعَ الْكَأْسَ بِالْكَأْسِ وَرَشَفَ الثَّنْفَرَ بِالثَّنْفَرِ
 وَإِنِّي وَالَّذِي شَرًّا فَ أَوْفَانَاكَ بِالذِّكْرِ
 وَمَا أُمْسَى بِعَدْلِي فِيكَ مِنْ شَفْعٍ وَمِنْ وَثْرِ
 لِمَسْرُورٍ بَأَن تَنْفَى عَلَى أَنَّكَ مِنْ مُعْزِي

وقال ابن المعتز :

تَجَلَّى عِشَاءُ هِلَالِ الصَّيَامِ بِنَحْسٍ عَلَى الْكَأْسِ وَالْبِرْبَطِ
 وَكَمْ مِنْ نَفَى رَاحَ بَيْنَ الْقِيَامِ نَ نَشْوَانِ ذَا فَرَحٍ مُفْرِطِ
 وَكَانَ نَشِوْطًا فَلَمَّا رَأَى هَمْ بِهِمْ وَلَمْ يَنْشَطِ
 فَأَعْرَضَ عَنْهُ كَمَا أَعْرَضَتْ فِتَاةٌ عَنِ الْجَانِبِ الْأَشْمَطِ

وقال ابن رشيقي :

لَا حَ لِي حَاجِبِ الْمَلَائِكَةِ عِشَاءً فَفَتَيْتُ أَنْبِيَّ مِنْ سَحَابٍ^(١)
فَلْتِ أَهْلًا وَلَيْسَ أَهْلًا لِمَا قُلْتُ وَلَكِنْ أَسْمَعُهَا أَحْبَابِي
مُظْهِرُ حُبِّهِ وَهَنْدَى بُنْفَضٍ لِمَدْوَةِ الْكَؤُوسِ وَالْأَكْوَابِ

الحقيقة : الضربة ، والحلقة جماعة الناس ، وربما تؤدي فضيحتها أمام القوم
إلى أن يموت صاحبها غمًا ، وقد وجد ذلك .

• • •

[أفا كيه]

وحقيق أعرابي في جماعة فاستحميا ، فأشار نحو استمه ، وقال : إنها خلف
نظقت خلفًا .

وذكر الحريري أن مطيع بن إياس وبجعي بن زياد وحاد الراوية كانوا
يشربون ذات يوم ، وهم نديم لهم ، فبرزت منه قلعة ، فنجعل وغاب عنهم أيامًا ،
فكعب إليه مطيع :

أَمِنْ قُلُوبٍ غَدَتْ لَمْ يُوْذِهَا أَحَدٌ إِلَّا تَذَكَّرَهَا بِالزَّمَلِ أَوْ طَانَا
خَانَ الْعِقَالِ لَهَا قَانِبَتْ إِذْ كَفَّرَتْ وَإِنَّمَا الْقَنْبُ فِيهِ لِذِي خَانَا
أَخْطَرْتَ مِنْكَ لَنَا هُجْرًا وَمَعْبَةً وَغَبْتَ عَنَّا ثَلَاثًا لَسْتَ تَنْفُشَانَا
مَوْتَنَ عَلَيْكَ فَنَافِي النَّاسِ ذُو إِبِلٍ إِلَّا وَأَبْنَقَهُ بِشَرُّدَنَ أَحْمَانَا

دخل^(٢) أبو الفضل بديع الزمان على الصاحب بن عباد ، فخرج به ، وأجلسه معه
على سريره ، فحقيق البديع حقيقة منكورة ، ثم أراد أن يفتي عن فحشه الاتمة ،
قال : يا مولانا هذا صرير التفت ، قال له : بل صفه «التفت» ، فخرج البديع
خجلًا ، وانقطع عن الوصول إليه فكعب إليه الصاحب :

(١) نقله في التفت ١٢

(٢) يلمية الدمع ٣ : ١٨٨

قل للصغيرى لا تذهب على خجلٍ من ضرطةٍ أشبهت نايًا على عود^(١)
فأيها الريح لا تطيع تدفقها إذ لست أنت سليمان بن داود
تزوج أعرابي امرأة ، فلما دخل عليها عابثها ، فضرطت ، فخرجت غضبي
إلى أهلها ، وقالت : والله لا أرجع إليه أو يفعل ما فعلت ، قال لها : عودى لأفعل ،
فعاثها فضرطت أخرى ، فقال :

طالبتي دينا قديما فلم أذنك حتى زدت في قرضك
فلا تلومينى على مظهره إن كان ذا دأبك لم أقضك
قيل لأعرابي : ما تقول فى الضرطة ؟ فقال : لا بأس بها ، وربما سببت
الضرطة وأنا راكع فى الصلاة .

قدم أبو علقمة الأزدي على الفضل بن عبد الرحمن الماشمي بالبصرة ، فقال
الفضل لجلسائه : إذا جلسنا على المائدة وأبو علقمة معنا فليضرط أحدكم ثم الآخر
ثم الآخر ، وليسكن بين كل ضرطتين فرجة ، فلما وضعت المائدة فعلوا ذلك ،
فاخذ أبو علقمة المائدة ، وقام بها ، فقبل له : إلى أين يا أبا علقمة ؟ قال : إلى
السكينف ، فمن أراد منكم أن يخرأ كان قريبا .

وجلس فقيل إلى بشار ، فضرط بشار ضرطة منكرة ، فظن الرجل أنها فلكة ،
ففسى فى حديثه ، فضرط بشار ثانية وثالثة ، فقال له : ما هذا يا أبا معاذ ؟ قال :
رأيت أو سمعت ؟ قال : بل سمعت ، قال : كل ما سمعت ربح لا تصدق حتى ترمى .

قوله : حقّه ، أى وعاء الطّيب ، ويقال له : حق والجمع حقاق ، وتهدل عامقا
من قافه كفا ، والروائح العطيرة مضرّة بهذه الهوام المنفلة ، وقد قال المتنبي :
بذى الفباوة من إنشادها ضررٌ تضرّ كما تضرّ رياح الورد بالجمل^(٢)

(١) ينيمة الدهر :

يابن الخضيرى لا تذهب على خجلٍ لحادث منك مثل الناي والعود

(٢) ديوانه ٣ : ٤٠

قوله منك ، أى حسبك .

[ترجمة الحسن البصرى]

وأما الحسن فهو أبو سعيد بن أبي الحسن البصرى ، وهو من التابعين . وله بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وأمه اسمها خيرة ، وكانت مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت تُعطيها ثديها إذا اشغلت أمه ، فدرتديها له بالبن ، فأظهر الله تعالى بركة ذلك اللبن عليه . وأبوه مولى لامرأة من الأنصار ، وقول إن أبويه كانا مملوكين لرجل من بني النجّار ، فنزوح امرأة في بنى سلمة من الأنصار ، فساقهما إليها من مهرها فأعتقتهما ، وكان أحسن الناس انظافاً وأبلغهم وعظماً ، وكان زاهداً عالمًا مقدماً في العلم والدين على نظرائه من التابعين .

وكان الحجاج له معظماً ومتمجّباً من فصاحته ، ولم ينفك من مجلس وعظ أو تدريس علم ، إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وقال أبو عمرو بن العلاء : مارأيت قطاً أوعظَ ولا أفصحَ من الحسن البصرى .

وقال أبو أيوب السختماني : ماسمع أحد كلام الحسن البصرى إلا نُقل عليه كلام الرجال .

قال حميد : قال لى الشعبي ونحن بمكة : أحب أن اختلي بالحسن ، فقلت : ذلك لا حسن ، فقال : إذا شاء ، فجاء الشعبي ، فقلت له : ادخل عليه ، فإنه فى البيت وحده ، فقال : أحب أن تدخل معي ، فدخلنا فإذا الحسنُ قبالة القبلة يقول : يا بن آدم ، لم تكن فكُوت ، وسألت فأعطيت ، وسئلت فنفعت ، فبئس ما صنعت ! ثم يذهب فيرجع بعيد ذلك حتى أعادها مراراً ، فقال لى الشعبي : يا هذا انصرف فإن الشيخ فى غدر ما نحن فيه .

ولما دخل على الحجاج فقال له : ما تقول في علي وعثمان ؟ قال : أقول فيها ما قال مَنْ هو خيرٌ مني بين يدي مَنْ هو شرٌّ منك ، قال : وَمَنْ ذلك ؟ قال : موسى وفرعون حيث قال له فرعون : ﴿ فَأْتِ بِآيَاتِكَ الْفُتُونِ الْأُولَى ﴾ : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ^(١) .

الشمعي قال : قدمنا على الحجاج في البصرة في جماعة من قراء الشام والعراق في يوم صائف شديد الحر ، وهو في آخر ثلاثة أبيات ، فدخلنا الأول فإذا فيه الثلج والماء قد أرسل فيه ، وفي الثاني أكثر وفي الثالث أكثر ، والحجاج قاعد على سريره وعنبسة بن سعيد إلى جانبه ، فجلسنا على الكرامى ، ودخل الحسن آخر مَنْ دَخَلَ ، فقال الحجاج : مرحباً بأبي سعيد ! اخلع قميصك ، فجعل الحسن يسالج زر التميم فأبطأ به ، فطأ طأ له الحجاج رأسه تلطفاً به حتى حله ، وجاءت جاريةٌ بدُهْنٍ فوضعت على رأس الحسن وحده ، فقال له الحجاج : يا أبا سعيد ، مالى أراك منهوك الجسم ، لعل ذلك من قلة نفقة وسوء ولاية ! ألا تأمر لك بنفقة توسّع بها على نفسك ، وخادم لطيف ! فقال : إني من الله تعالى إني سعة ونعمة وإني منه لفي عافية ، ولكن السكبر والحر ، فأقبل الحجاج على عنبسة ، وقال : لا والله ، بل العلم بالله والزهد فيما نحن فيه ، فلم يسمعها الحسن ، وسمعها أنا فقرأني من سنن عنبسة ، وجعل الحجاج يسأله حتى ذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال منه وقلنا منه مرضاة له ، وفرقاً من شره ، والحسن حاضراً على إبهامه ، فقال له : مالى أراك ساكناً ؟ فقال : وما عسى أن أقول : فقال : أخيراً أبرأك في أبي تراب ، قال : إني سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ لِيْمَنَ بِقَلْبِهِ عَلَى عَقَبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ^(٢) ﴾ فعلى من هدى الله ، ومن أهل الإيمان وابن متهى الله صلى الله

عليه وسلم وختنه على بنه ، أحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات سهت له من الله عز وجل ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها . فتغير وجه الحجاج وقام مضطرباً عن سريرته ، ودخل بيتاً خلفه . وخرجنا وأخذت بيد الحسن ، قلت : يا أبا سعيد ، أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، فقال : إليك عني يا عامر ، ألت شيطاناً من الشياطين إذ تواقفه في رأيه ! الأصدقت إذ سئلت أو سككت فسلمت اقللت : قلتها والله ، وأنا أعلم بما فيها ، قال الحسن : فذلك أعظم في الحجة عليك ، وأشد في التهمة . ثم خرجت إلى الحسن التحف والطرف ، وكانت له للنزلة واستخف بنا وجفانا ، فكان أهلاً لما أتى إليه ، وكنا أهلاً لما أتى إلينا ، فارأيت مثل الحسن بين العلماء إلا مثل الفرس العربي فيما بين القاريف ، وما شهدنا بدم شهداً إلا برز علينا بغضه ، وقال لله ، وقلنا موافقة للولاء ، وكان يقول : جدّدوا هذه الأنفس فإنها سريمة الدثور ، واقدّعوها فإنها طامحة وإنسكم إن لم تقدّعوها تنزع بكم إلى شر غاية .

وقال لطرف بن عبد الله بن الشخير : عظ أصحابك ، فقال له : إني أخاف أن أقول مالا أفضل ، فقال له : يرحمك الله ، وأينما يقول ما يفعل أيود الشيطان أنه ظفر بهذه منكم ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن مفسد .

ونظر إلى الناس في مصلى البصرة يضحكون ويلمعون في يوم عيد ، فقال : إن الله تعالى جعل الصوم مضماراً لعبيده ، ليستبقوا إلى طامته ، ولتمتري لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسيء بإساءته عن تجديد ثوب أو ترجيل شعر .

ومات في سنة عشرة ومائتة وتسعون. وتقدم موت ابن سيرين بمائة يوم،
ومات في رجب ليلة الجمعة .

وقال عبد الواحد بن زيد : رأيت ليلة مات الحسن في النوم أبواب السماء
كأنها مفتحة ، وكان لللائكة صفوف ، فقلت : إن هذا لأمر عظيم ، فقال لي
قائل : ألا إن الحسن البصري قدِم على الله وهو عنه راض !

وسمع بعض أصحابه في منامه ليلة مات كأن منادياً ينادي في السماء : (إن الله
اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ، واصطفى الحسن
البصري على أهل زمانه .

[ترجمة الشعبي]

والشعبيّ ، اسمه عامر بن عبد الله بن شراحيل بن عبيد بن ذى كهار الشعبيّ
من شعب همدان ، وكنيته أبو عمرو ، منسوب إلى شعبان بن عمرو ، وهو من
رحيم ، فمن كان منهم باليمن فهو حميريّ ، ويقال له شعبانيّ ، ومن كان بالعراق
فهو همدانيّ ، ويقال له شعبيّ . وولد لست سنين من خلافة عمر رضي الله عنه .
سمع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن والحسين وجماعة من الصعابة
رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو كوفيّ ، وبه يُضرب النثل في الحفظ ، فيقال :
أحفظ من الشعبيّ .

وقال الزهريّ : العلماء أربعة : سميد بن السائب بالمدينة ، وعامر الشعبيّ
بالكوفة ، والحسن البصريّ بالبصرة ، ومكحول بالشام .

وقال ابن شُبْرُمة : سمعت الشعبيّ يقول : ما كعبتُ سوداء في بيضاء إلى

يومى هذا ، ولا حدثنى رجل قط بحديث إلا حفظته ، ولا أحببت أن يميده على .
وقال الشعبي لأصحابه : ما أروى شيئاً أقل من الشعر ، ولو شئت لأشدنكم
شهر الأعياد .

وكان الشعبي فقيهاً عالماً حافظاً أدبياً ، وقال : لولا ما زوجت فى الرحم
ما قامت لأحد معي قائمة .

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابث إلى رجلا يصلح للدين والدنيا ،
أخذته سميراً وجليسا ، فبعث إليه بالشعبي ، فلما دخل عليه وجده مغتماً ، فقال :
ما بال أمير المؤمنين ؟ قال ذكرت قول زهير ^(١) :

كأنى وقد جاوزتُ سمعين حجةً خلعتُ بها عني عذار الجاهلي
رمتني بناتُ الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرني وليس برام
فلو أننى أرزى بنبل رموتها ^(٢) ولكنى أرزى بنير سهامى
على راحتين تارة وعلى المصا أنود ثلاثاً بعدهن قهامى ^(٣)

فقال له الشعبي : ليس كذلك ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة :

كأنى وقد جاوزت سمعين حجةً خلعت بها عن منكبي ردائها ^(٤)
فلما بلغ سبماً وسبعين ، قال :

(١) الأغانى « أصبحت كما قال عمرو بن قيس » .

(٢) الأغانى « فلو أنها نبلى إذا لا تقيتها »

(٣) موضعه فى الأغانى :

وأهلكنى تأميلُ يوم وليلةٍ وتأميلُ عامٍ بعد ذلك وعامٍ

(٤) ملحق ديوان لبيد ٣٦١

بَأَنْتِ تَشْكِي إِلَى الْمَوْتِ جُبْهَةً ^(١) وقد حَلَلْتُكِ سَبْعًا بَعْدَ سَبْعِينَ
 فَإِنْ تَرَاخَتْ ثَلَاثًا تَهْلِي أَمَلًا ^(٢) وفي الثَّلَاثِ وَفَالَا لثَمَانِينَ
 فَلَمَّا بَلَغَ التَّسْمِينَ ، قَالَ :
 وَلَقَدْ سَنَنْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وسؤال هَذِي النَّاسُ كَيْفَ لِبَيْدٍ ^(٣)
 وَغَنَيْتُ سَبَقًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسِي لو كَانَ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودٌ
 فَلَمَّا بَلَغَ عَشْرِينَ وَمِائَةً ، قَالَ :
 أَلَيْسَ وَرَأَيْتُ إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي لزومُ لَمَعَا تُحَنِّي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ ^(٤)
 أَخْبَرَ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَنُوهُ كَأَنِّي كَلَّمَا قَتُ رَاكِعٌ ^(٥)
 فَلَمَّا بَلَغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةً حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، قَالَ :
 نَعْنِي ابْتِغَايَ أَنْ يَبِيشَ أَبُوهُمَا وهل أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ ^(٦)
 قَوْمًا فَقُولَا بِالَّذِي أَنَا أَمْرُهُ وَلَا نَحْمِشًا خَدًّا وَلَا تَخْلِفًا شَعْرُ
 وَقُولَا هُوَ الْمَرءُ الَّذِي لَا صَدِيقَهُ أَضَاعَ وَلَا خَانَ التَّحْلِيلَ وَلَا غَدْرُ
 إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكَا وَمَنْ يَهْكَ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ

(١) الأغانى :

• قَامَتْ تَشْكِي إِلَى الْمَوْتِ جُبْهَةً •

(٢) الأغانى « فَإِنْ تَرَاخَتْ ثَلَاثًا » .

(٤) ديوانه ١٧١

(٣) ديوانه ٣٠

(٥) الديوان :

• أَدَبُ كَأَنَّهُ كَلَّمَا قَتُ رَاكِعٌ •

(٦) ديوانه ٢١٣ ، وَبَعْدَهُ فِي الدِّيَّوَانِ :

وَنَاخَتَانِ تَنْدُبَانِ بِعَاقِلٍ أَخَانَتَهُ لَا عَيْنَ مِنْهُ وَلَا أَثَرُ
 وَفِي أَبِي نَزَارَ أَسْوَدٌ إِنْ جَزَعْتُمَا وَإِنْ تَسْأَلَامُ تُغَيِّرُافِيَهُمُ الْخَبَرُ
 وَفِيْنِ سَوَامٍ مِنْ مَلُوكٍ وَسُوقَةٍ دَعَامُ عَرَشِ خَانَةِ الدَّهْرِ فَاغْمَرُ

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعا أن يعيشها^(١).
وقال الحريري في الدرّة: حدثني أحد شبوخي أن ليل الأخيّة كانت
تسكلم بلغة بهزاء، فتكسر عرف المضارعة، فتقول: «أنت تنعم» فاستأذنت يوما
على عبد الملك بن مروان وبخضرتة الشعبي، فقال: أناذن لي يا أمير المؤمنين
في التّصّ منها؟ فقال: افعل، فلما استقرّ بها المجلس قال لها الشعبي: يا بليّ،
ما بال قومك لا يكتنون! فقالت: ويحك أما نكتني - بكسر النون - فقال: لا والله
ولو فعلت لا غتسلت، فتجملت عند ذلك، واستغرق عبد الملك في الضحك.

الأصمعي: وجّه عبد الملك الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمور، فاستكبر
الشعبي، فقال له: من أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا، فلما أراد الرجوع إلى
عبد الملك حمله رقعة لطيفة، وقال له: إذا بلغت صاحبك جميع ما يحتاج إلى معرفته
من ناحيتنا فادفع إليه هذه الرقعة، فلما رجع إلى عبد الملك ذكر له ما احتاج إلى
ذكره، ونهض. فلما خرج ذكر الرقعة، فرجع فقال: يا أمير المؤمنين إنه حمّلي
إليك رقعة أنسيها، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك، وأمر برده فقال:
أعلمت ما في الرقعة؟ قال: لا، قال: فيها عجبت من العرب كيف ملكت غير
هذا! أفندري لم كتب إلي بهذا؟ قال: لا، قال: حسدي عليك، فأراد أن يُفري بي
بقتلك، فقال الشعبي: لوراك يا أمير المؤمنين ما استكبرني. فبلغ ذلك ملك الروم،
فذكر عبد الملك وقال: لله أبوه! والله ما أدوت إلا ذلك.

وكان الشعبي خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج، فلما هزم
عبد الرحمن أتى به موثقا مع الأسرى، وكان حكم الحجاج فيهم: من أقر أنه
كافر أبقاه، ومن أقر أنه مسلم قتله. قال: فلما جئت باب القصر لقيتني يزيد
ابن مسلم كاتبه، فقال: إنا لله يا شعبي، لسا بين دفتيك من العلم! وليس

بيوم شفاعة، قلت له: وما المخرج؟ فقال بؤ للأمر بالشرك والفساق، وبالحرى أن تدجو، فلما دخلت على الحجاج قال لى: وأنت يا شعبي ممن حرج علينا! قلت: أصلح الله الأمير! أخزن بنا المنزل، وأجذب بنا الجفاب، واستخلصنا الخوف، وضاق الملك، وخطبتنا^(١) فتنة، لم نكن فيها بررة أولياء، ولا فجرة أقوياء، قال: لله أبوك! لقد صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا، ولا قويتم. خلوا سبيلكم.

وكلم ابن هبيرة في قوم حبسهم، فقال: إن كنت حبستهم بباطل، فالحق يظلمهم، وإن كنت حبستهم بحق، فالعفو يسهمهم.

ودخل عليه رجل من النواكبي، وهو جالس مع امرأة، قال: أبشركا للشعبي؟ فقال له: هذا، فقال: ما تقول أصلحك الله في رجل شتمني في أول يوم من رمضان هل يؤجر؟ فقال له الشعبي: أما إن كان قال لك: يا أحمق، فأرجو له الأجر.

وسأله آخر، فقال: ما تقول في رجل أدخل إصبه في أنفه في الصلاة، فخرج عليها دم، أترى له أن يجتمع؟ فقال: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه إلى الحجامة. وسأله آخر: كيف كانت تسمى امرأة إبليس؟ قال ذلك نكاح لم نشهده. ودخل الحتام فرأى داود الأودي بلا مئزر، فتمض عينيه، فقال له داود: متى سميت بأبا عمرو؟ فقال: مذمتك الله سترك. ومات في سنة أربع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة.

[ذكر الخليل بن أحمد]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي، ينسب إلى فراهيد بن مالك بن قثم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدي، ويقال: اليعمدي. واليعمد بطن من الأزدي.

وكان الخليل من أزهّد الناس وأعلام نفسا ، وأشدّهم تعفّفاً ، ولقد كان الملوك يقصّدونه ويعترّفون إلهه لئمال منهم ، فلم يفعل ، وكان يعيش من بُستان له خلقه عليه والده ، وكان ينزو سنة وبمّج أخرى ، حتى جاءه الموت .

محمد بن حمّيد ، قال : تزوّجت إلى جبران الخليل ، فنزلت عليهم ، فكنت أسمع قرآن الخليل طول الليل ، فقالوا لي : ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى ، وإنه لمضرب عتافى غزيرٍ وَحَجّ فتعوحش إليه ، وقالوا : لا يجوز الصراط بعد الأنبياء والصّحابة أدقّ ذهنًا من الخليل . وكانت تلك الفضيلة فيه ببركة اسم أبيه ، لأنه أوّل من تسمّى بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أبو عاصم : دخلت عليه قبل وفاته بأيام ، فقال : والله ما فلت قطّ فعلا أخاف على نفسي منه وكان لي فضل فكر ، صرفته إلى جهةٍ وِدِدْتُ أنى كفت صرفته إلى غيرها . وما علمت أنى كذبت متعمّداً قطّ ، وأرجو أن يغفر الله لي العاوّل .

واجتمع أدباء من كلّ أفق ، فجعل أهل بلد يرفعون علماءهم ، ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلا قال : الخليل أذكى العرب ، وهو مفقاح العلوم ومصرّتها .

المنضر : ما رأى الرايون مثل الخليل ، ولا رأى الخليل مثل نفسه . وكان أشمّت الرأس ، شاحب اللون ، قشّف المهمة ، متخرق الثياب ، متقلّع القدمين ، مغموراً في الناس لا يُعرف .

محمد بن الفضل : كان بالبصرة رجل يعطى دواء لظلمة البصر ، فينتفع به الناس ، فمات فأصرّ ذلك بمن كان يستعمله ، فدُكر للخليل فقال : أه نسخة ؟ فقالوا : لم نجد ما ، قال : فهل كان له آنية بعمله فيها ؟ قالوا : نعم ، إناء يجمع فيه أخلاطاً ، قال : فجيثوني به ، فجعل يتشتمّه ، ويخرج نوعاً نوعاً حتى

أخرج خمسة عشر نوعاً ، ثم سأل من جمعها ومقاديرها فعرفه مَنْ كان يعالج مثله فعله ، وأعطاه الناس ، فانتقموا به مثل تلك المنفعة . ثم وجدت النسخة في كُتُب الرجل ، فإذا فيها ستة عشر خُطاً ، فلم يغفل إلا عن خلط واحد .

وكتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية ، فخلاً به شهراً حتى فهمه ، فقيل له في ذلك ، قال : قلت : لا بد أن يفتح الكتاب باسم الله تعالى وما أشبهه ، فهنيت أول الحروف على ذلك حتى انقاست لي .

الأنضر بن شميل . جاء رجل من حلقة يونس ، فسأل الخليل عن شيء ، فأطرق يفكر ، فقالوا له : ما هذا مما يحتاج إلى فكر يفكر فيه ؟ فقال لهم : فما الجواب عنكم ؟ قالوا : كذا ، قال : فإنه يزيدكم في الجواب كذا ، قالوا : يقول كذا ، يقول : كذا ، فانقطعوا ، فقال : ما أجبت بجواب قط إلا وأنا أعرف آخر ما على فيه .

وكان يخرج من منزله فلم يشعر إلا وهو في الصحراء ، ولم يردّها لشغله بالفكر .

وقال الأنضر : سمعت الخليل يقول : الأيام ثلاثة : فمهود وهو أمس ، ومشهود وهو اليوم ، وموهود وهو غد .

وقال الخليل : إذا نسخ الكتاب ثلاث نسخ ولم يعارض به تحوّل بالفارسية .

ورأى مع رجل دِقْراً وفيه خط دقيق ، فقال لصاحبه : أيسّت يا هذا من طول عمرك !

وقال : إن لم تعلم الناس ثوباً فمأثمهم لدرس بتعليمهم علمك ، ولا تجزع من تفرع السؤال ، فإنه يذهبك على علم ما لم تعلم .

وقال : أكثر من العلم لفهم ، واختر قليلاً منه لتحفظ .

وكان يقول : إذا خرجتُ من منزلي لقوتِ أحدِ ثلاثة ، إما رجلاً أعلم بشيء مني ، فذلك يوم فائدة ، أو مثل فذلك يوم مذاكرة ، أو دوني فذلك يوم ثواب .

وقال : من الناس مَنْ يدرى ويذرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتبعوه ، ومنهم مَنْ لا يدرى ولا يذرى أنه لا يذرى ، فذلك جاهل فاحذروه ، ومنهم مَنْ يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك ضالٌّ فأرشدوه .

وكان يقول : إذا أردت أن تعلم خطأ معلمك من صوابه فجالس غيره . وقال : أنا أول مَنْ سُمِّي الأوعية ظروفاً ؛ لأنها جُمِلت ظرفاً للأدب والنظافة . وقال : أدركت بعض ما أنا فيه بأطراح الحشمة بيني وبين المعلمين ، وَمَنْ رَقَّ وجهه في طلب العلم رَقَّ علمه .

وقال : إذا أخطأ بحضرتك مَنْ تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا ترد عليه خطأه ، فذلك إذا نبهته على خطئه أسرعت إفادته ، واكتسبت مداوته .

وقال : اجمل ما تكسب بيت مال ، وما في صدرك للنفقة .

وقال : العلوم أقوال والسؤالات مفاتيحها .

وقال : الناس في سبعين ما لم يتأزحوا .

وقال : الرجل بلا صديق ، كاليمين بلا شمال .

وقيل له : إن استفساد الصديق أهونُ من استصلاح العدو ، قال : نعم ، كما أن تخريب الثوب أهونُ من نسجه .

وقيل له : ما الجود ؟ قال : بذل الجهود ، قيل له : فما الزهد ؟ قال : ألا تطلب الفقد ، حتى تفقد الوجود .

وقال : الدنيا أمد ، والآخرة أبد .

وقال : حسب امرئٍ من الشرِّ أن يرى في نفسه فساداً لا يصلحه ، ومن علم بفساد نفسه علم بصلاحها ، وأقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلام عنه .

وقال : الدنيا أصدقاء معجورة وأشياء معبينة ، وأقارب متباعدة ، وأبعد متقاربة .

وقال : ثلاثة أشياء أنا أحبها لنفسى ولئن أحبَّ رُشدُه : أحبُّ أن أكون بينى وبين ربى من أفضل عبادِه ، وأكون بينى وبين الخلقة من أوسطهم ، وأكون بينى وبين نفسى من شرِّهم . وقال عبد الله بن داود : لو كتب شيء بالذهب لكتب هذا .

ونظر في فقه لأبى حنيفة ، فقيل له : كيف ترى؟ فقال : أرى جدًّا وطريق جدًّا ، ونحن في هزل وطريق هزل .

وقال عبد الله بن داود : لقد نال الناس بالخليل وعلمه الرغائب ، وإنه ليهن أخصاص البصرة ، يزهد فيما يُرغب فيه .

وقال : ثلاثٌ يُنسين المصائب : مرَّ العيال ، والمرأة الحسناء ، ومحادثة الرجال .

التنصر : سمعت الخليل يقول : للتواضع إضاعة ، والحزم بضاعة ، والإنصاف راحة ، والججاج وكأفة .

وكان له غلام كثير الخلاف عليه ، فقال له يوما : قُمْ ، فقال : لا أقوم ، فقال : أقم ، فقال : لا أقم ، قال : فأنى شيء تصنع ؟ قال : لا أصنع شيئاً . ويشبه هذا قول الشاعر في امرأته :

سَكَتُ قَالَتْ لَمْ سَكَتَ مِنَ الْحَقِّ وَقُلْتُ قَالَتْ: مَا دَعَاكَ إِلَى التَّنَطُّقِ^(١)
 فَأَوَّمَاتُ هَلْ مِنْ حَالَةٍ بَيْنَ ذَاوَدَا قَالَتْ وَذَا الْإِيْمَاءُ أَيْضًا مِنَ الْحَقِّ
 ظَمُّ أَرَأَيْتَ إِذْ حَلَّتِ الْغَرْبَ رَاحَةً مِنَ الشَّرِّ إِلَّا فِي الْهَرُوبِ إِلَى الشَّرْقِ
 فَلَمَّا أُنِيتَ الشَّرْقَ أَلْفَيْهَا بِهِ وَقَدْ قَمَدْتُ لِي مِنْهُ فِي ضَيْقِ الطَّرِيقِ

ولمّا أكثرنا من أخباره لأنها آداب ، وحكّم من اقتدى بها امعدى ،
 وما تركناه من أخباره أكثر ، وذكر الفجر والعروض مؤخر إلى المحسن إن
 شاء الله تعالى :

ولقدّمه في الدلم ضربت العمراء به النمل ، فمن ذلك قول أبي تمام يهجو
 هياش بن لهيعة :

وَلَوْ نَشَرَ الْخَلِيلُ لَهُ لَمَتُّ بِلَادَتُهُ عَلَى فِطْنِ الْخَلِيلِ^(٢)
 فَمَا أَدْرَى عَمَّا مِنْ رِشَادِي دَعَانِي أَمْ حَمَاكَ مِنَ الْجَمِيلِ
 وقال آخر :

يَا مَنْ يَزِيدُ تَمَقُّعًا وَتَبَاغُضًا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
 وَاللَّهِ لَوْ كَفَتِ الْخَلِيلَ لَمَا رَوَيْنَا عَنْكَ لَقْظَةً

وأنشد المبرد :

لَمْ تَدْرِ مَا عِلْمُ الْخَلِيلِ فَهَتَدِي بَيَانِ ذَاكَ وَلَا حَدُودَ الْمَقْدَانِ

وقال المعري :

إِذَا قِيلَ نُسُكٌ فَالْخَلِيلُ ابْنُ آزَرَ وَإِنْ قِيلَ فَهُمْ فَالْخَلِيلُ أَخُو الْقَهْمِ

ابن مزاحم الشاعر: كان الخليل صديقاً لي ، فدخلت عليه يوماً ؛ فقال : أجز .
رأيت غنى الإنسان نفساً زكوة

قلت :

• مُظْهِرَةٌ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ وَبَاطِلٍ •

قال :

• نَفِي عَاجِلِ الدُّنْيَا مَدِيحٌ وَرَفِيعَةٌ •

قلت :

• وَخَيْرٌ عَظِيمِ عَاجِلٍ بِمَدِّ أَجَلٍ •

قال : والله جئت بما في نفسي ، ثم قال :

كَأَنَّكَ كُفْتُ قَدْ خَامَرْتُ قَلْبِي جِئْتُ بِمَا شَفَقْتَ بِهِ الْغَلِيلَا
رَأَيْتَ بَرَاةَ الْإِيحَازِ أَشْفَى فَصَارَ كَثِيرُ غَيْرِكَ لِي قَلِيلَا

وله :

الْعِلْمُ يُذَكِّرُ عَقُولًا حِينَ يَصْحَبُهَا وَقَدْ يَزِيدُهَا طَوْلَ التَّجَارِبِ
وَذُو الْعَادُوبِ فِي الْجَهَالِ مَقْرَبٌ بَرَى وَبَسَمَعَ أَلْوَانَ الْقَمَاجِبِ

وكان صديق سليمان بن حبيب ، وأنشده الشعراء ، فشاغل عنهم سليمان ،
فذكروا ذلك لخليل فكتب إليه :

لَا تَقْبَلَنَّ الشُّعْرَ ثُمَّ تَفَقَّهُ وَتَنَامَ وَالشُّعْرَاءُ غَيْرُ نَهَامٍ
وَأَعْلَمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَنْصَفُوا حَكَمُوا لَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْحُكَّامِ
وَجَنَابَةِ الْجَنَانِ عَلَيْهِمْ تَنْقَضِي وَكُلُّهُمْ نَبِيٌّ عَلَى الْآيَامِ

[ذكر جرير]

وأما جرير فهو ابن عطية بن الخطاف . شاعر من نخول العرب ، واتفقت العلماء على أن أشعر الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وأكثروا على تفضيله عليهما . وسأذكر لك شيئا من غزله وهجوه ، نستدل به على منزلة شرفه في الشعر : ورأت أمه وهي حامل به كأنها ولدت جهلا من شعر أسود ، فلما سقط جمل ينزوي فيعنق في عنق هذا فيخفقه حتى فمل ذلك برجال كثيرة ، فأنجبت فائزة فأولت الرؤيا ، فقيل لها : تدين غلاما شاعرا ذا أسير وشدة وشكيلة وبلاء على الناس ، فلما ولدت سمته جريرا ، باسم الجبل الذي رآته ، فهاجاه ثمانون شاعرا ، فدلّهم .

وقال جرير : ما عشتُ ولو عشتُ لنسبت نسبها تسمه المجوز فبكي على حاقها من شبابها . قالوا : وأرق ما جاء في النسب قوله :

إنّ العميون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يجهن قتلانا^(١)
بصر من ذا اللب حتى لا حراك له ومن أضف خلق الله أركاناً
أنسهم مقلّة إنسانها غرق هل ما نرى تارك للعين إنسانا !

ومثل هذا أوجب على الحريري أن يذكر جريرا بالفضل ، وإلا فقد أخذ عليه في ذكر جرير بالفضل ، وإنما الذي اشتهر في زمانه بالفضل مثل عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل وقيس بن ذريح وأمثال هؤلاء ، وإنما اشتهر جرير بالدح والمجور ، ولا نطباعه قد جاء في شعره من الفضل الرقيق كثير ، وإن كان خكفنا إذ لم يشق . قال الجاحظ : كان الفرزدق مشهورا بالنساء ، ومع ذلك

(١) دأبوه ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، وفيه ، « في طرفها مرض »

فليس له بيت واحد في النسب ، وكان جرير عفيفاً لم يمشق امرأة قط ، ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً .

وسئل الفرزدق عنه فتنفس حتى كادت حيازيمه تنشق ، ثم قال : قاله الله !
 فما أحسن ناحيته وأشر دافيقه ، والله لو تركوه لأبكي الشابة على أحبائها ،
 والمجوز على شبابها ، ولكنهم هزؤوه فوجدوه عند الهراش ناعماً ، وعند
 الجراء قارحاً ، ولقد قال بيتاً ، لأن أكون قلته أحب إلي مما طلعت عليه
 الشمس ، وهو :

إذا غضبت عليك بنو نعيم حسبت الناس كلهم غضاباً^(١)

وقال مسعود بن بشر : قلت لابن مغاذر : من أشعر الناس ؟ قال : من
 إذا شئت جدّ ، وإذا شئت لعب ، وإذا شئت أطعمك لعبه ، وإذا رمقته بعد
 عليك ، وإذا جدّ فيها قصد له آيسك من نفسه . قلت : مثل من ؟ قال : مثل جرير
 إذ يقول حين لعب :

إن الذين غدّوا بلبتك غادروا وشلاً بيمينك لا يزال مَعِيها^(٢)

غِيضُنْ من عبراتهم وقلن لي ماذا لقيت من الهوى واقبنا !

ثم قال حين جدّ :

إن الذي حرّم السكارم تغلباً جعل الخلفاء والعبوة فيها^(٣)

مضرّ أبي وأبواللوك فهل لكم ؟ لاخزَرَ تَغْلِبَ من أبي كائينا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت قاذكم إلى قطيما

(٢) ديوانه ٧٨

(١) ديوانه ٧٨

(٣) ديوانه ٧٨ ، ٧٩

فلما بلغ عهد الملك هذا، قال : ما زاد ابن الراغة أن جعلني شُرطِيَّاهُ أَمَا إِنَّهُ
و قال : « لو شاء ساقكم » لَسَقُّهُمْ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ .

ونزل الفرزدق حين قدم على الأخوص فقال : ما تشتهي ؟ قال شواء وظلًّا
وغناء ، قال : ذلك لك ، ومضى به إلى قينة ففقتة :

أَلَا حَيَّ الدِّيارِ بَسْعَدَ إِنِّي أَحَبُّ لِحَبِّ فَاطِمَةَ الدِّيَّارِ^(١)

إِذَا مَاحِلَ أَهْلِكَ بِأَسْلَمِي بِدَارَةِ صَلَاحٍ شَحَطُوا مَزَارًا^(٢)

أَرَادَ الظَّالِمُونَ لِيَحْرُمُونِي فَهَاجُوا صَدْعَ قَلْبِي فَاصْطَفَارَا^(٣)

قال : ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز ! قال : أو تدرى لمن هذا ؟ قال :

هو لجرير يهجوكم ، قال : ويل لابن الراغة ! ما كان أحوجهم عَفَافَهُ إِلَى صَلَابةِ
شُعْرِي ، وأحوجني مع فسوق إلي رِقَّةِ شَعْرِهِ ، وفي الفرزدق منها :

وَكُنْتَ إِذَا نَزَلْتَ^(٤) بَدَارُ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِمُحْزِيَّةٍ وَتَرَكْتَ عَارَا

وقال جرير :

لَقَدْ طَالَ كَتَمَانِي أَمَامَ حَبِّهَا فَهَذَا أَوْانُ الْحَبِّ تَبْدُوشُوا كُلُّهُ^(٥)

وإني وإن لام العواذلُ مولعٌ بِحَبِّ الْقَضَائِمِ حُبٌّ مَنْ لَا يَزَالُهُ

وَلَا اسْقَرَ الْحَبُّ أَقْتَبِي الْمَصَا^(٦) وَمَاتَ الْهَوَى لَمَّا أَصْبَحَتْ مَقَاتِلُهُ

وَقُلْنَ تَزَوُّجٌ لَا يَكُنْ لَكَ حَاجَةٌ^(٧) وَقَلْبُكَ لَا تَشْفَلُ وَهُنَّ شَوَاغِلُهُ

(١) ديوانه ٢٨٠

(٢) الديوان : « المزمار »

(٣) الديوان : « ليجزوني » .

(٤) الديوان : « حلت » .

(٥) ديوانه ٤٧٨

(٦) الديوان :

• فَلَمَّا لَقِيَ الْحَيَّانَ الْقَيْتِ الْمَصَا •

(٧) الديوان :

• وَقُلْنَ تَزَوُّجٌ لَا تَكُنْ لَكَ ضَمِيمَةٌ •

وقال أيضاً :

يا أخت ناجيةً السلام عليكم
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
قبل الرحيل وقبل يوم المذل^(١)
يوم الفراق فلتُ مالم يفعل
وقال أيضاً :

بفسي من نجته هزير
ومن أمتي وأصيح لا أراه
على ومن زيارته ليام^(٢)
وبطرقني إذا جمع النيام
أذكر إذ نودعنا سلمتي
بفرع بشامة سقي البشام
وقال أيضاً :

لانسكفن إذا جئت تلومي
كان الخليط ثم الخليط فزابلوا
لا يلبث القرناه أن يفرقوا
لا يذهبن بفك الإكثار^(٣)
ولقد تهذل بالدار ديار
ومن هجوه في الرامي :

ففض الطرف إنك من نعيم
فلا كمها بلغت ولا كلاباً^(٤)
وعندما قال هذا البيت وثب قائماً حتى أصاب السقف رأسه ، وقال :
أخبرته والله وغصصته ، وقد تمت أخويه عليه ، والله لا يفلح بعدها ، وكان كما قال ،
ما أفلح بعدها هو ولا نعيم .

وقال في جندل بن الرامي :

أجندل ما تقول بنو نعيم
إذا ما الأيرق است أهلك غاباً^(٥)

(١) ديوانه ٤٤٣ :

(٢) ديوانه ٥١٢ .

(٣) ديوانه ٢٠١ .

(٤) ديوانه ٧٥ .

(٥) ديوانه ٧٥ .

يا أم ناجية السلام عليكم
قبل الزواح وقبل يوم المذل^(١)

وأنشد القصيدة والفرزدق واقف ، فلما بلغ إلي قوله :

• تَرَى بِرِصًا بِأَجْعٍ لِسَكْفِيهَا •

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطى منقته فقال :

• كَمْ نَفَقَ الْفَرَزْدَقُ حِينَ شَابَا • ^(١)

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهم أخزِه ، ولقد علت حين بدأ البيت
ألا يقول غهما ، ولكن طعتُ ألا نأتيه .

وقال في ابن لجا :

نَعَزْتُ نَيْمَ لِي عَمْدًا لِأَشْتِيهَا كَأَنَّمَرَّضَ لَأَسْتِ الْخَارَى الْحَجَرُ ^(٢)
بَاتِيَمَ تَتِيَمَ عَدَى لَا أَبَالِكُمُ لَا يَلْقَيْتُكُمْ فِي سَوْءٍ عَمُرُ

وقال يذكر أمه :

نَقُولُ وَالْعَبْدُ مَسْكِينُ يُزَحِّرُهَا وَقَدْ فِدَاكَ أَنْتَ الْفَاكِحُ الذِّكْرُ ^(٣)

وبينا جرير ينشد في زوجته :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَعَادَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَوُزْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ ^(٤)
كَأَنَّ إِذَا هَجَرَ الضَّجِيعُ فَرَاشَهَا ^(٥) كَتَمَ الْحَدِيثُ وَعَفَتْ الْأُمُرَارُ
لَا بَلَبْتُ الْقِرْنَاءُ أَنْ يَتَصَدَّعُوا لَوْلَا بِكَرٍّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ

إذ طلع الأحرص قطع إنشاده ، ورفع صوته ، يقول :

عَوَى الشَّعْرَاءُ بِمَضْمُونِ لَبِئْسَ عَلَى فَقَدْ أَصَابَهُمُ انْتِقَامُ ^(٦)

(٢) ديوانه ٢٨٣

(١) ديوانه ٦٩

(٤) ديوانه ١٩٩ ، ٧٠١

(٣) ديوانه ٢٨٦

(٥) الديوان : « هَجَرَ الْخَلِيلُ فَرَاشَهَا » .

(٦) ديوانه ٥١٣ ، الأغانى ٨ : ٦٥

إذا أرسلتُ صاعقة عليهم رأوا أخرى تحرق فاستداموا^(١)
فمضت^(٢) للسامع أو خصي^(٣) وآخر عظم هاتيه حطام

ثم عاد . فقيل : لم قلت هذا ؟ قال : إني نهيت الأحرص أن يمين الفرزدق
[على]^(٤) وإني والله يا بني عمرو بن عوف مانعوت من شاعر قط ، ولولا
حكم مانعوت منه .

الأصمعي : حدثني أبي قال : رأى رجل جريرا في اللثم ، فقال : ما فعل الله
بك ؟ قال : خفرتي ، قال : بماذا قال بتكبيره كبرت الله في الحرم . وهو ماء بالبادية -
قال : فما فعل أخوك الفرزدق ؟ قال : هبأت أهلكه قذف الحصنات .

قال الأصمعي : لم يدعه في الحياة ولا في المات ، وتوفي سنة أربع
عشرة ومائة .

• • •

[ذكر قس بن ساعدة الإيادي]

وأما قس بن ساعدة الإيادي ، فيضرب به المثل في الفصاحة والخطابة ،
فيقال : أبلغ من قس ، وهو أسقف نجران ، وهو من حكماء العرب ، وكان
مؤمناً بالله ومبشراً برسوله ، وهو أول من خطب متوكئاً على عصا ، وأول من
كعب : من فلان إلى فلان ، وفيه يقول الأحمسي :

وأفصح من قس وأجبري من الذي بذى العين من خفان أصبج خادرا^(٥)
ولما^(٦) قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألمهم من رجل

(١) استداموا ، أى اعتظروا .

(٢) مضت : مقطوع

(٣) من الأغاني

(٤) في معجم البلدان : خرجت من أمراء المدينة .

(٥) البيت ليس في ديوانه

(٦) الخبر في الأغاني ١٥ : ٢٤٦

كان فيهم نازلاً ، يقال له : قُسْ بن ساعدة الإيادي ، قالوا : هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيتُه بمكناظ يخطب على جبل له أوزق^(١) وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعُوا ، من عاثر مات ، ومن مات فات ، وكل ما هوات آت ، ليل موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبهر يور . أما بعد ، فإن في السماء ظهراً ، وإن في الأرض لظهراً ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كما هم فناموا . أقسم بالله قس قسماً حقاً ، فما حنث ولا أثم ، إن لله ديناً هو أرضى من ديننا ، هذا الذي نحن عليه ، ثم قال أبياتاً ما أحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد بارسول الله ، بأبي أنت وأمي ا قال : فأنشدنا ، قال : سمعته يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
أما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين عابر
أبقت أني لا عا له حيث صار أقوم صائر

وقال صاحب الأغاني^(١) فيه هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن أيدعان^(٢) بن النضير بن واثق بن الطمئان بن عبد مناة بن يقدم بن أفضى ابن دُعْمَى بن إياد .

وكان يقدر على قيصر زائراً فيكرمه ويمظّمه ، فقال له قيصر : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف للمرء عند حله ، قال : فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل

(١) الأوزق : الذي فيه سواد وبياض .

(١) الأغاني ١٠ : ٢٤٦ (٢) ط : « أرحان » ، والمثبت من الأغاني

المروءة ؟ قال : قلة رغبة المراء في إخلاف وعده ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضي به الحق .

ابن عباس رضى الله عنهما : وفد الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس ، وكان سيّدا في قومه ، معظما في عشيرته ، فأمن وآمن قومه ، فسرّ النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : يا جارود ، هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسّا ؟ قال : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا كنت من بينهم ، أفقر أثره ، وأطلع خبره ، كان قسّ سبطا من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ، ذا شبة حسنة ، عمّر سبعمائة سنة ، يتقفر الفقار ، ولا نيكته دار ، ولا يُقره قرار ، يتحسّى في تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس المسوح ويتبع السواح على منهاج المسيح ، لا يغير الزهانية ، مقرّاً بالوحداية ، تُضربُ بمكته الأمثال وتكشف به الأحوال ، وتنبه الأبدال ، أدرك رأس الحواريتين سمعان ، فهو أول من ناله^(١) من العرب وأعجب من تعبد في الحطب ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، وبابس ورطب ، وأجاج وعذب ، كأنّ أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالربّ الذي هو له : كيبفن السكباب أجله ، وليوفين كلّ عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواه أدّكارُ وليالٍ خلّاهنّ نهارُ
ونجوم يحتمها قمر الأيّس وشمس في كلّ يوم تدارُ
ضوءها يطمس العميون وإرما دُ شديد في الخاتين مشارُ
وغلام وأخطّ ورضيع كلهم في القراب يوماً يُزارُ
وقصور مشيدة حوت الخيـر وأخرى حوت فـهن قفارُ
وكثير ممّا تقصرُ عنه حدسة الناظر الذي لا يحارُ

(١) ناله ، أى تعبد .

وَالَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ نَفْسًا لَهَا هَدَىٰ وَاعْتَبَارُ
 قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلَى رِسَالِكَ يَجَارُودُ ، فَلَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ
 حِكَازٍ ، عَلَى جِلِّهِ أَوْزَقُ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ مُوْتَقٍ ، مَا أَظُنُّ أَحْفَظُهُ ، فَهَلْ
 فِيكُمْ بِامْتِشَرٍ لِلْهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مَنْ يَحْفَظُ لَنَا مِنْهُ شَيْئًا ؟ فَوُثِّبَ أَبُو بَكْرٍ قَائِمًا ،
 وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا أَحْفَظُهُ وَكُنْتُ حَاضِرًا بِمُكَازٍ حِينَ خُطِبَ فَأُطْنِبُ ،
 وَرَهَبٌ وَرَغَبٌ ، وَحَذَرٌ وَأَنْزَرٌ ، وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا ،
 وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا ، إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ
 آتٍ ، مَطْلَرٌ وَنَبَاتٌ ، وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ ، وَأَبَاءٌ وَأُمَهَاتٌ ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ ، وَيَجْمَعُ
 وَشَقَاتٌ ، وَأَيَّاتٌ بَعْدَ أَيَّاتٍ ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ ظُلُمْرًا ، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ كَيْمَرًا ، لَيْلٌ
 وَنَاحٍ ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَأَرْضٌ ذَاتُ رَتَاجٍ ، وَبَحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ ، مَا لِي أَرَى
 النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ أَرْضُ بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا ، أَمْ تَرَكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا ؟
 أَقَسَمُ قُسٌّ بِاللَّهِ قَسْمًا حَقًّا لَا آتَمَّا فِيهِ وَلَا حَاتَمًا ، إِنَّ اللَّهَ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَهِهِ مِنْ
 دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَنَبِيًّا قَدْ حَانَ حَيْثُهُ ، وَأُظْلِمَ كُمْ أَوَانُهُ وَأَدْرَكَكُمْ إِبَانَتُهُ ،
 فَطَوَى لِمَنْ آمَنَ بِهِ فَهْدَاهُ ، وَوَبَّلُ لِمَنْ خَالَفَهُ وَعَصَاهُ . ثُمَّ قَالَ : تَبَّاءُ لِلرَّبِّابِ الْغَفْلَةِ
 مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، وَالْقُرُونِ لِلْمَاضِيَةِ ! بِامْتِشَرٍ إِيَّادٍ ، أَيْنَ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ ، وَأَيْنَ
 لِلرَّبِيعِ وَالْعُمُودِ ، وَأَيْنَ الْفَرَاعَةِ الشَّدَادُ ؟ أَيْنَ مَنْ بَيَّ وَشَيْدٌ ، وَزَخْرَفٌ وَنَجْدٌ ،
 وَغَرَمٌ لِلْمَالِ وَالْوَلَدِ ! أَيْنَ مَنْ بَنَى وَطَنِي ، وَجَمَعَ فَأَوْعَى ، وَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَمَلِ .
 أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا ، وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ أَجَالًا ، طَحَنَتْهُمُ الثَّرَى بِكَذَلِكَ ،
 وَمَزَقَهُمْ بِطُلُولِهِ ، فَذَلِكَ عَظَامَتُهُمْ بِالِةِ ، وَيَبُوتُهُمْ خَاوِيَةً ، عَمَرَتْهَا الذُّنُوبُ الْعَاوِيَةُ .
 كَلَّا بَلْ هُوَ لِلْمَبُودِ ، لَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

فِي الْقَادِمِينَ الْأَوَّلِينَ . . . الْأَيَّاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ . قَالَ : ثُمَّ جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ ، وَقَامَ رَجُلٌ ذُو هَامَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَقَامَةً جَسِيمَةٍ ، فَقَالَ : يَا سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ ،
 وَصَفْرَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ قُسٍّ حَسْبًا ؛ أَشْرَفَ بِي جِلِّي عَلَى وَادٍ ،

وشجر من شجر عاد ، مُورقة مونة ، وقد تبدل أغصانها . قال : فدنوت منه ،
 فإذا بُقس في ظل شجرة ، بيده قضيب من أراك يفسكت به الأرض وهو
 يترنم ، ويقول :

يا ناعى لآلوت والمحدوفى جدثٍ عليهم من بقايا خزم خرقٍ
 دفعهم فإن لهم يوماً بطاحٍ بهم فهم إذا انقبهوا من نومهم فرقٍ
 حتى يمودوا بحالٍ غير حالهم خلفاً جديداً كما من قبلها خلّفوا
 منهم عرّة ومنهم فى ثيابهم منها الجديد ومنها المنهيجُ الخلقُ

قال : فدلوت منه ، وسلّمت عليه ، فردّ على السلام ، وإذا بهن خراة ،
 فى أرض خوارة ، ومسجد بين قبرين ، وأسد ين عظمين ، بلوذان به ، ويتمتعان
 بأنوابه ، فأراد أحدهما أن يسبق إلى الماء ، وتبعه الآخر يطلب الماء ، ففصر به قس
 بالقضيب ، وقال : ارجع نكلتك أمك ! حتى يشرب القى ورّد قبلك . فرجع
 ثم ورد بعده ، فقالت له : ما هذان القبران ؟ قال : هذان قبر أخوين لي كانا يعبدان
 الله ممي في هذا المكان ، لا يشركان بالله شيئاً ، فأدركما الموت فقبرتهما ،
 وهما أنا بين قبريهما ، حتى ألحق بهما . ثم نظر إلى السماء فتفرغت عنها بالدموع ،
 وانكبت عليهما ، وجعل يقول :

خَلِيلِي هَبَا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدُّكَ كَمَا لَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا^(١)
 أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانٍ مَفْرَدٍ وَمَا لِي فِيهَا مِنْ خَلِيلٍ سِوَاكَ
 مَقِيمٌ عَلَى قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحًا طَوَّلَ اللَّيَالِي أَوْ يُجِيبُ صَدَاكَ
 أَبْكُمَا طَوَّلَ الْحَيَاةِ وَمَا الْقَدَى يَرُدُّ عَلَى ذِي عَوَلَةٍ إِنْ بَكََاكَ
 كَانَكُمَا وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ غَايَةٍ بِرُوحِي فِي قَبْرَيْكُمَا قَدْ أَنَا كُمَا

أَمِنْ طُولِ نَوْمٍ لَا يَجِييانَ دَاعِيًا كَانَ الَّذِي يَسْقِي الْقَمَّارَ سَقًا كَمَا
ظَهَرَ جُمِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وَقَابَةً لَجِدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونِ فِدَا كَمَا
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « رَحِمَ اللَّهُ قُتَيْبًا ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَبَيْعَنَّهُ اللَّهُ
أُمَّةً وَحِدَةً » .

• • •
[ذكر عهد الحميد]

وأما عهد الحميد ، فهو ابن يحيى بن سعيد ، كاتب مروان بن محمد ، آخر ملوك
بن أمية ، وكتب أيضاً للمنصور . وقول إنه قتل مع مروان .
وكان رأساً في الكتابة ، ومقدماً في الفصاحة والخطابة ، بليغاً مرسلًا ، وقال
فيه ابن عبدبره : كتب عبد الحميد بن يحيى لعبد الملك بن مروان ، وكتب
لبليان بن عبد الملك ، وليزيد بن عبد الملك ، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بني أمية ؛
حتى انقضت دولتهم ^(١) .

وعبد الحميد أول مَنْ فَتَحَ أكام البلاغة ، وسهل طرقها ، وفك رقاب
الشعر ^(٢) .

وقال له مروان حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجبت أن تصبر مع عدوي ،
وتظهر الفدر بي ؛ فإن إصجابهم بأدائك يدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن
استطعت أن تنفخ في حماي ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمتي بعد وفاتي . فقال
له عبد الحميد : إن الذي أشرت به عليّ أنفعُ الأمرين لك ، وأقبحهما لي ، وما عندي
إلا الصبر حتى يفتح الله لي ولك ، أو أقتل معك . ثم قال :

أَمِيرُ وفاء ثم أظهرَ خَدْرَةً فمن لي بغيرِ يُوسُفَ النَّاسِ ظَاهِرُهُ ^(٣)

وعبد الحميد هو صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أول من أطلال الرسائل ، واستعمل التعميدات في فصول الكتب ، واستعملت بعده ، وهو القائل :
البلاغة تقرير المعنى في الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام .

ولم يزل الشعراء ومهّرة الكتبة يضربون ببلاغته وكتابته الأمثال في كتبهم وأشعارهم في القديم والحديث ، كفضل الصاحب وقرنائه ، مع طابع تمشيح ولفظ عذب ، وصلة نثر بنظم ، فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال أنا عبيد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ، وإن شاء قال : أنا سعيد .

وقيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

• • •

[ذكر أبي عمرو بن العلاء]

وأما أبو عمرو فهو ابن العلاء ابن عمار بن عبد الله بن الحصين بن الحارث ابن جَلْم بن خُزَيم بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم : واسمه وكنيته واحد في الأشهر .

الفنجدية : اختلف في اسمه على تسعة عشر قولاً ، فقيل : اسمه محمد أو حميد أو حاد أو عثمان أو سفيان أو غير ذلك ، وأصحها زَبَّان .

واختلف في مولده ، فقيل : ولد سنة خمس وسعين بمكة في أيام عبد الملك ابن مروان : وقيل : سنة سبعين .

أبو عبيدة : كان أبو عمرو أَسَمَّ طويلاً ضَرْبَ الديدان ، حادَ النظر ، مارأيت مثله قبله ولا بعده في فهمه ولا عليه ، وكان صاحب غريب ونحو وعلم ، وهو أحد الأئمة في القراءة ، وعنه أخذ يونس والأصمعي وأبو عبيدة . وفيه يقول الفرزدق :

ما زِلْتُ أَغْلِقُ أَبْوَابًا وَأَفْتَحُهَا حَقِّي أَنَيْتُ أَبَا عمرو بن عَمَّارٍ
وقال ابن مجاهد : كان أبو عمرو مقدِّمًا في عصره ، عالمًا بالقراءة ووجودها ،
قدوة في العلم باللغة ، إمام الناس في العربية .
وكان مع ذلك متمسكًا بالآثار ، ولا يكاد يخالف في اختياره ما جاء من
الأئمة قبله ، متواضعًا في علمه .

وقال أبو عبيدة : كان أبو عمرو أعلم الناس بالقرآن والعربية وأيام العرب
وأنسابها وشعرها ، وكانت دياره ملء بيت ، فأما نَسْكَ أحرقتها ، وجعل على
نفسه أن يحتم القرآن في كل ثلاث ليل ، فلما أسنَّ اختلط بالناس ، واحتاجوا
إليه فمَوَّلَ على حفظه ، فأُمِّلِيَ من حفظه كتب الناس ووقع عليه الإجماع .

روى الأصمعي عن أبي عمرو قال : كنتُ أسمر مع مسلم بن قتيبة الباهلي
وكان يعجبه الزوى على السين ، فأنشدني ليلة سبعين قصيدة على السين لستين شاعرًا ،
اسمهم عمرو .

الأصمعي : كان لأبي عمرو كل يوم من غلَّة داره فلسان : فلس يشتري
به كوزًا ، وفلس يشتري به ربحانًا ، يشرب في الكوز يومه ، ويشمُّ الربحان
يومه ، فإذا أمسى تصدَّق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفف الربحان وتدقه
في الأشنان .

الأصمعي : قال أبو عمرو : كنت في ضيعتي ، فاشدَّ عليَّ الحرُّ ، فسكنت
أدور في سِدْرٍ فيها نصف النهار ، فسمعت قائلًا يقول :

وإنَّ امرءًا دنياه أكبرُ همِّه لمستمسكٌ منها بجملٍ غرورٍ^(١)

(١) الخبر والبيت في طبقات النحويين والفنَّيين لأبي زيد ٣٣ .

(٢٦ - شرح مقامات الحريري ج ١)

قلت : إنسى أم جنى ؟ فإجابتي ، فنقشته في خاتمي ، فكان نقش خاتمه .

الأصمعي : كنت واقفاً بالمربد ، وإذا أنا بأبي عمرو ، فلما بصُر بي مال إليّ ، فقال : ماوقوفك هنا يا أصمعي ؟ قلت : إني أحب المربد وأكثُر الجلوس فيه ، فقال : الزم ، فإنه يشدّ النظر ويجلو البصر ، ويجمع بين ربيعة ومضر . ثم أردت الانصراف ، فقال : إلى أين يا أصمعي ؟ فقلت : إلى صديق لي ، فقال : إمّا لفائدة أو لعائدة أو لمائدة وإلا فلا . ثم قال لي : مالي أراك بلا عمامة ؟ قلت : لا عمامة لي ، فززع عمامته عن رأسه فدفعها إليّ ، فكبر ذلك عليّ ، فقال لي : إن لي بدلها إحدى عشرة عمامة ، ثم قال لي : ازم العمامة ، فإنها تشدّ اللامة ، وتحفظ الهامة ، وتزيد في القامة ، ثم استخرج من كُمّة كيساً فدفعه إليّ ثم قال : يا أصمعي ، لازم بخير مادمت تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، فإذا تركتم ذلك سلط الله عليكم أقواماً غلاظاً فظاظاً ، خبزكم على قدر معرفتكم .

وأما قراءته وإعرابه المذكوران في المقامة ، فإن شجاع بن نصر ، قال : قلت لأبي عمرو : كيف طلبت قراءة القرآن ؟ قال : لم أزل أطلب أن أقرأ كما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أنزل عليه ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : هرب أبي من الحجاج ، وأنا شابٌّ ، فقدمنا مكة ، فلقيت بها عدة من التابعين بمن قرأ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل مجاهد وسعيد ابن جبير ومطاء وغيرهم ، فقرأت عليهم القرآن ، وأخذت العربية عن العرب الذين سبقونا باللعن ، فهذه التي أخذت بها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشدّد يدك بها .

وقال : خرج أبي هاربا من الحجاج إلى اليمن ، فإنّا لندسير في الصحراء باليمن إذ لحقنا لاحقٌ يُنشد :

رُبَّمَا تَجْزَعُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَعَلِّ الْعِصَالِ^(١)

فقال له أبي : ما الخبر ؟ فقال : مات الحجاج ، فأنا بقوله : « فَرْجَةٌ » بفتح
خفاء أخذ سروراً مني بموت الحجاج ، فقال أبي : اصرف ركبنا إلى البصرة .

الفيجديوني : رأيت في بعض الفوائد أن الحجاج قال لأبي عمرو : ما وجه
قراءتك : ﴿ إِلَّا مَنْ اعْتَرَفَ غُرْفَةً ﴾ بفتح الغين ؟ فقال : أبلغني ربي ، فقال :
قد أبلغتك الفرات . وقال : قاتل الله ابن أم الحجاج ، أين لم تأتني بالجواب إلى
خمس عشرة يوماً لأقتلك ثم قلة ، ووكل به موكلين ، فخرج أبو عمرو يطوف
في أحياء العرب ، فلم يجد له حُجَّةً إلى يوم وعده ، فخره الموكلون به لئلا يجمعوه إلى
الحجاج ، فسمع راعياً ينشد : رُبَّمَا تَجْزَعُ النَّفُوسُ ... البيت ، فقال له أبو عمرو :
كيف تنشد هذا البيت : له فَرْجَةٌ أو فَرْجَةٌ ، فقال : فَرْجَةٌ وفَرْجَةٌ ، وكذلك كل
ما جاء على قَمْعَةٍ ، فلما فيه ثلاث لغات ، فقال له أبو عمرو : فما سبب إنشادك
هذا البيت في هذا الوقت ؟ فقال : إنا كنا خائفين من الحجاج ، وقد بلغنا نعيمه ،
قال : والله لا أدري أيهما كنت أشد فرحاً ، بوجودي الجواب والحجة لقولي
واختياري ، أم بموت الحجاج !

سفيان بن عيينة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت له :
يا رسول الله ، قد اختلفت على القراءات ، فبقراءة مَنْ تأمرني أن أقرأ ؟ قال :
بقراءة أبي عمرو بن العلاء .

وقال أبو العباس بن سُرَيْج : من أراد أن يتطَرَّفَ فعليه بمذهب الشافعي ،

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت ، وهو في اللسان ، (فرج) وذكر قبله :

• لَا نَضِيقُ فِي الْأُمُورِ فَقْدَ تُكْشَفُ غَمَاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِمَالٍ •

وقراءة أبي عمرو بن العلاء وشعر ابن المعتز ، فنهى له : قد عرفنا مذهب الشافعي
وقراءة أبي عمرو بن العلاء ، فأنشدنا من شعر ابن المعتز ما يوجب الظرف فأنشد :

كنت صباحي قري عين نصرت أمسي صريع بين
بين نفسي أصبت نفسي قاله بين وبين عيني

وكان يقول : إنما نحن فيمن مضى ، كبقل في أصول نخل طوال .

وقال أبو عمرو : ناظرت عمرو بن عبيد في الوعيد ، فقال : إن الله تعالى
لا يؤمننا بشيء فيخلفه ، فقلت له : يا أبا عثمان^(١) ، ليس لك علم بالافة ، إن خلف
الوعيد عند العرب ليس بخلف ، وأنشد :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لا يكذب إيمادي ويصدق موعدى^(٢)

وقال أبو عمرو : كنت رأسا والحسن حتى . وتوفي بالكوفة سنة أربع
وخمسين ومائة ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، وعلى قبره مكتوب « هذا أبو عمرو
ابن العلاء مولى بني حنيفة » .

وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بني حنيفة .

أبو عبيدة : دخل أبو عمرو على سابان بن عبد الملك ، فسأله عن شيء
فصدقه فيه ، فلم يمجبه ما قال ، فخرج أبو عمرو وهو يقول :

أنفت من القل عند اللوك وإن أكرموني وإن قربوا
إذا ماصدت لهم خفتهم ويرضون مني بأن يكذبوا

وقال أبو بكر بن مجاهد : رأيت أبا عمرو في المنام ، فقلت : ما فعل الله

(١) أبو عثمان كنية عمرو بن عبيد .

(٢) البيت كما في اللسان (وعد) لأمير بن الطفيل ، وروايته .

• الخلف إيمادي ومُنَجَزُ موعدى •

بك؟ فقال لي : دعني مما فعل الله بي ، مَنْ أقام ببنداد على السنة والجماعة ومات ، نُقل من جنة إلى جنة .



[ذكر مناقب الأصمعي]

وأما ابن قُريب ، فهو أبو سميء عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع ، وإلى أصمع هذا يُنسب . وأصمعُ خِذٌّ من بني قتيبة بن معن بن أعصر بن سميد بن قيس بن عيلان ، وبنو معن هُمُ بنو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان تزوجت معنًا فذُنب ولده إليها . والأصمع في اللغة الضامر الذي ليس بمنفتح ، ومنه الصَّوْمَةُ لضمرها ، وتذيق رأسها ، ومثله قولهم : جاء بريدة مصممة ؛ إذا رقعها وأخذ^(١) رأسها ، وسهم متصمغ : متطاع بالدم ، فانصمَّت قذذه^(٢) .

وكان الأصمعي حافظة عالة فطنًا عارفاً بأشعار العرب وأخبارها ، كثير الطول بالبوادى لاقتباس علومها وتلقى أخبارها ، فهو صاحب غرائب الأسماء ، وعجائب الأخبار ، وقدوة الفضلاء ، وقبلة الأدباء ، قد استولى على الغايات ، في حفظ اللغات ، وضبط العلوم الأدبيات ، صاحب دين معين ، وعقل رصين ، وكان خاصاً بالرشيد ، أخذاً لصلاته كثيراً ، وقد تقدّم في هذا الكتاب من الحكايات السندة إلى الأصمعي ، ما يدل على تبحره وحفظه .

ومن حكاياته عن أعرابه على ما أشار له الحريري هنا : حدث الأصمعي رحمه الله ، قال : أعرابي : حُسن التدبير مع الكفاف ، أ كفى من الكثير مع الإسراف .

الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : مَنْ كساه الحياء ثوبه ، أخفى على الناس عيبه .

(١) ط : أخذ .

(٢) القذذ : جمع قذذ ، وهي ريش السهم .

الأصمعيّ: قال أعرابيٌّ: من اقتصد في النقي والفقير ، فقد استعمل لناثبات الدهر .

قال : وقال أعرابيٌّ : عداوة الحكيم أقلّ عليك ضرراً من مودة الجاهل منهم .

قال : وقال أعرابيٌّ : أعجزُ الناس مَنْ تهر في طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ضيَّع مَنْ ظفر به منهم .

وقال : تزوج أعرابيٌّ إلى بعض الحاضرة ، فلما كان ليلة دخوله بها ، إذا هي أدماء مجدورة ، فخرج من البيت وهو ينشد ويقول :

زَوَّجْتَنِي أَدْمَاءَ مَجْدُورَةٍ كأنها من خَشَبِ الْبَيْتِ
قُبْهَةِ الْوَجْهِ لَهَا مَنْظَرٌ يَفْرُ مِنْهُ مَلَكُ الْمَوْتِ

قال : وجري بين أعرابيٍّ وبين امرأته كلام بالمربد ، فشقته ، فقال لها : اسكتي ، فوالله ما شعرك بوارد^(١) ، وما فوك ببارد ، ولا نديك بناهد ، ولا بطنك بوالد ، ولا الخير فوك بزائد ، ولا الشر فوك بواحد ، وما أنا لك بحامد ، ولا بعد موتك بواجد .

[مجلس للأصمعي عند الرشيد]

ونذكر بعد ذلك حكاياته المشهورة مع الرشيد ووزرائه ، ومحمل طولها لما احتوت عليه من غرائب الآداب ، وكان مجلس مذاكرة بين أفراد ، فأظهر كل رجل منهم أفضل ما يذكر .

حدث الأصمعيّ قال : استدعاني الرشيد في بعض الليالي ، وقد نصرمت قطعة من الليل ، فراءتني رسله ، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه ، وإذا في المجلس يحيي بن خالد وجمفر والفضل ، فلما لحظني الرشيد استدعاني ، فدنوت منه ،

فتبين ما لبستى من الوجل ، فقال لى : أيفرخ روعك ، فما أردناك إلا ما يراد
له مثلك ، فكشفت هبة إلى أن ثابت إلى نفسى بعد أن كادت تطير شهماً ،
فقال : إني نازعت هؤلاء القوم فى أشعر بيت قاله العرب فى التشبيه ، ولم يقع
إجماعنا على بيت ، فأردناك لفصل هذه القضية ، واجتماع عمرة الخطار^(١) فيها .
قلت : يا أمير المؤمنين ، إن التعمين على بيت واحد فى نوع واحد - قد وسعت
العرب فيه ، وجملته مقلداً لأفكارها ، ومستراحاً لخواطرها - لبعيد أن يقع
النص عليه ، ولكن أحسن الناس تشبيهاً امرؤ القيس فى قوله :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَحَابًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرَهَا الْمُتَغَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(٢)
وفى قوله :

كَانَ مَوْنُ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحَانَا الْجَزَعُ الَّذِى لَمْ يَنْقُبِ^(٣)
وفى قوله :

وَلَوْ مِنْ نَشَا غَيْرِهِ جَاءَنى وَجُرْحُ الْإِنِّ كَجِرْحِ الْوَدِ^(٤)
وفى قوله :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَيَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ^(٥)
فالفت إلى يحيى ، وقال : هذه واحدة ، قد نصرت على امرئ القيس أنه
أبدعهم تشبيهاً . قال يحيى : هـ لك يا أمير المؤمنين ، ثم قال لى الرشيد : فما أبدع
تشبيهاً عندك ؟ قلت : قوله يصف فرساً :

(١) الخطار : الرماننة

(٢) ديوانه ٣٨ ، والحشف : ردى التمر

(٣) ديوانه ٥٢ والجزع : الخرز

(٤) ديوانه ١٨٥

(٥) ديوانه ٣١

كَانَ تَشَوُّفَهُ بِالْفَحْمِ تَشَوُّفُ أَزْرَقِ ذِي مِخْلَبٍ^(١)
إِذَا قَرَعَتْهُ حَلَالٌ لَهُ تَقُولُ سَلَبْتُ وَلَمْ تَسْلُبِ

فَقَالَ : هَذَا حَسَنٌ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلُهُ :

فَرَحْنَا بِكَابْنِ الْمَاءِ يُجَنَّبُ وَسَطُنَا تَصُوبُ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي^(٢)

فَقَالَ جَمْفَرٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا هَذَا الْأَحْكَمُ ؟ قَالَ الرَّشِيدُ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ :
يَذْكُرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَقَعَ اخْتِفَاؤُهُ عَلَيْهِ ، وَنَذْكُرُ مَا اخْتَفَاؤُهُ ، وَيَكُونُ الْحَكْمُ
وَأَقْعًا بَعْدَ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَمْرَضْتُ ، فَاسْتَحْسَنُهَا - يَقَالُ : أَمْرَضُ الرَّجُلَ : إِذَا قَارَبَ
الْأَصْوَابَ - ثُمَّ قَالَ الرَّشِيدُ : بَلْ تَبْدَأُ يَا بَحِي ، فَقَالَ بِحِي : أَحْسَنُ النَّاسِ تَشْبِيهَا
الْإِنَابَةُ فِي قَوْلِهِ :

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا نَظَرَ السَّتِيمِ إِلَى وَجْهِ الْعُودِ^(٣)
وَفِي قَوْلِهِ :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُذَرِّكِي وَإِنْ خَلْتُ أَنْ الْمُنْقَايَ مِنْكَ وَاسِعُ^(٤)
وَفِي قَوْلِهِ :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مَوْثِيٍّ أَكَارُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّقْتِيلِ الْفَرْدِ^(٥)
فَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَمَّا تَشْبِيهِهُ مَرَضَ الطَّرَفِ فَحَسَنٌ ، إِلَّا أَنَّهُ مِجَنَّهُ بِذِكْرِهِ
الْمَلَّةَ ، وَتَشْبِيهِهُ الرَّاةَ بِاللَّيْلِ . وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ الرَّقَاقِ الْعَامِلِيِّ :
وَكُنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَائِمٍ^(٦)

(١) لم يرد هذان البيتان في ديوانه .

(٢) ديوانه ١٧٦ وفي ط : « بكأس الماء » ، تصحيف صوابه من الديوان .

(٣) ديوانه ٣٠ .

(٤) ديوانه ٥٥ .

(٥) ديوانه ١٨ .

(٦) الخلاصة ٥٢١ .

وَسَنَانُ أَفْصَدَهُ النَّمَامُ فَرَنْتُ فِي عَيْنِهِ سِنَةً وَابِسَ بِنَانِمْ
 وَأَمَّا تَشْبِيهِ الْإِدْرَاكِ بِالْأَيْلِ ، فَقَدْ تَسَاوَى الْإَيْلُ وَالنَّهَارُ فَمَا يَدْرُكُكَ ، وَإِنَّمَا
 كَانَ سَبِيلُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ قَسِيمٌ ، حَتَّى يَأْتِيَ بِمَعْنَى يَنْفَرِدُ بِهِ ، وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ :
 إِنَّ قَوْلَ الْحَمْرَى فِي هَذَا أَحْسَنُ ، لَوَجَدَ مَسَاغًا إِلَى ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ :
 فَلَوْ كُنْتُ بِالْعِنَقَاءِ أَوْ بِسِنَامِهَا خَلَلْتُكَ إِلَّا أَنْتَ تُصَدِّتُرَانِي
 وَأَمَّا قَوْلُهُ :

* طَاوَى الْعَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ *

فَالطَّرْمَاحُ أَحَقُّ بِهَذَا الْمَعْنَى ، لِأَنَّهُ أَخَذَهُ لِحُورْدِهِ وَزَادَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ النَّابِغَةُ
 اخْتَرَعَهُ ، وَقَوْلُ الطَّرْمَاحِ :

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ سَوْفَ عَلَى شَرَفٍ يُسَلِّ وَبُعْمَدُ

فَقَدْ جُمِعَ فِي هَذَا الْبَيْتِ اسْتِمَارَةُ لَطِيفَةٍ بِقَوْلِهِ : « وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ » وَتَشْبِيهِهُ
 اثْنَيْنِ بِقَوْلِهِ : « يَبْدُو وَتُضْمِرُ » « وَبُسَلَّ وَبُعْمَدُ » ، وَجُمِعَ حَسَنُ التَّقْسُومِ
 وَصَحَّةُ الْمَقَابِلَةِ .

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : فَاسْتَقْبَشَرَ الرَّشِيدَ وَبَرَقَتْ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ ، حَتَّى خَلَتْ بَرَقَا
 يُومِضُ مِنْهَا ، وَقَالَ لِيَجْعَلِي : فَضْلُكَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، فَانْتَفَعَ بِجَعِي ، فَكَانَ
 الرَّمَادُ ذَرًّا عَلَى وَجْهِهِ ، قَالَ الْفَضْلُ : لَا تَعْمَلْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى أَمَرَتْ مَا قَلَعَهُ
 بِسَمْعِهِ ، فَقَالَ : قُلْ ، قَالَ : أَحْسَنُ النَّاسِ تَشْبِيهَا طَرَفُهُ فِي قَوْلِهِ :

وَوَجْهُهُ كَانَ الشَّمْسُ أَلْقَتْ رِذَاءَهَا عَلَيْهِ نَقَى الْوَلْنُ لَمْ يَتَّخِذْ^(١)

(١) ديوانه ٣١٠ (ضمن مجموعة مختار الفعري الجاهلي) وفي ط : « يتجدد » نحوريف .

وفى قوله :

يشقُّ حَبَابُ الْمَاءِ حَبِزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ الْقَرَبُ الْمَقَابِلُ بِالْيَدِ^(١)
 قال : فقلت : هذا حَسَنٌ وَغَيْرُهُ أَحْسَنُ مِنْهُ ، قد شَرَكُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى جَمَاعَةٌ
 مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَبَعْدَ فُطْرَفَةِ صَاحِبِ وَاحِدَةٍ ، لَا يُقْطَعُ بِقَوْلِهِ مَعَ التَّجَوُّزِ ، وَإِنَّمَا
 يَمْدُ مِنْ أَصْحَابِ الْوَاحِدَةِ قَالَ : وَمَنْ أَصْحَابُ الْوَاحِدَةِ؟ قلت : الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ
 فى قوله :

أَذْنَنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبُّ تَاوِيْلُ مِنْهُ الشَّوَاءُ^(٢)
 والأسمر الجعفى فى قوله :

هَلْ دَانَ قَلْبِكَ مِنْ سُلَيْمَى فَأَشْعِنِى وَلَقَدْ عَنَيْتُ بِحَبِّهَا فِيمَا مَضَى^(٣)
 والأفوه الأودى فى قوله :

إِن تَرَى رَأْسَى فَيَوْهَ تَذَعْ وَشَوَانِى خَلَّةٌ فِيهَا دَوَارُ^(٤)

وعلاّمة فى قوله :

• طَعَابُكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَانِ طُرُوبُ^(٥) •

وسويد بن أبى كاهل فى قوله :

بَسَطْتُ رَابِعَةَ الْحَبْلِ لَنَا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا فَاتَّسَعَ^(٦)

(١) ديوانه ٣٠٩ .

(٢) مطلع المعلقة ٤٣٣ - بشرح ابن الأنبارى .

(٣) لم يرد فى مقصورته الأسمعية ٤٤ .

(٤) ديوانه ١١٠ (مجموعة الطرائف الأدبية)

(٥) مطلع قصيدته الباشة ٤١٨ (مختار الشعر الجاهلى) وبقيته :

• يَعْبِدُ الشَّبَابَ عَصَرَ هَانَ مَشُوبُ •

(٦) مطلع قصيدته المفضيلة ص ١٩١ .

ومعرو بن كلثوم في قوله :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبِرِينَا وَلَا تُنَبِّئِي خُورَ الْأَنْدَرِينَا^(١)

ومعرو بن معد يسكرب في قوله :

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ بُورَفَنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ^(٢)

فاستخفت الرشيد الأريحيّة ، وقال : ادنه ، فإنك جُحَيْش وحدك ، وزدت في هيبي نبلا ، فقال جعفر :

* ابْتُثْ قَلِيلًا بِدَرْكِ الْمُهْجَا سَحَلْ *

بمرض بأنه قد يجوز أن يدرك ما يحاوله ، فقال له الرشيد : فانتك والله السوابق ، وجئت سُكَيْنَا^(٣) . ذازوائد أربع ، قال : ورأيت الحميّة في وجهه ، فقال جعفر : على شريطة حملك . قال : أترأه يسع غيرك ويضيق عنك ؟ فقال جعفر : لست أنص على شاعر واحد أنه أحسن الناس في بيت تشبيهها ، ولكن قول امرئ القيس :

كَانَ غُلَامِي إِذَا عَلَا حَالَ مَتْنِهِ عَلَى ظَهْرِ بَارِي السَّمَاءِ مَحْتَقِي^(٤)

وقول عدي بن الرقاع :

يَقَامُ أَوْرَانُ مِنَ الْغُبَارِ مَلَاءَةً غَبْرَاءَ مَحْكَمَةٍ هُمَا نَسَجَاهَا^(٥)

تُطَوَّى إِذَا وَرَدَا مَسْكَانًا جَاسِمًا وَإِذَا السَّنَابِكُ أَسْهَلَتْ نَشْرَاهَا^(٦)

(١) مطلع المعلقة ٣٧١ - بشرح ابن الأنباري .

(٢) مطلع قصيدته الأصمعيّة ٦١ .

(٣) السكيت : ما يهيئ آخر الحلبة من الخيل .

(٤) ديوانه ١٧٣ .

(٥) أمالي المرتضى ١ : ١٠٣ ، ١٠٤ وفيه : « ملاة يضاء »

(٦) ط : « خاشعاً » وما أثبتته من أمالي المرتضى . والجاسي : الفليظ من الأرض . وأسهمت : صارت إلى سهولة الأرض . وفي الأمالي : « إذا وطئنا مكاناً » .

وقول النابغة :

بأنك شمسٌ والملكُ كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهم كوكبٌ^(١)
قال الأصمعي : قلت : هذا حسن كُله بارع ، وغيره أحسن منه ، وإنما يجب
أن يقع التعمين على ما اخترعه فائله فلم يُتعرّض له ، أو تعرّض له شاعر ، فوقع
دونه ، فأما قول امرئ القيس :

* على ظنّ بازي السّماء مخلق *

فن قول أبي دواد :

إذا شاء رأكبه ضمه كما ضمّ بازي السماء الجفاح^(٢)
وأما قول عدي :

* يَتَقَاوران من الفُبارِ ملاءة *

فمن قول الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما يتقاوران مُلادة الحُضِر^(٣)

وأول من نطق به جاهل من بني عقيل ، قال :

ألا يا ديار الحى بالبردانِ عَفَتْ حَجَجٌ بمدى لمن تمانى^(٤)
فلم يبق منها غير نؤي مهديم وغير أناف كالركي دِفانِ
وَأَنَارِهابٍ أوزق اللون سافرت به الرّيح والأمطار كل مكانِ

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ١٣ ، وفيه « إذا شاء فارسه » وفي ط : « الجفاحا »

(٣) ديوانها ٢٥٩ .

(٤) خزائن الأرب ٣ : ٢٧٦ ومعجم البلدان ٥ : ٣ ، وزهر الآداب ٩٢٦ ، وتلعب هذه
الآبيات إلى ابن مقبل ، كما تلعب لابن أحرر .

قَفَارٌ مَرَوْرَآةٌ يَحَارُّ بِهَا الْقَطَا وَيُضْحِي بِهَا الْجَبَابِ يَغْتَرِكَانُ^(١)
 بُشِيرَانِ مِنْ تَسْجِرِ الْغُبَارِ عَلَيْهِمَا قَمِيصَيْنِ أَسْمَالًا وَبِرْتَدِيَاتِ
 وَشَارِكِ هَدْيَا أَبُو النِّجَمِ، وَأُورِدَهُ فِي أَحْسَنِ لُفْظٍ ، قَالَ يَصِفُ غَيْرًا وَأَنَاثًا
 وَمَا أَتَاهُ مِنَ الْغُبَارِ بَعْدُ وَهِيَ :

أَلْقَى بِجَنْبِ الْقَمَاعِ مِنْ حِيَالِهَا مَرْبَا هَ وَانْشَامَ فِي مِرْبَالِهَا
 وَأَمَّا قَوْلُ النَّابِغَةِ :

• بَأَنَّكَ شَمْسُ وَالْمُلُوكِ كَوَاكِبُ •

فَقَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ شَاعِرٌ قَدِيمٌ مِنْ شُعْرَاءِ كَنْدَةَ يَمْدَحُ عَمْرُو بْنَ هَنْدٍ ، وَهُوَ
 أَحَقُّ بِهِ مِنَ النَّابِغَةِ ؛ إِذْ كَانَ أَبَا عُذْرَتِهِ ، فَقَالَ :

كَادَتْ تَمِيدُ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ إِذْ رَأَوْا لِعَمْرُو بْنِ هَنْدٍ غَضَبَةً وَهُوَ هَاتِبُ
 هَوَالِ الشَّمْسِ وَاقْتَرَبَتْ يَوْمَ سَمَدٍ فَأَفْضَلَتْ عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمُلُوكِ كَوَاكِبُ

قَالَ : فَكَأَنِّي وَافَقَهُ أَلْقَمْتُ جَعْفَرًا . فَاهْتَزَّ الرَّشِيدُ فَوْقَ مَرِيرِهِ ، وَكَادَ
 يَطِيرُ عُجْبًا وَطَرَبًا ، وَقَالَ : اللَّهُ ، اللَّهُ دَرَكٌ يَا أَصْمَعِي ، أَسْمِعِ الْآنَ مَا كَانَ وَقَعَ
 عَلَيْهِ اخْتِيَارِي ، فَقَالَ : لَيَقُلُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنَ اللَّهِ تَوْفِيقَهُ ، فَقَالَ : عَيَّنْتَ عَلَى
 ثَلَاثَةِ أَشْعَارٍ ، أَفَسَمِ بِاللَّهِ إِنِّي أَمْلِكُ السَّبْقَ بِأَحَدِهَا ، فَقَالَ يَحْيَى : خَفَضَ عَلَى هَيْئَتِكَ ،
 فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ ، ثُمَّ قَالَ الرَّشِيدُ : أَنْتَرَفِ يَا أَصْمَعِي نَشِيرًا
 أَفْخَرَ وَأَعْظَمَ فِي أَحَقِّ مَشَبِّهِ وَأَصْفَرَهُ فِي أَحْسَنِ مَعْرِضٍ ، مِنْ قَوْلِ عُنْتَرَةِ الْقَدَى
 لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ سَابِقٌ ، وَلَا نَازَعَهُ مَنَازِعٌ ، وَلَا طَمَعَ فِي مَجَارَاتِهِ طَامِعٌ ، حِينَ شَبَّهِ
 ذَبَابَ الرِّوَضِ الْعَازِبِ فِي قَوْلِهِ :

(١) المرواة : المغازة ، والجبابان ، مثنى جَاب ، وهو الحار الغليظ من حر الوحش .

وخلأ القبابُ بها فليس يبارح غردًا كفعل الشَّارب المترنِّم^(١)
هزجًا يحكّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ فَمَلَّ السُّكْبَ على الزناد الأجدم

ثم قال : يا أصمعي هذا من التشبيهات المعقّمة التي لا تنتج ، شبهت بالريح
المقيم التي لا تُنتج ثمرة ، ولا تلقح شجرة ، قلت : كذلك هو يا أمير المؤمنين ،
وبعبدك آليت ما سمعت قط أحدًا يصف شعرا بأحسن من هذه الصفة ،
ولا استطاع بلوغ هذه الغاية ، فقال : مهلا ، لا نمجل أنعرف أحسن من قول
الخطيئة يصف لغام ناقته ، أو نعلم أحدا قبله أو بعده شبه تشبيهه حوث يقول :

تَرَى بَيْنَ لَحْيَيْهَا إِذَا مَا رَعَتْ لُغَامًا كَنَسْجِ الْعَسْكَبُوتِ الْمَدَدِ^(٢)

قلت : والله ما علمتُ أحدًا تقدّمه إلى هذا التشبيه ، أو أشار إليه بعده
ولا قبله ، قال : أنعرف بيتًا أبدع وأوقع من تشبيه الشماخ لعنامل سقط ريشها ،
وبقي أثره في قوله :

كَأَنَّمَا مُنَنِّي أَقَاعَ مَا مَرَّطَ مِنَ الْعَفَاءِ بِلَيْدَيْهَا التَّالِهِ^(٣)

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، فالتفت إلى يحيى ، فقال : أوجب ،
فقال : وجب ، فقال : أأزبدك ؟ فقال : وأى خير لم يزدني منه أمير المؤمنين !
قال : وقول النابغة الجعدي :

رَمَى ضَرْعِ نَابٍ فَاسْتَهْلَ بَطْمَنَةً كَكَاشَةِ الْبُرْدِ الْبِائِي لِلْسَهْمِ^(٤)

(١) المعلقة ٣١٤ ، ٣١٥ - يشرح ابن الأباري .

(٢) ديوانه ٢٣ ، الترمذ : الصوت الضعيف . ولغام البعير زبده .

(٣) ديوانه ٢٧٨ ، أقاع : جمع قع ، وأصله القى على رأس الثمرة . ما مرط : ماتفت .

والعفاء : الريش .

(٤) ديوانه ١٤٣ . والناب : الناقة المسنة . والبرد السهم : المخطط .

تم التفت إلى الفضل ، فقال : أوجب؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال :
ذلك لأمر المؤمنين ، قال : قول الأعرابي :

به ضرب أنداد المطايا كأنه ملاعبٌ ولدانٍ تحطّ وتمضُخ

ثم التفت إلى جعفر ، فقال : أوجب؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال :
لأمر المؤمنين علوّ الرأي ، قال : قول عديّ بن الرقاع :^(١)

تَرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ لِمِرَّةٍ رَوْقَهُ قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاتِرِ مِدَادَهَا

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا بيت حسدٍ عدياً عليه جرير ، قال : وكيف
ذلك ؟ قلت : زعم أبو عمرو بن الملاء أن جريراً قال : لما ابتدأ عديّ ينشد :
• عَرَفَ الدِّبَارَ تَوَهُّمًا فَاعْتَادَهَا •^(٢)

فقلت في نفسي : ركب والله مركباً صعباً ، سيُبدع فيه ، فما زال يتخلص
من حَسَنٍ إلى حَسَنٍ ، إلى أن قال :

• تَرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ لِمِرَّةٍ رَوْقَهُ •

فرحمته ، وظننت أن مادته تقصُر به ، فلما قال :

• قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاتِرِ مِدَادَهَا •

حالت الرحمة حسداً ، فقال : لله أبوك يا أصمعي ؟ ثم أطرق ورفع رأسه ،
وقال : أتراك تهوّن في انحطاطك في هواي ؟ فقلت : كلا يا أمير المؤمنين ،
إنك لتجمل عن ذلك ، قال : انظر خساً ، قلت : قد نظرت ، قال : فالسَّبق لمن ؟
قلت : لأمر المؤمنين ، قال : فقد أسهتُ لك في العُشر والعُشر كثير ، ثم

رمى بطرفه إلى يحيى ، وقال : المال الساعة ، وأولى لك ! فإكان ساعة حتى
 حضرت البدر بينى وبينه ، ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع ،
 فأغار إلى خادم على رأسه ، كم هي ؟ فقال : ثلاثة آلاف ألف درهم ، فقال :
 دونك احتمل ثلاثين ألفاً إلى منزلك ، ونهض من مجلسه ، وأمر الخدم بمعاونتى
 على تحمله ، فكانت أسعد ليلة ابتسم فيها الصبح عن أحده بالفى .
 فهذه الحكاية تدلّك على تبحره فى علوم العربية وسعة حفظه .



نبح ابن الرمادى غنّة فى قوله : « وخلا الذباب » بقوله :
 وكأس كرى الإلف شغشغها به وعيشى من هذا الشراب المشغشغ
 إذا ما نربنا كأسنا صبّ فضلها على روضنا للمسح مع المتخلع
 وقال ابن الرومى :

وأذكى نسيمُ الروض ريعانَ ظله وغنى مغنى الطير فيه فرجما
 وكانت أهازيجُ الذباب هنا كم على شدّواتِ الطير صوتاً موقعا

وكان أبوه قريب بخلافه ، كان ندلاً خسيساً ، وكان عطاء الملك أنى
 بجماعة من البصرة إلى قريب فوجدوه ماتقاً بكساء ، نائماً للشمس ، فوكزه
 برجله ، وصاح به : قم يا قريب وبلك ! قال : ألقيت أحداً من أهل العلم قط
 أو من أهل الامة أو الفقهاء أو من الحدّثين ؟ قال : لا والله ، قال لمن حضر :
 اشهدوا على ما سمعتم ، لا يقول لكم غداً الأصمعى أو بعد غد : أنشدنى والدى
 أو حدّثنى ؛ ففضحه .



ومن حكاياته عن أبيه قال الأصمعي : حدثني أبي قال : أتني همدانك
ابن مروان برجل مع بعض من خرج عليه ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال :
يا أمة المؤمنين ، ما هذا جزائي منك ، قال : وما جزاؤك ؟ قال : والله ما خرجت
مع فلان إلا بالطير لك ، وذلك أني رجل مشنوم ، ما كنت مع رجل قط
إلا غلبت وهزمت ، وقد بان لك صحة ما ادعيت به ، وكنت عليك خيراً لك من
مائة ألف مملوك . فضحك منه وختل سبيله .

وكان للأصمعي ابن ظريف ، فقبل له يوماً : أين أبوك ؟ قال : في بيته
يكذب على الأعراب .

ومرض الأصمعي ففاده أبو ربيعة - وكان يحب أهل الأدب - فقال له :
أقرضني خمسة آلاف درهم ، فقبل ، وقال : أنشئني غير هذا ؟ قال : نعم ، فصاً
حسناً ، وسيفاً قاطعاً ، وبرذوناً حسناً وسرجاً محلياً ، فبعت بذلك إليه .

وكان إسحاق^(١) الموصلي يظمه ويقرأ عليه ، فدخل الأصمعي يوماً على
الفضل بن يحيى وإسحاق ينشده في صفة فرس :

كأنه في الجبل^(٢) وهو سائم مشتمل جاء من الختام
يسور بين السرج والجام سور القطامي إلى الختام^(٣)

قال الأصمعي : مات بقتيتها ، فقال له إسحاق : ألم تقل لي : ما بقي منها شيء ؟
فقال : ما بقي إلا عيونها . ثم أنشد بعد ذلك ثلاثين بيتاً ، فنضب إسحاق وعرف
الفضل قلة عسكره لمارفة ، وبخله بما عنده ، وأخذ يصف فضل أبي هبيرة
وزواجه ، وبذله لما عنده ، واشتاله على علوم العرب ، فأنفذ إليه الفضل مالا جليلة

(١) الخبر والعمر في الأخاق ٥ : ٣٥٢ (بيروت) مع تصرف واختصار .

(٢) الجبل لدابة ، كالثوب للانس .

(٣) يسور : يثب . والقطامي : الصقر .

واستقدمه من البصرة ، وسمى بالأصمى عند الرشيد ؛ حتى حط منزله . وقال
إسحاق يهجوهُ :

أليس من العجائب أن قرناً أصميصَ باعياً بسطيلٍ
وبزعم أنه قد كان يُفنى أما عمرو وبأسه الخليلُ
إذا ما قال : « قال أبي » عجبنا لما باني به ولما بقولُ
وجله عطاءُ الملك عاراً تزولُ الراسياتُ ولا يزولُ
قل لأبي ربيعة إذ عصاني وحاذ به عن القصدير السبيلُ
لقد ضاعت برودك فاحسبنا وضاع الفص والسيف الصبيلُ
فأما الحلة الآلاف فاعلم بأنك غنيتها لا تستقبلُ

والأصمى لا يندح هذا القدر في جانبه ، لأن بعض محاسنه يفتى على
كل مساوئه .

وكان منشؤه بالبصرة ، وبها توفى سنة تسع عشرة ومائتين وبلغ ثمانيا
وثمانين سنة .

قوله : محرابي ، وما بعده في معناه ، يعني فَرَجَها . والإمام وما بعده ، يعني
به ذكره . وسمى محرابُ المسجد محراباً لأنه يباحه مَنْ ليس من أهله أن يقربه ،
إذ هو أرفع ما في المسجد ، وفلان حَرَبَ لفلان ، أي مهاذله . والقِرَاب : وعاء
من جلد يُجمل فيه السيف مع غمده . والقِرَاب : وعاء الزاد .

• • •

فقال لها القاضي : أراكما شتاً وطَبَقَةً ، وحِدَاةً وَبُنْدَقَةً ،
فاترك أيها الرجلُ اللدَدَ ، واسلُك في سَيْرِكَ الجِلْدَ .
وأما أنتِ فكُنِّي عن سِيارِهِ ، وقِرِّي إذا أتى البيتَ
مِنْ بَابِهِ .

قالت المرأة : والله ما أُسَجِّنُ عنه إسانى ، إلا إذا كسانى ،
ولا أرفع له شيراعى ، دُونَ إشباعى . فحلف أبو زيد بالمرجّات
الثلاث ، إنه لا يملك سوى أطماره الرّثاث .

فنظر القاضى فى قصصهما نظر الألعى ، وأفكر فكرة
الأودعى . ثم أقبل عليهما بوجه قد قطبه ، ومجن قد قلبه ،
وقال : ألم يكفكما التسافه فى تجالس الحكم ، والإقدام على
هذا الجرم ، حتى تراقبتما فى فُحش المُقاذعة ، إلى خُبث
المُعادعة ! وإيم الله لقد أخطأت استكما الحفرة ، ولم يصب
سمكما الشجرة ! فإن أمير المؤمنين ، أعز الله بيقائه الدين ،
نصبتى لأقضى بين الخصماء ؛ لأقضى دين الغرماء . ووَحق
نعمته أنى أحللتنى هذا المحل ، وملكتنى المقعد والحل ، لئن لم
توضعا لى جلية خطبكما ، وخبيثة خبكما ، لانددن بكما فى
الأمصار ، ولأجعلنكما عبرة لأولى الأبصار .

• • •

والله : شدة الخصومة . الجدد : الأرض الصلبة ، واللقى فى قوله : اسلك
فى سيرك الجدد ، جاءها فى الفرج لا غمها ، وفى المثل : مَنْ سَلَكَ الجدد
أَمِنَ النار .

قرئ : اسكن . البيت ، كناية عن فرجها . من باب ، يريد ألا يأخذ
الجار بالجار . وقولها : إلا إذا كسانى ، قال النهى صلى الله عليه وسلم : « اعرؤا
النساء بلزمن الجبال » .

والشراع : قَلَعَ السفينة ، وأرادت برفعه كشف ثيابها ورفع رجلها حين يظوها ، وقال أبو نواس في معناه :

ترَفَّقَ قلبلاً قد اوجعتني وألحفتَ قُرْطِي بِخَلْخَالِيَةٍ

والقُرْطُ في الأذن ، والخلخال في الرجل ، فانظر متى يجتمعان . وقال ابن الرومي في ذلك :

يا أحمد بن سميح لو بَصُرْتَ بها إذا الأكَفَ لَسَاقِبُهَا خَلَاخِيلُ
وقال البهتري :

لَمْ تَخْطُ بابَ الدُّهْلِيزِ خَارِجَةً إِلَّا وَخَلْخَالُهَا مَعَ الشَّفِيفِ^(١)
وقال ابن الرومي :

لو أن رجلي عَرَسْنَا بِدَاها^(٢) ما أخطأَتْهَا رَحْمَةٌ تَشَاهَا
قد خَلَّتْ مَرْفُوعَةً رِجْلَاهَا كَأَنَّا بَسْتَفْقِرَانِ اللَّهَ
وه أيضاً :

شَبَّخَ لَنَا يَكْفَى أَبَا حَفْصَلٍ أَقْرَنُ مِثْلَ الْأَيْلِ الْأَنْوَلِ^(٣)
تَبَيَّتْ فِي مَنْزِلِهِ نِسْوَةٌ يَلْبَسْنَ ثَوْبَ الْإِبِلِ كَالْمَنْزِلِ
يَعْلَنُ فِيهِ هَلَا صَالِحًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ إِلَى أَسْفَلِ
يَسْتَغْفِرُ النَّاسَ بِأَيْدِيهِمْ وَهَنَ يَسْتَغْفِرُونَ بِالْأَرْجُلِ

قال الأصمعي : قلت لأمة غريبة : يا جارية هل في يدك عمل ؟ قالت : لا ، ولكن في رجل .

والحُرْجَاتُ الثلاث : هي الطلاق والمُتَّقِ والمُتَّقِ إلى مكة ، وقيل : هي العلاقات الثلاث ومحرجات : فيها حَرَجٌ ، أي إثم وضيق .

(١) ديوانه ١٤١١ (٢) المرس : امرأة الرجل . (٣) الأنول : الأحمر

وحدث أبو حاتم ، عن الأصمعي عن عيسى بن عمر ، قال : اشكيتني رجل
اسرائية ، فقال له شيخ من بني نصر ، كان أصنّ مده : ألا تذكّرتُها بالخمرجات
- يعني الطلاق - قال : قاتلك الله ! فما أغرك ، وعلى الطلاق ثلاثا .

حدثنا أبو بكر محمد بن أسد الديلمي قال : سمعت أبا فتان الدارع يقول :
الطلاق الثلاث البت لازم لي ، لقد سمعت أبا عبيدة معمر بن النخعي يقول :
الطلاق الثلاث ، التبت لازم لي ، لقد سمعت أبا عمرو بن العلاء ، يقول الطلاق
الثلاث التبت لازم لي ، إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات .

كُنْ لِلْمَكَارِهِ بِالْعَزَاءِ مَقْتَعًا فَلَمَلٌ يَوْمًا لَا تَرَى مَا تَكْرَهُ
فَلَرَبَّمَا اسْتَعْرِ الْفَقْرُ فَتَنَافَسَتْ فِيهِ الْعَيْوُتُ وَإِنَّهُ لِمَوْتُهُ
وَلَرَبَّمَا خَزَنَ الْكَرِيمُ لِسَانَهُ حَفَرَ الْجَوَابَ وَإِنَّهُ لِمَقْوَتُهُ
وَلَرَبَّمَا ابْتَسَمَ الْكَرِيمُ مِنَ الْأَذَى وَفَوَّادَهُ مِنْ حَرِّهِ يَتَأَوُّهُ

قوله : أطواره الرّمات ، أي ثماره الخلقية . الألمى : المتوقد الحاضر الذّهن .
ابن الأعرابي : الألمى : الذي إذا لمع له أولُ الأسوء عرف آخره ، فيمكنه بظّنه
دون تعيينه . واللوذمي : الغيظ الذي شكّي الظريف الحديد الفؤاد . قطّبه : حبسه .
مجنّ : ترنس . وقلبه ، كناية عن إبداء الشر بعد الخير ، وقد تقدّم . التّسافه :
الإغشاش . والشتم : الجرم : الذنب . المقاذفة : المشاعة بما فحش . الثّغرة : الخفّة
في أصل المنق . خبتكما : خدامكما وغشكما . أنددن : أسمع الناس بما يخالفكما
عندي من المكروه ، ونذّبه : شتمه وأسمه القبيح . الأمصار : البلاد . عبرة :
موعظة . أولى الأبصار : أهل العقول .

فأطرقَ أبو زيدَ إطراقَ الشُّجاعِ ، ثم قال له :
سماعُ سماع :

أنا السَّروَجِيَّ وَهَذِي عِرْسِي	وَلَيْسَ كُفًّا الْبَدْرُ غَيْرُ الشَّمْسِ
وَمَا تَنَافَى أَنْشَهَا وَأَنَسَى	وَلَا تَنَافَى دِيرُهَا عَنْ قُتْنَى
وَلَا عَدَّتْ سُقَيَّائِ أَرْضَ غَزِي	لَكِنَّا مِنْذُ لِيَالٍ خَمِيسِ
نُصْبِحُ فِي ثَوْبِ الطَّوَى وَنُؤْسَى	لَا نَعْرِفُ الْمَضْغَ وَلَا التَّعَسَى
حَتَّى كَأَنَّا نَخْفُوتِ النَّفْسِ	أَشْبَاحُ مَوْتَى نُشِرُوا مِنْ رَمْسِ
فَإِنْ عَزَّ الْعَصْبُ بَرُّ وَالتَّائِسَى	وَشَفْنَا الضَّرَّ الْإِلِيمُ النَّسْ
قُمْنَا لَسَعْدِ الْجَدِّ أَوْ لِلنَّحْسِ	هَذَا الْمَقَامَ لاجْتِلَابِ فَلَيْسَ
وَالْفَقْرُ يُلْجِي الْحَرَّ حِينَ يُرْسَى	إِلَى التَّجَلَّى فِي لِبَاسِ اللَّبْسِ
فَهَذِهِ حَالِي وَهَذَا دَرْسِي	فَانْظُرْ إِلَى يَوْمِي وَسَلْ عَنْ أَمْسِي
وَأَمْرٌ بِجَبْرِى إِنْ تَشَاءَ أَوْ حَبْسِي	فَفِي يَدَيْكَ صِغَتِي وَنُكْمِي

• • •

أطرق : أمال رأسه حاكناً. الشُّجاع : الحية . سماع سماع ، أى اسمع مِنِّي ،
كُفَّ البدر : أى نظيره ، والكف : الغظير والمثل . دِيرُها : لرجلها . قُتْنَى : ذَكَرِي .
وأصل التَّيْرُ لِلنَّصَارَى ، وَالْقَسْ وَالْقِسْمِ : عالمهم وعابدهم . عَدَّتْ : جارت .
وخرجت عن طريقها . وَالسُّقْيَا : الشرب ، وهى هنا مصدر بمعنى السَّقَى .
والتَّعَسَى : شرب الحَسْوَةِ ، وأراد بالمضغ والتعسى أكل الخُبْزِ واللحم ، وَحَسَوُ
مَرَقَهُ . وَقِيلَ : الْمَضْغُ فِي الرَّخَاءِ وَالْحَسْوُ فِي الشَّدَةِ ، كاستعمالهم فيها حَسَوُ السَّخْنَةِ

وغرهما. ومز: قل. القاسي: الافتداء بالنهر، وقد تأسى تأسيًا إذا اقتدى بفعل
غيره ونصبر، وهذا باب غلبت عليه الخفساء بقولها:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَفَلْتُ نَفْسِي^(١)
وَمَا يَكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّى النَّفْسَ مِنْهُ بِالنَّاسِ

فزاد عليه ابن المعاص الرومي، في المعنى ويثنه حتى استمتعته حيث قال:

رَأَيْتُ الدَّمْعَ يَجْرَحُ نَمَّ بِأَسْوَى يَوْسَى أَوْ يَعْرُضُ أَوْ بِنَسَى^(٢)
أَبَتْ نَفْسِي الْمَلَأَ لِرِزْوَةٍ كَفَى رِزْوًا لِنَفْسِي رِزْوَةً نَفْسِي
أَنْجَزَ حُحْنَةً لِقِرَاقِ الْفِي وَقَدْ وَطَّنَهَا لِحُلُولِ رَمْسِي

فذهب في هذه الأبيات كل مذهب، ثم أراد أن يظهر ما عنده من فضل

الفة وحسن التصرف، فقال:

بِأَشْبَابِي وَأَبْنِ مَنِي شَبَابِي أَذْنَتِي أَبَامُهُ بِاتْقَضَابِ
وَمَزَّ مِنْ الشَّبَابِ مَوْسِمِ بِمَشِيبِ اللَّذَاتِ وَالْأَصْحَابِ
قُلْتُ لِمَا أَتَعَى يَمَدَّ أَسَاءَ بِمَصَابِ شَبَابِهِ بِمَصَابِ
لَيْسَ تَأْسُو كُلُّهُمْ غَيْرِي كُلُّوْنِي مَا بِهِ مَا بِهِ وَمَا بِهِ مَا بِهِ

وكرر هذا المعنى فأحسن ما شاء، وذهب فيه مذاهب أخرى، فقال:

خَلِيلِي قَدْ عَلَّمَانِي بِالْفِي وَأَنْعَمْنَا لَوْ أَنَّ نِي أَنْتَقَلُ^(٣)
النَّاسَ إِثَارِي وَإِلَّا فَا أَلَسِي وَعَيْشِكَا إِلَّا ضَلَالٌ مُضَالٌ
وَمَارَاحَةُ الرِّزْوَةِ فِي رِزْوَةٍ غَيْرِهِ أَيْحَمِلُ مِنْهُ بَعْضَ مَا يَحْتَمِلُ
كَلَّا حَامِلِي أَوْ فِي الرِّزْوَةِ مِثْقَلٌ وَلَيْسَ مَعِينًا مِثْقَلُ الظَّهِيرِ مِثْقَلُ
وَضَرَبْتُ مِنَ الظُّلْمِ الْخَفِيِّ مَكَانَهُ تَمْزِيكَ بِالرِّزْوَةِ حِينَ نَأْتِلُ

ولابن رشوق :

رَأَيْتُ التَّمَزَّى عَمَّا يَهْجُ عَلَى الْمَرْءِ سَاكِنَ أَوْصَابِهِ^(١)
وَمَا نَالَ ذُو أُسْوَةٍ سُلُوءَةً وَلَكِنْ أَنَّى الْحُزْنَ مِنْ بَابِهِ
تَفَكَّرَ فِي مِثْلِ أَرْزَائِهِ فَذَكَرَهُ مَا بِهِ مَا بِهِ

وقال ابن رشوق : أَخَذْتُهُ مِنْ قَوْلِ هَرَبِ بْنِ أَبِي رَيْمَةَ :

وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَمَزَّى مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاقِبِينَ^(٢)

وأخذه هَرَبُ بْنُ قَوْلِ مَعْنَمِ بْنِ نُورَةَ :

وَقَالُوا أَنْبِئِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ اقْبِرِي نَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالِدٍ كَادِكِ^(٣)
قُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الْأَمْسَى يَبْقَى الْبُكَاءُ دَعُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرِ مَالِكِ^(٤)

• • •

خُفُوتَ : ضَعُفَ الْفَنَسُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ ، وَخَفَّتْ خَفُوتًا : ضَعُفَ وَسَكَنَ
وَمَاتَ . وَالْأَشْبَاحُ : الْأَشْخَاصُ ، وَأَصْلُ الشَّبَحِ الشَّخْصُ تُبْصِرُهُ عَلَى بَعْدِهِ ،
فَلَا تَعْرِفُ مَا هُوَ ، وَيَقَعُ الشَّبَحُ عَلَى كُلِّ شَخْصٍ مَرَّتَيْنِ . نَشَرُوا : أَحْيَوْا .
رَضِيَ : قَبِرَ ، وَالْمَسَّ : لَصِقَ جَارِحَةً بِأُخْرَى . الْجَلْدَةُ : الْحُطَّةُ وَالنَّصِيبُ . يُرْمَى :
يُثْبِتُ وَيَقِيمُ . الْعَجَلَى : الْبُرُوزُ وَالظُّهُورُ . الْأَبْسُ : الْفَخْلُوطُ . دَرَمَى : تَوَبَّى الْخَلْقَ .

(٢) ديوانه ١٠٣ ، وفيه :

(١) التنف ١٤

• وَذُو الْقَلْبِ الْمَصَابِرِ وَلَوْ تَمَزَّى •

(٣) أمالي الغالي ٢ : ١ ، وذكر قبله :

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لَتَذَارَفِ الدُّمُوعُ وَالسَّوَانِكُ

(٤) في الأمال : • إِنَّ الشَّجَا يَبِثُ الْعَجَا • وَذَكَرَ بَعْدَهُ :

أَلَمْ تَرَ فِيمَا يَفْتَسِمُ مَا لَهُ وَتَأْوِي إِلَيْهِ مُزِمَاتُ الضَّرَائِكِ ؟

الضرائك : الفقراء السهتر الحال -

الجبر : أن تُفني الرجل من فقر ، أو تصلح عظمه من كسر ، وجبره الله : سدّ مفارقة . والنكس : بضم النون : عود المرض بعد القوة ، ونكس نكسا .

• • •

فقال له القاضي : لَيْسَ أَنْسُكَ ، وَلِتَطِبْ نَفْسُكَ ، فَقَدْ حَقَّ
كَ أَنْ تُغْفَرَ خَطِيئَتُكَ ، وَتُوفَّرَ عَطِيَّتُكَ . فثارت الزوجة عند ذلك
واستطالت ، وأشارت إلى الحاضرين وقالت :

يا أهل تبريز لَكُمْ حَاكِمٌ أَوْفَى عَلَى الْحُكَّامِ تَبْرِيزًا
مافيه مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ يَوْمَ النَّدَى فِيسْتُهُ ضِيْزِي
قصدته وَالشَّيْخُ نَبِيَّ جَنَى عُدِرَ لَهُ مَا زَالَ مَهْ—زُوزَا
فَسَرَحَ الشَّيْخَ وَقَدْ نَالَ مِنْ جَدَّوَاهِ تَخْصِيصًا وَتَعْيِيزَا
وَرَدَّنِي أَخِيْبَ مِنْ شَأْنِهِ بَرْقًا خَفَا فِي شَهْرِ تَمْوَزَا
كَأَنَّهُ لَمْ يَسْذِرْ أَتْنِي الَّتِي لَقَنْتُ ذَا الشَّيْخِ الْأَرَاكِيزَا
وَأَنْتِ إِنِ شِئْتِ غَادِرَتُهُ أَضْحُوكَةً فِي أَهْلِ تَبْرِيزَا

• • •

لَيْسَ : أي ليرجع . تُوفَّر : تسكر . ثارت : ظهرت ، وأفشت سرّها .
واستطالت : جرحت بلسانها ، وأعلنت كلامها . أوفى : أشرف عليهم وزاد .
تبريزا : ظهورا وسبقًا . ضييزي : غير مستعوبة ، فيها بحس وقصان ، وقد ضاز
الحاكم ، إذا جار ، وضازه بضييزه ضييزًا ، إذا قصه ومعه حقه . ويعكى أن مزيدًا
المدني - ويكنى أبا إسحاق - صلى يوما ، فلما فرغ من صلاته قالت امرأته : اللهم

أَشْرَكَنِي فِي دُعَائِهِ ، فَقَالَ مُزِيدُ الْهَمِّ أَصْلَابِي ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : أَمَّا قَلِي هَذَا فَلَا ، فَقَالَ :
بِأَسْرَاطِلَةٍ ، تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضَبْرِي .

قوله والشَيْخُ : منصوب على المفعول معه . ابْنِي : نطلب . الْغَدَى :
السكر . وَجَعَى الْعُودُ : ما يجي من نمره ، وأرادت كرم القاضي . مازال
مهزوزاً ، أي مازال القاصدون يهزّون عودَه فيساقط عليهم جفاه ، فعلى مازال
مهزوزاً ، أي مطلوب منه العطايا . جَدَّوَاهُ : عطاباه . تخصمها : ترفها . تمييزاً :
تعييناً ، وقد تخصم الرجل : تشبه بالخواص ، ونعين : نشته بالأعيان . شائم :
ناظر للبرق . خَفِيَ : لمع . تموز : يوليه بالسريانية ، وهو أشدّ الشهور حرّاً .
لفنت : فهمت وحفظت . خادرت : تركته . أضحكة : يضحك به من رآه .

• • •

قَالَ : فَلَمَّا رَأَى الْقَاضِي اجْتِرَاءَ جَنَانِهِمَا ، وَانْصِلَاتَ لِسَانِهِمَا ، هَلَمْ
أَنَّهُ قَدْ مَنِيَ مِنْهُمَا بِالذَّاءِ الْعِيَاءِ ، وَالذَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ ؛ وَأَنَّهُ مَتَى مَنَعَ أَحَدَ
الزَّوْجَيْنِ ، وَصَرَفَ الْآخَرَ صِفَرَ الْيَدَيْنِ ، كَانَ كَمَنْ قَضَى الدِّينَ
بِالدِّينِ ، أَوْ صَلَّى الْمَرْبَ رَكْعَتَيْنِ . فَطَلَسَمَ وَطَرَسَمَ ، وَآخَرَ نَطَمَ
وَبَرَطَمَ ، وَهَمَّهَمَ وَغَنَمَمَ ، ثُمَّ التَفَتَ يَمْنَةً وَشَامَةً وَتَمَلَّلَ كَأَبَةٍ
وَنَدَامَةٍ ، وَأَخَذَ يَذُمُّ الْقَضَاءَ وَمَتَاعِيَهُ ، وَيُعَدِّدُ شَوَائِبَهُ وَنَوَائِبَهُ ، وَيُقَنِّدُ
طَالِبَهُ وَخَاطِبَهُ . ثُمَّ تَنَفَّسَ كَمَا يَتَنَفَّسُ الْحَرِيبُ ، وَانْتَحَبَ حَتَّى كَادَ
يَفْضَحُهُ التَّحِيْبُ ، وَقَالَ : إِنَّ هَذَا الشَّيْءَ عَجِيبٌ ! أَرَشَقُ فِي مَوْفٍ
يَسْتَمِينُ ! أَلْزَمُ فِي قَضِيَّةٍ يَمْرَمِينُ ! أَلَطِيقُ أَنْ أَرْضِيَ الْخَصْمَيْنِ ،
وَمِنْ أَيْنَ وَمِنْ أَيْنَ !

• • •

اجزاء : إقدام ونشجع جنائهما : قلبهما ، يريد أنهما لم يهاباه . انصلات
لسانها : خروجه بالكلام وطاقته بالشر ، وانصلت السيف : تسلل من غده
وخرج . مئى : بلى . الداء العياء : الذى يعى الطبيب . والداهية : كل أمر
فظيع لا يطاق . الدهياء : مهالقة وتأكيد لعض الداهية ، أى الداهية الشديدة .
منح : إعطاء . صفر : فارغ . ومن قفى الدين بالدين ، فكأنه ما قضا وأنشدوا :
إذا كنت تقضى الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن كان غرماً على غرم

تعملل : توجع وتقلب . كآبة : حزن وهم . شرائب : ما بكره ويحفظ
به . نوائبه : نوازله . يفتد : يُخطئ . الحريب : الحزون المألوب ماله ، وقد
خرّبه ، إذا سلبه « فعل » بمعنى « مفعول » . انتحب : بكى . يفضحه : يشهره .
أرشق : أرمى ، وأرشق جملة السهام تُرمى بمجموعة ، وقال لبيد^(١) .

فرميت للقوم رشقاً صائباً ليس بالطنش ولا بالفتل

وإذا وقمت السهام بمجموعة عند الفرض سميت رشقاً . القضية : القضاء .
والحكومة . المرم والمرامة واحد .

ثم قطف إلى حاجبه ، المنفذ لما ربه ، وقال : ما هذا يوم حُكم
وقضاء ، وفصل وإمضاء ؛ هذا يوم الاعتيام ، هذا يوم الاعتزام ،
هذا يوم البخران ، هذا يوم الحشران ، هذا يوم عصيب ، هذا
يوم تُصاب فيه ولا تُصيب ؛ فأرخني من هذين المذارين ، واقطع
لسانهم بدينارين . ثم فرق الأصحاب ، وأغلق الباب ، وأشيع

(١) ديوانه ١٩٤ ، والرشق ، بكسر الراء : أن تُرمى سهام كثيرة دفعة واحدة .

أَنَّهُ يَوْمٌ مَذْمُومٌ ، وَأَنَّ الْقَاضِيَ فِيهِ مَهْمُومٌ ؛ لِثَلَاثِ خَصُومٍ .
 قَالَ : فَأَمَّنَ الْحَاجِبُ عَلَى دُعَائِهِ ، وَتَبَاكَى لِبُكَائِهِ ثُمَّ تَقَدَّ أَبَا زَيْدٍ
 وَهَرَسَهُ الْمُثَقَلَيْنِ ، وَقَالَ : أَشْهَدُ إِتَّكُمَا لِأَخْيَلِ الْمُثَقَلَيْنِ ؛ وَلَكِنْ
 احْتِرِمَا مَجَالِسَ الْحُكَّامِ ، وَاجْتَنِبَا فِيهَا فُحْشَ الْكَلَامِ ؛ فَمَا كُلُّ
 قَاضٍ قَاضٍ تَبْرِيزٍ ، وَلَا كُلُّ وَقْتٍ تُسْمَعُ الْأَرَاجِيزُ ، فَقَالَ لَهُ :
 مِثْلُكَ مَنْ حَجَبَ ، وَشُكْرُكَ قَدْ وَجَبَ ، وَنَهْضَا وَقَدْ حَظِيَا بِدِينَارَيْنِ ،
 وَأَصْلِيَا قَلْبَ الْقَاضِي تَارَيْنِ .

* * *

مَآرِبُهُ حَوَائِجُهُ . الْبُحْرَانُ : كَالْيَوْمِ السَّابِعِ مِنَ الْمَرَضِ ، وَالْبُحْرَانُ عِنْدَ
 الْأَطْبَاءِ : مَدَافِعُهُ عَظِيمَةٌ تَقَعُ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالْعِلَّةِ ، وَبَحَرَ الرَّجُلِ بَحْرًا ، إِذَا اجْتَهَدَ فِي
 الْعَدُوِّ طَالِبًا أَوْ مَطْلُوبًا ، فَانْفُطَحَ وَضَعُفٌ . وَرَجُلٌ بِحْرٌ : مَسْلُولٌ ذَاهِبٌ الْقَهْمُ .
 عَصِيبٌ : شَدِيدٌ . الْمَذَارِينِ : الْكَثِيرِينَ الْكَلَامِ بِلَا فَائِدَةٍ . اقْطَعَ لِسَانَهُمَا ،
 أَيْ صِلَهُمَا حَتَّى يَنْقُطَعَ بِالْذِينَ كَلَامُهُمَا ، وَهَذَا الْفَرْقُ الَّذِي هُوَ قَطْعُ الْإِسَانِ
 بِالصَّلَةِ قَدْ نَطَقَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ مِنْ
 نَفْلِ حُنَيْنٍ ، مِائَةَ مِائَةٍ ، وَأَعْطَى الْعَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ أَبَاعِرَ ، فَسَخَطَهَا وَقَالَ :

أَنْجَمْتُ نَهْجِي وَتَهَبَ الْمُجْنِبُ بَيْنَ عُمَيْيَةٍ وَالْأَفْرَعِ^(١)
 وَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ بِفَوْقَانِ مِرْدَاسٍ فِي عَجْمٍ
 وَمَا أَنَا دُونَ أَمْرٍ مِنْهُمَا وَمَنْ يُخَفِّضِ الْيَوْمَ لَمْ يُرْفَعْ

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ » . فَأَعْطِيَ حَتَّى رَضِيَ وَقَدْ جَاءَ فِي

التوادرنى حكاية ليل الأختيلة حين قال الجعاج : يا غلام اذهب إلى فلان ، فقل له بقطع لسانها ، فأمر بإحضار الجعاج ، فقالت : تسكتك أمك ! إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصِّلَة ، وهى لفظة مستعملة عند مَنْ له أمرٌ ونهى .

قوله : أَمَّن ، قال : آمين ، ومعناه الرغبة فى الإجابة . تباكى : اسعمل الهكاه . الثَّقَلَيْنِ : الإنسان والجن ، والواحد ثَقْلٌ وَثَقُلَ كَثُلَ وَمِثْلَ ، وأصله ما يُحْمَلُ من الشيء الثَقِيل ، فثَقِيلُ لهما : ثَقَلَان ، لأنهما كالثَّقَلِ على الأرض . والفحش فى القول كالفاحشة فى الفعل . نهضا : تقدما . شكرك قد وجب : يقال : وَجَبَ البَيْعُ والْحَقُّ ، معناه وقع ، ومنه قوله تعالى : (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)^(١) أى وقعت على الأرض وسقطت . ووجب الحائط : سقط ، ووجب قلبه : فزع وخفق . حَظِيًّا : سَيِّدا . أصليا : أَوْقَدا والصفا به .

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله : « لَقِيتُ مِنْهَا عَرَقَ الْقَرِيبَةِ » ، هذا مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يَلْقَى شِدَّةَ
مِنْ الْأَمْرِ الَّذِي يُزَاوِلُهُ ، كَمَا أَنَّ حَامِلَ الْقَرِيبَةِ يَلْقَى جَهْدًا حَتَّى يَفْرَقَ .
وقوله : « جَعَلْتَهُ دَبْرَ أَذُنِي » ، بمعنى طَرَحْتُهُ ، وهو كَقَوْلِهِ نَعَالِي :
(فَتَبَذُّوه وَرَاءَ ظَهْرِهِمْ) .

وقوله : « أَكْذَبُ مِنْ سَجَاحٍ » ، بمعنى أَلْقَى تَنْبَأْتُ فِي هَذَا مُسْتَهْلَةً
لِلْكَذَابِ ، وَسَارَتْ إِلَيْهِ لَتُنَازَرَهُ وَتُخْتَبَرُهُ ثُمَّ آمَنَتْ بِهِ ، وَوَحِبَتْ نَفْسَهَا لَهُ
وَهَذَا الْأَسْمُ ، مَبْنِيٌّ عَلَى الْكُسْرِ ، مِثْلُ حَدَّامٍ وَقَطَامٍ ، لِكُونِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ
لِلْمَدَوَّلَةِ ، وَاشْتِقَاقِهِ مِنَ السَّجَاحَةِ ، وَهِيَ الشَّهْوَةُ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ : مَلَكَتْ
فَأَسْجَحَ .

وقولها : « أَكْذَبُ مِنْ أَبِي ثَمَامَةَ » ، هَذِهِ كُنْيَةُ مُسْتَهْلَةِ الْكَذَابِ ، وَكَانَ
تَنْبَأُ بِالْإِمَامَةِ . وَتُخْرِقُ بِهَا ، إِلَى أَنَّ سَارَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَتَلَهُ .
وقوله : « لَا نَعِيمَ عَوْنُكَ » . الْعَوْنُ : الْحَالُ ، وَالْعَوْنُ أَيْضًا الذِّكْرُ ،
وَيُدْعَى الْبَنَى عَلَى أَهْلِهِ فَيُقَالُ لَهُ : « نَعِيمَ عَوْنُكَ » .

وقوله : « يَا دِفَارَ يَا خَجَارَ » . هَذَانِ الْأَسْمَانُ مَعْدُولَانِ مِنْ دَافِرَةٍ وَطَاجِرَةٍ ،
وَالدَّفَرُ : الْفَتَنُ ؛ وَبِهِ تُجَمِّعُ الدَّفَنَاءُ أَمْ دَفَرٌ ؛ وَكُلٌّ مَأْتِيٌّ بِصِفَةِ غَالِبَةٍ ، ثُمَّ عُدِلَ
بِهَا إِلَى « نَعَالٍ » ، بُنِيَ عَلَى الْكُسْرِ عِنْدَ الْفَدَاءِ ، كَقَوْلِهِ : يَا لَكَاعٍ بِأَخْبَاطٍ ،

يَا دَفَارِ بِاَجَارٍ ، وَلَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الدَّاءِ إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشَّعْرِ ،
كَقَوْلِ الْخَطِيئَةِ :

أَطُوفُ مَا أَطُوفُ نَمِ آوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لَسْكَامٍ

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « أَتَحَقُّ مِنْ رِجْلَةٍ » ، فَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ الْحِمِضِ تَنْبُتُ فِي
جَارِي السَّيْلِ فَهَجَرُفُهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهَا : « الْأُمُّ مِنْ مَادِرٍ » ، فَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ ؛
كَانَ اتَّخَذَ حَوْضًا لِسَقْيِ إِبِلِهِ ، فَلَمَّا رَوَيْتُ سَلَحَ فِيهِ ، وَمَدَّرَهُ بِسَلَحِهِ ؛ لثَلَا
يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهَا : « أَشَامُ مِنْ قَاشِرٍ » ؛ فَإِنَّهُ فَعْلٌ كَانَ فِي قَبَائِلِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ
مُهَاجَةَ بْنِ نَعْمٍ ، مَا طَرَقَ لِإِبِلًا إِلَّا مَا نَت . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ الْعَامُ الْمَجْدِبُ ، وَتُسَمَّى
قَاشِرًا لِقَشْرِهِ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ النَّهَاتِ .

وَأَمَّا قَوْلُهَا : « أَجْبِنُ مِنْ صَافِرٍ » ، فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِهِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ :
عَنَى بِهِ كُلَّ مَا يَصْفَرُّ مِنَ الطَّيْرِ ، وَخَصَّنَ الْبُلْبُنَ لِكَثْرَةِ مَا يَتَّقِيهِ مِنْ جَوَارِحِ
الْجَوِّ وَمَصَائِدِ الْأَرْضِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ طَائِرٌ بَيْنِيَّةٌ ؛ إِذَا جَنَّهُ الْهَيْلَ تَمَلَّقَ بِيَعُضِ
الْأَغْصَانِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَصْفَرُّ طَوْلَ لَيْلَتِهِ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَنَامَ فَيُؤْخَذَ . وَقِيلَ :
إِنَّهُ الَّذِي يَصْفَرُّ بِالرَّأَةِ لِيَبْدُوَ وَهُوَ يَجِبُنْ وَقْتُ صَفَرِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَظْهَرَ عَلَى أَمْرِهِ .
وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِي التَّمَثُّلِ الْمَصْفُورُ بِدٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَنْذِرُ بِالْعَفْيفِ إِهْرَبُ ،
فَقَلَى هَذَا الْقَوْلَ فَاعِلٌ هُنَا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أَيْ
مَدْفُوقٍ وَكَقَوْلِهِمْ : رَاحِلَةٌ بِمَعْنَى مَرْحُومَةٍ ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ ، وَقَدْ جَاءَ
« مَفْعُولٌ » بِمَعْنَى « فَاعِلٌ » ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حِجَابًا مَسْفُورًا ﴾ ، أَيْ سَاتِرًا .

وكفوه تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾

وأما قوله : « أَطْلَيْشُ مِنْ طَامِر » ، فالمراد به البرغوث ؛ وبسبب طامر ابن طامر ؛ لكثرة وثوبه .

وأما قول القاضى : « أَرَاكُمْ شَنَا وَطَبَقَةً ، وَحِدَاةً وَبُذْقَةً » ، فإنه أراد به أن كلاً منكما كفء لصاحبه وقاوم له . ولكل من المثلين تفسير مختلف فيه . أما شَنٌّ وطَبَقَةٌ ؛ فإن العلماء مختلفون في معنى قولهم : « وافق شَنٌّ طَبَقَةً » ، فقال الآكثرون : إنهما قَبِيلَتَان ؛ فشنٌّ هو ابن أفضى بن دُهمي ابن جَدِيلة بن أسد بن رَبِيعَةَ بن نزار . وطَبَقَةٌ حَيٌّ من إباد ؛ وكانت طَبَقَةٌ لا تَطَاقُ ، فأوقعت بها شَنٌّ ، فانقضت منها .

وقال بعضهم : كان شَنٌّ رجلاً من دُهاة العرب ، وكان الزَّيْمُ نفسه .
الْأَبْرُوجُ إِلَّا بِامْرَأَةٍ تَلَامِيهِ ، فكان محبوب البلاد في ارتياد طلبته ، فصاحبه رجلٌ في بعض أسفاره ، فلما أخذ منهما السَّيْرَ ، قال له شَنٌّ : أَنَحْمِلُ أَمْ أَحْمَلُ ؟ فقال له الرجل : يا جاهل وهل يحمل الزَّاكِبُ الزَّاكِبُ ! فأمسك وساراً حتى أتيا على زرع ، فقال له شَنٌّ : أَرَى هَذَا الزَّرْعَ أَكِلَ أَمْ لَا ؟ فقال له : يا جاهل ، أما تراه في سبيله ! فأمسك إلى أن استقهما جَنَازَةً ، فقال له شَنٌّ : أَرَى صَاحِبَهَا حَيًّا أَمْ لَا ؟ فقال : ما رأيتُ أَجْهَلَ مِنْكَ ، أترام سَحَلُوا إِلَى الْقَبْرِ حَيًّا ! ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل ، فصار به إلى منزله ، وكانت له بنت تسمى طَبَقَةً ، فأخذ يُطَرِّفُهَا بِحَدِيثِ رَفِيقِهِ ، فقالت له : ما نطق إلا بالصواب ، ولا أسفهم منك إلا مما يستفهم عن مثله ذَوُو الْأَلْبَابِ . أما قوله : أَنَحْمِلُ أَمْ أَحْمَلُ ، فإنه أراد : أَعِدُّنِي أَمْ أَحْدِثْكَ ، حتى قطع الطريق بالحديث . وأما قوله : أَرَى هَذَا الزَّرْعَ أَكِلَ أَمْ لَا ؟ فإنه أراد : هل استسلف أربابه عنده

أم لا ؟ وأما استفهامه من حياة صاحب الجنابة ، فإنه أراد به : أخلف عَقْبًا يَحْيَا ذكره به أم لا . فلما خرج إلى الرجل حَدَّثَهُ بِأَوَّلِ ابْنِهِ كَلَامَهُ ، فَحَطَّ بِهَا إِلَيْهِ ، فَرَوَّجَهُ إِيَّاهَا ، فَلَمَّا سَارَ بِهَا إِلَى قَوْمِهِ وَخَبَرُوا مَا فِيهَا مِنَ الدَّعَاءِ وَالْفِطْنَةِ قَالُوا : وَافَقَ شَنْ طَبَقَةً ، فَسَارَ مِثْلًا .

وَحُكِيَ مِنَ الْأَصْمَعِيِّ ، سئل عن تفسير هذا المثل فقال : أُخْبِرْتُ أَنَّ الشَّنَّ وعاء من آدم كان قد اسْتَشَنَّ ، فَلَمَّا اتَّخَذَ لَهُ غَطَاءً وَاقَهُ ، ضَرَبَ فِيهِ هَذَا الْمَثْلَ . وَأَمَّا حَدَاةُ وَبُنْدُقَةٌ ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي الْمَثْلِ الْمَضْرُوبِ لِمَنْ يَفْزَعُ بَعْدَ وَهْ أَوْ يُبَيِّلُ بِنَظَرِهِ : حَدَا حَادًا أَوْ وَرَاءَكَ بُنْدُقَةٌ ؛ وَكَانَ الْأَصْلُ حَدَاةُ بِإِثْبَاتِ الْهَاءِ ، فَرَحِمَ فِي الدَّعَاءِ وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي الْمُرَادِ بِهِمَا ، فَقِيلَ : الْحَدَاةُ هِيَ الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ ، وَبُنْدُقَةُ الرَّاحِي . وَقِيلَ : إِنَّهُمَا قَبِيلَتَانِ مِنْ سَمَةِ الْعَشِيرَةِ ، فَأَغَارَتْ حَدَاةُ - وَكَانَتْ تَنْزِلُ بِالْكُوفَةِ - عَلَى بُنْدُقَةٍ ، وَكَانَتْ تَنْزِلُ بِالْمِينِ ، فَقَالَتْ مِنْهُمْ ، نَمَّ كَرْتُ بُنْدُقَةٍ عَلَى حَدَاةٍ فَأَمَحَتْ عَلَيْهِمَ .

وَرَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْمَثْلَ : حَدَا حَدًا ، غَيْرَ مَهْمُوزٍ ، عَلَى مِثَالِ عَصَا وَقَفَاءٍ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ اسْمُ الْقَبِيلَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « أَخْطَأْتُ اسْتَكْمَا الْحَفْرَةَ » ؛ فَإِنَّهُ مِثْلُ يُضْرَبُ لِمَنْ يُخْطِئُ فِي مَقْصِدِهِ وَيَضَعُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « طَلَسَ وَطَرَسَ » ، فَعَنَى طَلَسَ كَرِهَ وَجْهَهُ ، وَمَعْنَى طَرَسَ أَطْرَقَ . وَقَوْلُهُ : « آخَرَنَطَمَ وَبَرَطَمَ » أَيْ غَضِبَ وَقَطَّبَ وَجْهَهُ .

وقيل : معنى آخَرَنَطَمَ غَضِبَ مَعَ تَكْبَرٍ . وَمَعْنَى بَرَطَمَ غَضِبَ مَعَ تَعَبَسٍ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « مَهْمٌ وَغَمٌّ » أَيْ لَمْ يَبَيِّنِ الْكَلَامَ .

ثم الجزء الرابع من كتاب شرح المقامات للشربشى ويليه الجزء الخامس وأوله شرح للقامة الحادية والأربعون .

فهرس المقامات

صفحة

المقامة الحادية والثلاثون الرملية . تتضمن وعظ أبي زيد للحجاج
في حال مسيرهم ، وكونه حج في ذلك العام ماشياً . ٣٥ - ٣

المقامة الثانية والثلاثون الطيبية أو الحربية . تتضمن أن أبا زيد
قام فيها بمائة مسألة فقهية ملفزة . ٣٦ - ١٠٤

المقامة الثالثة والثلاثون التنليسية ، تتضمن أن أبا زيد به لقوة
وقام في المسجد مكدياً . ١٠٥ - ١٢٢

المقامة الرابعة والثلاثون الزيدية ، تتضمن أن أبا زيد باع ولده
في صفة غلام واشتراه الحارث . ١٢٣ - ١٦٤

المقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية ، تتضمن أن أبا زيد رب
بكرا وطلب ما يحرمها به ، وكفى بذلك عن الحر . ١٦٥ - ١٩٢

المقامة السادسة والثلاثون اللطية ، تتضمن أن أبا زيد
بالمقايضة أي بما يماثلها من الكلام . ١٩٣ - ٢٢١

المقامة السابعة والثلاثون الصمدية ، تتضمن مخاصمة أبي زيد عند
القاضي مع ابنه ينسبه إلى العفوق . ٢٢٢ - ٢٥٣

المقامة الثامنة والثلاثون المروية ، تتضمن كون أبي زيد دخل
مكدياً عند الوالي فلم يجبه وتعريضه له بذلك . ٢٥٤ - ٢٨٨

المقامة التاسعة والثلاثون العمانية والصحرارية ، تتضمن ركوب
أبي زيد البحر ، وأنه كتب عزيمة الطاق للعامل فوضت حملها . ٢٨٩ - ٣١٩

صفحة

المقامة الأربعون الشيرازية ، تتضمن نخاضم أبي زيد وزوجته
عند القاضي وأخذها منه دينارين . ٢٢٠ - ٢٢٣

امتدراك

وقع خطأ في صفحة ١٦٥ في عنوان المقامة ، والصواب : « المقامة الخامسة
والثلاثون الشيرازية » .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٦- ٤	عما قيل في الأوطان
١٤- ٧	ذكر مكة ومعالها
٢٣- ٢١	ذكر الرائيين وما قيل فيهم
٣١- ٢٨	عما قيل في المناق من اشعر
٦١- ٤٥	حقبه العرب وفتواه
٦٨ -٦١	اللاحن والمعارض
٧٩- ٧٢	ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم
٨٢٠ ٨١	عما قيل في وصف القلم
٨٥- ٨٢	ذكر مدح الشعراء لشعر
٩٧- ٨٩	ترجة الإمام الشافعي
١٠٤- ٩٨	فصل في زيارة قبر الرسول عليه السلام
١٠٩-١٠٦	عما قيل في أداء الصلاة لوقتها وما جاء في تركها
١١ ١٠٩	ذكر مدينة تقيس
١١٥-١١٣	من كلام الأعراب
١٣٣-١٣٠	ذكر الفلمان وأخبار عشاقهم
١٤٢-١٣٨	ذكر المرجى وإيراد بعض شعره
١٤٣، ١٤٢	فصل في التضمين
١٤٧-١٤٣	خبر للنضر بن شميل مع المأمون
١٤٧	حكاية أبي حنيفة والإسكاف

١٤٩-١٤٧	من حكايات الجوارى والقلان
١٦٢-١٥٩	قصة يوسف عليه السلام
١٦٤-١٦٣	حما جاء من الشعر على أخبار يوسف عليه السلام
١٧٤-١٧٢	ذكر مسألة نخبوة
١٨١-١٧٦	وإد البسات
١٩٠-١٨٥	حكايات وأشعار حول الخمر
١٩٢، ١٩١	عما قيل في ذم القناء ومدحه
١٩٤، ١٩٣	ذكر ملطمة
١٩٨، ١٩٧	عما قيل في الودعة بين الشعراء
٢٠٤-٢٠٢	الخرباء وما ورد فيها من التومر
٢٠٦-٢٠٤	قصة سليمان في الحرث
٢٠٨-٢٠٦	من وصف الشعراء للخمر
٢٢١-٢١٧	فصل في تفسير الأحاجي
٢٢٧-٢٢٥	ذكر مناقب سلمان الفارسي
٢٣١-٢٢٩	ذم العتوق
٢٣٦، ٢٣٥	بين أبي تمام وعبد الصمد بن العفل
٢٣٨-٢٣٦	عما قيل في ذم السؤال
٢٤٣، ٢٤١	فضل المال
٢٥٨-٢٥٧	ذكر مرو
٢٦١-٢٥٨	المياقة والزجر
٢٦٦-٢٦٣	من غرر للدائح
٢٧٢-٢٧٠	الذكر الحسن

صفحة	
٢٧٦، ٢٧٥	مدح الكرم وذم البخل
٢٧٩-٢٧٦	مما قيل في الشيب
٢٨٤-٢٨٢	مما قيل في طول الليل
٢٨٨، ٢٨٧	فصل في مدح الأدب
٢٩١، ٢٩٠	مما قيل في المذار
٢٩١	ذكر حمار
٢٩٧، ٢٩٦	ذكر الطوقان
٣١٢، ٣١١	ذكر أوبس القرني
٣١٣	ذكر الأمير ديس
٣٢٧-٣٢٤	قصة زواج مسيامة بسجاح
٣٣٠-٣٢٧	قصة تخامم أبي الأسود مع امرأته
٣٣٤-٣٣٢	زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد
٣٤٢-٣٣٤	بوران بنت الحسن بن سهل وزواجها بالمأمون
٣٤٥-٣٤٢	ذكر بلقيس وعرشها
٣٤٧-٣٤٥	ذكر رابعة العدوية
٣٤٩-٣٤٧	ذكر خندف
٣٥٦-٣٤٩	ذكر الخنساء
٣٧٣-٣٥٨	ذكر أبي دلامة
٣٧٨-٣٧٥	ترجمة الحسن البصري
٣٨٢، ٣٧٨	ترجمة الشعبي
٣٨٨-٣٨٢	ذكر الخليل بن أحمد
٣٩٤، ٣٨٩	ذكر جرير

٣٩٩-٣٩٤	ذكر قس بن ساعدة الإلادي
٤٠٠، ٣٩٩	ذكر عبد الحميد السكاني
٤٠٥-٤٠٠	ذكر أبي عمرو بن الملاء
٤٠٦، ٤٠٥	ذكر مناقب الأصمعي
٤١٦-٤٠٦	مجلس للأصمعي عند الرشيد

